تفسير القرآن العظيم

المسمّى

أولى ما قيل في آيات التنزيل

□ تفسير القرآن العظيم المسمى أولى ما قيل في آيات التنزيل
تأليف : رشيد الخطيب الموصلي
اعتنى به : مجد أحمد مكي
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م
جميع الحقوق محفوظة باتفاق وعقد ©
قياس القطع : ١٧ × ٢٤
الرقم المعياري الدولي : ISBN : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٤٥٦
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢١٩/ ١/ ٢٠١٤)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمّان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

الدّراسات المنشورة لا تعبّر بالضرُورة عن وجهة نظر الناشر

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال أو رفعه على شبكة الإنترنت دون إذن خطي سابق من الناشر. حقوق الملكية الفكرية هي حقوق خاصّة شرعًا وقانونًا، وطبقًا لقرار مَجمع الفقه الإسلامي في دورته الخامسة فإنّ حقوق التأليف والاختراع أو الابتكار مَصُونة شرعًا، ولأصحابها حقّ التصرُّف فيها، فلا يجوز الاعتداء عليها.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without written permission from the publisher.

تفسير القرآن العظيم
المسمّى
أوضح ما قيل في آيات التنزيل

تأليف العلّامة الشّيخ
رشيد الخطيب الموصلي
١٣٠٣ - ١٤٠٠هـ

المجلّد الثّالث
تفسير سورة النّساء إلى نهاية سورة الأعراف

اعتنى به وقدّم له
محمد أحمد مكّي

أروقة

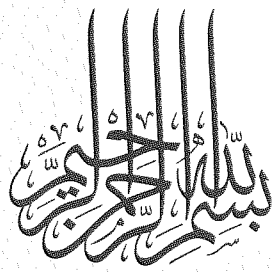
بسم الله الرحمن الرحيم



وهي مئة وسبعون وخمس أو ست أو سبع آيات في العدّ، علىٰ خلاف في فاصلتين.

وهي مدنية وإن اختلف في آية منها أنها نزلت في مكة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]؛ لأنَّ ما عليه المحقِّقون: أنَّ المدنيَّ ما نَزَلَ بعد الهجرة حيث اتُّخذت المدينة عاصمة الإسلام، ولا عبرة بموضع النزول.

فحكم ما نزل بمكة عام الفتح، أو عام حجَّة الوداع، كحكم ما نزل في الحديبية وبدر وغير ذلك من المواضع التي كان يخرج إليها النبيُّ ﷺ لغزو أو نُسُك، علىٰ عزم العودة إلىٰ المدينة، فهي مدنية.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[1]، افتتح السورة بالأمر بالتقوىٰ حَمْلاً علىٰ التَّمسُّك بما يأتي فيها من الأحكام. وبما أنَّ كثيراً من هذه الأحكام

---

(١) تبيِّن الآية أنَّ هذا البشر المنتشر في الأرض من الذكور والإناث المختلف المواطن والأجناس والألسنة والألوان والغرائز والميول، يرجع كله إلىٰ أب واحد وأم واحدة، فالبشر كله أسرة واحدة، أبوهم آدم والأم حواء. وحق علىٰ أبناء الأسرة الواحدة أن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ ولا يتنافروا علىٰ الإثم والعدوان. ولذا أعاد الله الأمر بتقواه مقروناً بمراعاة حقوق الأرحام، ومذكِّراً إياه بما يكون منه من الالتجاء إلىٰ الله في الشدائد والملمَّات، فالواجبُ عليه تقواه وعبادته وحده دون سواه. كما أنه حافز قويٌّ إلىٰ امتثال ما جاء في السورة من أحكام الضعيفين: اليتامىٰ والنساء.

وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، هذه العبارة يُعبِّر بها القرآن علىٰ تنويع الإنسان إلىٰ ذكر وأنثىٰ بحسب الحكمة، ضمَّن فيها كلمة ﴿خَلَقَ﴾ معنىٰ: كثَّر، وعطف عليه ﴿خَلَقَ﴾ الثانية السبب علىٰ السبب، ويجوز عَوْدُ ضمير ﴿مِنْهَا﴾ إلىٰ ضمير «كُم» باعتبار الأمة، وضمير ﴿مِنْهُمَا﴾ إلىٰ مطلق الزوجين، والله أعلم. (المؤلف).

يتعلَّق بتنظيم العلاقة بين الزوجين أتىٰ بجملة الصِّلة هذه، لإثارة الشعور بالعطف، والحثِّ علىٰ حُسْن العشرة وتنظيم الصلات بينهما. وقد عُنِيَت السورة بتركيز الأمة داخلاً وخارجاً، فذكرت كثيراً من أحكام النساء وتنظيم الأسرة لتركيزها من الداخل، وعُنيت بمعالجة أمر دفاع الأعداء لتركيزها من الخارج.

وقال الأستاذ الإمام: افتتح سبحانه السورة بتذكير الناس المخاطَبين بأنهم من نفس واحدة، فكان هذا تمهيداً وبراعةَ مَطْلع لما في السورة من أحكام القرابة بالنَّسب والمصاهرة، وما يتعلَّق بذلك من أحكام الأنكحة والمواريث[1].

ثم قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، قال أبو مسلم: خَلَقَه من جنسها فكان مِثلَها، وذلك من مقْتضيات الحكمة في نظام التناسل. والذي يظهر لي أنَّ في الآية إلماعاً إلىٰ اقتضاء التآلف وتنظيم العلاقات بين الزوجين بحكم هذه الخِلْقة. ويجوز أن يكون المراد من قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ التَّمنُّن والتَّنبيه إلىٰ عَظَمة القدرة والحكمة في كمال نظام التناسل بسائر أسبابه، إبقاءً للنوع الإنساني. فالمعنىٰ: خَلَق من الجنس ذكراً وأنثىٰ ليتمَّ التناسل. ولذلك قال: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ أي: من مطلق الزوجين ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾، وعلىٰ تقدير أنَّ المراد بالنفس الواحدة آدم، يكون المراد بالرجال الكثيرة والنساء: أولاده وأحفاده.

وقال الأستاذ الإمام ما معناه: نكَّر ﴿رِجَالًا﴾ ﴿وَنِسَاءً﴾ وأكَّدهما بقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ علىٰ طريقة الاكتفاء، إشارةً إلىٰ كثرة الأنواع، وإلىٰ أنه ليس المراد بالتثنية في قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ آدم وحواء، بل كلَّ زوجين[2].

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٢٦٤).

(٢) المصدر السابق (٤: ٢٧١).

أقول: ولا سيما ما صار منهما عشيرة أو قبيلة. والزوجان وحدة واحدة؛ لأنَّ كلاً منهما مُتَمِّمٌ للآخر، وقد أشار سبحانه بمُوجبات هذه الوحدة إلىٰ دواعي الحُنُوِّ والعطف والشَّفقة والرحمة بين بني الإنسان، ولا سيما بين الزوجين.

وفي قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكريرٌ للأمر بالتقوىٰ، وتذكيرٌ لوجه آخر من مُوجبات الامتثال، وهو الإشعار برهبته سبحانه. فإنَّ سؤال بعضهم بعضاً بالله تعالىٰ بأن يقول: أسألك بالله، وأنشدك الله، علىٰ سبيل الاستعطاف مسبوكاً علىٰ التَّخويف بالله، يقتضي الاتِّقاء من مخالفة أوامره ونواهيه.

ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾، فقرن اتِّقاء الأرحام باتِّقاء الله للحَمْل علىٰ مزيد الاهتمام بها.

ومحصل الآية: أنَّ التساؤل به يُؤْذن بالرهبة منه، ووجوب الطاعة والإحسان. وكذلك أمر الرَّحِم في هذا الشأن، فاستثار وشيجة[1] الرحم التي تجمع بين الناس ذكوراً وإناثاً، وتجعلهم وحدة واحدة.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيها من وصايا، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[2]، أي: مُشْرفاً علىٰ أعمالكم. وفي هذه الفاصلة كثير من الحضِّ علىٰ الامتثال، فإنَّ من يشعر بأنَّ الله مُشْرِفٌ علىٰ أعماله، يخافه ويتقيه.

وقد جعل هذا تمهيداً لما يأتي من الأحكام، كحكم اليتيم والمرأة. أي: فإن لم تجمعكم بهما رَحِمٌ خاصَّة، فرَحِمٌ عامة، فاتَّقوا الله واتَّقوها.

---

(١) الوشيجة والواشجة: الرَّحِمُ المُشْتبكةُ المتَّصلةُ «لسان العرب» (وشج).

(٢) بدأ سبحانه السورة بما يوقظ الشعور بالقُربىٰ العامة والنَّسب العام في بني الإنسان، وبوجوب مراعاة هذا الرحم، بالعطف والحنان، وبالتوادِّ والتكافل، وبمراعاة الحقوق والعدل والإنصاف، يحملهم بذلك علىٰ ما يأتي في تضاعيف هذه السورة من الأحكام الاجتماعية، والقواعد الإنسانية، ويُحذِّرهم بتقوىٰ الله عن مخالفة ذلك. ثم شرع في تفصيل تلك الأحكام. (المؤلف).

ثم شرع في تفصيل ذلك التمهيد، بذكر بعض مواضع الاتِّقاء، فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ أي: لا تبدلوا الرديء من أموالكم بالجيِّد من أموالهم، وتخصيص هذه المعاملة بالنَّهي؛ لخروجها مَخْرَج العادة، حيث كانوا يعملون هذا في أموال الأيتام، لا لإباحة ما عداها.

ومثلُ هذا قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾، وإنما عدَّىٰ الفعل بـ«إلىٰ» لتضمُّنه معنىٰ الضم، بصورة الأخذ والاستيلاء عليها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية).

وقد ذكر صورتين للتصرُّف السَّيِّئ في أموال اليتامىٰ، ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ أي: إثماً عظيماً.

ثمَّ ربط حكم المعاملة مع اليتامىٰ بحكم الأنكحة الشاملة لهنَّ ولغيرهنَّ، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر بما يشمله وغيرَه، علىٰ طريقة قاعدة تشريعيَّة عامة، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، وجعل الآية بحسب السِّياق طريقاً للخلاص من تخوُّف الوقوع في ظلم اليتيمات حين التزوُّج بهنَّ، وضمَّنها الرخْصة في تعدُّد الزوجات، وانتهىٰ بالأمر الأول إلىٰ الأمر الثاني، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: لا تعاملوهُنَّ بالعدل إذا تزوَّجتُموهُنَّ استخفافاً بحقوقهنَّ لأنهُنَّ رُبِّينَ عندكم، فلا تَتَزوَّجوا بهنَّ، إذ قد جَعَل الله لكم مندوحةً عن ذلك، بما أباحه لكم وَوَسَّع عليكم في نظام الزواج، ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ الرشيدات ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾[1]

---

(١) تضمَّنت هذه الآية: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ الرخصة في تعدّد الزوجات، وعلَّقت عليه الزجر عن جَوْر اليتامىٰ اللاتي تحت أمرهم وفي حَوْزتهم. وفحواه: إنَّ لكم في الرخصة بتعدُّد الزوجات مُتَّسعاً عن استغلال اليتامىٰ =

واتركوا التَّزوُّج بيَتَاماكُم هذه إنْ خِفْتُم ألَّا تُقْسِطُوا مَعَهُنَّ، حَذَراً من ذلك.

فهذه الآية بمقتضىٰ السِّياق حَلٌّ لمشكلة الخوف من عدم الإقْساط، وبمقتضىٰ نظمها، تقريرٌ لقاعدة تَعدُّد الزوجات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وحاصل معناها: وإنْ خفتم أنْ لا تقسطوا في اليتامىٰ لو تزوَّجتموهُنَّ، فانكحوا من غيرهنَّ ما طاب لكم من النساء مثنىٰ وثلاث ورباع.

وعن عروة رضي الله عنه: «أنه سأل خالَته عائشةَ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها عن هذه الآية، فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون شريكة في ماله فلا يُنكِحُها غيرَه، كراهية أن يشركه أحد في ماله، فنُهوا عن ذلك»[١].

أقول: تريد أنه لا يتزوّجها إلا رغبةً في مالها. ولا شك أن مثل هذا الزواج لا يُنتظر فيه العدل وحُسْن العشرة والوفاء.

وفي رواية عنها رضي الله عنها: فيتزوّجها علىٰ مالها ويُسيء صحبتها[٢].

وقال الأستاذ الإمام: كأنه يقول: إذا أردتم التزوُّج باليتيمة، وخفتم أن تُسهِّلَ عليكم الزوجيَّة أن تأكلوا أموالَها، فاتركوا التزوُّج بها، وانكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات مثنىٰ وثلاث ورباع[٣]، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟﴾ فيما بينهنَّ أيضاً ولو في أقلِّ الأعداد المذكورة كما خفتم ألا تعدلوا في حقِّ اليتامىٰ، ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ ولا تزيدوا عليها،

= اللاتي في قبضتكم، علىٰ الوجه الذي تريدونه في الزواج بهنّ، وهو الطمع في مالهنَّ لا الرغبة بهنّ، فيجرُّ ذلك إلىٰ سوء معاملتهن والجوْر عليهن. فاتركوا مثل هذا الزواج، لأن لكم في الرخصة بتعدُّد الزوجات متَّسعاً عنه ومَنْجاة من وَرْطاته. (المؤلف).

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤٥٧٤)، ومسلم (٣٠١٨).

(٢) رواه البخاري (٥٠٩٨).

(٣) تفسير «المنار» (٤: ٢٨٣).

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ من السَّراري، أو اقتصروا عليهنّ، فإنه أحرىٰ أن لا تَجُوروا عليهنَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ أي: الاقتصار علىٰ الزوجة الواحدة أقرب أن لا تجوروا.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: لئلا تكثر عائلتكم، ويشتدّ عليكم العيش. فتكون الفقرة للترغيب بترك تعدُّد الزوجات، والاقتصار علىٰ الواحدة، لمن لا يأمن من نفسه الجوْر، أو العجز عن إعالة العيال. والله أعلم.

والظاهر من هذه الآية: أنَّ إباحة تعدُّد الزوجات تكون عند الحاجة، ومشروطة بالثقة في إقامة العدل بينهنَّ، والأمن من الجَوْر عليهنَّ، في المبيت والطعام والكسوة والسكن وحُسْن العشرة. فالمراد: العدل في الحقوق، لا في المَيْل القلبي، وإنما جاء ذلك في الآية الآتية (١٢٩).

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾.

ثم تمَّم بيان حكم الأنكحة، فقال: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ أي: مهورهنَّ ﴿نِحْلَةً﴾ أي: عطيَّةً وهِبةً، غيرَ قابلة للاسترداد، وليست عِوَضاً عن شيء؛ إذ ليس المهور أثماناً تُملك بها الرقاب. وهذا تكريمٌ للمرأة ورفعٌ لمستواها، حتىٰ إنها لو سمحت ببعضه فلا بأس، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي: غير مُخْبَتَات بما يَضْطرهنَّ إلىٰ السماح به من جانبكم، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾ أي: لا إثم فيه ولا

عقاب. وأما إذا كان ذلك لا عن طيب نفس فهو الرديء الخبيث، والنِّحْلة: مفرد النِّحَل، استعارها للصَدُقات تنويهاً بشأنها.

ثم علَّقَ علىٰ قوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ وقولِه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾؛ بهذا الحكم العام المتمِّم للموضوع المالي بطريقة تشريعيَّة عامة، تشملها وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك أحياناً، فإنه يتم الموضوع، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾، قَوَامُ الأمر وقيامه: نظامه وعماده وما يقوم به. أي: جعل بها قوام أموركم ومعايشكم، فوصفها بهذا الوصف للتنبيه علىٰ موقعها الحيوي، وعلىٰ أنَّ الاهتمام بحفظها من عَبَث أيدي السُّفهاء ضروري.

والسفيه: من لا يُحْسن التَّصرُّف في ماله لِصِغَرٍ أو خَبَلٍ أو طيشٍ أو تبذير. وقد قالوا: السَّفَهُ: طَيْشٌ في الشَّخص يبعثه علىٰ التصرُّف في ماله خلافاً لمصلحته، مع عدم اختلال عقله. فمنعه الشارع عن التَّصرُّف بماله صيانةً له من الضياع. ومن معنىٰ الآية: أعطوا كلَّ يتيم مالَه إذا بلغ، وكلَّ امرأة صداقَها إذا كانت رشيدة. أما إذا كان أحدهما سفيهاً، لا يُحسن التَّصرُّف في ماله، فيجب أن تحفظوه له حتىٰ يرشد.

وليس هذا الحكم خاصاً باليتيم والمرأة، ولكنه عام لكلِّ من لا يُحْسِنُ التصرُّف في ماله، كما تدلُّ عليه الصيغة، فهو تعقيبٌ للحكم الخاص بقاعدة عامة تشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

وإنما قال: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ولم يقل: (أموالهم)، مع أنَّ الخطاب للأولياء، والمال للسفهاء؛ إيماءً لوحدة المجموع، وإجراءً للوحدة بالنوع مَجْرىٰ الوحدة بالشخص، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]. كأنَّ المال شيءٌ واحد، ينتفع به نوع الإنسان علىٰ الإطلاق.

وقال الأستاذ الإمام: في هذه الجملة من الآية تحريضٌ علىٰ حفظ المال، وتعريف بقيمته، فلا يجوز للمسلم أن يُبذِّر أمواله، وكان السَّلفُ من أشدِّ الناس محافظةً علىٰ ما في أيديهم، وأعرَفِ الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال[١].

ثم بيّن سبحانه وتعالىٰ المعاملة التي يجب أن يُعامَلَ بها السفهاء بعد حَجْرهم عن المال، فقال: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾، وإنما قال: ﴿فِيهَا﴾، ولم يقل: (منها)؛ لأن المراد كما قال في «الكشاف»: اجعلوها مكاناً لرزقهم بأن تتَّجروا فيها، حتىٰ تكون نفقتهم من الأرباح[٢]، ﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥﴾ وهو الوعد الجميل، وتطييب القلب بأنَّ المال مالُه يحاول أن يحفظه له. ويشمل هذا القول أيضاً النُّصح لهم والإرشاد، والتأديب الحسن، والتهذيب المفيد.

وحاصل الكلام: أنَّ المال قوامٌ لحياة الأمة كلِّها، يجب أن يتصرَّف به صاحبُه حسب الخطة التي وضعها الله له، ومن لم يفعل حُجِرَ عليه.

وفي قوله: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ إلماعٌ إلىٰ أنَّ رؤوس الأموال لا تبقىٰ مُجَمَّدة، بل يجب استثمارها.

ثم عاد إلىٰ الأيتام، علىٰ نهج القرآن في المهم، وذكر سبحانه الشرط أو الصفة التي تستحقُّ بها الأيتام أن يُعْطَوْا أموالَهم، فقال: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اختبروهم ودرِّبوهم وثقِّفوهم علىٰ استثمار المال، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾، ومعنىٰ بلوغ النكاح: بلوغ السِّنِّ التي يكون بها المرء مستعداً لذلك، وقد قدّروا السن الخامسة عشرة فما حولها. فقد شرط لدفع مال اليتيم إليه أمرين: الأول:

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣١٤).

(٢) «الكشاف» (١: ٤٧٢)

البلوغ، والثاني: الرُّشْد في التَّصرُّف؛ من نَجَابة وحُسْن صُنع ومعرفة بصالح الأمور. أي: فإنْ آنستم منهم بعد البلوغ رُشْداً، فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فعليكم أن تستمرُّوا علىٰ الابتلاء والاختبار حتىٰ تؤنَسُوه منهم.

قال الأستاذ الإمام: إنَّ ما تقدَّم من الأمر بإيتاء اليتامىٰ أموالهم كان مجملاً. وفي هذه الآية تفصيلٌ لكيفيَّة الإيتاء ووقته. وقد اختلف العلماء في ابتلاء اليتيم كيف يكون؟ فقال بعضهم: يُعطىٰ شيئاً من المال ليتصرَّف فيه، فإنْ أحسَنَ التصرُّف كان راشداً، وإلا كان علىٰ سَفَهِه. وقال بعضهم: لا يُعطىٰ شيئاً، ولكن يُحضِرُهُ الولي المعاملات المالية ويختبره فيها[1]. والأول أصوب، لأن العلم النظري ليس كالعملي.

ثم قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ﴾، قال الأستاذ الإمام: قيّد النهي بالإسراف، وهو صَرْف مال اليتيم في غير محلِّه، ولو علىٰ اليتيم نفسه[2]. وقيّده بالبدار والمسابقة لكبر اليتيم؛ لأنَّ الوليَّ الضعيفَ الذمَّة يستعجل ببعض التصرُّفات في مال اليتيم التي له منها منفعة، لئلا تفوته إذا كبر اليتيم، وأخذ ماله. فلما كانت هاتان الحالتان من مواضع الضعف التي تعرض للإنسان، نبَّه الله سبحانه وتعالىٰ عليهما، ونهىٰ عنهما ليراقب الوليُّ ربَّه فيهما إذا عرضتا له.

أما الأكل منها بغير تلك الأحوال الخائنة، فقد ذكر حُكْمَهُ بقوله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: فمن كان منكم غنياً غير محتاج إلىٰ شيء من مال اليتيم الذي تحت ولايته، فَلْيعفَّ عن الأكل من ماله، أي: فليجعل عمله في صَوْن اليتيم وحفظِ ماله مجاناً بلا عوض؛ يبتغي به وجه الله ورضاه، ومن كان فقيراً

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣١٦).

(٢) المصدر السابق (٤: ٣١٨).

لا يستغني عن الانتفاع بشيءٍ من مال اليتيم الذي يشغل بعض وقته في تثميره وحفظه، فليأكل منه بالمعروف، وهو ما يبيحه الشرع ولا يستنكره أرباب المروءة. أي: بالصورة التي لا ينكرها أهل العُرْف ولا يعدُّونها طمعاً ولا خيانة، كالأجرة المناسبة، ومصاريف العمل الضروريَّة.

ثم ذكر سبحانه أنه يجب الإشهاد علىٰ دفع الأموال إليهم، فقال: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾، ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ دقة الصدق والأمانة في أمر أموال الأيتام، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ أي: علىٰ ما أظهرتم وأسررتم. وفي هذه الفاصلة تهديدٌ رهيبٌ في أمر الأيتام والنساء.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾.

وبعد أن ذكر أحكام أموال الأيتام، أكمل البحث ببيان أنْ لا فَرْقَ بين البنين والبنات من الأيتام في الميراث، ولكن ذكر ذلك في صورةِ قاعدةٍ عامة، علىٰ نهج القرآن في إرداف الأمر الخاصِّ بالأمر العامِّ الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). فذكر أن لا فرق بين الرجال والنساء في الميراث، خلافاً لما كان في الجاهلية من عدم توريث النساء، صغيرات كُنَّ أو كبيرات، ولا يُورِّثون البنين الصغار مطلقاً، أو مما يخصُّ الرجال، كالخيل وعُدد الحرب، فأبطل ذلك بهذا التشريع، جاعلاً للكلام

قاعدة عامة يشمل ما قبلها علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، ومالُ اليتامىٰ في الأغلب إنما يكون من الوالدين والأقربين. ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: لا فرق بين القليل من المال والكثير منه، فقد جعل الله فيه لكلِّ صنف منهما ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ أي: حقاً معيَّناً لا ينقص ولا يزيد، كما ستبيِّنه آية المواريث.

فهذه الآية في إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من هَضْم حقِّ الضعيفين؛ اليتيمِ والمرأةِ من الميراث، ذكرها حيث تهيَّأ مكانُها. وقد كان بعض الجاهلية يمنعونها من المال كلِّه، وبعضهم يمنعونها مما يخصُّ الرجال كالخيل والآلات الحربية وشبهها، لذلك جاء الحكم مقرراً بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾، دفعاً لتوهُّم اختصاص بعض الأموال ببعض الورثة.

ثم ذكر سبحانه أدباً نبيلاً يتعلَّق بقسمة هذه الأموال الموروثة بين الوارثين، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ للميِّت ممَّن ليس له حقُّ الميراث، أو أُولو القُربىٰ للوارث، ﴿وَ﴾ كذلك إذا حَضَر ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الذين لا يرثون، ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أي: من ذلك المال المقسوم شيئاً مناسباً.

قال الأستاذ الإمام: الخطابُ لمن يُقْسَمُ عليهم المال. وقد أرشدت الآية إلىٰ اعتبار أنَّ هذا المال رزقٌ ساقه الله إلىٰ الوارثين عَفْواً، بغير كسب منهم ولا سعي، فلا ينبغي أن يبخلوا به علىٰ المحتاجين من ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين، ومنهم مَنْ يكون الحرمانُ مَدْعاةَ حَسَدِه للوارث، كأقربائه غير الوارثين. وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾ فهو ما تطيبُ به نفوس هؤلاء المحتاجين عندما يأخذون ما يُعطاهم، حتىٰ لا يثقل علىٰ عزيز النفس منهم ما يأخذه، ويرضىٰ الطامع في أكثر مما

أعطي، بما أعطي. فإنَّ من الفقراء مَنْ يُظهِرُ استقلالَ ما ناله واستكثارَ ما نال سواه، فينبغي أن يُلاطَفَ مثل هذا ولا يغلظ له في القول.

ثم قال: والحكمة في الأمر بقول المعروف: أنَّ مِن عادة الناس أن يتضايقوا ويتبرَّموا من حضور ذوي القربىٰ مجلسَهم في هذه الحالة، ومن كان كارهاً لشيء تظهر كراهته في فلتات لسانه. فعلَّمنا الله تعالىٰ هذا الأدب العالي.

وقال سعيد بن جبير: إنَّ الأمر بهذا الرزق للوجوب، وهجره الناس كما هجروا العمل بآية الاستئذان عند دخول البيت.

ثم عاد سبحانه بالكلام عن الأيتام، كشأن القرآن في الموضوع المهم، فحذَّر من معاملتهم بغير الحُسْنىٰ، وسَبَك التعبير علىٰ ما يثير الشعور في ذلك، فقال: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾، والقول السديد يظهر في الإنصاف وحُسْن العشرة. فأمرهم سبحانه أن يُحسنوا معاملتهم مالياً وأدبياً، كما يحبون مثل ذلك لذريَّتهم الضعفاء لو ماتوا وتركوهم، وحذَّرهم من ترك ذلك.

وقال الأستاذ الإمام[1] في أحد رأييه: إنَّ الكلام للأوصياء والأولياء الذين يقومون[2] علىٰ اليتامىٰ. فبعد أن أوصىٰ بحفظ أموالهم وحُسْن تربيتهم بابتلائهم واختبارهم بالعمل، ليُعرَفَ رُشْدُهم، أمرهم بإحسان القول لهم أيضاً، فإنَّ اليتيم يجرحه أقلُّ قول يُهين، ولا سيما ذكر أبيه وأمِّه بسوء، وقد جرت العادة بتساهل الناس في ذلك. ويروىٰ عن مُفسِّري السلف: أنَّ الآية في ولاة اليتامىٰ؛ يأمرهم الله أن يُحسنوا

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) في تفسير «المنار»: يقولون.

معاملتهم، كما يُحبون أن يُحسن الناس معاملة ذُرِّيَّتهم الضعفاء، لو تركوهم وماتوا عنهم[١].

وقد اختار ابن جرير: أن ما قبل هذه الآية، وهو قوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ إنما هي في قسمة الوصايا، وأنَّ هذه الآية إنما هي في الذين يحضرون مُوصياً يوصي في ماله[٢]، ويكون له ذرية ضعفاء. فالله تعالىٰ يأمر هؤلاء أن يخافوا علىٰ ذرية هذا الرجل مِثلَ ما يخافون علىٰ ذُريتهم، لو تركوا ذرية ضعافاً، فلا يقولوا في الوصية ما يمكن أن يضرَّ بذرية الموصي، بل يقولوا قولاً سديداً، بأن يرغِّبوه فيما يرضون مِثلَه لأنفسهم ولذرِّيتهم من بعدهم.

وعلىٰ هذا، فحاصل معنىٰ الآية: إذا حَضَرْتَ وصيةَ ميت، فمُرْهُ بما كنتَ آمراً به نفسَك، وخَفْ علىٰ وَرثته ما كنت تخافه علىٰ ضَعَفَةِ أولادك لو تركتهم بعدك.

وقيل: هي أمر للمؤمنين كافَّة أن يتبصَّروا في أمر ذريتهم، فلا يُسرفوا في الوصيَّة، فقد كان بعضهم يُحب أن يوصي بجميع ماله، كما في حديث سعدٍ المتّفَق عليه. وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ لم يأذَنْ له بالثلث إلا بعد المراجعة المرَّة بعد المرَّة، وقال: «الثلث، والثلث كثير، لأنْ تَذَرَ أولادك أغنياء خيرٌ من أن تَذَرَهم عالةً يتكفَّفون الناس»[٣]. وعلىٰ هذا، فيكون معنىٰ الآية: ليتقوا الله في ذُرِّيَّتهم، وليقولوا في تقرير الوصيَّة قولاً سديداً، أي: قريباً من المصلحة بعيداً عن المضرَّة.

وقيل: إنَّ الآية تحذيرٌ لأرباب الأموال من أن يَتَصرَّفوا بأموالهم تصرُّفَ إسرافٍ

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٢٧).

(٢) تفسير «الطبري» (٧: ٩، ١٣).

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

يؤدِّي إلىٰ حرمان ذرِّيَّتهم من بعدهم وإيقاعهم في الفقر والفاقة، عقَّبَ بها البحثَ المالي.

أقول: ولا بُعْدَ أن تشمل كل ذلك، والله أعلم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم ختم السياق بالتهديد والتَّوعُّد لمن يأكل أموال اليتامىٰ بالباطل، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ لا أكلاً بالمعروف، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي: يأكلون ما هو سببٌ لتعذيبهم بالنار، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ فيعذّب ظاهرهم وباطنهم بهذه النار.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

ولما تضمَّن السياقُ إبطالَ ما كانت عليه الجاهلية من عدم توريث النساء، وبيَّن سبحانه أنَّ للنساء نصيباً مفروضاً كما للرجال، فصَّل ذلك النصيب ضمن بيان أحكام الميراث، علىٰ نهج القرآن من تعقيب الشيء بقاعدة تشريعيَّة عامة تشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، وعلىٰ نهجه في تتميم الموضوع إذا عرض في السياق، فقال: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي: للذكر مِثلُ نصيب أُنثَيين، ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كان الأولاد بنات ثلاثاً فما فوق ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ والِدُهُنَّ المتوفىٰ، أو والدتهنَّ، ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾.

فذكر في هذه الآية فروض الأولاد، وهم أقرب الطبقات إلىٰ الميِّت، فبيَّن أنهم

إن كانوا ذكوراً وإناثاً، فللذكر ضعف نصيب الأنثىٰ، وإن كُنَّ إناثاً فقط؛ فللواحدة النصف، ولما فوق الثنتين الثلثان، والجمهور علىٰ أن للبنتين الثلثين أيضاً كالجمع. وقال أبو مسلم: يستفاد هذا من قوله تعالىٰ: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. فإن الذكر مع الأنثىٰ الواحدة يرث الثلثين، ولذلك عطف عليه حكم الجمع والواحدة، وترك التثنية اكتفاء، وخصَّ ما فوقها بالذكر منعاً لما يرد علىٰ الوهم من تعدُّد الحصص بتعدُّد البنات. ومنهم من قاس حكمهما علىٰ الأخوات، فإنه ذكر حكمهنَّ في آخر السورة بقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، كما ترك هناك حكم الجمع من الأخوات احتباكاً مع حكم البنات هنا، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد فهم من هذا التفصيل أنَّ البنات لا يستغرق فرضهنَّ التركة، وفهم أنَّ للواحدة النصف مع قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أنَّ الولد الذكرَ إذا انفرد يأخذ التركة كلَّها، كما فهم من فحوىٰ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أنَّ الولدين أو الأكثر من الذكور تُقسَمُ التركة بينهما أو بينهم علىٰ السواء.

ثم انتقل من حكم الأولاد إلىٰ حكم الوالدين، وهم في المرتبة الثانية من مُسْتَحقِّي الأقربين الذين يتَّصلون بالميِّت بغير واسطة، فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوي الميِّت. وهذا الضمير معلوم من السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية) أي: لأبوي الميت، ويريد: أمَّه وأباه، علىٰ طريقة التغليب، ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾ فهما سواء في هذه الفريضة لا يتفاضلان كما يتفاضل الذكور والإناث من الأولاد والإخوة. وذلك لِعِظَمِ مقام الأم، وللإيماء إلىٰ وجوب احترامهما علىٰ السواء. وهذا ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: إنْ كان للميِّت ولدٌ واحد فأكثر، وما زاد علىٰ الثلث يكون لأولاده علىٰ التفصيل المتقدِّم. ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ

﴿وَلَدٌ﴾ مّـا؛ لا ولد صُلْب، ولا ولد ابن، أو ابن ابن، فنـازلاً، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فقط، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ والباقي للأب فرضاً وتعصيباً، كما هو معلوم من انحصار الإرث فيهما.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ﴾ أي: للميِّت ﴿إِخْوَةٌ﴾ ذكوراً أو إناثاً من الأبوين أو من أحدهما، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ ولا يحجبها الواحد. واختلفوا في الاثنين، وأكثر الصحابة علىٰ أنهما كالجمع. وهذا السُّدُس الذي حَجَبوها عنه هو للأب أيضاً عند وجوده، فيكون له خمسة أسداس، سدس بالفرض والباقي بالتَّعصيب، ولا شيء للإخوة لأنه يحجُبُهم، إذ يُدْلُون به، وكلُّ من يُدْلي بواسطة تحجُبه تلك الواسطة. فإن لم يكن لهم أب فهو لهم، وعليه الجمهور. أما عند ابن عباس فالسُّدُس لهم مع وجود الأب[1].

وقد اختلفوا أيضاً في حكم الأبوين مع أحد الزوجين، فالجمهور علىٰ أنَّ الزوج يأخذ نصيبه وهو النصف إنْ كان رجلاً، والربع إنْ كان أنثىٰ، ويكون الباقي للأبوين، ثلثه للأم وباقيه للأب.

وقال ابن عباس: ثلث التركة كلها للأم، ويأخذ الأب ما بقي بعد نصيب الإخوة. وقال: لا أجد في كتاب الله ثلث الباقي[2].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٧: ٤٠)، ولفظه: «عن ابن عباس: أنه دخل علىٰ عثمان رضي الله عنه فقال: لِـمَ صار الأخوان يردّان الأم إلىٰ السدس، وإنما قال الله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾، والأخوان في لسان قومك وكلام قومك ليسا بإخوة؟ فقال عثمان رحمه الله: هل أستطيع نَـقْضَ أمر كان قبلي، وتوارثه الناس، ومضىٰ في الأمصار؟».

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢: ٢٢٨) بعدما نقل هذا الأثر: وفي صحة هذا الأثر نظر، فإن شُعْبة هذا تكلَّم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافُه.

(٢) رواه الدارمي في «سننه» (٢٨٧٦).

ثم بيَّن تعالىٰ أن حكم هذا الميراث إنما يكون ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ﴾ إذا ﴿يُوصِي بِهَآ﴾ الميتُ ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ يكون عليه. فيُؤدَّىٰ الدَّيْن إن كان، وتُنفَّذُ الوصيَّة إنْ أوصىٰ من المال قبل إخراج أنصباء الورثة. وما بقي يُقْسَم عليهم بحسب التفصيل السابق. وعطفُ الدين علىٰ الوصية بـ﴿أَوۡ﴾ دون الواو؛ لا لمنع الجمع، ولكن للإيذان بأنهما متساويان في الوجوب.

ولما كانت العقول لا تهتدي إلىٰ حكمة تلك التقديرات والأنصباء، وربما يتأثَّر الإنسان بوضعيَّة وحادثة خاصَّة، فيعتقد أنَّ القسمة لو وقعت علىٰ غير هذا الوجه كان أنفع وأصلح، سيما وقد كانت العرب في جاهليَّتها لا تورث إلا الرجال الأقوياء دون الضعفاء والصبيان والنساء؛ استناداً علىٰ أنَّ النفع في الأقوياء من الرجال فقط؛ لأنهم هم الذين يدافعون الأعداء، ردَّ الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ ذلك كلِّه بقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ صحيحاً، فاتَّبِعوا ما فرض الله عليكم ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فرضه عليكم وأُمرتم به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعاً لكم مما تقوم به مصالحكم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ لا يَشْرَع لكم من الأحكام إلا ما فيه المصلحة العامة والمنفعة الصحيحة.

وذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ الجملة متعلِّقة بالوصيَّة المُلْمَع إليها بآية: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ﴾، كما ذكر ذلك ابن جرير فيما تقدَّم، أي: لا تدرون أيُّ آبائكم وأبنائكم أقربُ لكم نفعاً، أَمَنْ يُوصي ببعض ماله فيمهِّد لكم طريق المثوبة في الآخرة بإمضاء وصيَّته، وذلك من أعمال البِرِّ تُباشرونه فتكونون جديرين بأن تفعلوا مثله، والخير داعيةُ الخير، أَمْ مَنْ لم يُوص بشيء فيوفر لكم عَرَض الدنيا؟ بل الله أعلم بذلك منكم، فعليكم أن تمتثلوا أمره، وتقفوا عند حدوده، ولا تتبرَّموا بإمضاء الوصيَّة وإن كَثُرت، ولا تذكروا الموصي إلا بالخير.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

ولما فرغ من بيان فرائض عمود النسب، شَرَع في بيان فرائض القرابة من السبب، فقال: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ المدخولات بهنَّ؛ إذ هُنَّ اللاتي يَتحقَّق فيهن معنىٰ الزوجيَّة. وقيل: لا يشترط أن تكون مدخولاً بها، بل يكفي مجرَّد العقد، وعليه العمل. فلكم ممَّا تركنَ النصفُ ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ مّا، منكم أو من غيركم، ذكراً كان أو أنثىٰ، واحداً كان أو أكثر، من بطنها مباشرة أو من صُلب بنيها أو بني بنيها فنازلاً؛ لأن ابن الابن كالابن. وهذا ما عليه الجمهور وبه العمل. وروي عن ابن عباس: أن ولد الولد لا يَحجُب[1].

وبعد أن ذكر فَرْضَ الزوج من زوجته عند عدم وجود الولد أو ولد الولد، ذكر فَرْضَه مع الولد أو ولد الولد، فقال: ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ

(١) ذكره الألوسي في «تفسيره» (٤: ٢٢٩).

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾، فأعاد هذا القيد مع طبقة النساء، وسيُعاد في كلِّ موضع من مواضعه أيضاً لتأكيده.

وبعد أن ذكر فريضة الزوج من زوجته، ذكر فريضة الزوجة من زوجها، فقال: ﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞ﴾ مّا، علىٰ التفصيل السابق في أولادهنّ. وإن كان للميِّت زوجتان فأكثر اشتركتا أو اشتركن فيه بالمساواة، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ﴾.

وبعد أن بيَّن أحكام الأولاد والوالدين والأزواج، وكلٌّ منهم يتَّصل مباشرة بلا واسطة، شَرَع في بيان فرائض من يتَّصل بالميت بالواسطة، فقال: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ تُورَثُ كلالة، وهو مَنْ ليس له ولدٌ وإن سفل، ولا والدٌ وإن علا، وعليه أكثر الصحابة؛ لأنَّ الكلالة لغةً: الإحاطة، ومنه الإكليل؛ لإحاطته بالرأس. وإنما سُمِّي مَنْ عدا الوالد والولد من القرابة بالكلالة؛ لأنهم كالدائرة المحيطة بالإنسان، وأما قرابة الولادة فكالشجرة أصول وفروع. ويجوز أن تكون الكلالة بمعنىٰ الضعف والإعياء؛ لأنه مُتَحقِّق فيمن لا أصول له ولا فروع.

أي: إن كان الميِّت رجلاً أو امرأةً موروثاً كلالة، ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ﴾ لأم، لأنَّ الأخوين من العَصَب قد بُيِّن حكمهما في آخر السورة تحت عنوان الكلالة أيضاً كما سيأتي، ولأن قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ﴾ يدلُّ علىٰ أنهم إنما يأخذون فرض الأم. وقد وَرَدَ هذا عن الصحابة أيضاً. وإنما لم يكن فرقٌ بين الذكر والأنثىٰ؛ لأنَّ كلاً منهما حلَّ محل أمه فأخذ نصيبها، وإذا كانوا متعدِّدين أخذوا الثلث وكانوا فيه سواء، لا فرق بين ذكرهم وأنثاهم، لما ذكرنا من العلة. وذلك ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ كما تقدَّم في نظيره.

وفي ﴿يُوصَىٰ﴾ قراءتان: فتح الصاد وكسرها[١].

ثم حذَّر عن قصد الإضرار بالوصية، فقال: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي: بتلك الوصيَّة؛ بأن يُوصي لمن ليس محتاجاً، إضراراً بالورثة. وقد حدَّد النبي ﷺ الوصيَّة الجائزة بالثلث، وقال: «والثلث كثير»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنَّ الضرار في الوصيَّة من الكبائر[٣]. وكذلك الدَّيْن إذا أقرَّ به مضرّةً للوارث. وجاء هذا القيد في إرث الكلالة لأنه مظنَّة لذلك. لأنَّ الذي ليس له ولد يتصدَّىٰ لحرمان الوارث.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يوصيكم بذلك وصيَّةً منه عزَّ وجل، فهي جديرةٌ بالإذْعان لها والعمل بموجبها، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمَصَالحكم ومنافعكم، وبنيَّات المُوصين منكم، ﴿حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ لا يسمح لكم بأن تعجلوا بعقوبة مَنْ تستاؤون منه ومضَارَّته بالوصيَّة، ولا يعجل بعقاب من لا يعمل بأوامره، ولكن يُؤخِّرهم ليومٍ تشخص فيه الأبصار، فإمهالُه من حِلمِه تعالىٰ.

ثم ختم البحث بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ

---

(١) «السبعة في القراءات» ص٢٢٨.

(٢) تقدَّم تخريجه قبل بضع صفحات.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٣١٥٧٨).

عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾، وإنما قال في ذكر أهل الجنة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وفي ذكر أهل النار: ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾؛ للإشارة إلىٰ تمتُّع أهل الجنة بالاجتماع، وأُنس بعضهم ببعض، والمترفون يُسَرُّون بمثل هذا التمتُّع، وأما الذي في النار فإنَّ له من العذاب ما يشغله عمَّن معه، فكأنه وحيد.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

ولما ذكر في الآيات المتقدِّمة الأمرَ بالإحسان إلىٰ النساء ومعاشرتهنَّ بالجميل وإعطائهن صَدُقاتهنَّ نِحْلةً وسائر حقوقهنَّ وما يتصل بهذا الباب، ضمَّ ـ إلىٰ ذلك بطريقة المقابلة في الحقوق ـ التغليظَ عليهنَّ فيما يأتينه من الفاحشة، مُبيِّناً ذلك بصورةِ حكمٍ آخر من الأحكام المتعلِّقة بالرجال والنساء من أحوال الزوجيَّة، علىٰ نهج القرآن في المقابلة وفي تتميم الأحكام وتكميلها، فقال: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡ﴾ أي: من المسلمين، ولفظ الأربعةُ يطلق علىٰ الذكور. قال الزهريُّ[1]: مضت السنّة من رسول الله ﷺ والخليفتَيْن بعده أن لا تُقبَلَ شهادةُ النساء في الحدود[2]. وكأنَّ حكمة ذلك إبعاد النساء عن مواقف الفُحش والجرائم والعقاب والتعذيب، رغبةً في أن يكُنَّ دائماً غافلات عن القبائح، لا يُفكِّرن فيها ولا يَخُضْن مع أربابها.

---

(١) هو الحافظ الفقيه، أبو بكر، محمد بن مسلم بن شهاب، الزهري القرشي، رأى عدداً من الصحابة (ت١٢٤هـ). «سير أعلام النبلاء» (٥: ٣٢٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢٨٧١٤).

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهنَّ بإتيانها. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: فاحبسوهنَّ في بيوتهنَّ وامنعوهنَّ الخروج منها، عقاباً لهنَّ، وحيلولة بينهنَّ وبين الفاحشة ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾﴾، وقد فسَّر الجمهور «السبيل» بما شرعه الله تعالىٰ بعد نزول هذه الآية من حدِّ الزنىٰ في سورة النور، ورَوَوا أنَّ النبيَّ ﷺ قال بعد ذلك: «قد جعل الله لهنَّ سبيلاً؛ الثيب: جلد مئة ورجم بالحجارة، والبكر: جلد مئة ثم نفي سنة»[١]. ثم نُسخ الجلد عن الثيِّب وبقي الرجم فقط بفعل النبي ﷺ، فإنَّه رَجَم ماعزاً ولم يجلده[٢]. وهذا الحديث مُبيِّن للسبيل لا ناسخ له، حتىٰ قال الزمخشري: إنَّ من الجائز أن يبقىٰ الإمساك في البيوت معمولاً به بعد الحد أيضاً. وقال بعضهم: بل هي منسوخة بآية النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. وقد ذكرتُ في سورة النور زيادةَ بيان عن هذا البحث، فانظر إليه.

وقال أبو مسلم: إن هذه الآية في السِّحاق، ومعنىٰ: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ﴾: امنعوهنَّ الخروج. ومعنىٰ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾: هو النكاح المُغْني عن السِّحاق. وقال الأستاذ الإمام: معناه: أن تُعرِض عن هذه الطبيعة وتترك العادة وتنساها.

أما قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾، فقد قال أبو مسلم: هذه في حقِّ اللواط. وقوله في سورة النور: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]. خاصٌّ بالزنىٰ.

وقال الأستاذ الإمام: الحق أن ما ذهب إليه أبو مسلم هو الراجح[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٥)، والترمذي (١٤٣٤)، عن عبادة بن الصامت.

(٢) رواه مسلم (١٦٩٥)، عن بريدة بن الحصيب.

(٣) أبو مسلم ينكر وقوع النسخ في القرآن، لذلك فإنه يحاول تفسير الآيات ـ التي قال الجمهور =

أما الإيذاء فقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه بالتَّعيير والضرب بالنعال[١]. وعن مجاهد وقتادة والسُّدِّي: أنه بالتعيير والتوبيخ فقط[٢]. وإنما يكون هذا الإيذاء بعد الثبوت بشهادة الأربعة. ويُكرَّر بالتكرار حتىٰ يتوبا، ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ﴾ أي: كفُّوا عن إيذائهما بالقول والفعل؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾ وإنما شَرَع العقاب لينزجر العاصي ولا يَتمادَىٰ فيما يفسده فيهلك. ولفظ: ﴿كَانَ﴾ في مثل هذا الموضع إنما هو لتحقيق وتقرير مضمون الوصف وتأكيده، ولا دلالة له علىٰ المضيّ، (كما جاء في المادة التاسعة من المقدمة السادسة).

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

ثم بيّن سبحانه وتعالىٰ شرط قَبوله للتوبة بقاعدة عامَّة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام الذي يشمله وغيره، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ التوبة التي قضىٰ الله سبحانه بقَبولها علىٰ نفسه بوَعْدِه الذي هو أثرُ كرمه وفضله، ليست إلا ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، وقالوا: المراد بالجهالة عدم التفكير في العاقبة لا عدم العلم بكونه سوءاً. والمراد من الوقت القريب: انتهاء سَوْرة تلك العاطفة والميل.

= بنَسْخها ـ بما لا تكون به منسوخة، والشيخ محمد عبده يتابعه في ذلك، وسار المؤلف سَيْرهما، وليس ذلك بسديد. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (٤: ٣٦٠).

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٨٥).

(٢) المصدر السابق (٨: ٨٤).

وفي عموم هذه الآية شرحٌ للإصلاح الذي جاء في الآية السابقة، أي: تابوا مثل هذه التوبة، فأعرضوا عنهم وكفُّوا عن عتابهم، لأنَّ الذين يتوبون مثل هذه التوبة لم تُحِطْ بهم خطيئتهم، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم الذين ﴿يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ لأنَّ السوء لم يرسخ في نفوسهم، بل كان خاطفاً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ يَضَعُ الأحكام في موضعها، كما تقتضيه الحكمة والمصلحة[1]. وهذه هي صفة التوبة في وجهها الأكمل، الذي ضمن سبحانه قبولَها فيه، ولا يلزم من ذلك أنه لا يقبل غيرَها.

ثم بيَّن الصفة العامة للتوبة التي لا يضمن قبولها، فقال: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، لأنَّ هؤلاء قد أحاطت بهم خطيئتهم، وانطبعوا علىٰ السوء، فأصبح لهم مَلَكَةً وخُلقاً.

وقال الأستاذ الإمام ما معناه: قال هنا: ﴿إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾، فبيَّن أن أحد هؤلاء يدَّعي التوبة، وإنما مَثَلُه كَمَثل رجل كان يعيث فساداً، فلما ظفرت به القوة وشعر بالجزاء استغاث وقال: لا أعود لذلك، وهو لا يلبث أن يعود إذا أفلت؛ لأنه مُتَشبِّع بالسُّوء لا ينفر منه ولا يستقبحه. ولهذا قيَّد القول بكلمة ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾، والآنيَّة تنافي الاستمرار الذي دلَّ عليه بمضارع ﴿يَتُوبُونَ﴾ في الآية السابقة. فهولاء مثل الذين ذكرهم بقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، وهذا العطفُ للمقارنة والمساواة؛ لأنَّ كليهما قد رَسَخ فيه السُّوء وانطبع عليه. ويجوز أن يُراد: الذي يندم بعد الموت علىٰ ما فعل ويطلب العودة لِيصلِحَ العملَ ـ ولا عودة ولا توبة ـ خابوا وخسروا.

وليست هذه الجملة في سياق التوبة، وإنما ذكرت للتنظير وبيان المصير. ولذلك

---

(١) تقدم التعليق علىٰ مثل هذه العبارة في سورة البقرة (٢: ٣٧٢).

قال: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ﴾ ولم يقل: (ولا للذين)، وإنما هي معطوفة على مضمون ما قبلها، باعتبار أنَّ الصنفين متساويان في السوء والبُعد عن الله، وأن لا خير لهما عند الله.

وقال بعضهم: إن المراد بالكفر هنا: الفسق، وهذا التعبير من باب التغليظ، ثم سجَّل عليهم الوعيد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ أي: في دار الجزاء.

وما رواه أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما من قوله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر»[1]، فالمراد به أنه لا ينبغي لأحد أن يقنط من رحمة الله، ويأس من قبول التوبة على الصُّورة الحقَّة التي ذكرها الله، ما دام حياً. وليس معناه: أنه لا خَوْفَ على العبد من التَّمادي في الذنوب إذا هو تاب قبل الموت بساعة. والظاهر أنَّ الآيات بيَّنت التوبة المقبولة والتوبة المردودة، وقد جاء في الحديث: «الله أفرَحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، والضالِّ الواجد، والظمآن الوارد»[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) «مسند الإمام أحمد» (٦١٦٠)، ورواه الترمذي (٣٥٣٧) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤٢٥٣)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه بهذا اللفظ ابنُ هبة الله في التوبة (٥)، وهو متفقٌ عليه بلفظ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم إذا استيقظ على بعيره قد أضلَّه بأرض فلاة»، رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧)، عن أنس.

ثم عاد إلىٰ أحكام النساء والميراث، فبيَّن حكماً للنساء جاء فيما بينهما، مدرِجاً في ذلك الأمر بالإحسان إليهنّ، والنهي عن مُضَارَّتهنَّ والعبث بحقوقهنَّ، وصدَّر الكلام بالتَّشنيع علىٰ ما كانوا عليه في الجاهلية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾.

كانت العرب تحتقر النساء، وتَعُدُّهُنَّ من قبيل المتاع، حتىٰ كان الأقربون يرثون زوجة من يموت منهم كما يرثون ماله، فَحرَّم الله هذا العمل من أعمال الجاهليَّة. وقد كانوا يَتزوَّجون مَنْ يُعْجبهم حُسْنُها، ويُزوِّجون من لا يعجبهم أو يُمسكونها حتىٰ تفتدي بما كانت ورثت، أو ما كانت أخذت من صداق، أو المجموع من هذا وذاك.

وقال بعضهم: بل معنىٰ الآية: لا يحلُّ لكم أن ترثوا أموال النساء كَرْهاً؛ بأنْ تُمسكوهن علىٰ كُره لأجل أن ترثوهنَّ.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تُضَارُّوهنَّ ولا تُضيِّقوا عليهنَّ لِيَكرهْنكم ويَضْطرون إلىٰ الافْتداء منكم ببعض ما آتيتموهنّ.

ثم استثنىٰ من ذلك حالة واحدة لجواز هذا العَضْل، فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾.

قال الأستاذ الإمام: روي عن بعض مُفسِّري السَّلف: أن الفاحشة هنا هي الزنىٰ، وعن بعضهم: أنه النشوز، وعن بعضهم: أنها الفُحْش بالقول. والصواب: عدمُ تعيينها وتخصيصها، بل تبقىٰ علىٰ إطلاقها، تشمل هذه كلَّها وغيرَها، كالسرقة مثلاً، فإنها من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس، ولكن يجب أن يُعتبر في الفاحشة المرخِّصة للعضل هذا الوَصْفُ المنصوص عليه، وهو أن تكون مبيِّنة، أي: ظاهرة فاضحة لصاحبها. وإنما شَرَطَ هذا القيد، لئلا يظلم الرجلُ المرأةَ بإصابتها الهفوةَ واللَّمَمَ، أو بمُجرَّد سوء الظن والتهم.

وإنما أبيح للرجل أن يُضيِّق علىٰ امرأته إذا أتت بالفاحشة المبيِّنة؛ لأن المرأة قد تكره الرجل وتميل إلىٰ غيره، فتؤذيه بفُحش من القول أو الفعل، ليَمَلَّها ويسأم معاشرتها، فيطلِّقَها، فتأخذَ ما كان آتاها وتتزوَّجَ آخر، تتمتَّع معه بمال الأول. وربما فعلت معه بعد ذلك كما فعلت بالأول. وإذا عَلِمَ النساءُ أنَّ العَضْلَ والتضييق بيد الرجال، ومما أُبيحَ لهم إذا هُنَّ أهنَّهم بارتكاب الفاحشة المبيِّنة، فإنَّ ذلك يكفُّهُنَّ عن ارتكابها الاحتيال بها[1].

ثم عقَّب هذا الحق الذي أعطاه للرجال، بما يُنظِّمُه تنظيماً عادلاً لا جَوْر فيه، وهو أمرُه سبحانه وتعالىٰ للرجال بحُسْن عُشرة النساء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الحكم الخاص بحكم عام يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: يجب عليكم أن تُحسنوا عشرة نسائكم، بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهنَّ بالمعروف الذي تعرفه وتألفه طباعُهُنَّ، ولا يُستنكر شرعاً ولا عرفاً ولا مروءة. فالتضييق في النفقة، والإيذاء بالقول والفعل، وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء، كلُّ ذلك ينافي العشرة بالمعروف. وفي المعاشرة معنىٰ المشاركة والمساواة، أي: عاشروهنَّ بالمعروف وليعاشرنكم كذلك. والغرض أن يكون كلٌّ منهما مَدْعاةَ سرور الآخر وسَبَبَ هنائه.

ثم أرشدهم سبحانه وتعالىٰ إلىٰ أن يَتَحمَّلوا ويصبروا علىٰ الكُرْه الطبيعي، ولا يتعجَّلوا بالفراق، فقد يأتي الخير مما يكره، فقال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ لعيب في الخُلق أو الخَلق، مما لا يعدُّ ذنباً لهنَّ، لأنَّ أمره ليس في أيديهن، أو لا يخلو عن مثله النساءُ، أو لَيْل منكم إلىٰ غيرهنَّ، فاصبروا ولا تَعْجَلوا بمُضَارتهنَّ ولا بمفارقتهن، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٣).

﴿تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ فهذا الرجاء علَّة لما دلَّ عليه السياق من جزاء الشرط، وهو فاصبروا عليهن فعسىٰ... إلخ، وأقيم مقامه علىٰ نهج القرآن، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية). ومن الخير الكثير: الأولاد النُّجباء، فرُبَّ امرأة يملُّها زوجها ويكرهها، ثم يجيئه منها ما تقرُّ به عينُه من الأولاد النُّجباء، فيعلُو قدرُها عنده. ومن الخير الكثير: أن يصلح حالها بصبره وحُسْن معاشرته، فتكون أعظم أسباب هنائه في انتظام معيشته وحُسْن خدمته. لا سيما إذا أصيب بالأمراض أو الفقر أو العوز.

وإنَّ التعليل في الآية يرشدنا إلىٰ قاعدة عامة تأتي في جميع الأشياء، لا في النساء خاصَّة، وهي أنَّ بعض ما يكرهه الإنسان يكون فيه خير له، متىٰ جاء دور ذلك الخير تظهر قيمة ذلك الشيء المكروه، وهي قاعدة عَرَف العقلاء صدقَها بالتجارب. وللتنبيه لـها قال تعالىٰ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا﴾ ولم يقل: وعسىٰ أن تكرهوا امرأة. من «المنار»[1].

وقد قالوا: إذا قَصَرَ الرجل مَيْلَه ونَظَره علىٰ زوجته دام بينهما الودُّ وحُسْنُ الحال، واطمأنَّت نفسُه علىٰ السعادة بها. أما إذا لم يَتعوَّد ذلك ولم يقيِّد نفسه بهذا القيد، تَنَغَّص عَيْشُه واحتقر محاسنَ زوجته، بحكم القرب منها؛ لأنَّ النفس المهملة تميل إلىٰ الـمُشاهَد الغريب، وتحقر الحاضر القريب، فينـتج عن ذلك من التَّعاسة ما لا يحمد عُقْباه، ولا ينتبه له صاحبه ويفطن له إلا بعد أن ينال منه السُّوء كلَّ منال. فالغضُّ عن المُشْتَهيات، ويأسُ النفوس من طلب المُسْتَحْسَنَات، يُطيِّبُ العيشَ مع الزوجة وغيرها من حالات الحياة.

---

(١) (٤: ٣٧٥).

ثم أكمل السياق وتمّم البحث بالنَّهي عن استرداد شيءٍ من المهر إذا فارقها لمجرَّد الكره الطبيعي، والرغبة والهوىٰ، وهي لم تأت بفاحشة مبيِّنة، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد التشريعية العامة إثر الأحكام الخاصَّة لتشملها وغيرها، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية). فقال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ لعدم طاقتكم الصبرَ علىٰ معاشرتها بالمعروف، وهي لم تأت بفاحشة مبينة، ﴿وَ﴾ قد ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ فذكر أعلىٰ المهور ليدخل ما دونه بالأَوْلىٰ، أي: ولو كان ما أعطيتموه لـهُنَّ من المهر مقداراً كبيراً، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ سواء كان مقبوضاً لهنَّ أو في ذمتكم.

ثم أردف النهي بالإنكار مُبيِّناً وَجْهَ القبح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ يُعظِّم ذلك ويُفظِّعُه. والمراد من البهتان هنا: الباطل.

وقال الأستاذ الإمام[1]: إنَّ ذكر إرادة الاستبدال مبنيٌّ علىٰ الغالب في مثل هذه الحالة، وليس شرطاً في هذا الحكم، فإنْ طلَّقها لا ليتزوَّج بغيرها، فلا يحلُّ له أيضاً أخذُ شيء من مالـها، كما يُعلَمُ من اشتراط الإتيان بفاحشة مبيِّنة[2]. لِحِلِّ الأخذِ لبعضِ ما آتاها، حسبما تبيَّن سابقاً.

ثم وضَّح منشأ الإنكار والتنفير من أخذ شيء من المهر، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾، وهذا تذكير بالعهد وتحسيسٌ به، وتنفيرٌ من أن يحطم هذا التَّحطيم. وفي هذا الوصف تَنْويهٌ

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٦).

بشأنه وأنه ليس كبقية العقود. ولهذا التعبير قيمتُه في الإيحاء والتَّحسيس بموجبات الحفظ والرحمة والمودة والوفاء.

قال الأستاذ الإمام: وفي التعبير بقوله: ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ إشارةٌ إلىٰ كون كل واحد من الزوجين بمنزلة جزءِ الآخر وبعضِهِ المتمِّم لوجوده[1].

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

ولما ذكر النهي عن الحالة الجاهلية، وهي إرثهم النساء كرهاً، أكمل البحث بالنهي عن حالة جاهلية أخرىٰ متَّصلةٍ بها ملابسةٍ لها، وهي نكاحُ الابن امرأةَ أبيه عندما يرثه، فقال: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وهذا الاستثناء علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأحكام التي يقمع بها رذيلة من الرذائل، بما يُؤْذن بالعفو عن عقوبة ما سلف من ذلك، فهو لبيان أنَّ ما قد مضىٰ من ذلك يغفره الله

---

(١) تفسير «المنار» (٤: ٣٧٦).

بلطفه ورحمته إن أقلع عنه صاحبه وتاب، فلا مُؤَاخَذَة علىٰ مَنْ فعل ذلك في الجاهلية وقد ماتت؛ فالاستثناء إنما هو من مؤدَّىٰ النهي وهو استحقاق الإثم علىٰ المرتكب، لا من نفس الحكم. ومثلُه الآيةُ الآتية: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فلا يجوز إبقاء نكاح من جمع بين الأختين أو نكح زوجة أبيه فيما سلف، ولكن يجب الفسخ. وقد فَسَخ رسول الله ﷺ كل ذلك عند نزول هذه الآيات.

ثم علَّل النهي بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾، والفاحشة: هي الشديدة القبح. والمقت: المبغوض عند ذوي الطباع السليمة. وبئس العمل هذا النكاح.

قال الإمام الرازي: القبح ثلاثة أصناف: عقليٌّ، وشرعيٌّ، وعاديٌّ[1]. وقد وصف الله هذا النكاح بكلِّ ذلك، فأشار إلىٰ الأول بقوله: ﴿فَٰحِشَةً﴾، وإلىٰ الثاني بقوله: ﴿وَمَقْتًا﴾، وإلىٰ الثالث بقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾.

والمراد من الآباء: ما يشمل الأجداد. والمراد من نكاحهم: مجرَّد العقد وإن لم يدخل بها الأب.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ حُرْمَةَ نكاح زوجة الأب والجد، تابع البيان عن المُحرَّمات من النساء، تَتْميماً للبحث في أحكام النساء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فإنه إذا ذكر أمراً جرىٰ في إتمام البحث عنه إذا اقْتَضَتْه الحال، إذ من البلاغة والأصول الشرعيّة أن لا يتأخَّر البيان عن وقت الحاجة. فذكر المحرَّمات من النَّسب والرضاع والمصَاهَرة؛ حفظاً لروابط شريفة لا ينبغي أن تعرض بالزواج وملابساته، إلىٰ الأضرار وانتهاك الحشمة والوقار، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ٢٢).

﴿وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح الربائب. وقولُه: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾، خرج مخرج الغالب، فلا مفهومَ مخالفةٍ له، فهي تحرم وإن لم تكن في حجر الزوج، ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ لا للذين تَتَبنَّونهم، والحليلة: الزوجة.

ثم ذكر ما يحرم بسبب عارض، فقال: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾، سواء كان بعقد نكاح أو بملك يمين. وقيل: بل هو خاصٌّ بالنكاح، فلا يجوز الجمع بين الأختين بنكاح ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، فلا مؤاخَذَة علىٰ مَنْ أسلم وقد فعله في الجاهلية إذا كانت إحدىٰ الأختين قد ماتت وقت نزول هذا التحريم. أي: فقد غفر لكم إثم ذلك إلىٰ وقت نزول الآية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ فاقطعوا ذلك ولا تعودوا لمثله.

وإنما حرَّمت الشريعة العلاقة الجنسيَّة بين الرجال والنساء الذين يتَّصلون نَسَباً وسبباً بهذا الاتِّصال القريب؛ لتكون علاقتُهم مَبْنيَّةً علىٰ الطهر والحشمة والاحترام، فضلاً عن الأضرار الفُسْلُجية في النسل والأولاد.

وفائدة استثناء ما سلف في الآيتين: الإفصاح بأنَّ الأولاد الذين كانوا في النكاحين قبل التحريم أولادٌ شرعيُّون لهم حقوقهم الشرعيَّة الكاملة. ومثلُ ذلك مَنْ كان عنده خمس نسوة قبل التحريم، ففارق إحداهن، فإنَّ أولاده منها شرعيّون.

ثم أكمل البيان عن المحرَّمات بسبب عارض، فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وهُنَّ ذوات الأزواج، يقال: أُحْصِنَت المرأة؛ إذا تزوَّجت. فلا يحلُّ نكاح ذوات الأزواج.

وإنما ذكر هذا ليستثنىٰ منه قوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ وهُنَّ المَسْبيَّات في حرب دينيَّة، إذا رأىٰ الإمام أنَّ من المصلحة أن لا تُعاد السبايا إلىٰ أزواجهَّن الكفار في دار الحرب، فعند ذلك يَنحَلُّ عَقْدُ زوجيتهن، ويكُنَّ حلالاً لكم بالشروط المعروفة في الشريعة، ومنها: أن لا يُسبىٰ معها زوجها، فإنْ سُبِيَ معها زوجها فلا تحلُّ لغيره. ومنها: الاستبراء بوضع الحامل لحملها، وحيضُ غير الحامل ثم طُهرُها.

ثم قرَّر الحكم بقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي: كتب الله عليكم تحريم هذه الأنواع كتاباً مؤكّداً، ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما عَدَا من ذكرن.

قال الأستاذ الإمام: قد يقال: إن ما ذكر هنا من المُحرَّمات مجملٌ فصَّلته السنَّة بأوسع منه، فجعلت كل ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع، وحرَّمت الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، وحرَّمت المشركة والمرتدة، وحرَّمت الجدات وإن عَلَوْن، وبنات الأولاد وإن نزلن[1].

والجواب: إنَّ بعض ما ذكر يُؤْخَذ مما تقدَّم، فإنَّ الله تعالىٰ ذكر من كلِّ صنف من المحرَّمات بعضَه، فدخل في الأمهات الجدَّات، وفي البنات بنات الأولاد... إلخ، وبعضها يُؤْخذ من آيات أخرىٰ، كتحريم المشركة والمطلقة ثلاثاً علىٰ مطلِّقها، كما في سورة البقرة. ويجوز أن يقال: إن ما ذُكر هاهنا من المحرَّمات هو من النوع الذي يكثر في الواقع، ولا يدخل في حلِّ ما وراءه ما حُرِّم بنصوص أخرىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ معناه: أُحِلَّ لكم ما وراء ذلكم، إرادةَ أن

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٧) وما ذكر من قوله: ما يحرم بالنسب يحرم بالرضاع. إشارة إلىٰ الحديث الذي رواه البخاري (٢٦٤٥)، ومسلم (١٤٤٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

تطلبوه بأموالكم، تدفعونها مهراً للزوجة أو ثمناً للأَمَة، ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ أنفسَكم ومَنْ تطلبونها بمالكم عمَّن عداكما، بداعية النَّسل، ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي: لا بداعية سفح الماء في أيٍّ كانت، إشباعاً للذة. والسِّفاح: الزنىٰ. وإنَّما حرَّمه سبحانه حفظاً للفضيلة وإبقاءً علىٰ سلامة الغريزة الجنسية وعدم تهيُّجها وتعريضها للمهالك، وحِصْناً للأنساب ولأمور أخرىٰ غير ذلك، تقتضيها الصحَّة وشرف الإنسانية.

ثم صرَّح بمضمون ما تقدَّم من وجوب المهر، فقال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والاستمتاع: الانتفاع والتَّلذُّذ. وفي الكلام التَّجوُّز بلفظ الفعل عن إرادته ومقاربته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة في أنواع المجازات في القرآن)، أي: فمن أردتم أن تستمتعوا بها في التزوج، فقدِّموا لها المهر، فذلك واجبٌ حال كون تلك الأجور ﴿فَرِيضَةً﴾ أي: حصَّة مقدَّرة مفروضة. ولا يصحُّ النكاح من دون مَهْر، فإن لم يُسمَّ في العقد وَجَبَ مهر المثل بالدخول. ولذلك يُسمَّىٰ أجراً؛ لأنه بقي كالدَّيْن. والله أعلم.

ثم رخَّص سبحانه وتعالىٰ في جواز نقص تلك الفريضة إن سُمِّيت، أو زيادتها، أو حَطِّها بالكلية، إن كان ذلك عن تَراضٍ، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾، كأن يفرضوا أولاً فيما بينهم مقداراً خاصاً للمهر، ثم بعد ذلك يَتواطؤون ويتفقون علىٰ زيادته أو نَقْصِهِ أو حَطِّه بالكلية، فلا بأس بذلك.

ثم ختم السياق بما هو كالدليل، والإلماع بالحكمة لذلك التفصيل في هذه الأحكام، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾، فيضعُ لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أنَّ فيه صلاحَ حالهم ما تمسكوا به.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم رخَّص في نكاح الإماء لمن لم يستطِع نكاحَ الحرائر لسببٍ من الأسباب، مُبيِّناً ما يجب في هذا النكاح، وما يترتَّب عليه، وما فيه من نقيصة، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ أي: غِنىً وفَضْلاً من المال والحال والمركز الاجتماعي ﴿أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وقد فسَّروا المحصنات هنا بالحرائر خاصَّة، لدليل مقابلتها بالفتيات، وهي: الإماء. والحرية عندهم كانت داعية الإحصان بمعناه العام، وهو العفاف. إذ البغاء شأنُ قِلّةٍ من الإماء عندهم، ولذلك قالت هند للنبي ﷺ عندما كان يأخذ علىٰ النساء العهد والمبايعة، وفيها: (ولا تزنين)، قالت: «أَوَتزني الحرة؟»[1]، تقول ذلك علىٰ سبيل الإنكار، لأنه غير مألوف عندهم، ولكن البيعة عامة والتشريع عام، فلا وَجْه للإنكار، وإن كان زنىٰ الحرة غير مألوف عندهم إذ ذاك. والله أعلم.

فرخَّص الله سبحانه نكاح الإماء علىٰ عِلَّاته لمن لم يستطع نكاح الحرائر، بقوله: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، فجعل هذه الرخصة بعد تعذُّر نكاح الحرائر وامتناعها عليه، لأنَّ التزوُّج بالأمة يجعل نَسْلَه مملوكاً لمولاها.

ثم مَحَا النعرة التي كانت عندهم، وهي الترفُّع عن نكاح الإماء، وعَدُّه سُبَّةً وعاراً، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم﴾، يشير إلىٰ أنَّ الإيمان قد رفع شأن الفتيات

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤٧٥٤)، عن عائشة. وقال الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤: ١٥١): في إسناده مجهولات.

المؤمنات، وساوىٰ بينهُنَّ وبين الحرائر في الدين، وهو أعلم بحقيقة هذا الإيمان ودَرَجات قوَّته وكماله، فرُبَّ أَمَةٍ أكمل إيماناً من حُرَّة، فتكون أفضل عند الله. فلا يصحُّ مع هذا أن تعدُّوا نكاح الأمة عاراً.

ثم ذكر وجهاً آخر لمَحْوِ تلك النَّعرة، فقال: ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: أنتم أيها المؤمنون أحراركم وعبيدكم إخوة في الإيمان، بعضكم من بعض. فلا ينبغي أن تعدُّوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه.

ثم ذكر ما يجب من نكاحهن، فقال: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، والمراد بالأهل: الموالي المالكون لهنَّ. فهذا هو الأمر الأول.

والأمر الثاني قوله: ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: أعطُوهُنَّ مهورهُنَّ حَسَب العرف والعادة. والتعبير بالأجور هنا دون المهور للتميُّز بين صفة ما يُعطىٰ للحرائر، وصفة ما يُعطىٰ للإماء. والله أعلم.

ثم ذكر الأمر الثالث، فقال: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾، أي: حال كونهنَّ مُتزوِّجات منكم لا مستأجرات للبغاء، جَهْراً أو سراً، كما كان الحال مع بعض الإماء في الجاهلية، فقد كان من الإماء بغايا عامة، وكان منهنَّ بغايا خاصَّة ببعض الرجال. ففرض في نكاح الإماء مِثلَ ما فرض في نكاح الحرائر مع الإحصان وتكميل النفوس بالعفَّة، لكلٍّ من الزوجين.

وبعد التأنيس في نكاح الأمة لم يُهمل الإشارة إلىٰ نقصها، وذلك ببيان الحكم التشريعي فيها المستلزم للنقص، وهو أنَّ عليها نصف ما علىٰ الحرَّة من العذاب إذا أتت بفاحشة بعد هذا الإحصان، فقال: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالتزوُّج ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي: الحرائر ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ المبيَّن في سورة النور.

والحكمة في ذلك: كَوْن الحرَّة أبعَدَ عن دَوَاعي الفاحشة، والأَمَةُ عُرْضةً لها، ضعيفةً عن مقاومتها، بضعف مركزها ونفسيَّتها، وببروزها ومخالطتها للرجال في بعض الأحوال، فرحم الشارعُ ضعفَها.

وهذه الآية من جملة الأدلة التي يستدلُّ بها المنكرون للرجم في الزنىٰ، إذ لو وَجَبَ علىٰ الحرَّة المحصنة رَجْمٌ، لزم أن يكون الواجب علىٰ الأمة نصف الرجم وذلك باطل، لأنَّ الرجم مؤدَّاه الموت فلا منصف له. ولا دليل لهم، لأنَّ الآية لا تزيد علىٰ أنَّ الأمة لا رَجْم عليها بعد الإحصان، وحكمها كما كان عليه قبل الإحصان. والله أعلم. فخالَفْنَ الحرائر في ذلك.

وبعد أن بيَّن هذا الحكمَ المُؤْذِنَ بنقص الأمة عن الحرة، ذكر شرط الرخصة في هذا النكاح، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الترخيص ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾، والعنت: المشقَّة والجهد والفساد. أي: ذلك الذي أُبيح لكم من نكاح الإماء عند العجز عن الحرائر، جائزٌ لـمن خَشِيَ علىٰ نفسه الضرر والفساد من التزام العفة ومقاومة داعية الفطرة وكبتها.

وإنَّما أخَّر هذا الشَّرط ولم يقرنه باستطاعة الطَّوْل مع أنه مُتمِّم له، لا يصحُّ نكاح الأمة إلا عند وجوده؛ لأنَّ مفتتح الآية كان مبنياً علىٰ التأنيس في هذا الأمر الذي كانوا يعدُّونه في الجاهلية عاراً وسُبَّة، وهذا الشرط المتمِّم يشير إلىٰ حِطَّة هذا النكاح، فلا يتلاءم مع التأنيس، لذلك أخَّره حتىٰ بيَّن أنَّ حكم من تأتي منهنَّ الفاحشة نصف حكم الحرة، فأشعر هذا الحكم بنقصٍ في الأمة، وحينئذ أردف الكلام بتتمَّة شرط صحَّة هذا النكاح ـ وهو خوف العَنَت ـ ليتناسق تناسقاً بلاغياً، ويتلاءم تلاؤماً منطقياً، نظراً لما قرَّر.

فدَّلت الآية علىٰ التحذير من نكاح الإماء، وأنه لا يجوز الإقدام عليه إلا عند الضرورة. والسبب في ذلك أمور: منها: أن الولد يتبع الأمَّ في الرِّقِّ للسيد، وهو أمر يوجب النقصَ في حقِّ ذلك الإنسان، وفي حقِّ ولده. ومنها: أنَّ الأَمَةَ قد تعوَّدت الوقاحة بالبروز ومخالطة الرجال. ومنها: أنَّ حقَّ المولىٰ عليها في الخدمة أعظمُ من حقِّ الزوج، فربما احتاج الزوج إليها جِدّاً، ولا يجد إليها سبيلاً، لأنها في خدمة السيد. إلىٰ غير ذلك من أسباب النقص، لذلك ختم هذه الرخصة بقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، قال الأستاذ الإمام: لما فيه من تربية الإرادة، ومَلَكة العفَّة، وتحكيم العقل علىٰ الهوىٰ[1]، ومن عدم تعريض الولد للرِّقّ، ولفساد الأخلاق بالإرث، لأنَّ في الإماء ذلةً ومَهَانةً وتبذُّلاً، وربما ورث الولد شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة[2].

ولما كانت الآيات السابقة فيها أمور كثيرة يكون الإنسان فيها عُرضة للهفوات واللَّمَم، ختمها بهذه الفاصلة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ لمن استقصىٰ جهده في إطاعة أوامر الله، فيغفر ما صَدَر عنه من اللَّمَم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

ولما كان من سُنن القرآن الحكيم تعقيبُ الأحكام الشرعيَّة بما يُبيِّن حكمها وعللها، (كما جاء في المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، عقَّب الآيات السابقة بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، واكتفىٰ بهذه الجملة، علىٰ نهج القرآن في الإيجاز، مشيراً إلىٰ

---

(١) في تفسير «المنار»: وتحكيم العقل بالهوىٰ.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢٣).

ما تضمَّنته من أنَّ في ذلك التحريم لِلمُحَرَّمات حِكَماً وفوائدَ تعود للجسد والروح والأخلاق وقواعد الاجتماع. فالله سبحانه وتعالىٰ يُريد لكم الخير العميم في بيان هذه الأحكام وإيجابها عليكم، ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ بهذا البيان ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ ممَّن أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين، وهَدَاهُم لسنن الفطرة بما أنزل عليهم من الشرائع، كما أنزل عليكم، ومنه هذه الأحكام، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: بعد أن تبتم عمَّا سلف منكم مما كان يخالف هذه الأحكام. ورمز بالتوبة إلىٰ معنىٰ الإصلاح والسعادة؛ لأنه لازِمُها. أي: ويُصْلح أحوالكم الاجتماعية والأخلاقية، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٦﴾ يضعُ الأحكام موافقةً للمصالح والمنافع، وأنتم لا تعلمون كثيراً مما يضركم.

ثم قابل بين ما يريده سبحانه وتعالىٰ لنا من النفع، وما نريده لأنفسنا من الضرر، ونسعىٰ إليه بميولنا الناشئة عن تحريف الفطرة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ والتوبة تتضمَّن الردَّ إلىٰ الصواب، أي: يُريد أن يردَّكم إلىٰ طريق الحقِّ والصواب بهذه الأنظمة، فذكر التوبة علينا من بين وجوه النفع العديدة اكتفاءً بالمهم الشامل، وذلك من أساليب القرآن. وقد تضمَّن الكلام معنىٰ الإصلاح والتثقيف والسعادة أيضاً كما في الآية السابقة، لأنَّ الإصلاح من لوازم التوبة، أو هي هو.

والمعنىٰ: أنَّ الله سبحانه يُريدُ بوَضْع أحكامه اعتِدالَ أحوالكم وإصلاحَ أوضاعكم ومحافظةَ طباعكم، ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ بميولهم الناشئة عن انحراف الفطرة، يريدون لكم ﴿أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ عن صِرَاط الفطرة فتُؤْثروا داعيةَ الشهوة الحيوانية علىٰ كلِّ داعية. فالآية تُومئ إلىٰ أنه يَجبُ علىٰ المؤمن أن يملك نفسه تجاه الشهوات، ويسير في الخطَّة التي رسمتها الشريعة فيها، لا أن تملكه نفسُه وشهواته في ذلك وينساب ويتردَّىٰ؛ إذ يستحيل أن تقومَ أُمَّةٌ يكثُر فيها مِثْل هؤلاء الأفراد الذين

يكون زمامُ عقولهم بأيدي شهواتهم، وإنما تكون الأمم الصَّالحة السعيدة بأفراد تكون زمامُ شهواتهم بأيدي عقولهم، والإنسانيَّة: الاعتدال والتوسُّط في الأقوال والأفعال، كِلا طرفي قَصْدِ الأمور ذميمٌ.

وفي صورة التعبير إشارةٌ إلىٰ أنَّ هذه الأحكام تراعي الوسط الأنفع في ذلك. فهي في الشهوات والميول، تسْلك بالناس مسلك الاعتدال، ولهذا تابع السياق بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ولا يُكلِّفكم فيما فيه مشقَّة شديدة عليكم، وراعىٰ معكم التخفيف. ومن تخفيفه: أن أباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء. ثم علَّل التخفيف بقوله: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ لا يقدر علىٰ المقاومة كثيراً، ولا يحمل ثِقَلَ التضييق، فإذا لم يَتوَقَّ ويتثبَّت، يصرعه الهوىٰ، وتغلبه الشهوات. وقد قرن سبحانه تكاليفَه بالتخفيف والتسهيل والاعتدال، ويشير عمومُ هذه الآية إلىٰ أنَّ الله تعالىٰ قد راعىٰ ذلك في وضع الأحكام، ولم يحرِّم إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة، يمكن للإنسان أن يتجنَّبها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: قال الأستاذ الإمام: كان الكلام من أول السورة إلىٰ هنا في معاملة اليتامىٰ والأقارب والنساء، ثم في معاملة سائر الناس، ومدار الكلام في تلك المعاملات علىٰ المال، حتىٰ إنه لما ذكر ما يحلُّ وما يحرم من النساء لم يُخرِج الكلامَ عن أحكام المال، فقد ذَكَرَ ما يُفرض لهنَّ، وما يجب من إيتائهنَّ أجورَهنَّ.

وبعد ذكر تلك الأنواع من الحقوق المالية، ذكر قاعدةً عامةً للتعامل المالي[١] ـ أي: علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بقاعدة عامة تشمله وغيرَه ـ، فحَرَّم التَّعدِّيَ علىٰ المال والنفس، وقرنهما بما تضمَّنه السياق من مثل ذلك في حقوق النساء وشؤونهن، فقال[٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾[٣]، وهذا الاستثناء منقطع. والمعنىٰ: لا تقصدوا إلىٰ أكل أموال الناس بالباطل، ولكن اقصدوا أن تربحوا بالتجارة الصَّادرة عن تراضٍ منكم. وتخصيصها بالذكر دون سائر أسباب الملك؛ لكونها أكثر وقوعاً، وللترغيب في التجارة لشدَّة حاجة الناس إليها. ولكون إتلاف المال سبباً يؤدِّي إلىٰ إتلاف النفس

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٣).

(٢) لما كان فيما تقدَّم من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٣]، وقوله: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ [النساء: ٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا﴾ [النساء: ٦]، وقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ﴾ [النساء: ٧]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ١٠]، وفي الوصية والمواريث، وقوله: ﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٩]، وقوله: ﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا﴾ [النساء: ٢٠]. وقوله: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]. وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم﴾ [النساء: ٢٤] الآيات، لما كان في كل تلك الآيات وجوهٌ محتملة لأكل الأموال بالإثم والعدوان والاعتداء علىٰ بني الإنسان، عقبها بهذه القاعدة العامة الشاملة لما قبلها وغيره علىٰ نهج القرآن؛ لتكون زَجْراً عن ذلك وحفظاً لتلك الأحكام. فالآية امتداد لتلك الآيات وَتَتْميمٌ لها علىٰ أسلوب القرآن. والله أعلم. (المؤلف).

(٣) خصَّ الله سبحانه وتعالىٰ التجارة بالذكر لأنها عنصرٌ اجتماعيٌّ لا غنىٰ عنه، فوق ما أنها تطبع المرء علىٰ خصال حميدة إذا سار فيها بمقتضىٰ الصدق والإخلاص، لأنها تجعل منه رجلَ كَدٍّ وعمل واقتحامِ صعاب، وتجعله ذا بصيرة نافذة وفكرة نيِّرة وعزيمة صادقة، إلىٰ غير ذلك من الأخلاق العالية، والمراس الشديد النافع. (المؤلف).

ـ حقيقةً أو حكماً ـ قرنه به، للإيماء إلىٰ ذلك. وهذا بحسب سياق الجملة الآتية ودقَّة المسلك. أما صيغتها فحكم مستقل عقَّب به الأول لتساويهما في الضرر والنتيجة.

قال البقاعي[1]: لما كان المال عديل الروح، ونهىٰ عن إتلافه بالباطل، أردفه بالنهي عن إتلاف النفس، ولكون أكثر إتلافهم لها بسبب الأموال.

أقول: يجوز أن يكون ذلك للإيذان بتساويهما في المنزلة، ويجوز أن يكون فيه زيادة تقرير لأكل الأموال بالباطل، بمعنىٰ أنَّ فيه ضرراً كبيراً بصاحب المال، وبالمجتمع كلِّه، فعبَّر عن هذا الضرر بقتل الأنفس مبالغة، أو لأنه يؤدي إلىٰ النزاع، والنزاع يؤدِّي إلىٰ القتل فعلاً، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضكم بعضاً، بإزهاق الروح أو بإتلاف المال. فتكون الجملة بحسب السياق تقريراً لما قبلها، وبحسب النظم نهياً عن قتل الأنفس بسائر أنواعه وأسبابه، واختير هذا التعبير للإشعار بالوحدة، ومثله ما تقدَّم من قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم﴾ [النساء: ٢٩]، فهو من إجْراء الوحدة بالنوع مَجْرىٰ الوحدة بالشخص، ثم خَتَم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: ومن رحمته أن أوْجَبَ عليكم هذه الأحكام المنظِّمة لشؤونكم.

ثم عقَّب علىٰ ما تقدَّم، بالتهديد للمرتكبين، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: لا يقف أمامَه حِلمُه ورحمتُه، فلا يَغْترَّ المغترون.

وبعد أن حذَّر المرتكبين وتوعَّدهم، بشَّر المُجْتنبين ووَعَدَهم، علىٰ سُنَّة القرآن في

---

(١) هو برهان الدين أو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (٨٠٩- ٨٨٥هـ)، مؤرِّخ أديب، أصلُه من البقاع في سورية، له: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» ويعرف بـ«تفسير البقاعي»، و«سر الروح»، و«أخبار الجلاد في فتح البلاد». «الأعلام» للزركلي (١: ٥٦).

المقابلة وبيان القواعد العامة، فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: في الجنَّة. ويُطلق «الكريم» علىٰ كل ممتاز من نوعه.

ونقل عن ابن عباس: إنَّ كلَّ ما عُصي الله به، فهو كبيرة[1]. وعن النبي ﷺ: «إنَّ الكبائر: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والزنىٰ، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»[2].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

ولما نهىٰ الله سبحانه المؤمنين عن أكل أموال الناس بالباطل، وعن قتل الأنفس، عقَّبه بالنَّهي عما يؤدِّي إليه من الطمع في أموال الناس والتمنِّي لها والحسد عليها، وأرشدنا إلىٰ استعمال المواهب والجد في الكسب؛ لما نرومه لأنفسنا من الخير، فهو الذي يوصلنا إلىٰ ما نتمنَّاه حسب سُنن الله في هذا الكون، ولا فرق في ذلك بين الرجال والنساء، ووصله بالسياق، فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ أي: لا فائدة بمُجرَّد

---

(١) ذكره الألوسي في «تفسيره» (٥: ١٨).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩)، عن أبي هريرة، بلفظ: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

التمنِّي والتحاسد، ولكن وَجِّهوا أنظاركم إلىٰ ما يقع تحت كسبكم حَسَب سُنَن الله الكونيَّة، فتنافسوا فيه، فإنَّ معالجة الاكتساب تُؤدِّي إلىٰ الحصول علىٰ نصيب من الكسب، للرجال فيما يخصُّهم، وللنساء فيما يخصُّهنَّ، ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أي: بطريق السعي والكسب، لا بطريق الكسل أو النهب والغصب، فإنَّ باب الله مفتوح لـمن يتمسَّك بسُنـنه في الحصول علىٰ الرزق والمال؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ فنظَّمَ الأمور من الرزق وغيره بحَسَب علمه الواسع علىٰ دساتير مُطَّردة لا تتغيَّر.

فالآية بحَسَب السياق: علَّةٌ للنهي عن هذا التمنِّي والحسد، ومن حيث الصيغة: تقريرٌ للمساواة بين الرجال والنساء في الاكتساب من فَضْل الله، وأنه أمرٌ مشروعٌ للنساء كما للرجال، وإن اختلفت طرق كسبيهما وصناعتيهما، كما يَتَساويان في الاستفادة من الميراث وإن اختلفت حِصَصُهما.

ولما كان في هذه إشارة إلىٰ القاعدة العامة في اكتساب الثروة، وهي اتِّباع الطرق الطبيعية في ذلك، انتقل من ذكر الغالب وهو الكسب، إلىٰ غير الغالب وهو الإرث، عائداً إلىٰ البحث وتقريرِ مسائله ومباحثه، رابطاً بين السياقين، ومتمِّماً لأحكام الميراث، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ﴾[1]، والموالي: من لهم الولاية علىٰ التركة. أي:

---

(١) بعد أن نهىٰ في السياق عن أكل الأموال بالباطل، ثمَّ نهىٰ الرجال والنساء عن التحاسد، قَرَنه بما قرَّر به ما سبق من قوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧] تلك الآية التي أثبت بها حقوقُ النساء في الميراث كما للرجال، ونقض بها عمل الجاهليَّة في عدم توريث النساء والولدان. فمعنىٰ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾: لكلٍّ من الرجال والنساء وراثة ووارثون، لأن الموالي هم =

لكلٍّ من الرجال الذين لهم نصيب ممَّا اكتسبوا، والنساء اللواتي لهنَّ نصيب مما اكتسبن، جعلنا موالي لهم حقّ الولاية علىٰ ما يتركون من كسبهم. وهؤلاء الموالي هم: ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالنكاح، أي: جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشي والأزواج، كما تقدَّم تفصيل ذلك في أول السورة.

فالمراد هنا بالذين عَقَدَت أيمانكم: الأزواج. وإنما أسند العقد إلىٰ الأيمان، إذ المتعارف في العقد أن يكون مصافحة باليدين اليُمْنيين. وهذا هو قول أبي مسلم، فكلُّ واحد من الزوجين يصير له حقُّ الإرث بالعقد، ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي: فأعطوا هؤلاء الموالي نصيبَهُم المفروض لهم، ولا تنقصوهم منه شيئاً.

وقيل: المراد بالذين عَقَدَت أيمانكم: مولىٰ الموالاة الذي نُسخ حكمُه بآية الأرحام، وكان يرث السدس من مال حليفه.

ويجوز أن يكون ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ وما بعده فاعلاً لـ﴿تَرَكَ﴾، والمعنىٰ: لكلٍّ من الرجال والنساء جَعَلنا موالِيَ لهم حظوظ وأنصباء ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾.

ولما كان الميراث موضعاً لطمع بعض الوارثين، ولا سيما من يكون في أيديهم

= الوارثون وصْفٌ تضمَّن المصدر علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والله أعلم.

فبيَّنت الآية وجهاً آخر من وجوه الحصول علىٰ المال، بعد أن بيَّنت الحصول عليه من طريق الكسب بالأعمال، وهو الوراثة، ثم بيَّنت مصدر هذه الوراثة ومحلَّها، وهو تَرِكة الوالدين والأقربين وما ملكت الأيمان. وقد اختلفوا في الأخير، فمنهم مَنْ رآه الزوج، ومنهم مَنْ رآه المعتق، ولا يبعد عن نهج القرآن أن يحتملهما معاً.

هذا ما أراه في تفسير الآية، والله أعلم، وعليه تكون الآيات تأديباً عن الحسد وتوجيهاً إلىٰ طلب الكسب بالأعمال، وقد يحصل علىٰ المال بالميراث. (المؤلف).

المال، لإقامة الموروث منه معهم، قال تعالىٰ بعد الأمر بإعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٣٣﴾ أي: إنه تعالىٰ رقيبٌ عليكم، حاضرٌ يشهد تصرُّفكم في أعمالكم.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ٣٥﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ ما سَبَقَ من ملابسات النكاح ومتعلقاته، علىٰ نهج القرآن في العودة وتتميم المباحث، وذكر واجبات العائلة التي أحدثها النكاح، وبيَّن النظام فيها والرباط والتأديب، فذكر رياسة الزوج وسببها وأحكام سلطته، وحالات النساء، وكيفيَّة حلِّ المنازعات الزوجيَّة، فقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]، وهذه ميزةُ تكليف أكثر مما هي ميزة تشريف، أي: يقومون بأمرهنَّ ويهتمون بحفظهنَّ ولهم الرياسة عليهنَّ، وذلك لأمرين:

---

(١) المرأة في الإسلام قسيمةُ الرجل، لها من الحقِّ ما له، وعليها ما عليه، ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوة الجلَد وبَسْطة اليد واتِّساع الحيلة، فيلي رياستها، فهو بذلك وليُّها، يُحيطها بقوته، ويذودُ عنها بدمه، وينفق عليها من كسب يده. فأما فيما سوىٰ ذلك، فهما في السرَّاء والبأساء علىٰ سواء. وتَرْكُ زمام البيت في يد المرأة وَضْعٌ للأمور في غير نصابها، وهو تحميل العبء للكاهل الضعيف. والفاء في قوله: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ للتفريع علىٰ إثبات القوامَّة للرجال، لإفادة أن علىٰ النساء إطاعتها والعمل بمقتضاها، ولبيان أحكامها سلباً وإيجاباً. (المؤلف).

أمر وَهْبيٌّ فطري، وهو تميُّز الرجال علىٰ النساء ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المزايا الفطرية والخصائص الجنسية.

وأمر كَسْبيٌّ ﴿وَ﴾ ذلك ﴿بِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ في المهور وتوابعها، والنفقات الزوجية والبيتية بأنواعها.

وملخَّص الآية: إنَّ الزوجية حياة اجتماعية تقتضي وجود رئيس يُرْجَع إليه، حين اختلاف الآراء والرَّغَبات، حتىٰ لا يعمل كلٌّ ضدَّ الآخر، فتنفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام. والرجل هو الأحقُّ بهذه الرياسة، لأنه أعلَمُ بالمصلحة، وأقدَرُ علىٰ التنفيذ، ولأنه المكلَّف بالإنفاق وبحماية المرأة وكفايتها جميع شؤونها.

والنساء تحت تأثير هذه الرياسة قسمان: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾[1] منهنَّ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ أي: مطيعاتٌ لله تعالىٰ ولأزواجهنّ، و﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ وأكبر حافز لذلك: الحياء والدين. والغيب هنا: ما يُسْتَحَىٰ من إظهاره من كلِّ ما هو خاصٌّ بأمور الزوجيَّة.

ومعنىٰ ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾: بما أراد الله حِفظَه في حالة الغيبة عن الأزواج. وقد جاء في الحديث: «خير النساء التي إذا نظرت إليها سَرَّتْك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غِبْتَ عنها حَفِظَتْكَ في مالك ونفسها»[2]، وقرأ الآية.

---

(١) يختار العاقل الأرض إذا أراد الزراعة لتُثمر ثمراً جيداً، وتنتج نتاجاً حسناً. والمرأة هي الحرث الذي يُثمر النوع الإنساني، فإذا لم يُعْنَ بها العاقل عنايته بالأرض، كانت قيمة النوع الإنساني في نظره دون قيمة محصولات الأرض. وإنسانٌ هذه عقليَّتُه يُعَدُّ لا عقل له، بل يكون بجهله هذا مثل الحيوان في الإدراك والتمييز، ويكون بسفهه في مستوىٰ البُلْهِ والمجانين، حيث يميل إلىٰ شهوته دون ذريته. (المؤلف).

(٢) رواه بهذا اللفظ أبو داود الطيالسي في «مسنده»(٢٤٤٤)، والطبري في «تفسيره» (٨: ٢٩٥)، عن أبي هريرة. =

وقال في «المنار»: إنَّ هذه العبارة من دقائق كنايات القرآن البليغة؛ تقرؤها خرائدُ العذارىٰ جهراً، ويفهَمْن ما تُومِئُ إليه مما يكون سراً، ويَصرِفُهُنَّ آخرُها إلىٰ التمادي في التفكير فيما يطَّلع عليه علام الغيوب[١].

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ هذا القسم من النساء ليس للرجال عليهنَّ شيء من سلطان التأديب، وإنما سلطانهم علىٰ القسم الثاني الذي بيَّنه وبيَّن حُكْمَه بقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾[٢] أي: خروجهنَّ عن حقوق الرجل والإفلات من رياسته، فأدِّبوهنَّ.

وقد جعل للتأديب مراتبَ ثلاثاً، وقال: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾، فلكلِّ صنفٍ من النساء ما يليق به، ويكفي في رَدْعِه.

فهناك صنف من النساء لا يُؤثِّر فيه الوعظ، ولا يكترث بالهجر؛ فأُبيح للرجال نوعٌ من التأديب المادي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة، وهو الضربُ غير المبرِّح لترجع إلىٰ صوابها. وجاء في الحديث: أن يكون هذا الضرب غير مبرِّح[٣]، بمعنىٰ: غير مُؤْذٍ ولا شائن. وهذه المراتب تكون علىٰ التَّدرُّج، ولا يكون الضرب إلا آخر المراتب، وذلك إذا لم يُفِدْها الوعظ ولا الهجر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾.

= ورواه النسائي في «سننه» (٣٢٣١)، وأحمد في «مسنده» (٧٤٢١) بلفظ: «التي تسرُّه إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه فيما يكره في نفسها وماله».

(١) تفسير «المنار» (٥: ٥٨).

(٢) المصدر السابق (٥: ٥٩).

(٣) رواه مسلم (١٤٧) (١٢١٨) من حديث جابر في حجة الوداع فقال: «فإن فعلنَ فاضربوهن ضرباً غير مبرح».

قال الأستاذ الإمام: أي: إنْ أطَعْنكُم في واحدةٍ من هذه الخصال التأديبيَّة، فلا تَبْغُوا بتجاوزها إلىٰ غيرها[١].

ثم ختم الآية بما فيه وعيدٌ لمن يَتجاوز الحد في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾، وسلطانه عليكم فوق سلطانكم علىٰ نسائكم.

وإذا لم تُفِدْ هذه المراتب التَّأديبيَّة، يركن إلىٰ المحاكمة التي فصَّلها سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾، وهذا حكمٌ من أعظم الأحكام الاجتماعية قد أهمله الحكام، وأهملته حكومات الإسلام. والخطاب مُوَجَّه للأمة وللحكام.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا في الرجل والمرأة إذا تفاسد الذي بينهما؛ أمر الله تعالىٰ أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل، ورجلاً مثله من أهل المرأة، فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حَجَبوا عنه امرأته وقسروه علىٰ النفقة، وإن كانت المرأة هي المسيئة، قسروها علىٰ زوجها ومنعوها النفقة، فإن اجتمع أمرهما علىٰ أن يُفرِّقا أو يجمعا، فأمرهما جائز[٢].

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي: فلا يشرع لكم إلا ما به صالحكم.

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ

(١) تفسير «المنار» (٥: ٦٣).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٣٢٥).

وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾.

وبعد أن ذكر أحكام الزوجين من شؤون البيت، أوصىٰ سبحانه بالإحسان إلىٰ الوالدَيْـن والأقربين والجيران وسائر مَنْ يستحق الإحسان، ليكون البيت في راحة وأمان، مُحاطاً برعاية الله سبحانه وألطافه، وصدَّر ذلك بالإحسان في عبادة الله، فإنه ملاك الأمر كلِّه، وحاملهُ علىٰ التمسُّك بالأحكام المحيطة بها سابقاً ولاحقاً، فقال[1]: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: الجار القريب منك بالنَّسب، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ أي: الجار الذي لا قرابة بينك وبينه، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما فيه قولان: الرفيق بالسفر[2]، والمنقطع إليك يرجو نفعك[3]. أقول: ولا يبعد أن يشمل الصديق. وروي عن علي رضي الله عنه: أنه المرأة[4]، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قيل: هو المنقطع في السفر، وقيل: هو بمعناه العام يشمل اللقيط والمتسوِّلين

---

(١) انظر إلىٰ عناية الدين الإسلامي بأمر المجتمع، جماعاتٍ وأفراداً، وما يشرع لسلامته وتماسك بنائه من شرائع وبيانات. والباء في قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ للإلصاق، فهي تُؤْذن بوجوب الإحسان إليهما دون انفصام، وفي ذلك من الدلالة علىٰ تأكيد الإحسان إليهما والعناية بهما ما ليس في كلمة (إلىٰ). وفي هذه الآية إتمام لآداب البيت والجيران، وتفصيل لأنواع الإحسان. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ٣٤١).

(٣) المصدر السابق (٨: ٣٤٤).

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٣٠٢).

في الطرقات أيضاً، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[1] من فتياتكم وفتيانكم، فأحسِنوا إليهم، ولا تُكَلِّفوهم ما لا يطيقون.

وقد تضمَّنت هذه الآية ما يسمُّونه اليوم بالضمان الاجتماعي، وهو الإنسانية الكاملة المطبوعة علىٰ العطف والإحسان، ولا شك أنَّ ذلك يكفل للأمة العزَّة والسيادة والبقاء عليهما.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بهذه الوصايا، وهو سَلْبُ الرضا عمَّن يخالفها، وتشمل غير المؤمنين بالأَوْلىٰ، وقد وَصَفه بأخصِّ صفاته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ فيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ هذا الصنف لا يقوم بهذه الواجبات. فالجملة بحسب السياق، وعيدٌ لمن لم يتمسَّك بهذه الأوامر من أهل الكتاب والمشركين الذين منعهم حرصُهم علىٰ مراكزهم وثرواتهم من الإيمان برسول الله ﷺ، عنونه بهذا العنوان لأنه مصدر المخالفة لهذه الوصايا التي هي من الإسلام، وبحسب الصيغة: نهيٌ عن خُلق ممقوت عند الله، والويل لمن لا يُحبه الله. و(المختال) هو: المتكبر الذي تظهر آثار الكِبْر في حركاته. و(الفَخُور) هو: الذي تظهر آثار الكِبْر في أقواله. وهذا الصنف لا يرىٰ عليه حقاً؛ لا لخالق ولا لمخلوق. وليس من الكِبْر أن يكون الإنسان وقوراً في غير غِلْظَة ولا احتقار للغير.

ثم تابع الكلام عن أولئك المعارضين المخالفين، ببيان صفاتهم القبيحة التي هي مصدر المخالفة لهذه الوصايا والشريعة التي جاءت بها، إيذاناً للمؤمنين أن يتجنَّبوها، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ﴾ أن يشاركوهم ﴿بِٱلْبُخْلِ[2]

---

(١) جمعت هذه الآية من أنواع الإحسان ما لو عمل بها الناس؛ لعمَّ فيهم الخير والوئام، وهو غاية ما تصبوا إليه الإنسانية من إقرار السلام، ونشر المحبة بين الناس. (المؤلف).

(٢) إذا بذل غنيٌّ من الأغنياء الطيبين شيئاً من ماله في غاية سامية وغرض شريف، حاول كثير =

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ كي لا ينفقوا منه علىٰ من ذكر، فتوعَّدهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ أي: هيَّأنا لهم بكفرهم وكِبْرهم وبُخلهم وعدم شكرهم، عذاباً ذا إهانة، أي: يجمع بين الألم والإهانة. وإنما قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (لهم)، للإيذان بأنَّ هذه الأخلاق والأعمال إنما تكون من الكَفُور، لا من المؤمن الشَّكُور.

ثم ذكر صنفاً آخر من هؤلاء المخالفين المختالين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾، فهم يفضِّلون ما عند الناس من المدح والثناء علىٰ ما عند الله من الثواب والجزاء.

ثم بيَّن مصدر هذه الصفات فيهم، فقال: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ أي: إنَّ الحامل لأولئك المُخْتالين علىٰ هذه الصفات، وعلىٰ المخالفة للوصايا السابقة والدِّين الذي جاء بها، إنما هو وسوسة الشيطان ومصاحبة الأشرار.

والآية تشير إلىٰ أنَّ التقصير في هذا الحقِّ شأن المتكبِّرين المُخْتالين؛ لأنهم لا يرون في الحياة إلا حقوقَ أنفسهم، ومنازعَ شهواتهم، ولا يَرَوْنَ حقاً عليهم لغيرهم، خالقاً كان أو مخلوقاً. وقد صنَّفهم إلىٰ صنفين: بخلاء ومرائين، فالبخيلُ يمنع الحقَّ الذي عليه، والمرائي ينفق لا يريد وَجْهَ الله ومجرَّد الإحسان، ولكن يقصد أن يجلب لنفسه الفخرَ الكاذب. أما الذي ينفق لوجه الله فهو يحصل علىٰ هذا الجزاء، ويأتيه مدح الناس من

= من أبناء صنفه الأغنياء التنديد به والمؤامرة ضدَّه، لتحطيم هدفه السامي، وإحباط مَسْعَاه المحمود، أو أن يُوسوسوا له بكلِّ خبيثة لترك هدفه، والإعراض عن مُبْتغاه، كي لا ينحطوا به، ويتميَّز عنهم في مسعاه. ومن ذلك أن يقولوا: إن هذه المبالغ لا تصل إلىٰ الهدف المسمَّىٰ، وإنما يأكلها الجامعون. (المؤلف).

دون إثم، وبصورة أعلىٰ وأفضل. وقد سجَّل القرآن أنَّ هذين الخلقين ليسا طبيعيين في الإنسان، ولكنهما ناشئان من إفساد الطبيعة المنبعث فيهم من قرناء السوء.

قال الأستاذ الإمام: وفي الآية تنبيهٌ إلىٰ تأثير قُـرَناء المرء في سيرته، وما ينبغي من اختيار القرين الصالح، وتَعْريضٌ بتنفير أولئك الأنصار من مقارنة أولئك اليهود الذين كانوا ينهونهم عن الإنـفاق في سبيل الله، ويُغْرونَـهُم بالحذر من الفقر وسوء المغبَّة.

﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

ثم وبَّخهم علىٰ الجهل بمكان المنفعة والمصلحة، وعلىٰ الاعتقاد في الشيء بخلاف ما هو عليه، مُتْبِعاً النقدَ بالإرشاد، واصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، فرَعَـوْا هذه النعمة وتحسّـسوا بأنها من الله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ فهلَّا اكـتفوا بعلم الله بهم، ولم يلتمسوا رئاءَ الناس بذلك الإنفاق. ويجوز أن تكون الفاصلة لمجرَّد الوعد والوعيد.

والتعبير بـ«ماذا عليهم» أبلغُ تعبير في التوبيخ علىٰ التفريط بما كان من السهل عليهم ـ لو رشدوا ـ أن يجمعوا بين منفعة الدنيا وسعادة الأخرىٰ؛ لأن الناس حينئذ يذكرونهم ويقدرونهم أكثر ممَّا إذا راءَوْا بأعمالهم وفاخروا بها؛ لأنهم لو أخلصوا العمل لله لَـمَا فاتتهم منفعة الدنيا ولفازوا بسعادة العُقْبَىٰ.

ثم أردف التوبيخ بهذا البيان، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من الأعمال الخالصة له حتىٰ لو كانت بمقدار ذرَّة من الهباء، ولا يعاقب بغير استحقاق للعقوبة، ﴿وَإِن تَكُ﴾ تلك الذرَّةُ ﴿حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: إنه يزيدُ للمحسن في إحسانه، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ أي: ويُعطي علىٰ الحسنات عطاءً كبيراً فَضْلاً منه ونعمة، والله ذو الفضل العظيم، يعطي هذا العطاء في مقابلة الأعمال، كما تُؤْذن به كلمة «أجر»، فلا مطمع فيه للمهملين ولا للمسيئين، والله أعلم، لأنَّ الثواب والعقاب تابعان لتأثير الأعمال في النفس، بتزكيتها أو تَدْسيتها، فالعملُ الصالح يرفعها، والسَّيِّئُ يحطُّها، ولكلٍّ درجات.

ثم فرَّع علىٰ هذه البيان ما يتضمَّن حِفظَ الأعمال عليهم بعد أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وإنذارَهم الرهيب، ووعيدَهم ومصيرَهم، وذلك بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ أي: يشهد بما كانوا عليه من فساد العقائد وقبائح الأعمال، وهو نبيُّهم، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾.

ثم بالغ في التهديد بهذا التعبير الرهيب عن الموقف العصيب، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾، وهذا أروعُ تهديد علىٰ كتمان الحقِّ. وتسويةُ الأرض بهم: عبارة عن مواراتهم بها خجلاً، فهي كنايةٌ عن ندمهم العميق، وهَلَعهم الشديد، وخجلهم الفظيع، من جرَّاء ما كتموا من الحقِّ الذي يعرفونه من كتابهم عن أمر النبيِّ ﷺ، وعن الوحي الذي جاء به. فتكون جملة: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ جملةً حالية. أي: يودُّون أن يُدفنوا في الأرض ولا يسألون عن الكتمان والعصيان.

وقيل: هي معطوفة علىٰ جملة ﴿يَوَدُّ﴾ أو مستأنفة. والمعنىٰ: ولا يقدرون يومئذ علىٰ كتمان ما عملوه من سيِّئات. والتعبير بالموصول بدل الضمير[1] للإشعار بعلة ما اعتراهم، وليكون الكلام عاماً فيمن يكون مثلهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. وإيراده عليه السلام بعنوان الرسالة لتشريفه، للزيادة في تقبيح حال مكذِّبيه، فإن من حقِّ الرسول أن يُؤمَنَ به ويُطَاع، لا أن يُكفر به ويُقاوَم ويُعصىٰ.

وجاء في السيرة النبوية عن هذه الآية: أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، قلت: أقرأ عليك! وعليك نزل؟ قال: إني أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأت عليه سورة النساء، حتىٰ أتيت إلىٰ هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قال: «حَسْبُكَ الآن»، فالتفتُّ إليه فإذا عيناه تَذْرفان[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

وبمناسبة التشنيع علىٰ هذه الرذائل، والحَمْل علىٰ الابتعاد عنها، والموقف العصيب لأربابها المشركين وأهل الكتاب، ذكر حكم الصلاة مع السُّكْر، علىٰ وجه النهي، تمهيداً لتقبيح الخمر وتحريمه، وهو من بقايا رذائل الجاهلية والمشركين، وعلىٰ نهج القرآن في الأمر بالصلاة أثناء الكلام عن المشركين ومقاومتهم، تثبيتاً للمؤمنين وعلاجاً لتقوية

---

(١) يعني: في قوله: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، حيث أظهر ذِكرَهم، ولم يقل: يودُّون.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

عزمهم، وقد يقرن بها بعضاً من أحكامها وأوصافها، أو متعلّقاتها كما فعل هنا متَّبعاً نهج القرآن في مثله[١]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[٢]، فالنهيُ عن السُّكْر في الصلاة أمرٌ بأدائها كاملة، وجعل ذلك تمهيداً وافتتاحاً لبيان عدَّة أحكام متناسقة في متعلِّقات الصلاة. وهذا التعليل والغاية للنهي يفيدان وجوبَ الشعور والعلم بما يقوله المصلِّي من تلاوة وذكر، والعلم به معناه: الفهم له وحضور الذهنِ لتَصوُّره. ونَـهْيُ القرب أبلَغُ في إفادة تحريم الخمر وحُرْمَة الصلاة.

وبمناسبة النَّهي عن الصلاة مع السُّكْر، ذكر النَّهيَ عن الصلاة مع الجنابة؛ تتميماً للبحث، وتنسيقاً للأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ وهو مَنْ أصابته الجنابة، ويقال للواحد والمثنَّىٰ والجمع مذكراً أو مؤنثاً، أي: ولا تقربوا الصلاة وأنتم جُـنُب في حال من الأحوال ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: مُجْـتَازي طريق، بمعنىٰ:

---

(١) لما كان من نهج القرآن عند ذكر ما للكافرين من العواقب الوخيمة أن يحذر المؤمنين من ذلك الموقف ويبيِّنَ لهم الطريق المنجي، فعندما ذكر هؤلاء الذين يَـتَمنَّونَ عند الحساب لو تُسوَّىٰ بهم الأرض خجلاً من كتمان بيانات الله وتعلياته، استطرد إلىٰ حثِّ المؤمنين علىٰ الاهتمام بأهم ما ينقذ من ذلك الموقف، وهو العناية بأمر الصلاة والبُعد بها عما يشينها ويُفقدها خاصَّتها وثمرتها، وأكمل ذلك ببعض أحكام لها، علىٰ نهج القرآن في مثله. وبعد أن استطرد إلىٰ هذا عاد إلىٰ السياق السابق بقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ...﴾ [النساء: ٤٤] الآيات. (المؤلف).

(٢) من نهج القرآن أن يأمر بالصلاة علاجاً لتثبيت المؤمنين في كلِّ موضوع يكون الكلام فيه عن المعارضين، فتصدَّىٰ لها هنا مع بيان حكم من أحكامها علىٰ وجه النهي، وهو إتيانها مع السكر قبل تحريم الخمر، وإتيانها مع الجنابة. فهي لبيان حكمٍ بمقتضىٰ الصيغة، وللتثبيت بحسب السياق. (المؤلف).

مسافرين. فرخَّصت الآيةُ للجنب إذا كان مسافراً فاقداً للماء أن يقرب الصلاة بالتيمُّم الآتي حكمُه، وجعلته تمهيداً له.

وقيل: المراد بالصلاة هنا: موضعها، أي: المساجد. والآية تنهىٰ عن مُكث الجُنب في المساجد، وتُرخِّص بالمرور إذا كانت له حاجة، أو باجتياز الطريق إذا كان من المسجد. والمعنىٰ الأول أظهرُ وأنسبُ بالسياق. ويجوز أن يُراد المعنيان معاً.

ثم ذكر الغاية التي ينتهي عندها هذا النهي، فقال: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾، أي: لا تقربوا الصلاة؛ لا بأدائها ولا بالمُكْث في مكانها إلىٰ أن تغتسلوا.

قال في «المنار» ما مُلَخَّصه: الاغتسال عبارةٌ عن إفاضة الماء علىٰ البدن كله. ومن شأن الجنابة أن تُحدِثَ تهيُّجاً في المجموع العصبي، يتأثر به البدن كلُّه، ويعقبها فتور وضعف يزيله الماء. ولذلك جاء في الحديث: «إنما الماء من الماء»[1]. فأوْجَبَ الله سبحانه ـ فيما جعله غايةً للنهي عن صلاة الجنب ـ أن يتحرَّىٰ الإنسان في صلاته النظافة والنشاط، كما أوجب ـ فيما جَعَله غايةً للنهي عن صلاة السكران ـ أن يَتحرَّىٰ فيها الفهم وتدبُّر القرآن والذكر.

ولما استثنىٰ عابر السبيل بمعنىٰ المسافر، من نهي الجنب لقُرب الصلاة، ذكر حكم التَّيمُّم، وأنه يسدُّ عند هذا المسافر مَسَدَّ الغسل إذا فقد الماء، ولكنه ذكر ذلك بصورة قاعدة تشريعية عامَّة للتيمم تشمل ما قبلها وغيره، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾، فذكر نوعين من الأسباب المرخِّصة للتيمم بدل الغسل والوضوء معاً، ثم قال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فذكر نوعين من الأسباب المقتضية للتيمُّم والطهارة، نوعاً يقتضي التَّيمُّم بدل الوضوء،

---

(١) رواه مسلم (٣٤٣)، عن أبي سعيد الخدري. وانظر تفسير «المنار» (٥: ٩٦).

ونوعاً يقتضي التَّيمُّم بدل الغسل، وخصَّ هذين النوعين بالذكر لأنهما أكثر وقوعاً، وأخَّر قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ ولم يقيِّده بحال؛ ليعمَّ السفر والحضر إذا فُقِدَ فيهما الماء. ومثل هذا الاحتباك من أساليب القرآن.

ويجوز أن يكون المرضُ والسفرُ وفَقْدُ الماء مُرخِّصاتٌ ثلاثة، كلٌّ منها مستقلٌّ بذاته كما ذهب إليه البعض، وسيأتي الإيماء إليه عن الإمام[1]. والله أعلم. ويكون ترتيب الآية علىٰ أنه ذكر أولاً سببين مُرَخِّصين، ثم ذكر موجبَيْن أدمجهما في مرخِّص ثالث مستقلٍّ أيضاً، وهو فَقْد الماء؛ ليتهيَّأ عطفه علىٰ ملامسة النساء، فيؤذن بأنَّ الحدث الأكبر في التيمُّم كالحدث الأصغر، سواء بسواء. والله أعلم.

ثم ذكر الحكم في الجواب، فقال: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أي: اقْصُدوا تراباً نظيفاً نزيهاً، أو أرضاً نزيهة؛ لأنَّ الصعيد هو: التراب، أو وَجْه الأرض، أو كلُّ ما حصل منها.

وحكمة التيمُّم ـ والله أعلم ـ: المواظبة علىٰ الصلاة كي لا يؤدِّي تركُها إلىٰ التعوُّد علىٰ التهاون بها والإهمال لها، وهي عبادة محتومة وفريضة موقوتة، لا هوادةَ فيها ولا مندوحةَ عنها، وتكرارها يديم تذكير المرء مراقبة الله تعالىٰ وتقواه.

ثم بيَّن صورة التيمم، وقال: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ تمثيلاً لمعظم عمل الوضوء.

وقد علَّل هذا الترخيص والتيسير بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾، ويطلق العفو بمعنىٰ: اليُسر والسهولة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده، وستأتي مناقشة هذا القول قريباً.

وقال الأستاذ الإمام: بل معنىٰ الآية: أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة، كحكم المُحْدِث حَدَثاً أصغرَ أو ملامس النساء ولم يجد الماء، فعلىٰ هؤلاء التيمُّم فقط[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

وبعد أن ذكر تلك الأحكام وما عليها من الوعد والوعيد، عقَّب ببيان أحوال بعض الأمم من حيث أخذُهم بأحكام دينهم وعَدَمُه؛ ليذكِّر الذين خُوطبوا بالأحكام المتقدِّمة بأنَّ الله تعالىٰ مهيمنٌ عليهم كما هيمن علىٰ من قبلهم. فإذا هم قصَّروا يأخذهم بالعقاب الذي رتَّبه علىٰ ترك أحكام دينه في الدنيا والآخرة. وقد صدَّر البيان بالنَّعي

---

(١) جَعَل الشيخ محمد عبده رخصة التيمُّم للمسافر علىٰ إطلاقها، أي: حتىٰ وإنْ توفَّر له الماء فإنه يتيمَّم. وظاهر الآية غير محوجٍ لهذا التفسير الذي نقله المؤلف عن الشيخ محمد عبده، لأنَّ المريض ضعيف، والمسافِر مع المحدث حدثاً أكبر صنفٌ ثانٍ، أما المريض فخصوصيَّته أنه لا يشترط له انعدام الماء، لأنه يحتمل في حقِّه عدم القدرة علىٰ استعمال الماء لمرضه. أما المسافر والمحدث حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر فخصوصيتهما هي اشتراط انعدام الماء فقط. أما إنْ وجد الماء فلا مفرَّ لهم من استعماله. وهذا الاجتهاد الذي نقله المؤلف عن الشيخ محمد عبده مخالفٌ للسنَّة والإجماع، والثابت من السنة ما جاء في «صحيح البخاري» (١٣٩) عن أسامة بن زيد في وضوء النبي ﷺ في المزدلفة، وقصة وضوئه في السفر التي رواها البخاري (٣٦٣) ومسلم (٢٧٤) عن المغيرة بن شعبة، وكما في قصة الحديبية التي رواها البخاري (٣٥٧٦) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وغير ذلك كثير. وكلام الأستاذ في تفسير «المنار» (٥: ٩٧).

علىٰ خَلْفِ أولئك الأمم، حيث حُرِموا هداية هذا الدين، وحذَّر المؤمنين بأنهم أعداؤهم الألـدَّاء، يحاولون أن يُـضِلُّوا كمـا ضَلُّوا، ويكيدون لـهم لِيَـرُدُّوهم عن دينهم إن استطاعوا، وضمَّن ذلك عنايتَه بهم وحفظَهم منهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾[1]، وعنونهم بهذا العنوان زيادةً في التشنيع عليهم؛ لأنَّ من مقتضىٰ ذلك أن لا يعرضوا عن الهدىٰ بعد إذ جاءهم، ولكنهم كانوا علىٰ خلاف ذلك، ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ كما ضَلُّوا.

فنعىٰ عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا، وبيَّن أنهم يُحاولون إضلالَهم، وحذَّرهم منهم بأبلغ تعبير يدلُّ علىٰ عنايته سبحانه بالمؤمنين، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ منكم ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ ومكائدهم التي يكيدون لكم بها في الخفاء، وإبراز الخديعة في ثوب النصيحة، وإظهار الولاء لكم والرغبة في نصركم.

ثم أردف ذلك ببيان مزيد عنايته سبحانه وتعالىٰ بهم، تشجيعاً لهم، فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولىٰ شؤونكم بإرشادكم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ ينصركم علىٰ أعدائكم، بتوفيقكم للعمل بأسباب النصر، من الاجتمـاع والتعاون والتناصر، وإعداد جميع ما يستطاع من وسائل القوة، فثِـقُوا به ولا تـتولَّوا غيرَه. أو المراد: لا تُبالُوا بهم وبمـا يَسُومُونكم به من السُّوء، فإنَّ الله نصيركم.

قال الأستاذ الإمام[2]: وإنما قال: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ لأنهم لم يأخذوا

---

(١) بعد أن استطرد بذكر الصلاة وبعض شؤونها لأنها المُنْجية من الموقف الوخيم الذي ذكره للكافرين، عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق، وبيَّن حال اليهود المعارضين الكاتمين لما يعرفونه في كتابهم من نبوة محمد ﷺ، ناعياً عليهم بمـا أضاعوا وحرَّفوا، وبتصدِّيهم لإضْلال غيرهم في ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾. وهذا وجهٌ آخر للربط بين الآيات. (المؤلف).

(٢) يعني: الشيخ محمد عبده.

الكتاب كلَّه، بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها، وزادوا عليها، والزيادة فيه كالنقص[١].

ثم بيَّن هؤلاء الأعداء وشَرَح حالتهم التي نعىٰ بها عليهم، فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾، و﴿مِّنَ﴾ بيانٌ لـ«الذين» الأولىٰ، أي: هم من اليهود.

ثم بيَّن صورةً من شرائهم الضلالةَ ومشاغباتهم بكتابهم ضد الإسلام، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ إما بالتأويل والحَمْل علىٰ غير معناه، وإما بتغيير في مواضع جُمَل الكتاب، حتىٰ اختلط وتشوش.

ثم خصّ من ذلك ما كان لهم من خُبْث ومَلْعنة وكفر في مكالمتهم مع الرسول ﷺ ودغش[٢] في لِيِّ الألفاظ، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا﴾، يقولون ذلك ﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: فتلاً بها، وصَرْفاً للكلام عن نهجه، فيريدون سباً ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ بالاستهزاء والسخرية بالنبيِّ ﷺ، ونسبته إلىٰ الرعونة في كلمة: ﴿رَٰعِنَا﴾.

أما قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، فيجوز أن يكونوا يهمسون بها فيما بينهم، ففضحهم القرآن. أو هي عبارة عما كانوا ينقضونه من العهود، ومن نهج القرآن التعبير بالقول عن الفعل أحياناً.

وأما قولهم: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، فيريدون به الدعاء عليه في موضع الدعاء له، ليّاً وتمويهاً بأنهم يريدون بها: لا سمعتَ مكروهاً، وإنما هم يريدون بها الدعاء عليه بفَقْدِ السمع. قاتلهم الله.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١١٢).

(٢) أي: اختلط. «لسان العرب» (دغش).

ثم عقَّب ذلك بما يعقب به على مواقف الضلال، من الدعوة إلى الهدى والرشاد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ أي: لو أنَّهم قالوا: سمعنا قَوْلك، وأطَعْنا أمرك، واسْمَع ما نقول، وانظرنا. أي: أمهِلْنا وانتَظِرْنا، ولا تُعجِّل علينا في إلقاء مواعظك وإرشادك. أو انْظُرنا نَظَرَ رعاية ورفْق، لكان هذا القول خيراً لهم وأقوم مما قالوه، لما فيه من حُسْن العاقبة لهم، وعظم الفائدة.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أبعَدَهم عن الصواب بسبب كفرهم، بمعنى: مَضَتْ سُنَّته تعالى في طباع البشر وأخلاقهم أن يمنع الكفرُ صاحبَه من مثل هذه الرويَّة؛ لأنَّ التَّمادي على الكفر والإعراض يحجب القلب عن نور الحقِّ، ويُعْمي البصيرة، ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ أي: إيماناً قليلاً لا يُعتَدُّ به، إذ لا يصلح عمل صاحبه، لأنَّ القلة لا يكون لها سلطان على القلوب، أو: إلا قليلاً منهم كعبد الله بن سَلَام وأصحابه، فإنَّ الأمة مهما فَسَدَت يبقى منها بعض أفراد قلائل، تغلب سلامةُ الفطرة عليهم، ويكونون هم السابقين إلى كلِّ إصلاح جديد، فذلك سُنَّةٌ من سُنَنَ الله في الاجتماع. وهذا مِنْ تحرِّي الصِّدق الدقيق والحق الحقيق في القرآن العظيم وأساليبه العالية البعيدة المنال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

وبعد أن حكى عن اليهود أنواعَ مكرهم وإيذائهم، ونَدَّد بهم، دَعَاهُم إلى الإيمان والإعراض عن ذلك، وقَرَن الدعوة بالوعيد الشديد إذا هم لم يقبلوها، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، كان قد عنونهم في الآية السابقة بقوله: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ نعياً عليهم بما أضاعوا وحرّفوا، وعنونهم هنا بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلزاماً لهم بما حفظوا وعرفوا. وقد مهَّد به لقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ فكونه مُصدِّقاً لما معهم يستلزم أن يؤمنوا به؛ لأنَّ المتساويَيْن مُتَّحدان، فمن لم يؤمن بأحدهما لم يؤمن بالثاني، فدعواكم الإيمان بالتوراة غير صحيح. لذلك أنذرهم على عدم الإيمان به بقوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ أي: من قبل أن ننزل بكم هذا العقاب.

والطَّمْس في اللغة: هو إزالة الأثر وإخفاؤه، كما تُطْمس آثار الدار. والظاهر أنَّ المراد به هاهنا المعنى المجازي. وقد ذكر المفسِّرون في ذلك وجوهاً، منها: أنَّ المراد تقبيح الوجوه بما يلاقونه من الذلِّ والكآبة عندما يُغْلَبون عن أمره. وقال مجاهد: نطمس وجوهاً عن صراط الحق فنردَّها على أدبارها في الضلالة[1]. والذي أراه ـ والله أعلم ـ أنَّ المراد: انحراف حواس الوجه عن إبصار الحقِّ وسماعه، نتيجةَ الإعراض عن تعاليم الله التي جاءت في هذا القرآن، والتمادي في العناد، فيكونون كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ مبالغةٌ في ذلك المعنى. أي: نجعل مقدَّم الوجه مِثلَ قَفَاه في الخُلوِّ من ثمرات هذه المواهب، والله أعلم.

ويجوز أن تكون الآية من نمط قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، أي: بإفساده لفطرته وسوء عمله.

ومحصَّل الكلام: حثُّهم على الإيمان قبل أن يَتمادوا في الكفر، ويلجُّوا به، فيتمكَّن

---

(١) «تفسير مجاهد» ص٢٨٣.

منهم ظلام القلب وعَمَىٰ البصيرة، فلا يعودون يدركون شيئاً من الهدىٰ والنور، والله أعلم.

ثم ذكر شقاً ثانياً في التهديد، فقال: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾، قال أبو مسلم: اللعنُ هنا بمعنىٰ الإهلاك. وقد مرَّ الكلام علىٰ مثله لأصحاب السبت في سورة البقرة، ويأتي مِثلُه لأصحاب العِجْل في سورة الأعراف أيضاً.

والذي أراه أنَّ اللعن يعود إلىٰ النفس لتكون كنفس القِرَدة ولا تبقىٰ نفساً إنسانية. وأما الطمس فيعود إلىٰ المواهب العقليَّة فلا تُدرك الحقَّ بتاتاً ولا تراه. والله أعلم.

ثم ختم التهديد بما فيه زيادة في التقرير والوعيد، فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ أي: نافذاً لا مَحَالة.

ثم أردف دعوتهم إلىٰ الإيمان ببيان فظاعة الشرك، وأنه افتئاتٌ علىٰ الله، واجْتَراءٌ عليه، وأنَّ الله لا يَغْفره لِعِظَم فَظَاعته، مُؤْذِناً بأنَّ ما تقدَّم من الوعيد الشديد لأهل الكتاب إنما هو لجريمة الكفر والشِّرك التي انحدروا إليها، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] من عبادِهِ المذنبين؛ وذلك لأنَّ نسبة الاعتقاد إلىٰ الأعمال كنسبة القلب إلىٰ البدن، إذا صَلَحَ صَلَحَ البدنُ كلُّه، وإذا فَسَدَ فَسَدَ البدنُ كلُّه. ومشيئته سبحانه موافقةٌ لحكمته وجارية علىٰ مقتضىٰ سُنَّته في خليقته، وهي أن لا

---

(١) وذلك لأنَّ الشرك فيه منتهىٰ فساد الأرواح وضلال العقول، فكلُّ ما يأتي به صاحبه من أعمال البر والخير لا يقوىٰ علىٰ إضْعاف مفاسده وشروره وفتكه بالعقول والأرواح، فتظلُّ متردية سقيمة لا خير فيها ولا صلاح. أما الإيمان الصحيح الراسخ فهو قوَّةٌ للروح وصحَّةٌ لمزاجها ومَنَاعةٌ لها من الأمراض والتَّردِّي، فإذا ألمَّ بصاحبها هَفْوة من سوء الأعمال، أو زلة من زلات الميول والأحوال، ندم حالاً علىٰ ما فعل، وأنَّب نفسه علىٰ ما احتمل، وثاب إلىٰ رُشْدِه، ومَحَا أثرها من نفسه. (المؤلف).

يغفر الذنوب التي لا يتوبُ صاحبها عنها[1]، ولا يُتبعُها بالحسنات التي تُزيل آثارها من نفسه.

ثم علَّل عدم الغفران للشرك، بما فيه من افتراءٍ علىٰ الله واجتراءٍ عليه عظيم، فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ لا يُمْحَىٰ أثره من النفوس حتىٰ يغفر، وأيُّ ذنب أعظم من أن يشرك الإنسان خالقَه وخالقَ السماوات والأرض وما فيهنَّ من عظائم بأحدِ مخلوقاته الذي لا يدفع عن نفسه أذىٰ بعوضة أو ما هو أدون؟! تعالىٰ الله عمَّا يقول الظالمون عُلُواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، فلا يعجِّل بعذاب المعارضين، بل يُمهلهم لعلهم يثوبون إلىٰ رُشدهم فيغفر لهم الذنوب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾.

ثم نقد هؤلاء اليهود، وشنَّع عليهم فيما كانوا يقولونه من أنَّ الله سبحانه يكفِّر لهم ذنوبهم ويغفرها لهم؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله الخاصُّ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ ويزعمون أنهم أزكياء بَرَرة، سَفَهاً وغروراً، ﴿بَلِ﴾ هو الخطل والهراء، و﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه هو الذي ﴿يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، بهدايتهم

---

(١) لو قال: وهي أن يغفر الذنوب التي يتوب صاحبها عنها؛ لكان أحسن، فهذا الذي ورد فيه الوعدُ من الله تعالىٰ. أما الذنوب التي لم يتب صاحبها منها؛ فقد ورد فيها الوعيد بالعذاب، كما ورد فيها عموم آيات الرحمة والمغفرة والشفاعة ونحو ذلك، فيبقىٰ غفرانها تحت مشيئة الله، يُرجىٰ لصاحبها ويُخافُ عليه.

إلىٰ العقائد الصحيحة والآداب الكاملة، ويعلم المفسد من المصلح، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ أي: لا يُنقَصون من جَزاء أعمالهم شيئاً ولو كان ضئيلاً. و(الفتيل): ما يكون في شقِّ نواة التمر مثل الخيط. تضرب العرب به المثل في الشيء الحقير أو الزهيد.

ولما كانت تزكيتهم لأنفسهم تَتَضمَّن تزكيتهم لعقيدتهم في الشِّرك والضلال، بالغ في تهجين أمرهم، فقال: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بكفرهم وبما يقولونه عن ذلك في تزكية أنفسهم، ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ أي: كفىٰ كذباً وإثماً هذا الافتراء علىٰ الله.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

ثم أردف هذه الشناعة بما هو أشنع منها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا العنوان هنا للأمرين معاً: النَّعيُ عليهم بما أضاعوا وحرَّفوا، والإلزامُ لهم بما حفظوا وعَرفوا. أي: أُوتُوا نصيباً من الكتاب يأمرهم بالتوحيد، وهم يُعْرضون عنه، و﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ أي: يقولون لهم: أنتم أقوم ديناً، وأرشد طريقة.

والتعبير عن قريش بعنوان (الكفر)، و بكلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والتعبير عن المؤمنين بعنوان: (الإيمان)، ليس من قِبَلِ القائلين، بل من جهة الله تعالىٰ تحقيراً للمشركين وتشريفاً للمؤمنين بوصف الإيمان؛ ليكون هذان التعبيران زيادةً في التشنيع علىٰ من رجَّح المتَّصفين بالكفر وبأقبح القبائح علىٰ المتَّصفين بأكمل الإيمان وأعلىٰ الفضائل.

و(الجبت) أصله: الجِبْس، وهو الرديء الذي لا خير فيه، ويُراد به هنا الأوهام والخرافات والدجل. و(الطاغوت): ما تكون عبادته والإيمان به سبباً للطغيان والخروج عن الحقِّ من مخلوق يُعبد، ورئيس يقلَّد، وهوًىٰ يتَّبع. ولذلك قالوا: الجبت: الكاهن أو الساحر أو الصنم. و(الطاغوت): كلُّ رأس في الضلال والاستفهام للتعجيب والتشنيع.

ومعنىٰ الآية: ألم تنظر إلىٰ حال هؤلاء الذين أُوتوا نصيباً من الكتاب، كيف حُرموا هدايته، فهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، أو بنصرة أهلها من المشركين علىٰ المؤمنين المُصَدِّقين بنبوَّة أنبيائهم وحقيَّة كتبهم، أوَلم تعجب من حال هؤلاء يندفعون مع الضلال والطغيان وإغواء الشيطان، ويقولون عن دين قريش: إنه أهدىٰ مِن دِينك! وهم يعلمون أنه باطل، يقولون لقريش عَبَدَةِ الأوثان: أنتم أهدىٰ من أتباع محمد. وكانت قريشٌ تعتمد علىٰ أهل الكتاب في أنهم أهل علم بالأديان.

ومُؤدَّىٰ الآية: إنهم يكذِّبون بدينك، وهم يعلمون أنه الحقُّ من ربهم، ويقولون عن دين قريش: إنه أهدىٰ مِن دِينك! وهم يعلمون أنه باطل، يقولون ذلك تَبَعاً لرؤسائهم وكهَّانهم المضللين لهم. وهذا هو معنىٰ الإيمان بالجبت والطاغوت.

ويجوزُ أن يكون التعبير بالجبت بمعنىٰ الصنم عن هؤلاء الرؤساء، زيادةً في التشنيع، مأخوذاً من قولهم للجاهل المتبوع: هذا كالصنم، والله أعلم.

ثم سجَّل سبحانه عليهم الجزاء بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: قَضَتْ سُنَّته في خلقه أن تكون أعمالهم هذه وانطباعهم عليها سبباً لبُعْدهم عن مُوجبات رحمة الله، ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ والتعبير بعدم النَّصير كنايةٌ عن اسْتِدامةِ العذاب.

ولما كان مصدرَ هذا القول والفعل منهم تضليلُ رؤسائهم لهم بأنَّ النبوة محصورة فيهم، قرَّعهم علىٰ طريقة السخرية بقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ أي: التصرُّف في الكون، حتىٰ يخصُّوا النبوة فيهم، ولا يُعطونها لغيرهم. واختار الأستاذ الإمام: أن ﴿أَمْ﴾ إذا وقعت في أول الكلام تكون للاستفهام المجرَّد[1]. والاستفهام هنا للسخرية، فعقّبه بهذا التشنيع اللاذع علىٰ طريقة الاستِتْباع من أنواع البديع، يشنعهم بالبخل الفظيع، وقال: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾، و(النقير): هو النقرة أو النكتة في ظهر نواة التمرة، يُضرَبُ به المثل للشيء الحقير التافه أو القليل جداً. وكذلك يُضرَبُ المثل بالقطمير، وهو القشرة الرقيقة علىٰ النواة، بينها وبين التمرة.

ومعنىٰ الآية: لو كان لهم نصيب من الملك والتَّصرُّف في الكون، أو السلطان في الأرض، لَسَلَكُوا فيه طريقَ البخل والأَثَرة، وذلك بحَصْر منافعه ومرافقه في أنفسهم، فلا يُعْطُونَ الناس نقيراً منه. يُقرِّر بذلك ما قد تأصَّل فيهم من شدَّة البُخْل والحسد وحُبِّ الأَثَرة، فيشقُّ عليهم أن ينتفع منهم غير اليهودي، وإذا صار لهم مُلكٌ حرصوا علىٰ منع الناس من أدنىٰ النفع وأحقره. ومن كانت هذه حاله، حرص أشدَّ الحرص علىٰ ألا يَظهر نبيٌّ من العرب، يكون لأصحابه ملك، يخضع لهم فيه بنو إسرائيل.

لذلك أردف هذا التَّشنيع المسبوك علىٰ السخرية بهم، بتقرير حقيقة مبعث تلك

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٢٩).

الأقوال من أنفسهم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المجازات بالحقائق، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يعني: النَّبيَّ ﷺ والمؤمنين ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني: النُّبوَّة والكتاب وتباشير الملك والرياسة الظاهرة في ازدياد العزِّ والنصر يوماً فيوماً.

ثم ردّ عليهم الإنكار الذي تضمَّنَتْه كلمة الحسد، وألزمهم بما هو مُسَلَّم عندهم، فقال: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾، فبيَّن سبحانه أنَّ فضل الله تعالىٰ لا ينحصر في أمة دون أمة، وقد أعطىٰ آل إبراهيم الملك والنبوة، والعربُ منهم لأنهم من ذريَّة ولده إسماعيل. والملك يشمل النبوَّة أو هو لازمٌ من لوازمها، ولا يبعد أن يُرادَ بآل إبراهيم: موسىٰ وداود وسليمان عليهم السلام.

قال الأستاذ الإمام[1]: والحاصل أنَّ اليهود يومئذ كانت لا تعدو حالهم هذه الأمور الثلاثة: إما غرور خادع، يظنُّون أنَّ فضل الله محصورٌ فيهم، ورحمته تضيقُ عن غير شَعْب إسرائيل من خلقه.

وإما حُسبان أنَّ ملْكَ الكون في أيديهم، فهم لا يسمحون لأحدٍ بشيء منه ولو حقيراً كالنقير.

وإما حسد العرب علىٰ ما أعطاهم الله من الكتاب والحكمة والملك الذي ظهرت مبادئ عظمته[2].

وبعد بيان تلك الحقائق والشؤون عنهم، قال فيهم: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ أي: بالنبي ﷺ، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ لمن صدَّ عنه وآثر إرضاءَ حسده علىٰ اتِّباع الحقِّ.

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ١٣٠).

وقيل: ضمير ﴿ بِهِۦ﴾ يعود إلىٰ الكتاب الذي أُوتيه آل إبراهيم. والكلام تكميلٌ للإلزام، ببيان حالهم تجاه ما يأتيهم من الحقِّ.

وقيل: بل المعنىٰ: فلم يكن في ذلك توهين أمره. فكذلك لا يُوهِنْ كفرُ هؤلاءِ أمرَك.

ثم فصَّل هذا الوعيد بصورة بيان عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾، لأنَّ الذوق والإحساس يصل إلىٰ النفس بواسطة الحياة في الجلد. يقول العلم الحديث: إنَّ أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف. وقد ألمع القرآن إلىٰ هذه الحقيقة قبل أن يكشفها الإنسان بقرون عديدة، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

ثم ختم الآية بما يقرِّر ذلك ويدلُّ علىٰ الحكمة فيه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ أي: إنه غالبٌ علىٰ أمره، وكلُّ ما يفعله مبنيٌّ علىٰ الحِكَمِ البالغة.

ثم ذكر في مقابلة مصير الكافرين، مصيرَ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ من الأدناس الحسيَّة والمعنويَّة التي تَعْرض لنساء أهل الدنيا، ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ وهذا الوصف للمبالغة في المعنىٰ. أي: ظلاً وارفاً، وأراد به: عَيْشاً رغيداً، فعبَّر عنه بأخصِّ صفاته.

قال الراغب: الظلُّ: أعمُّ من الفيء، يقال: ظلُّ الليل. ويقال لِكُلِّ مَوْضع لم تَصِله الشمس: ظل، ولا يقال: فَيْءٌ إلا لِـمَا زال عنه الشمس[1].

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص٥٣٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

ولما تعرَّض لذكر الملك في الآيات السابقة، ولمح إلىٰ أنَّ المؤمنين سينالونه كما ناله آل إبراهيم، استطرد علىٰ وَجْه التقرير لذلك التلميح، بأن أمرهم أن يتَّبعوا في إدارة حكومتهم هذه الدساتير العامة العادلة الصالحة لتنظيم ملكهم واستدامته، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1]، والأمانات: كلمة عامة تشمل جميع الحقوق من ماليـة وعلمية وعملية. وقد فهموا من عموم هذه الآية: دفع الوظائـف الإدارية ـ ولا سيمـا الرياسة ـ إلىٰ مُسْتَحقِّيها وأهلها، كما وَقَع في قضية مفتاح الكعبة، حيث دفعه ﷺ إلىٰ عثمان بن طلحة وتلا هذه الآية[2]. وكما وقع في مبايعة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

وبعد أن ذكر هذا الدستور العام في شأن إعطاء الوظائف الإدارية إلىٰ أهلها،

---

(١) قال السبكي في وجه الربط ما محصله: جاءت هذه الآية بعد السياق الذي تَضَمَّن خيانة اليهود للنبيِّ ﷺ ما يعرفونه من كتبهم بأنه النبيُّ المنتظر، وأنه يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، فخانوا هذه الأمانة وقالوا للمشركين: أنتم أهدىٰ سبيلاً من محمد وأصحابه. فجاءت هذه الآية عامة بوجوب تأدية الأمانات إلىٰ أهلها، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاصِّ بالأمر العام الذي يشمله وغيرَه. (المؤلف).

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢: ٣٤٠- ٣٤١)، وعزاه لابن مردويه، عن ابن عباس بلفظ: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة دعا عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما أتاه قال: أرني المفتاح ... ثم نزل عليه جبريل ـ فيما ذُكِرَ لنا ـ برَدِّ المفتاح، فدعا رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾».

أردفه بوجوب العدل العام في الحكومة وفي سائر الأحكام، فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾، ثم ذيَّل البيان عن هذين الدستورين بما يدلُّ علىٰ عِظَمِ شأنهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نِعْمَ الإرشاد والتوجيه ما يَعِظُكُم الله به من أداء الأمانة، وإعطاء الإدارة إلىٰ أهلها، والحكم بالعدل، لأنه لا يعظكم إلا بما فيه صلاحكم وفلاحكم[1]. ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسك بذلك علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

---

(١) لم يقرر القرآن شكلاً خاصاً للحكومة الإسلامية، بل أودع ذلك للعصور والظروف، ولكنه قدَّر لها عناصر خاصَّة، منها: إعطاء الوظائف لأرباب الكفاءة بلا مُحاباة، وذلك بعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: العدل في الأحكام وسائر ملابسات الحكومة، وذلك بقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾.

ثم نوَّه بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾. أي: نِعْم ما يُرشدكم به ويوجِّهكم إليه.

ومنها: جعل الأمر شورىٰ بين من يحسن رأيهم ويعتمد عليهم، وذلك بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨]، وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومنها: أن لا يُذاع سرٌّ للحكومة إلا إذا أعلنته هي نفسُها، وذلك بقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

ومنها: إطاعة الأمة لأولي الأمر، وإذا حدث شيء من المشاكل بينهم، فالحَكَم: هذا القرآن، وما فيه من توجيه وبيان، وذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، إلىٰ غير ذلك من الأسس والعناصر التي أشار إليها القرآن في ثناياه.

أما في أمر الدفاع، فقد أوْجَبَ القرآن أن يكون المسلمون في طليعة الأمم، في الفنون الحربية والصناعات الحربية والتضحية والثبات في الحروب، مالاً وبدناً، وهكذا كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين. (المؤلف).

ثم ذكر الدستور الثالث من دساتير الحكومة ونظامها، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾(١) مع أُولي الأمر ﴿فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى

---

(١) تأمرنا الآية بإطاعة الحكومة، وتُرشدنا إلىٰ أنَّ لنا حقَّ النزاع لها إذا تَجاوزت حدود الله، وتأمرنا أن نرجع في حلِّ ذلك النزاع إلىٰ الكتاب والسنة. وإعطاءُ حقِّ النزاع للأمة فيه دليلٌ ظاهر علىٰ أن منشأ السلطة من الأمة، فهي التي تنصب الرئيس؛ لأنَّ حقَّ التنازع في الشيء لا يكون إلا لمن يملكه، أو يكون له وجهُ حق فيه. ويؤيِّد ذلك ما ثبت أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كان مُدَّةَ خلافته يستكشف ميول أهل الحلِّ والعقد من الناس إلىٰ مَنْ يكون خليفة بعده، فانتهىٰ إلىٰ أنَّ أكثريتهم الساحقة تميل إلىٰ عمر رضي الله عنه، فرشَّحه للخلافة وبايعه الناس، وكان عمر رضي الله عنه مدَّةَ خلافته يستطلع الناس فيمن يحبون أن يكون خليفةً بعده، فانتهىٰ إلىٰ أنَّ الأكثرية الساحقة تميل إلىٰ ستة من الصحابة رضي الله عنهم، فجعلها بينهم لينتخبوا واحداً منهم، وقال للذي أوكله عليهم: تجمعهم بعد ستة أيام يتشاورون فيها، فإن أجمعوا علىٰ واحد منهم فذاك، وإن اختلفوا: فإن اتفق اثنان علىٰ واحد وأربعة علىٰ واحد فكونوا مع الأربعة، وإن انقسموا ثلاثة وثلاثة فكونوا مع الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف.

فهذا كلُّه يدلُّ علىٰ أنَّ تنصيبَ الرئيس لا يجوز أن يكون بالوراثة، ولا بالاستبداد، وإنما يكون بانتخاب أكثريَّة الأمة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورىٰ: ٣٨].

وأحسنُ الطريقة للشورىٰ في هذا العصر: المجالس النيابية ومجالس الشيوخ، علىٰ أن يكون الأول من أشخاص الأمة العالمين بالسياسة والمخلصين، ينتخبهم أرباب الوعي والدراية من الأمة علىٰ أصحِّ وجوه الانتخاب وأعدلِهِ، وينتخب المجلس رئيساً من بينهم، ويختار الرئيس مجلساً للشيوخ من سائر الأمة، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ يتناول التوظيف في الحكومة الإسلامية، فيجب فيه مراعاة الأكفاء، وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أن يستعمل العدل في المحاكم وفي سائر الوظائف. وكان ﷺ لا يوظف ولا يستعمل علىٰ الناس إلا الكفءَ النزيه، وكذلك كان يفعل الخلفاء الراشدون.

قال عمر رضي الله عنه لمن حضره من الصحابة رضي الله عنهم: أرأيتم إن استعملتُ عليكم =

﴿ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وأُولو الأمر: هم أهلُ الحل والعقد، كالأمراء والحكام ورؤساء الجند وغيرهم، فيجب أن يتشاوروا في تقرير ما ينبغي العمل به، وإن اختلفوا وتنازعوا وَجَبَ عليهم أن يرجعوا إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة والسيرة المطَّردة[1]، فما كان موافقاً لهما عُلِمَ أنه صالح لنا وَوَجَبَ الأخذ به، وما كان مخالفاً لهما ومنحرفاً عنهما عُلِمَ أنه غير صالح ووَجَبَ تركه. وبذلك يزولُ التنازع وتجتمع الكلمة.

وإعطاءُ حق التنازع للأمة دليلٌ قاطع علىٰ أن الإمام لا يكون إلا بالانتخاب، لا بالوراثة. فالملوكية الوراثية لا تصحُّ في الإسلام، ولذلك اعترض الصحابة علىٰ معاوية وقالوا له: جعلتها كسرويَّة. ويؤيِّد ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ٣٨] فلا تكون الشورىٰ إلا بالمجالس النيابية.

ثمَّ حضَّهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ التَّمسُّك بهذا الدستور بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ

= خيرَ من أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليَّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتىٰ أنظر في عمله، أعَمِلَ ما أمرته أم لا؟ فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا، ومن غاب عنا أولينا فيه أهل القوة والأمانة، فمن يُحسن نزده، ومن يُسيئُ نعاقبه. فهذه هي أصول الحكومة الإسلامية لا يجوز فيها غير ذلك، وأن تكون عربية بطابعها ولغتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: ١١٣] إلىٰ غير ذلك من الآيات. (المؤلف).

والرواية المذكورة عن عمر أخرجها ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤: ٢٧٩ - ٢٨٠).

(١) في إعطاء حق التنازع للأمة في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ..﴾ دليل علىٰ أنَّ حكومة الإسلام ينتخبها الشعب أو أهل الحل والعقد منه، وإلا لما كان له حق التنازع، لأنه لا يكون إلا لصاحب الحق. فإنَّ لصاحب الحق المقال، وكذلك توجيه الخطاب للأمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾، فيه دليلٌ قاطعٌ علىٰ أنَّ منشأ السلطة من الشعب والأمة قطعاً، بالانتخاب الصحيح، لا بالقَسْر والوراثة. (المؤلف).

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فإنَّ المؤمن بالله حقاً لا يُؤْثر علىٰ حكم الله شيئاً، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشدَّ من اهتمامه بحظوظ الدنيا. وفيه تعريضٌ علىٰ أنَّ من لا يُؤْثر اتباع الكتاب والسنة علىٰ أهوائه وحظوظه، ولا سيما في مسائل المصالح العامة، لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر إيماناً يعتدُّ به.

ويجوز أن تكون هذه الآية بياناً لمصادر العدل الذي أمر الله به، وأنها إطاعة الله في أحكام كتابه أولاً، ثم إطاعة رسوله في أحكام سُنته ثانياً، ثم إطاعة أهل الرأي من أرباب النظر والتشريع والتوجيه ثالثاً، فيما لم يكن فيه كتاب ولا سنة. وقد أمَرَت أربابَ الرأي هؤلاء أن يرجعوا إلىٰ أحكام الله ثم أحكام رسوله ﷺ، ويتنوَّروا بهما، والله أعلم، وهذا هو سبيل الاجتهاد، فقد ألمعت الآية إلىٰ وجوبه علىٰ مَنْ هو أهل لذلك.

وبعد أن رغَّب في التمسُّك بهذه الأحكام من الوجهة الأخرويَّة، بيَّن أيضاً أنها من المصالح الدنيويَّة، تحقيقاً لروح هذا الدين الفطري الجامع بين مصالح الدارين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ أي: ما ذكرناه من الأحكام والرد خيرٌ لكم في الدنيا، وأحسن مآلاً وعاقبةً في إصلاح أموركم وتنظيم أحوالكم.

وقيل: المراد بأُولي الأمر: العلماء الذين يفهمون كتابَ الله ويستثمرونه في الحوادث ويفهمون سنَّة رسوله القوليَّة والفعليَّة، فهم قادةُ الأمة في الدين، الذين يُدركونَ أسراره، ويفهمونَ أغراضه، ويحيطونَ بأحوال زمانهم وأُمتهم إحاطةً تمكِّنُهم من تطبيق الكتاب والسنَّة تطبيقاً صحيحاً، ومن الاجتهاد لاستنباط الأحكام المحقِّقة لمصلحة الأمة في دائرة الكتاب والسنة. وذلك هو معنىٰ الردِّ إلىٰ الله ورسوله.

ويجوز أن يُراد المعنيان معاً، وعلىٰ هذا جرىٰ سلفُ الأمة، واستثمر العلماء نصوصَ الكتاب والسنة، ووضعوا قواعد الدولة الإسلامية كاملة في زمانهم، ولم يكن

لهم شهوة في الخلاف، بل كانت وِجْهة الجميع بيان أحكام الله، حسب اجتهادهم الخالص لله، لكنَّ الأحداث غيَّرت مجرىٰ الأمور، وحبُّ الجاه والمال والسلطان لوىٰ الناس عن الحق. وكان أصحاب الأهواء يحاولون ردَّ أهوائهم إلىٰ الدين، ليقال: إنهم علىٰ الحق، غير خارجين عن حدود الله. فتعسَّف الناس في التأويل، وجدَّت مذاهب وآراء تبرأ منها اللغة، ويتجافىٰ عنها الدين، وتعصَّب لها أصحابها ومُقلِّدوها؛ تعصَّب لها أصحابُها علىٰ علم بضلالهم، ولكن لمآربَ في أنفسهم، وتعصَّب لها مقلِّدوها كذلك، أو علىٰ جهل وحُسْن نيَّة. فتفرَّق المسلمون فِرَقاً وأحزاباً تحمل كل فرقة عداءً لمخالفيها، ولم يكن مثل هذا في صدر الإسلام، وعند صَالحي الأمة وكبار الأئمة[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

وبعد أن تمَّ الاستطراد إلىٰ بيان دساتير الحكومة الإسلامية، عادَ بالكلام إلىٰ محوره السابق، وافتتحه بتبكيت أولئك المنافقين من اليهود الزاعمين بأنهم مؤمنون، مُبيِّناً في ذلك لوناً من التمرد علىٰ هذا الوضع التشريعي العظيم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

---

(١) خلط المؤلف ـ رحمه الله ـ في كلامه هنا بين الاختلاف الفقهي والاختلاف العَقَدي، فكلامه في أوله في الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية، وهذا اختلاف فقهي، ثم انتقل إلىٰ الكلام عن أهل الأهواء وأصحاب التعسُّف في التأويل، وهذا اختلاف عَقَدي، والتسوية بينهما في سياق واحد غير سديد.

﴿ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كل رأس في الضلال.

والظاهر من سياق هذه الآيات أنها نزلت في قوم من اليهود المنافقين يُظهِرون الإسلام والمودَّة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون، فهم يريدون أن يتحاكموا إلىٰ الطاغوت، ﴿وَ﴾ الحال ﴿قَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ في قوله تعالىٰ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ بهم في هذه المحاكمة ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ فيجعل بينهم وبين الحقِّ مسافة بعيدة.

وقد تابع البيان في ذلك عنهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾، فتوعَّدهم بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، قال أبو مسلم ما معناه: إنَّ في هذه الآية بشارةً بأنَّ المنافقين سيقعون في مصيبة تفضح أمرَهم، وتكشف سِرَّهم.

أقول: وتكون هذه المصيبة بما قدَّمت أيديهم، أي: ممَّا عملوا من سيِّئات بباعث النفاق والخبث الباطن، فإنَّ الأعمال السيِّئة يَترتَّب عليها آثار سيئة وعواقب ضارَّة، فإذا أصابتهم بذلك بعض الكوارث انْخَذَلوا وفَزعوا وانكشف حالهم، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ يُخَادعونك عن هذه المحاكمة، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ بيننا وبين خصومنا الذين لا يَرضَون إلا بحكم طواغيتهم، ولم يكن ذلك منّا إعراضاً عنك وعن حكمك ودينك.

وقيل: بل معنىٰ الآية: فكيف يفعلون إذا أطْلَعَكَ اللهُ علىٰ شأنهم في إعراضهم عن حُكم الله، وبيَّن أنَّ عملهم يكذِّب دعواهم الإيمان، وأنهم يستحقُّون العقوبة والإذْلال ليكونوا عبرةً لغيرهم، ثم جاءوك يحلفون بالله ما أردنا بما عملنا إلا إحساناً

في المعاملة وتوفيقاً بيننا وبين خُصومنا، يقولون ذلك نفاقاً وتخلُّصاً؟ وقيل: المرادُ بالمصيبة نفسُ فضيحتهم هذه بإعلام الله ورسوله عنهم في أمرهم هذا.

وبعد أن كشف أمرهم، بيَّن تعالىٰ لرسوله ما يجب أن يعاملهم به، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الكفر والحقد والكيد وتربُّص الدوائر بالمؤمنين، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: فاصرف وجهك عنهم ولا تَبْتَشَّ بهم، ﴿وَعِظْهُمْ﴾ بما يَزْجرهم، ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾، و﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ متعلِّق به، أي: يحدث فيها أثراً بعيداً، ونظراً عميقاً. وكان ﷺ في بلاغة القول في المحل الأرفع.

قال في «المنار»: والإعراض عنهم يُحدث في نفوسهم الهواجسَ والخوفَ من سوء العاقبة؛ لأنهم يخشون أن تنزل سورة تفضح أمرهم وتأمر بمعاقبتهم[1]. وهذه الظنون تَعُدُّهم للتأمل فيما يلقىٰ عليهم من المواعظ والأقوال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

ثم شنَّع علىٰ مَنْ يرغب عن التحاكم إلىٰ الرسول، ويُؤْثر عليه التحاكم إلىٰ الطاغوت، وبيَّن أنَّ كل رسول يجب طاعته والتحاكم إليه، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته وأمره. والإذن في الشيء: الإعلام بإجازته والرخصة فيه أو الإيجاب.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٨٦).

قال الأستاذ الإمام: وهذا كالدليل علىٰ استحقاق أولئك المنافقين للمَقْت؛ لأنهم لم يَرضَوا بحكم الرسول ﷺ[١].

ثم أنَّبهم ببيان الخطَّة التي كان عليهم أن يتَّبعوها لتلافي هذه الشناعة، وجَعل صورةَ العبارة مُؤْذنةً بأن مثل هذا التلافي مُنْتَظَر ممَّن له أدنىٰ مُسْكَةٍ من العقل، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا العمل ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ من ذنبهم وندموا أن اقترفوه، وحَسُنت توبتُهم، ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: دَعَا الله أن يغفر لهم، ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ وهذا وعدٌ كريمٌ وبابٌ عظيمٌ للتائبينَ المنيبينَ إلىٰ الله.

وبعد هذا البيان، قرَّر الحقيقةَ الواجبةَ الاتِّباع، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تنازعوا فيه من القضايا، ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ﴾ بقضائك ﴿تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ طائعين منقادين لحكمك.

ومعنىٰ ﴿شَجَرَ﴾: اختلط واختلف. وسُميَ الشجر شجراً؛ لاشتجار أغصانه وتداخلها واختلافها في بعضها واختلاطها. ويطلق علىٰ النزاع والخصام.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ١٨٩).

ثم أنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ عدم امتثالهم لهذه التكاليف مع خفَّتها، فكيف لو كُـلِّفوا بتكاليفَ شاقَّـةٍ كمـا كُلِّف أسلافهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم﴾ مهاجرين، كما كتبنا علىٰ بني إسرائيل من هجرة وتيه وإصر وأغلال، فلو كتبنا عليهم مِثلَ ذلك ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1]، وهم أصحاب العزائم القوية الذين يُؤْثرون رضوان الله علىٰ حظوظهم وشهواتهم، ولكننا لم نكتب في شريعة القرآن إلا ما هو سهلٌ علىٰ بني الإنسان.

عقَّب النقد بالإرشاد علىٰ نهج القرآن، وجعل بين مبدأ السياقين حلقة وصلٍ، ثم بيَّن تعالىٰ ما كانوا يحصلون عليه من الفوائد العظيمة في الدنيا والآخرة لو آمنوا بك والتزموا هذه التكاليف السهلة التي يُؤْمَرونَ بها، ونعىٰ عليهم ذلك الخسران، معقِّباً النقدَ بالإرشادِ علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا؛ لأنَّ تلك التعاليم تحفظ مصالحهم وتصلح اجتماعهم، ﴿وَ﴾ كذلك تكون ﴿أَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لهم في أمر دينهم؛ لأنَّ مزاولة هذه الأوامر تطبع الأخلاق العالية والمَلَكات السامية في نفوس العاملين بها، وتُؤهِّلهم لسعادة الدنيا ولنعيم الآخرة، كما

---

(١) يجوز أن يكون في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ...﴾ تلميح ومقارنة بين الطلبين؛ طلبِ أن يتوبوا ويجيئوا إلىٰ الرسول يطلبون منه الاستغفار، وطلبِ أن يقتلوا أنفسهم بهذا الجرم، كما طلب من أسلافهم عندما عبدوا العجل وعصوا الله والرسول. أي: إنهم لم يطلبوا الاستغفار مع خفَّته، فكيف لو كلَّفناهم بقتل أنفسهم، والهجرة من ديارهم، كما كلَّفنا أسلافهم عندما ظلموا أنفسهم. والله أعلم.

أما هجرة الرسول ﷺ وأصحابه فكانت هجرة مؤقتة لم تلبث أن زالت بالفتح واسْتتباب الأمن.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: ولو أننا طلبنا منهم ما طلبناه منكم من الهجرة والجهاد العسير ما فعلوه إلا قليل منهم. والله أعلم. (المؤلف).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ يصل صاحبُه إلىٰ سعادة الدارين.

وقد بيَّن سبحانه وتعالىٰ نعيم الآخرة قاعدةً عامة، علىٰ نهج القرآن، بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾، وفي هذه الجملة معنىٰ التكريم والتعظيم، أي: وما أحْسَنَ رِفْقةَ هؤلاء. بمعنىٰ أن هؤلاء الأصناف هم أحسن الرفقاء، ومرافقتهم أحسن المرافقات. والصِّدِّيقون دون الأنبياء في الفضيلة.

ثم ختم الكلام بهذا التَّمنُّن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ أي: بمقادير الفضل وأهل استحقاقه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال في «المنار»: وبعد أن بيَّن قواعد الحكومة الإسلامية، ثم شدَّد النكير علىٰ من يرغب عن حكم الرسول إلىٰ حكم غيره من أهل الطغيان، وكان في السياق ذِكرُ

المعتدين والمعارضين، شَرَع يُبيِّن لنا بعضَ الأحكام الحربية والسياسية، ويُبيِّن لنا الطريق الذي نسير عليه في حفظ مِلَّتنا وحكومتنا من الأعداء الذين يعتدون علينا[1].

أقول: ويجوز أن يكون من تتمَّة الربط أنه بعد أن ذكر نظام الحكومة الإداري، عقَّبه بنظام الحكومة الحربي، وضمَّنه وجوب التكاتف وترك التخاذل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ بأن تعدُّوا للعدوِّ القوة الشخصية والفنية والآلية والاجتماعية وسائر أنواعها، وتبيَّنوا مبلغَ استعداده وقوته في ذلك، وتُمارسوا ما يقتضيه الاستعداد الحربي والفنون الحربية في كل عصر، ثم تجمَّعوا للحرب، ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾[2]، و(الثُّبات): جمع ثُبَةٍ، وهي: الجماعة. أي: انفروا جماعاتٍ علىٰ قدر الحاجة، أو انفروا نفيراً عاماً إذا اقتضىٰ الحال. وهذا الأمر يستلزم حتماً أن تتدرَّب سائر أفراد الأمة في كل عصر علىٰ فنون الجهاد في ذلك العصر، وتتمرَّن علىٰ مختلف نواحيها، وأن تتمكَّن من صنع الأسلحة الدارجة في عصرها، وأن تتفوَّق في الأمرين معاً علىٰ سائر الأمم، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو من الواجب. وعلىٰ مثل هذا كان السَّلف الصالح، عندما كانوا يفهمون القرآن فهماً صحيحاً.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٠٣).

(٢) من قواعد الاجتماع ووقائع التاريخ: أنَّ الأمم لا يتم كيانها، ولا يستقل أمرها، ولا يستقر قرارها إلا باستقرار حالها الداخلي والخارجي. والأول: أساسه إصلاح الأسرة بالتوجيهات الصحيحة، وإصلاح الشؤون المالية كذلك، واستقامة النظم التي تُساس بها، وقد تكفَّلت سورة النساء بوضع كثير من هذه الأحكام.

والثاني: أساسه احتفاظ الأمة بشخصيتها، واستعدادها لمقاومة الشر الذي يطرأ عليها، والعدو الذي يطمع فيها، وقد قرَّر ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ الآيات.

ويجوز وجه آخر للربط، وهو: أنه بعد أن ذكر للمؤمنين ما لأعدائهم من القصد السيئ نحوهم، أمرهم بالحزم والحَيْطة وأخذ الأُهبة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾. (المؤلف).

ثم نعىٰ علىٰ المنافقين تَخَاذُلَهم وتَخْذيلَـهُم، وعلىٰ ضعاف الإيمان من بين جماعة المؤمنين خِذلانَهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾، والتَّبطِيء: يطلق علىٰ الإبطاء، وعلىٰ الحَمْل علىٰ البطء معاً، فضعيفُ الإيمان يُبْطِئُ عن السير، أي: يتباطأ. وصيغة التشديد فيه للمبالغة في الفعل وتكراره، والمنافق يتباطأ عن السير بنفسه ويُبَطِّئُ غيرَه.

وقد شرح سبحانه حال ضعفاء الإيمان، توبيخاً لـهم وحثاً لهم علىٰ تطهيرهم لنفوسهم وتزكيتها، فقال: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ﴾ هذا المتباطئ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾ أي: لهذه الحرب، فيصيبني ما أصابهم، ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كالظفر والغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ أي: ليقولنَّ قَـوْلَ من ليس منكم، ولا تجمعه بكم مودَّة ولا صحبة، ولا من شأنه أن يخرج معكم.

ثم رَغَّب بالقتال بمـا لَـهُ من الثواب الجزيل عند الله، وحَـرَّض عليه، فقال: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾، و(شرىٰ) تـأتي للضـدّ، وهنا بمعنىٰ: باع. والمعنىٰ: إنْ تباطأ هؤلاء فليقاتـل المخلصون الذين باعوا دنياهم بآخرتهم، ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾.

ثم التفت من الغيبة، وخاطبهم خطاب مَنْ ينكر علىٰ قوم تأخُّرَهم عن القتال مع توفُّر المُوجِبَات، زيادةً في الحثِّ لهم عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا عُذْرَ لكم أن لا تقاتلوا في سبيل الله لإقامة التوحيد مقام الشرك، وإحلال الخير محلَّ الشر، ﴿وَ﴾ إنقاذ ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ المحصورين في مكة، وتخليصهم من ظلم الأقوياء الجبَّارين، وتعذيبهم لهم وفتنتهم في دينهم.

ثم بيَّن حالهم بما يُغْري بإنْجادهم، ويَحضُّ على السَّعي في إنقاذهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ مُسْتَنْجدين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾.

ثم ذكر وجهاً آخر للترغيب في القتال والتَّشجيع عليه، وسَبَكَه على التَّبرير له والتَّحريض فيه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو كلُّ رأس في الشر والفساد، ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام[1]: هذه الآيةُ جوابٌ عمَّا عساه يَطُوفُ بخواطر أولئك الضعفاء، وهو أننا لا نقاتل لأننا ضعفاء والأعداءُ أكثرُ منا عَدداً وأقوىٰ عُدداً، فدلَّهم الله تعالىٰ علىٰ قوَّة المؤمنين التي لا تُعادلها قوة، وضعفِ الأعداء الذي لا يفيدهم معه كيدٌ ولا حيلة. وذلك أنَّ المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وهو تأييد الحق الذي يُوقن به صاحبُه، وصاحبُ اليقين والمقاصد الصحيحة الفاضلة تَـتَوجَّه نفسه بكل قواها إلىٰ إتمام الاستعداد، ويكون أجدَرَ بالصبر والثبات، وفي ذلك من القوة ما ليس في كثرة العَدد والعُدد[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن

---

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢١٢).

تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾.

ثم ذكر شأناً آخرَ من شؤون ضعفاء الإيمان، وهو إقدامهم وشدَّة جُرأتهم في الحروب الباطلة أيّام جاهليَّتهم، وخَورُهم وجُبْنُهم من الحروب في سبيل الحق أيام الإسلام، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، وتوضيح الآية: إنَّ الحروب بين الأوس والخزرج كانت متواصلة قبل مجيء النبيِّ ﷺ، ولم تنقطع إلا بعد اعتناقهم الدين الذي هذَّب نفوسهم وكفَّهم عن الاعتداء وأمرهم بذلك. وهذا هو معنىٰ قوله: ﴿كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ﴾، أي: إنهم كانوا يتسابقون في جاهليتهم إلىٰ نُصرة الباطل والتحمُّس له والتفاخر بالشجاعة فيه والإقْدام عليه، فلما فُرِضَ عليهم القتال بعد الإسلام لاشتداد الحاجة إليه لِنُصْرة الحق وتأييده، كَرِهَهُ ضعفاءُ الإيمان جُبْناً وخَوَراً، فأنكر عليهم ذلك التناقض.

والاستفهام للتعجيب من حالهم؛ كيف كانوا يشنُّون الغارات في سبيل الباطل طَوْعاً، فلمَّا أُمروا بالجهاد في سبيل الحق كَرِهُوه وخَشُوا الأعداءَ مثل خشيتهم الله أو أشد، أو مثل خشية الله عند المؤمنين الصَّادقين أو أشد؟!

وكلمة ﴿أَوْ﴾ إما للتنويع، أي: البعض كانوا كذا والبعض كانوا كذا، وإما لتصوير المبالغة في الشدَّة. فبعد أن كان ضعفاء الإيمان هؤلاء يُقدِمون علىٰ الحروب في سبيل الباطل بكلِّ جُرأةٍ وبسالةٍ، أصبحوا يخشون الحرب في سبيل الحق خشيةً عظيمة، ﴿وَ﴾ من شدَّة خورهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: إلىٰ

وقت آخر ولو قليلاً، ريثما نقوىٰ، يقولون ذلك تـملُّصاً من القتال وخوفاً منه. وربما كانوا يرون أنَّ قوة المسلمين ما تزال ضعيفة لا تقوىٰ الآن علىٰ قتال المشركين.

فأمر سبحانه نبيَّه أن يُطيِّبَ نفوسَهم بهذا الإرشاد، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾، أي: إن علَّة استنكاركم وطلبكم الإنظار فيه والإمهال إنما هي خشيةُ الموت والرغبةُ في متاع الدنيا ولذَّاتها، وكل ما يتمتَّع به في الدنيا فهو قليلٌ بالنسبة إلىٰ متاع الآخرة، لأنه محدود فانٍ، ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لأنَّ متاعها كثير باقٍ لا نَفَاد له ولا زوال، وإنما يناله من اتَّقىٰ الأسباب التي تُدنِّس النفس بالشرك وبالأخلاق الذميمة، كالجبن والقعود عن نصرة الحق، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ أي: لا تُنقصون من الجزاء الذي تستحقُّونه بأثر أعمالكم في أنفسكم مقدارَ فتيل. وهو: ما يكون في شقِّ النواة مثل الخيط. يُضْرَب مثلاً في القلة والحقارة.

ثم جاء بما يُذهِبُ أعذَارَهم، ينفُخُ روحَ الشجاعة والإقدام في المُستعدِّين منهم، وذلك ببيان أنَّ الأجل إذا جاء لا يؤخَّر ولا يدفعه دافع، فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ أي: في قصور عالية منيعة، فعلامَ الجبن؟ والموت أمرٌ طبيعيٌ لا مناص منه.

فإذا لم يكنْ من المـــوتِ بُـــدٌّ فمِنَ الجهل أن تكونَ جبانـا[1]

ثم حدَّث عنهم ـ بما بهم المنافقون واليهود ـ فأجرىٰ الكلام علىٰ الأخيرين بعد أن أجراه علىٰ الأول، وهم ضعفاء الإيمان، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ذاكراً شأناً آخرَ من الشؤون الدالَّة علىٰ مرض القلب والعقل، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ زعماً منهم أنَّ الله أكرمهم بها عنايةً بهم، وهَرباً من الإقرار بأن

(١) البيت للمتنبي وهو في «شرح ديوانه» للواحدي ص٣٣٣ وفيه (العجز) بدل (الجهل).

شيئاً من ذلك أثر ما جاء به الرسول من الهداية، وما حَاطَهم به من التربية والرعاية، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ حالةٌ ﴿سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: من شُؤْم محمد ﷺ. وهذه مقالة المنافقين واليهود عندما أصاب المدينة سَنَةٌ مُجْدبة.

فأمره أن يردَّ عليهم زعمهم الباطل، ويُرشدهم إلىٰ الحق، ويُبيِّن لهم سنَّة الله في الخلق، بقوله سبحانه: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: حسب سُنَّته في نظام الأسباب والمسبَّبات. ولا ينتج شيءٌ من غير سبب وعلة[1].

فالسنن الكونية نوعان: نوع لا شأن للإنسان في تكييفها كالخِصْب والجدب مثلاً، ونوع للإنسان شأنٌ في التَّصرُّف بها وتكييفها كالصحَّة والمرض مثلاً. فمِثْلُ هذه يكون خيرُها من الله وشرُّها من الإنسان، يناله بمخالفة سُنن الله ونظامه الكوني، سواء في ذلك أحوال الأفراد وأحوال الجماعات. ولا شرَّ إلا بمعاكسة ذلك النظام والانحراف عنه، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ ولا يعقلون مدارك الأشياء بوجوهها الصحيحة؛ إذْ مَنْ عَرَفَ نظام الاجتماع وسنن الله في الأسباب والمُسبَّبات التي جَعَلها في هذا الكون، لا يقول بأنَّ سيئة تقع بشُؤْم أحد، ولكن يُسنِدُ كلّ شيء إلىٰ سببه الحقيقي، أو إلىٰ الله واضع تلك الأسباب والسُّنن.

ثم بيَّن تعالىٰ حقيقة هذا الأمر ونظامه في تصرُّفات الإنسان بتلك السنن، مخاطباً الأمة في شخص النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي: ما أصابك من حسنة فإنما هي لاتِّباعك سُنن الله المعدَّة للحسنات، وما أصابك من سيئة فلِمَيْلك عن تلك السنن وخروجك عليها وانحرافك عنها.

---

(١) في هذا الإطلاق نظر، وقد تقدم التعليق علىٰ مسألة الأسباب والسنن الكونية عدة مرات.

وتفصيل ذلك: أن الإنسان لا يقع في شيء يسوؤه إلا بتقصير منه في اسْتِبانةِ الأسباب وتعرُّف السنن. فالسوء معنىٰ يعرض للأشياء بسُوء تَصرُّف الإنسان فيها، وباعتبار حدوث ما يسوؤه من ذلك، وليس ذاتياً لـها. ولذلك يُسنَـدُ إلىٰ الإنسان، بمعنىٰ أنه هو الذي يحرف المنافع ويُحوِّلها إلىٰ مَضَار، أو يعاكس السنن فيَصْطَدم بها، إذ إنَّ الأضرار التي تقع في العالم الإنساني من كليَّةٍ وجُزئيَّةٍ ليس لها علَّة سوىٰ الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سُنَّة الله في خلقه وتكوينه.

مثال ذلك: المرض، فهو من الأمور التي تسُوءُ الإنسان، وإنما يُصيبه من تقصير في السَّيْر علىٰ سنَّة الفطرة في الغذاء والعمل والوقاية، ونحو ذلك من معاكسة السنن الصحيَّة، فيجيء مثلاً من تخمة قادَتْه إليها الشهوةُ، أو من إفراط في التعب أو الراحة، أو من عدم اتقاء أسباب الضرر، كـتعريض نفسه للبرد القارس، أو الحر اللافح، أو العدوىٰ، إلىٰ غير ذلك من المعاكسات. وقُـل مثل ذلك في الأحوال العامة وأمراض الاجتماع.

ومحصل الآيتين: أنَّ الله سبحانه نَـظَّم الأمور وسَنَّ السنن، وكلُّها خير، فإذا سايرها الإنسان لا يصيبه إلا الخير والحسنات، بنتيجة سُنن الله وما يترتَّب عليها، وإن انحرف عنها وعاكسها أصابه الشرُّ والسيِّـئات، بنتيجة الانحراف وما يترتَّب عليه. فالشرُّ أمرٌ سلبيٌّ في سُنَن الكون لا إيجابي؛ لأنه لا يتأتَّىٰ منها، ولكن من معاكستها. وعلىٰ هذا، فمعنىٰ كون الشر من عند الله: أنه نتيجة للانحراف عن سنن الله وأنظمته في هذا العالم، وذلك الانحراف المسبِّب للشر ناشئٌ بصنع الإنسان نفسه وكسب يده.

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «لبيك وسَعْديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك»[1].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب.

هذه هي الحقيقة الكونية في سنن الله، فالشرُّ من هذا النوع إنما يكون من سُوء تصرُّف الإنسان في تلك السنن، أو إهمالها والانحراف عنها خطأً أو عمداً، بحكم قانون المخالفة في النظام الكوني، حتىٰ إنَّ بعض الأمراض الموروثة إنما هي من جناية الآباء علىٰ الأبناء بعد جنايتهم علىٰ أنفسهم، بانحرافهم عن سُنن الفطرة ونظام الكون، وليس في أصل الطبيعة شيء من ذلك، بصورة إيجابية، والله أعلم، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. فينبغي للإنسان حينما يُصيبه شيءٌ من الشر أن يبحث عن سبب له مُتأتٍّ من نفسه وتقصيره، لأنه إنما أصابه ذلك لانحرافِه عن السنن التي وضعها الله أو تهاونِه فيها.

وبعد أن أبطل سبحانه زَعْمَهم الفاسدَ في حقِّه ﷺ، ذكر جلالَ منصبه وعظيمَ مكانته عنده، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ أي: علىٰ صحَّة رسالتك، وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، وليس له دخل فيما يصيب الناس من الأعراض، ولا قدرة له علىٰ تغيير سُنن الكون ونظم الاجتماع. وأما الحسنات والسيِّئات فهي من الله نتيجةَ مُسَايرةِ الإنسان سننَ الطبيعة أو معارضتِها، وليس بشؤم أحد ولا بيُمْنِهِ أبداً.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

وبعد أن ذكر تحقُّق رسالته، وثبوتها بشهادته تعالىٰ، بيَّن حكم الرسالة، وسَبَك ذلك علىٰ الردِّ لهؤلاء المنافقين الذين يزعمون أنهم مطيعون لله، فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ لأنَّ الرسول مُبلِّغ أوامرَ الله المنطبقة علىٰ نظام الله الكوني، ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾

وأعرض ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ أي: ليس من شؤون الرسالة أن تُكْرِهَهُم علىٰ الطاعة، ولستَ مسؤولاً عنهم. فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار، بعد الاقتناع والاختبار، لأن الإنسان مختارٌ في تصرُّفاته. وفي هذا تسليةٌ له ﷺ عن إعراضهم، علىٰ نهج القرآن في تسليته ﷺ إثْرَ بيان عِناد المنكرين ومكابرة الجاحدين.

ثم ذكر شأناً آخر من شؤون نفاقهم في صورة طاعتهم، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا أمرتهم بأمر أو بالجهاد أو دَعَوتهم إليه، يقولون: ﴿طَاعَةٞ﴾ أي: أطعناك وقبلنا أمرك. ويجوز أن يراد بالقول الفعل، إذ التعبير بالقول عن الفعل هو من أساليب اللغة، ومن نهج القرآن، أي: يظهرون الطاعة فيما أمرتهم به، ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ أي: خرجوا منصرفين إلىٰ بيوتهم، ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ أي: دبَّرت في نفسها ليلاً غير الذي تظهره أو تقوله عندك، إعراضاً عن أمرك بعد أن أظهروا الطاعة لك، ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ وسيُجازيهم عليه، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ولا تُبال بما يُبيِّتون. أو المراد: لا تُقبل عليهم بالبشاشة ليرتدعوا، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في شأنهم، ولا تخش ما يُضمِرون وما يُبيِّتون، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٨١﴾.

ولما كانت تلك الشؤون صادرةً عن هؤلاء المنافقين، لاعتقادهم أنه ﷺ غير صادق في دعوىٰ النبوة، ومُفْتَرٍ لهذا القرآن، أنحىٰ عليهم باللائمة والإنكار فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فيدركوا من حقائقه الراهنة الثابتة بالبراهين القاطعة الواضحة أنه من عند الله، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾[1]، واللازم باطل، فالملزوم مثله. ومن يستطيع أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق حتىٰ في

---

(١) سُئل أعرابي: لِمَ آمنت بمحمد؟ فقال: لأني ما رأيت محمداً ﷺ يقول لشيءٍ: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولا رأيته يقول لشيء: لا تفعل، والعقل يقول: افعل. (المؤلف).
وذكره الشيخ محمد أبو زهرة في «زهرة التفاسير» (٣: ١٣٤٣).

بيان سرائرهم وخفايا أمورهم، وفي أصول العقائد وقواعد التشريع وفلسفة الآداب وسياسة الشعوب وفنون القول وألوان العبر، والكلام علىٰ الخلق والتكوين ووصف الكائنات وسنن الاجتماع ونواميس العمران وطبائع المِلَل والأقوام، وإيراد الشواهد وضرب الأمثال وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة المتشابهة تنويعاً للعبرة وتلويناً للموعظة، مع موافقة ذلك كلِّه للحق، وتواطئه علىٰ الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض، وتعاليه عن التفاوت والتباين. وفوق ذلك ما فيه من العلم الإلهي، والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها. أمَا ـ وسِرِّ القرآن ـ لو أنَّ المسلمين استقاموا علىٰ تدبُّر القرآن والاهتداء به في كل زمان، لَـمَا فَـسَدت أخلاقُهم وآدابُهم، ولَـمَا زال ملكهم وسلطانهم، ولَـمَا صاروا عالةً في معايشهم وأسبابهم علىٰ سواهم. من «المنار» بتصرف[1].

وكلَّمـا اتَّسعت دائرة العلوم والمعارف، ونَـمَت أحوال العمران، واتَّسع نظر الإنسان، زاد إيمان الناس بهذا القرآن؛ إذ تتحقَّق روابط الصلة بين العلم وهذا الدين، وتتناسق أحكامه مع نواميس الاجتماع وشؤون الكون أجمعين. وكل ذلك يُرشد إلىٰ كونه من عند الله الحكيمِ العليم، وإلىٰ وجوب الاهتداء بهديه لموافقته لنواميس الفطرة والسُّنن في المصالح العامَّة والخاصَّة، وأخْذه بيد مَنْ تمسَّك به إلىٰ سعادة الدنيا والأخرىٰ. ولا تتمُّ الإنسانية إلا بالأخذ بتعاليمه، ولا إنسانية بدون ذلك.

﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٤١).

ثم أنكر عليهم أيضاً وعلىٰ ضُعَفاء الإيمان وضَعَفة المؤمنين إذاعتَهم للأمور العامة المتعلقة بالأمن والخوف، وبيَّن الواجب في ذلك، وهو الرد علىٰ أُولي الأمر الذين هم أعلم بما ينبغي أن يعمل، وأقدر علىٰ اسْتنباط ما يجب أن يتَّبع، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾.

قال الأستاذ الإمام: أي: إنهم من الطيش والخفَّة بحيث يستفزُّهم كلُّ خبرٍ عن العدو يصل إليهم، فتنطلق ألسنتهم بالكلام فيه وإذاعته بين الناس. وما كان ينبغي أن تشيع في العامة أخبار الحرب وأسرارها، ولا أن تخوض العامة في السياسة، فإنَّ ذلك مما يضر، وأقله ضرراً: علم جواسيس العدو بأسرار أمتهم(١). وقد يكون الخبر عن العدو دسيسة في طيَّاتها الضرر والخذلان، وليس لهم مدارك تصل إلىٰ ذلك، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: الذين يستخرجون خفاياه بدقَّةِ نظرِهم من أرباب الرأي.

وهذه الآية تُلمع بأنَّ أهل الشورىٰ في الإسلام هم الذين لهم عِلمٌ ومعرفةٌ باسْتنباط الدقائق السياسية والقواعد الإدارية، والمدرَّبون علىٰ ذلك.

ثم ختم الآية بالتمنُّن العام الشامل لعموم المسلمين بما فيهم ضعاف الإيمان، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإرشادكم إلىٰ طريق الحقِّ في مظانِّ الاشتباه، ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ وعملتم بآراء المنافقين ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ منكم أُوتوا من صَفَاء الفطرة وسلامتها ما يعرفون به الحقَّ والصواب.

قال الرازي: ولما أمر سبحانه وتعالىٰ في الآيات السابقة بالجهاد، ورغَّب فيه أشدّ الترغيب، وذكر شدّةَ سَعْيِ المنافقين في تثبيط المسلمين عن الجهاد، أعاد الأمرَ به والحثَّ

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٤٢).

عليه بصورة أشدَّ، وحدَّد واجبه[١]، فقال: ﴿فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأما قوله: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ فهو تعليلٌ لما قبله وتعليقٌ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وتَتْميمٌ له وتقرير. أي: لا يَضرُّك ما فعلوا ولا تَلْزَمُكَ تَبِعتُه. وفيه غايةُ التوبيخ لهم، وكذلك قوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إذ في وَصْف المؤمنين تعريض بحِطَّة درجة أولئك الضعفاء الإيمان عن رتبة المؤمنين الخُلَّص، وبعدم الاعتماد عليهم.

وقد وعد المسلمين بهذا الوعد الكريم، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وكلمة ﴿عَسَى﴾ للتنبيه والإعداد، فهي هاهنا بمعنىٰ الخبر والوعد. وقد ذيَّل هذا الوعد بما يدل علىٰ إنجازه وتحقيقه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾، فلا يخيفنَّكم ـ أيها المؤمنون ـ بأس هؤلاء الكافرين وشهرتهم.

قال في «المنار»: ويُؤْخَذ من الآية أنَّ الله تعالىٰ كلَّف نبيَّه ﷺ أن يقاتل الكافرين الذين قاوموا دعوته بقوتهم وبأسهم، وإنْ كان وحده. وهي تدل علىٰ أنه أعطاه من الشجاعة ما لم يُعْطِ أحداً من العالمين، وسيرته ﷺ تدل علىٰ ذلك[٢].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

وبعد أن أمره بأن يقاتل الكافرين وإن كان وحده، وأن يُحَرِّض المؤمنين علىٰ

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ١٥٧).

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٢٤٨).

القتال معه ليُؤازِروه ويَشفَعوه، رغَّبهم بمعاونته وشفاعته ونُصرته، ولكن ذكر ذلك بصورة قاعدة عامة تشملها وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾، قال الراغب: الشفع: ضمُّ الشيء إلىٰ مثله[١]. والشفاعة: الانضمام إلىٰ آخر ناصراً له وسائلاً عنه.

فالمعنىٰ الذي يقتضيه السياق: مَنْ يجعل نفسَه شَفْعاً لك بعد أن أُمِرتَ بالقتال وحدك، وهي الشفاعة الحسنة لأنها نَصْرٌ للحق وتأييد له. ومثلُ ذلك كلُّ من ينضمُّ إلىٰ مُحسِن ويشفعه، فمن يشفع مثل هذه الشفاعات ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أي: بما يناله من الفوز والشرف والغنيمة في الدنيا، عندما ينتصر الحق علىٰ الباطل، وبما يكون له من الثواب في الآخرة، أدرك النصر في الدنيا أو لم يدركه.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ بأن ينضمَّ إلىٰ عدوِّك، فيقاتل معه أو يخذل المؤمنين، ومثلُه كلُّ من يُعينُ علىٰ الباطل وعلىٰ السيئات ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[٢] أي: نصيبٌ مُضاعَف من سوء عاقبتها، وهو ما يناله من الخذلان في الدنيا، والعقاب في الآخرة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ أي: حافظاً وشاهداً ومُجازياً. قال الراغب: أصل

---

(١) «المفردات» ص٤٥٧.

(٢) تعرضت الآية: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ..﴾ لأمرين اجتماعيين من أهم الشؤون: أن يشفع الرجل أخاه في نَيْل مأربه الحق، أو يشفع له عند غيره في قضاء حاجته المرضية، يعاونه ويناصره فيهما. وأمرت الآية الثانية: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ..﴾ بالرد علىٰ التحية بما يؤلِّف القلوب ويقلع الضغائن، وبالتقرُّب إلىٰ من يريد التقرب وإصلاح ذات البين، كما تقتضي الإنسانية. وقد سيقت الأولىٰ حضّاً علىٰ مناصرة رسول الله ﷺ ووعيداً لمن يناصر عليه أعداءه. وأردفت بالثانية دعوة للسلم متىٰ جَنَح له العدو وأخلص فيه، مَيْلاً للتآلف بين البشر وجمعهم علىٰ الحق. (المؤلف).

الكلمة من القائم علىٰ الحيوان يقيته[١]، فإنه لا يغيبُ عنه من أمره شيء. وقال الزَّجَّاج: الـمُقيت: القدير[٢].

ثم أمرهم سبحانه في الآية الآتية أن يقابلوا أعداءهم بالسلام إذا بدؤوهم بذلك؛ لأنهم لم يُؤْمَروا إلا بقتال مَنْ قاتلهم، أو أمرهم أن يتقرَّبوا من أعدائهم إذا أظهروا لهم التقرُّب وتنصَّلوا من المخالفة والعداء بصورة صادقة.

ويرىٰ الأستـاذ الإمام[٣]: أنه بعد أن علَّم الله المؤمنين طريقة الشفاعة الحسنة والسيئة، وهي من أسباب التواصل والتوادّ بين الناس، علَّمهم سنة التحيَّة بينهم ومع مَنْ يلقونه في أسفارهم؛ لأنها من أسباب التَّوادِّ والتواصل كذلك، فقال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٤]. وحُسْنُ الجواب يكون بحُسن معناه أو بحُسن كيفيَّة أدائه ولطف بشاشته.

أقول: والذي أراه أنَّ الآية بحسب السياق إرشادٌ وتوجيهٌ للمؤمنين بأنْ يُلاينوا أعداءهم إذا وجدوا منهم صِدقَ تقرُّبٍ ومجاملة، وبحسب الصيغة تعليمٌ لهم بسنة التحيَّة وأصولها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

---

(١) انظر «المفردات» ص٦٨٧.

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ٨٥).

(٣) يعني: الشيخ محمد عبده. والكلام في تفسير «المنار» (٥: ٢٥٣).

(٤) بعد أن ندب ورغّب في التعاون علىٰ الحُسْنىٰ ومهمَّات الأمور ناظراً إلىٰ وجوب التكاتف في الدفاع عن الدين ونُصْرة المسلمين تجاه المعتدين، أمرهم بما يَتَضمَّن قَبول المسالمة إذا وقع من الأعداء طلبٌ صادقٌ لها، ورجوع إلىٰ الحق، ومَيْل إلىٰ الرشد والصواب، أمرهم بذلك ضمن قاعدة عامة في صورة الرد علىٰ التحية، وحُسْن المجاملة فيها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ويجوز أن تكون الآية سيقت للشكر علىٰ الشفاعة الحسنة وأمثالها، أدمجه في وجوب الرد علىٰ التحية. والله أعلم. (المؤلف).

وردُّ التحية من الفضائل التي دعا إليها القرآن، لأن تَرْكَ الرد رذيلة تُثير العداوة والبغضاء، إذ تُؤْذن بالتحقير والاستخفاف، والردُّ بأفضل منها غايةٌ في السُّموِّ الأدبي وتقرير المحبة بين الناس.

وذكر الرازي لاتِّصال الآية بما قبلها وجهين:

الأول: أنه لما أمر المؤمنين بالجهاد، أمرهم أيضاً بأن يرضوا بالمسالمة إذا رضي الأعداء بها. فهذه الآية عنده كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١]، كما ألمعتُ إلىٰ ذلك في مبدأ البيان.

والثاني: أنَّ الرجل كان يلقىٰ الرجل في دار الحرب فيُسلِّم عليه، فقد لا يلتفت إلىٰ سلامه ويقتله، فمنع الله المؤمنين من ذلك، وأمرهم بأن يقابلوا كلَّ مَنْ يُسلِّم عليهم أو يُكرمهم بنوع من الإكرام، بمثل ما قابلهم به أو بأحسن منه[1].

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بما سبق من الأحكام علىٰ الوجه الذي سبقت الهداية إليه، وعلىٰ أن يراعي في تطبيقها الدقّة والإخلاص، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾.

ثم تابع هذا الحُسْبان وقرَّره بتقرير التوحيد والبعث، وبتحقيق الوعد والوعيد، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فلا تشركوا به، ولا تقصِّروا في طاعته والخضوع لأمره، فسيحاسبكم عليه يوم القيامة.

وبعد أن أكَّد الخبر بلام القسم، بَالَغَ في تحقيق إنجازه بهذه الجملة المفعمة بالتقرير والتثبيت، فقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾، فالذي يَعِدُكم به أو يتوعَّدكم عليه سَيُنفِّذه لا محالة.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٠: ١٦١).

﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ البحث عن المنافقين بعد الاستطراد، علىٰ نهج القرآن في العودة، وذكر انقسام رأي المسلمين في أمر بعض المنافقين، وبيَّن المواقف التي يجب أن يقفوها منهم، وفرّع علىٰ ما سبق نَقْدَ الاختلاف فيهم، فقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

قال الأستاذ الإمام: المنافقون هنا: غير مَنْ نزلت فيهم آيات البقرة وسورة المنافقين وأمثالهنَّ من الآيات، وإنما هم فريق من المشركين كانوا يُظهِرون المودَّة للمسلمين والولاء لهم وهم كاذبون فيما يُظهِرون. فكان المؤمنون فيهم قسمين: قسمٌ يرىٰ أن يُعامَلَ هؤلاء كما يُعامَلُ غيرهم من المجاهرين بالعداوة، وقسمٌ يرىٰ أن يُعَدُّوا من الأولياء، ويُستعان بهم علىٰ سائر المشركين المعادين لهم جهراً[1].

فأنكر الله عليهم ذلك، وأيَّد الإنكار بقوله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾،

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٦٢).

أي: كيف تتفرَّقون في شأنهم، وأنَّ الله قد أركسهم وصَرَفهم عن الحقِّ[١] الذي أنتم عليه، وذلك بما كسبوا من أعمال الشرك والمعاصي، إذ قد جَرَت سُنَّة الله تعالىٰ في خِلْقَةِ الإنسان أنَّ من تَشَبَّع بالضلال لا يمكنه أن يعودَ إلىٰ الحق، بل يقاومه ظاهراً أو خفياً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[٢]، وإنما أسند الإضلال إلىٰ الله سبحانه؛ لأن الضلال ناتج من معاكسة الضالِّ لسُنن الله الدينيَّة، وليس المراد أنَّ الله سبحانه يضلُّه قَصْداً وطبيعة[٣]، فالله مُنزَّه عن ذلك.

ومعنىٰ الآية: أي: من أضلَّه الله بمخالفته لدينه ومعارضته له ليس في استطاعتكم أن تُغيِّروا سُنن الله في نفوس الناس، فتُصلحوا شأن من تمكَّن فيه الضلال وتهدوه إلىٰ سواء السبيل، كيف ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بمقتضىٰ سننه فيمن تشبَّع بالضلال وانطبع عليه، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾ في تحويله عن ذلك[٤]؛ لأنَّ الإنسان مثل جام التَّصوير

---

(١) أي: نكَّسهم وأذلَّهم في كفرهم وارتدادهم، وردَّهم إلىٰ أحكام الكفار، بسبب ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة.

(٢) المعنىٰ الراجح في هذه الآية وأمثالها، وهو ما رجحته في تفسيري «المعين»: أتريدون ـ أيها المؤمنون المنخدعون بالمنافقين المتخلِّفين عن الهجرة ـ أن تنسبوهم إلىٰ الهداية مع أنَّ الله قد أثبت لهم الضلال، ومكَّنكم من الحكم عليهم بذلك استدلالاً بأقوالهم وأفعالهم التي تكشف عن حقيقة كفرهم.

(٣) لا شك أن ضلال العبد واقع باختياره وكَسْبه، كما أنه واقع بإرادة الله تعالىٰ وخَلْقِهِ، فنفي «القصد» في عبارة المؤلف غير صحيح، أما الطبيعة فكأنَّ مراده أن الله لم يجبله علىٰ الضلال، بل علىٰ الاختيار، وهذا معنىٰ صحيح.

(٤) المعنىٰ الراجح في هذه الآية وأمثالها في كتاب الله: ومن يحكم الله عليه بالضلال حكماً مُسْتنداً إلىٰ علمه وحكمته وعدله، فلن تجد له ـ أيها الراغب في تبرئته والحكم عليه بالهداية ـ سبيلاً لتبرئته ممَّا هو عليه من الكفر المحقَّق الذي بَدَت دلائله في أقواله وأفعاله.

ينطبع فيه ما يُصادفه أول الأمر، فإذا صادفه الضلال وتلقَّاه بالتربية والتقليد الأعمىٰ لا يُمْحَىٰ منه أبداً حتىٰ يحلَّ محلَّه الهدىٰ والرشاد.

ثم أيَّد أمرَهم بإظهار نواياهم، وحِرْصِهم علىٰ ارتداد المؤمنين عن دينهم، فقال: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ﴾ معهم ﴿سَوَآءً﴾، هذه هي نواياهم وأمانيُّهم ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وأنصاراً لينصروكم علىٰ أمثالهم من المشركين ﴿حَتَّىٰ﴾ يؤمنوا و﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويتَّحدوا بكم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عن الإيمان والهجرة ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾، وإنما أمر الله سبحانه المؤمنين أن يعاملوهم بهذه المعاملة لأنهم كانوا يُوهمونهم أنهم معهم، ويقتلون كل مسلم ظفروا به، فأمرهم أن يعاملوهم بهذه المعاملة.

واستثنىٰ منهم من تُؤْمَن غائلتُهم بأحد أمرين، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ أي: يصلون إلىٰ قوم معاهدين لكم فيدخلون في عهدهم، ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي: ضاقَتْ صدورُهم عن قتالكم وعن قتال قومهم، فهم لا يُحبُّون أن يقاتلوا المسلمين حفظاً للعهد أو للودِّ، ولا يحبُّون أن يقاتلوا قومهم لأنهم قومهم. فمنع القرآنُ قتالَ هذين الصنفين، فما أعدل تعاليم القرآن! وما أكرم أصول الإسلام!

ثم أتىٰ بهذه الجملة المتضمِّنة لمنَّة الله في مسالمة هؤلاء للمؤمنين، والحاملة علىٰ التمسُّك بما أمرهم به من الكفِّ عنهم، شكراً لهذه المنَّة، والمسبوكة علىٰ التعليل لما قبلها من الاستثناء، والتمهيد لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: إنَّ من رحمته تعالىٰ أن كفَّ عنكم بأسَ هاتين الفئتين وصَرَفهم عن قتالكم بموقفهم هذا، ولو شاء الله لسلَّطهم عليكم فَلَقاتلوكم.

ومُحصّل الكلام ما قاله في «المنار»: إنَّ الله سبحانه وتعالىٰ ـ بتوفيقه ونظامه في الأسباب والمسبَّبات، وسننه في الأفراد والجماعات ـ جَعَل الناس في ذلك العصر أزواجاً ثلاثة:

فمنهم سليمو الفطرة مستقلُّو الفكر، وهم الذين سارعوا إلىٰ الإيمان.

ومنهم المتوسطون في ذلك، وهم الذين رجَّحوا مسالمة المسلمين، فلم يكونوا معهم من أول وهلة مثل الصنف الأول، ولا أشداء عليهم مثل الصنف الثالث.

ومنهم الـمُوغِلون في الضلال والشرك، والراسخون في التقليد، وهم المحاربون لهم.

وإذا كان وجود المسالمين بمشيئة الله تعالىٰ الموافقة لِحكَمِه وسُننه، فلا يثقل عليكم اتِّباع أوامره بترك قتالهم، ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ووثقتُم بهم ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلَۢا ٩٠﴾؛ إذ من قواعد ديننا: ألا نعتدي إلا علىٰ من يعتدي علينا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا. وهذا تقريرٌ للحكم الذي فُهِمَ ضمناً مما قبله. وإلقاء الشيء: إظهاره بحيث يُدرَكُ جلياً، فهو هنا يَتضمَّن الوثوق من المسالمة[1].

ثم ذكر حال طائفة أخرىٰ من المنافقين وحكمهم، فقال: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ مخادعين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ يُظْهرون لكلٍّ أنهم منهم؛ نفاقاً وخدعة، فـفضحهم بهذا البيان، فقال: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾، والركس: القلب علىٰ الرأس، أي: كلَّما حَمَلهم المشركون علىٰ مساعدتهم في قتال المسلمين، فعلوا ونكلوا عن المسالمة، ونكسوا علىٰ رؤوسهم، في نفاقهم وإظهار أنهم مع المسلمين.

وقد بيَّن الله تعالىٰ حكم هؤلاء بقوله: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ ظاهراً

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٦٦).

جليّاً موثوقاً، ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بالتزام الحياد التام، وتجنُّب الدسائس؛ فإن لم يفعلوا ذلك ويُؤْمَنْ غدرُهم وشرُّهم ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ أي: حيث وجدتموهم وتمكَّنتم منهم، فقد قامت الحُجَّة لكم عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١﴾ أي: حُجَّة واضحة. وقد ذكر الحجَّة بدل الحكم عليهم بالقتال، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك من ذِكرِ السبب مكان المسبَّب والعكس.

وهذا السياق يؤيِّد أنَّ القتال لم يُشرع في الإسلام إلا للضرورة، ومنها: الوقوف دون نشره في الأمم، وذلك من أحكامه العادلة وأصوله الكاملة ومبادئه الجليلة، وهي الحرب للمُحَارب، والوفاءُ للمعاهَد، والسِّلم للمُسَالِم، وعدم الطمأنينة للمُخَادع إلىٰ أن يَجْنح للمسالمة علىٰ وَجْهٍ يدعُو إلىٰ الطمأنينة، أو يقاتل لاعتباره عدواً محارباً. ولذلك كانوا يطلبون من الأمم إحدىٰ ثلاث: الدخول في الإسلام دون تفريق، أو إعطاء الجزية فيكونون رعية، أو الجهاد.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٩٢ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾.

ولما أمر سبحانه وتعالىٰ بقَتْل هؤلاء المنافقين، ومن المعلوم أن أمر النفاق غير جليٍّ، كان من المحتمل أن يقع خطأ في ذلك، فيقتل المؤمن والمعاهَد، بتوهُّم أنه من

هؤلاء المنافقين، فبيَّن سبحانه وتعالىٰ حكم ما يقع من هذا الخطأ، بصورة قاعدة تشريعية عامة تشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في مثله، فهي تتميمٌ للبحث بحسب السياق، وتشريعٌ عام بحسب الصيغة، وصاغ العبارة بصيغةٍ تؤذن بوجوب التدقيق في تحرِّي حال المظنون، حَذَراً من أن يكون مؤمناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾.

وهذا الضربُ من النفي يسمَّىٰ نَفْيَ الشأن، وهو أبلغ من نفي الفعل، أي: ما كان من شأن المؤمن ـ من حيث هو مؤمن ـ أن يقتل أحداً من أهل الإيمان إلا خطأ؛ لأنَّ الإيمان ـ وهو صاحب السلطان علىٰ النفس والحاكم علىٰ الإرادة والمصرِّف لها ـ يمنعه أن يجترح هذه الكبيرة عمداً، ولكنه قد يفعل ذلك خطأ.

فالآية بحسب السياق تعليلٌ لما جاء في الآية السابقة من النهي عن قَتْل مَنْ جاء محصور الصَّدر، إذ لا يجوز أن يَقْتُلَ المؤمنُ عمداً مَنْ كان فيه أدنىٰ مظنَّة من إيمان يُخفيه خَشْيةَ المعتدين، ولكن قد يقع فيه خطأ، فبيَّن حكم القتل الخطأ بصورة قاعدة عامة تشمل ما قبلها وغيره، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: إلا أن يعفُوا عنها ويُسقِطوها باختيارهم. وسُمِّيت الدية: العَقْل؛ لأنَّ الأصل فيها عند العرب: الإبلُ تُعقَلُ في فناء دار المقتول، وقد فرضها ﷺ مئةً من الإبل أو قيمتها[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٥٤١)، وأحمد (٦٧١٩)، عن عبد الله بن عمرو بلفظ: «أن النبي ﷺ قضىٰ أن مَن قتل خطأ فديته مئة من الإبل؛ ثلاثون بنت مخاض، وثلاثون بنت لبون، وثلاثون حِقّة، وعشرة بنو لبون ذكور».

وجاء في الأثر: كانت قيمة الدية علىٰ عهد رسول الله ﷺ ثمانمئة دينار أو ثمانية آلاف درهم، حتىٰ استخلف عمر فقام خطيباً، فقال: إن الإبل قد غَلَت. ففرضها عمر علىٰ أهل الذهب ألف دينار، وعلىٰ أهل الوَرِقِ اثني عشر ألفاً من الدراهم، وعلىٰ أهل البقر مئتي بقرة، وعلىٰ أهل الشياه ألفي شاة، وعلىٰ أهل الحلل مئتي حلَّة، وترك دية أهل الذمة لم يرفعها فيما رفع من الدية. رواه أبو داود[1].

وقال البعض: إنَّ تنكير الدية في الآية يُشعر بأنها غير واجبة التحديد والتعيين، ولكن تختلف باختلاف العُرْف والزمن، بالصورة التي تصلح أن تكون عوضاً صحيحاً[2].

وقد اختلفوا في دية الكافر، فقيل: إنها علىٰ النصف من دية المؤمن.

ثم تابع سبحانه وتعالىٰ البيان عن أحكام الدية، وقال: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فإن كان المقتول من أفراد أعدائكم إلا أنه مؤمن ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ فقط، ولا تجب الدية لأهله، لأنهم محاربون لكم، ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: معاهدة سلم أو ذمَّة ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: الواجب في قتل المُعاهَد والذِّمي من قوم مُعاهَدين وذِّميين، هو نفس الواجب في المؤمن من قوم مؤمنين، وهي الدية والكفارة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة التي يعتقها، كأن انقطع الرقيق كما هو الآن ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، فإن أفطر يوماً بغير عذر شرعي استأنف وكان ما صامه قبله كأن لم يكن. وإنما شرع الله ذلك ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ

---

(١) برقم (٤٥٤٢).

(٢) الضعفُ في هذا القول ظاهر، فالدية عقوبة منصوصة ليست تعزيرية، وما كان من العقوبات كذلك فشأنه أن يكون مُحَدَّداً ومُقدَّراً شرعاً.

عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ في وَضْع الأحكام التي تُصلح نفوسكم وتُحسِنُ تأديبكم. وإنما جعل هذه العقوبة علىٰ الخطأ، لأنه لا يخلو من التهاون وعدم العناية بالاحتياط.

ثم ختم السياق بإتمام ما بدأه به وتكميله، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهو قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾، فبيَّن جزاء قتل المؤمن عمداً، بما يوافق مفهوم هذه الآية من كونه ليس من شأنه أن يصدر إلا عن مشرك من هؤلاء المعارضين للمؤمنين، فقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾، وهذا الجزاءُ العظيم لا يُشبِهُ إلا جزاء الشرك، أعاذنا الله. وإنما أخَّره ليختم به السياق مبالغةً في التحذير والإنذار الذي بدأ به الآية.

ويجوز أن تكون هذه الآية بحسب السياق تدورُ حول محور البحث عن المشركين والمنافقين، تتوعَّد مَنْ قتلَ منهم مؤمناً أثناء قتالهم ـ والله أعلم ـ ختم بها السياق.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام[1]: وبعد هذا أراد تعالىٰ أن ينبِّه المؤمنين علىٰ ضربٍ من ضروب قتل الخطأ، كان يحصل في ذلك العهد عند السفر إلىٰ أرض المشركين لقتالهم، وذلك أنَّ الإسلام كان قد انتشر، ولم يبق مكان في بلاد العرب وقبائلهم يخلو من المسلمين أو ممَّن يميل إلىٰ الإسلام، ويتربَّصون الفُرَصَ للاتصال بأهله للدخول فيهم، فأعلم الله المؤمنين

(١) يعني: الشيخ محمد عبده.

بذلك، وأمرهم أن لا يحسبوا كلَّ مَنْ يجدونه في دار الكفر كافراً، وأن يتبيَّنوا فيمن تظهر منهم علامات الإسلام، كالشهادة أو السلام الذي هو تحية المسلمين، وعلامة الأمن والاستئمان، وأن لا يحملوا مثل هذا علىٰ المُخَادَعة، إذ ربما يكون الإيمان قد طاف علىٰ هذه القلوب وألمَّ بها، إن لم يكن قد تمكَّن فيها[1]، فقال عزَّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: سِرْتُم في جهاد أعدائكم ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾ في قتل مَنْ أشكل عليكم أمرُه، وتثبَّتوا في استكشاف شأنه، ولا تَتعجَّلوا.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أي: لمن أظهر السلام بصُورة واضحة أو اسْتَسْلم لكم، مُظْهراً أنه من أهل مِلَّتكم ودعوتكم، لا تقولوا له: إنك ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ﴾ بذلك ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو الحصول علىٰ المَغْنَم، وما أذن الله لكم في قتال الذين يقاتلونكم لتكونوا مثلهم في أطماعهم الدنيويَّة، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ مِن رزقه وفواضل نِعَمِه.

وقد هدىٰ الله المؤمنَ بهذه الآية إلىٰ أن يتَّهم نفسَه، ويفتش عن قلبه، ولا يبني الظن علىٰ ميله وهواه.

ثم زاد المعنىٰ بياناً بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي: تَسْتَخْفُونَ بدينكم من قومكم كما يستخفي هذا الذي ألقىٰ إليكم السلام بدينه من قومه، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: بالهجرة والقوة حتىٰ أظهرتم الإسلام ونصرتموه، وقيل: بل المعنىٰ: كذلك كنتم كفاراً مِثلَ مَنْ قَتَلتُم بتُهمة الكفر، فمنَّ الله عليكم بالهداية إلىٰ الإسلام، فمنكم من أسلم لظهور حقية الإسلام له من أول وهلة، ومنكم من أسلم تَقيَّة أو لسبب آخر حتىٰ حَسُن إسلامه عندما خبر الإسلام وعرف محاسنَه.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٨٢).

ثم كرَّر الأمر بالتَّبيُّن، للمبالغة في التَّحذير عن الوقوع في مثل هذا الخطأ، وقرنه بالوعيد، وقال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ ولا تأخذوا بالظنِّ في مثل ذلك، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾ لا تخفىٰ عليه نيَّاتكم وأعمالكم، وإذا أخطأتم في العفْو عن الكافر فهو أهوَنُ بكثير من الخطأ في قتل المؤمن.

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٩٥ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٩٦﴾.

ولما كانت هذه المعاتبة عمَّا صدر منهم، وهذا التكرار في طلب التَّبيُّن المقرون بالتحذير والوعيد، ربما يجعل في القلوب شيئاً من الفتور في أمر الجهاد، أردف الكلام ببيان فضيلة المجاهد وعُلوِّ درجته، وذكر ذلك بصورة قاعدة تشريعيَّة تكريميَّة عامة، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ﴾ عن الجهاد في سبيل الله ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ كالأعمىٰ والمُقْعَد والزَّمِن والمريض، ﴿وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾[1].

ثم فصَّل ذلك التفاوت المفهوم من نفي المساواة بقوله: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أُولي الضرر ﴿دَرَجَةٗ﴾ عظيمة، ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، لأنَّ قعود هؤلاء القاعدين ليس تكاسلاً وتباطؤاً، بل لا صُنع لهم فيه. هذا هو فضل

---

(١) لما جاء في السياق الأمر بالجهاد رغَّب فيه وذكر فضيلته، ولما كان الجهاد فرض كفاية؛ إذا قام به من يندفع بهم العدو ويحصل بهم الغلب، سقط عن الباقين، كان القائمون به هم أهل الحظ الوافر، فبيَّن أولاً امتيازهم بذكر الدرجة، ثم ذكر عظم أعطيتهم بذكر الدرجات. وقيل: الدرجة فيما خوَّلهم في الدنيا، والدرجات ما جَعَله لهم في الآخرة، وإن كان المؤمنون كلُّهم موعودين بالحسنىٰ. (المؤلف).

المجاهدين علىٰ القاعدين أُولي الضرر، أما فَضْلهم علىٰ القاعدين غير أُولي الضَّرر فقد بيَّنه بقوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ بأموالهم وأنفسهم ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ تكاسلاً وإيثاراً للراحة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾؛ بيَّنه بقوله: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً﴾ لما سبق لهم من الذنوب ﴿وَرَحْمَةً﴾ لا حدَّ لُمنتهاها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم وَصَل الكلام عن أولئك المُخْتفين بدينهم والتوصية بهم، وعن المجاهدين في سبيل الله، بالكلام عن وجوب الهجرة من ديار الشرك إلىٰ دار الإسلام، تمكيناً لهم من أداء دينهم وإظهاره، وتقْويةً للمسلمين، وقَرَنَ ذلك بالتوعُّد لمن يتركها مع القدرة عليها.

وقال في «المنار»: لما كانت بلاد العرب في ذلك العهد قسمين: دار هجرة المسلمين ومَأْمنهم، ودار الشرك والحرب. وكان غير المسلم في دار الإسلام حراً في دينه لا يُفْتن عنه، وحُراً في نفسه لا يُمنَعُ أن يسافر حيث شاء. وأما المسلم في دار الشرك فكان مُضْطهداً في دينه، يُفتَنُ ويُعذَّب لأجله، ويُمنَعُ من الهجرة إن كان مُسْتَضْعفاً لا قوَّة له ولا أولياء يحمونه؛ كانت الهجرة لأجل هذا واجبة علىٰ كلِّ مَنْ يُسلِم، ليكون حُراً في دينه، آمناً في نفسه، وليكون ولياً ونصيراً للنبيِّ ﷺ والمؤمنين الذين كان الكفار يهاجمونهم المرّة بعد المرّة، وليتلقَّىٰ أحكام الدين عند نزولها.

وفي مثل هذه الحال ينقسم الناس بالطبع إلىٰ أقسام؛ منهم من ذكرنا.

ومنهم القوي الشجاع الذي يُظهِرُ إيمانَه وهجرتَه، وإن عرّض نفسه للمقاومة.

ومنهم مَنْ يُـؤْثر البقاء في وطنه بين أهله، لأنه ـ لضعف إيمانه ـ يؤثر مصلحة الدنيا التي هو فيها.

ومنهم الضعيف الـمُستَضعَف الذي لا يقدر علىٰ التحفّظ من مراقبة المشركين وظلمهم، ولا يدري أية حيلة يعمل، ولا أي طريق يسلك.

وقد بيَّن الله تعالىٰ حكم من يترك الهجرة لضعف دينه وظلمه لنفسه مع قدرته عليها لو أرادها، ومَنْ يتركها لعجزه وقلَّة حيلته وظلم المشركين له. وابتدأ بالصنف الأول، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[1] بتركهم العملَ بالحق وإقامةَ الدين كما ينبغي خوفاً من الأذىٰ مع قدرتهم علىٰ الهجرة إلىٰ مأمن من ذلك، إنَّ هؤلاء قد بيَّن سبحانه مصيرَهُم ومحاورة الملائكة لهم بما حكاه بقوله: ﴿قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ أي: في أيِّ وَضْع كنتم؟

قال صاحب «الكشاف»: معنىٰ: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ التوبيخ بأنهم لم يكونوا في شيءٍ من الدين، حيث قدروا علىٰ المهاجرة ولم يهاجروا، فاعتذروا من تقصيرهم الذي وُبّخوا عليه، و﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] أي: إننا لم نستطع أن نكون في شيء يعتدُّ به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا.

---

(١) إنَّ هذه الآيات امتدادٌ لما سبق من الترغيب في أمر الجهاد؛ لأنَّ هذه الزمرة تركت الهجرة واللحوق بجيش المسلمين مع أنها قادرة عليها. وفوق ذلك أنها لا تقدر علىٰ إتمام فرائض الإسلام وواجباته في مكانها. (المؤلف).

وما سلف من كلام المؤلف في المتن هو في تفسير «المنار» (٥: ٢٨٩).

(٢) «الكشاف» (١: ٥٥٥).

فردَّ الملائكة عليهم هذا العذر، و﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾، وأنتم قادرين علىٰ ذلك، وتُحرِّروا أنفسكم من رقِّ الذل الذي لا يليق بالمؤمن، ولا هو من شأنه، وتلتحقوا بالمؤمنين وتكونوا عَوْناً لهم علىٰ أعدائهم، وتشُدُّوا أزرهم؟ فَسَجَّل عليهم سبحانه هذا الوعيد، وقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾[1]، فتَوعَّدهم كما يَتوعَّد الكفار؛ لأنَّ الهجرة للقادر كانت شرطاً لصحَّة الإسلام. وقيل: بل جهنم لهم مأوىٰ مؤقتٌ علىٰ قدر تقصيرهم وما فاتهم من الفرائض.

وأخرج البخاري[2] عن ابن عباس: أنهم أناسٌ من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم علىٰ رسول الله ﷺ.

وقيل: بل كانوا من المنافقين الذين أظهروا الإسلام ولم يتبطَّنوه.

وقال صاحب «الكشاف»: هذه الآية دليل علىٰ أنَّ الرجل إذا كان في بلد لا يتمكَّن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، أو علم أنه في غير بلده أقْوَمُ بحقِّ الله وأدْوَمُ علىٰ العبادة، حقَّت عليه المهاجرة[3].

وقال الأستاذ الإمام[4] في تفسير هذه الآية: فهُم لحبِّهم لبلادهم وإخْلادهم إلىٰ أرضهم وسكونهم إلىٰ أهليهم ضعفاءُ في الحق لا مُسْتَضْعَفون[5]. مثل الذين

---

(١) هذه الآية هي التي حفزت المؤمنين الأُوَل علىٰ الهجرة من مكة قبل الفتح. وعلىٰ هذا جاء قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤]، يعني: الذين يكرهون الهجرة ويصرفون الآباء والأزواج عنها. (المؤلف).

(٢) (٤٥٩٦).

(٣) «الكشاف» (١: ٥٥٥).

(٤) يعني: الشيخ محمد عبده.

(٥) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٠).

استثناهم الله سبحانه من هذا الوعيد، فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ أي: عَفُوّاً للمخالفات التي لها أعذار مقبولة فلا يُؤاخذ عليها.

ثم رغَّب سبحانه بالهجرة تنشيطاً لهؤلاء المستضعفين، وتحريضاً عليها وعلىٰ استنباط الحيَل لها، فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾، أراد بالـمُراغَم: المأوىٰ والمخْلَص والمُتحوَّل وطيبَ المهجر، يُراغمُ به أنوف الأعداء، وباعتبار الجنس وصفه بالكثرة، وأراد بالسَّعة: سَعَـة العيش. وهذا ترغيبٌ في الهجرة من دار الكفر إلىٰ دار الإسلام من حيثُ أمرُ الدنيا، وأما من حيث الآخرة فقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ يغفر ما سبق له من الذنوب، ﴿رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ يشملُه بعطفه ويَغْمُرُه بإحسانه. فقد وعد سبحانه مَنْ يهاجر فيصلُ إلىٰ دار الهجرة بالظفر والسَّعة، وَوَعد من يموت في الطريق قبل بلوغها بأجر عظيم، يضمنه له عزَّ وجل.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا

مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

قال في «المنار» ما معناه: ولما كان السياق في أحكام الجهاد في سبيل الله، وجاء فيه حكم الهجرة، ذكر رخصة القَصْر للصلاة في هاتين الحالتين، علىٰ نهج القرآن في تنويع المواضيع للمناسبات والملابسات، وعدم تأخير البيان عن وقت الحاجة، فقال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾[1].

قال ابن جرير: فِتنَتُهُم إيَّاهم: حَمْلُهم عليهم وهم ساجدون[2].

وقال الأستاذ الإمام: هذه الآيات في بيان من سافر للجهاد، أو هاجر في سبيل الله، إذا أراد الصلاة وخاف أن يُفتن عنها. وهذا القَصْرُ ليس هو قَصْرَ الصلاة الرباعية في السفر المبيَّن بشرطه في كتب الفقه، فذلك مأخوذ من السنة المتواترة. وأما هنا فهو في صلاة الخوف، كما وَرَدَ عن بعض الصحابة وغيرهم من السلف[3].

ثم بيَّن الكيفية في صلاة الجيش في الحرب بقوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ ولا يُلقُوها، وتبقىٰ الطائفة الأخرىٰ مراقبةً للعدو، تحرس المصلِّين، ﴿فَإِذَا سَجَدُوا۟﴾ أي: المصلُّون الذين قاموا معك ﴿فَلْيَكُونُوا۟﴾ أي: الذين يحرسونكم ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾ لأنَّ أحوَجَ ما يكون المصلِّي للحراسة إذا كان ساجداً، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ وهم الذين كانوا يحرسون و﴿لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ كما فعل مَنْ قبلهم.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٦ - ٢٩٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٩: ١٢٣).

(٣) تفسير «المنار» (٥: ٢٩٩).

ويجوز أن يكون المرادُ من الذين يكونون من ورائكم: نفسَ الذين سجدوا، أي: فليذهبوا للحراسة، ولتأت الطائفة الأخرىٰ للصلاة. وعلىٰ كلٍّ، فيجوز أن تكون كلمة (وراء) بمعناها الحقيقي، أو مُسْتَعارة للحفظ والحراسة، وهو الأَوْلىٰ، فلا يشترط أن يكونوا وراءهم بالفعل، ولكنهم يكونون في المحل الذي تـقْتضيه الحراسة والدفاع، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

ثم رخَّص سبحانه بعد حَمْل السلاح في الصلاة للجميع، أو للبعض إن كان هناك عذرٌ، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡ﴾؛ إذ يشقُّ حَمْلُ السلاح وقت الصلاة في مثل المطر، وربما أفسده الماء لأنه سبب الصدأ. وأمرهم عند ذلك بالحذر من العدوِّ كأن يجعلوها في مُتناولهم وقريباً منهم، فقال: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ فإنَّ عدوَّكم لا يَغْفُل عنكم ولا يرحمكم.

ثم ختم الآية بما فيه بشارة لهم بالغلب، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ أي: بما هداكم إليه من أسباب النصر وقبولكم لها.

ثم أدَّبهم بما يجب أن يتَّصفوا به علىٰ الدوام حتىٰ في حالة الحرب، فقال: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ أي: في سائر الأحوال، وذلك بأن تَتَذَكَّروه وتستعينوا به في كلِّ ما يعرض لكم من مشاكل الحياة، صَغُرَت أو جَلَّت، وتعتمدوا عليه وتصمدوا إليه.

ثم أعقب الرخصة في صلاة الخوف بوجوب إتمامها مع الإقامة في غيره، زيادةَ اهتمام بها، فقال: ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: ائْتُوا بها مُقامةً تامَّة الأركان ونظام الجماعة.

ثم ختم السياق بما هو كالتَّعليل لوجوب المحافظة علىٰ الصلاة حتىٰ في وقت الخوف، فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي: فرضاً مؤكَّداً في أوقاتها المعيَّنة، لا عُذْر لتركها ولا لتأخيرها عن وقتها مهما كلَّف الأمر واشتدَّ الحال.

ومن دلائل الاهتمام بها: أنها فُرضت في السماء أثناء المعراج، في جذوة من الإشراق، ولم يكن أمرها كبقية الفرائض، وفُرِضت أولاً خمسين لتستوعب العمر بحُكْمِ روحيَّة الإنسان ومَلَكيَّته، ثم خُفِّفت إلىٰ خمس بحُكْمِ شواغل ماديَّته، رحمةً منه تعالىٰ، ورمزاً إلىٰ أنَّ هذه الخمسة في عداد الخمسين، فكلُّ ذلك من أمارات عَظَمةِ شأنها، وقوَّة أثرها في شأن الإنسان دنيا وأخرىٰ، والله أعلم.

ولما بيَّن شدَّة عداوة الكفار لهم وتربُّصَهم غَفْلَتهم ليوقعوا بهم، نهىٰ عن الضعف في لقائهم، وأقام الحجَّة علىٰ أنَّ المشركين أجدر بالخوف منهم، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وهو إحدىٰ الحُسنَيَين: النصر أو الجنة بالشهادة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما تعملون وما تُضمِرون ﴿حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ فيما يضعُ لكم من الأنظمة والتكاليف.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾.

وبعد أن أمر المؤمنين أن يأخذوا حِذْرَهُم من الأعداء المجاهرين، عادَ بالكلام إلىٰ الأعداء المنافقين، علىٰ نهج القرآن في العودة، وحذَّر من تدليسهم وتضليلهم، وبيَّن ذلك في حادثةٍ صدرت منهم مع النبيِّ ﷺ في بعض الغزوات، حيث حاولوا أن يحملوه بإيهامهم وتضليلهم أن يحكم حكماً خاطئاً، باعتماده علىٰ كلامهم، وذلك أنَّ رجلاً منهم سَرَق درعاً ولما خاف أن يُعثَرَ عليه، طرحها في بيت يهودي، فقال اليهودي: ما سرقتها، ولكن طُرحت عليَّ. فقام المنافقون يُبرِّؤون السارق، ويُلْقون التُّهمة علىٰ اليهودي، واندفَع معهم بعضُ المؤمنين ببساطة وحُسْن نيَّة، وبعضُ من دخلوا في الدين حديثاً، وأدخلوا علىٰ الرسول أنَّ هذه التهمة هي من كيد اليهود للإسلام، حتىٰ مال النبيُّ ﷺ إليهم ببعض القول، وكاد أن يحكم بقطع يد اليهودي، فأطلع الله رسوله علىٰ جليَّة الأمر، وأمره أن لا يلتفت إليهم، ولا يقبل منهم، فقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: من الأحكام فاحكم به، ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾[1] تُخاصِمُ عنهم وتُناضِلُ دونهم، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ مما يَعرِضُ لك من نَحْو مَيْل إلىٰ مَنْ تراه ألحن بحُجَّته، أو تُحسن الظن به، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾ يَغْفِرُ لك خطأك بعد أن يُشعرك به[2].

والآيةُ بعمومها تتضمَّن تشريعاً عاماً، وهو تحريم إهمال التدقيق في الحكم.

ثم صرَّح بما فُهِمَ ضمناً، مبالغةً في النهي، وقرناً له بالوعيد، فقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها لِغَضَب الله وتحميلها ما لا يرضاه، حيث

---

(١) إنَّ التعبير عمَّا فات عليه ﷺ من تَغْرير المنافقين والتَّمويه عليه، بالمخاصمة عنهم، جاء علىٰ طريق المبالغة في النقد، والتغليظ في العتاب والتوجيه. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (٩: ١٨٤ - ١٩٥)، عن ابن زيد.

يحملونها علىٰ الخيانة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾، والويل لمن لا يحبه الله. وفي هذا التعبير مبالغة في شدَّة التوعد.

ثم بكَّتهم وشنَّع عليهم، فقال: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ حياءً منهم وخوفاً من ضررهم، فيلقون بالسرقة في بيت بريء، ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: لا يَستَحيُونَ منه وهو عالمٌ بهم، ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يُدبِّرون ويُزوِّرون ليلاً ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: قولاً مُزْوَّراً لأجل تبرئة أنفسهم ورَمْي غيرهم بخيانتهم وجريمتهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ لا يفوتُه شيءٌ منه، وسيُجازيهم عليه.

ثم أنَّبهم وسَخَّفهم في محاولتهم دفع التُّهمة عن السارق بالتَّمويه، وضمَّنه التوعّد، فقال: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي: مُهَيْمناً وحاكماً غير الله، يوم يكون الخصمُ والحكمُ هو الله سبحانه المحيط بكلِّ شيء علماً. والمعنىٰ: هَبُوا أنكم موَّهْتُم عنه في هذه الحياة وأنقذتموه من القصاص، فمن يُمِوِّه عنه غداً عند الله.

وأتىٰ بصيغة الجمع في المُجَادَل عنه أيضاً، ليتناول الكلام كلَّ مَنْ كان كذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله، ليكون حكماً عاماً.

قال الأستاذ الإمام: وإنَّ مثل هؤلاء الخائنين يُوجَدون في كلِّ زمان. وهذا النَّهيُ لم يكن مُوَجَّهاً إلىٰ شخص النَّبيِّ ﷺ خاصَّة، وإنما هو تشريعٌ وُجِّه إلىٰ المكلَّفين كافَّة في خطاب النبيِّ ﷺ، ليكون تشريعاً مستمراً[1].

وقيل: إن الآيات جاءت في أهل بيت من المنافقين، جادل عنهم جيرانُهم من المؤمنين بحُسن نية، فالنهيُ عن المجادلة خطابٌ لهم في شخص النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، أو خطابُ المفرد للنبي ﷺ وخطابُ الجمع لهم.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٢٥).

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾.

ثم ذيَّل الكلام بهذا البيان العام فتحاً لباب التوبة، فقال: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ يسوءُ به غيرَه، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بعمل تختصُّ جريمته به، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ بالتوبة الصادقة واسترضاء ذلك الغير، ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ إذ باستطاعة كلِّ مؤمن إذا زلَّت قَدَمُه بخطيئة ثم ندم وتألَّم أن يلجأ إلىٰ الله سبحانه نادماً متألماً، طالباً منه أن يغفر له زلَّته، وأن يمنحه عفوَه ورحمتَه.

ثم تابع الكلام ببيان أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ لا يضرُّه عملُ السُّوء، وإنما ضرره علىٰ صاحبه، فقال: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، فنهيُه سبحانه عن الآثام إنما هو لمصالح الناس، لا لمصلحته تعالىٰ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾﴾ فيما يضعُ لكم من الأوامر والنواهي. فهو بعلمه تعالىٰ حدَّد الشرائع التي يضرُّ تجاوزُها، وبحكمته جَعَل لها عقاباً يضرُّ المتجاوز لها، فهو إذن يضرُّ نفسه ولا يضرُّ الله شيئاً.

ثم تمَّم البيان بما يتعلَّق بنفس السياق لتقرير حكم عام يشمل هذه القضية وغيرَها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً ﴾ وهو ما يُفعَلُ خطأ، ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ وهو ما يُفعَلُ عمداً وقصداً، ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ أي: فيكون جُرْمُه عظيماً، جرم الإثم، وجرم اتِّهام غيره به وتزويره عليه. فهو أمر لا يُغْتفر ولا يهون.

وبعد أن ذكر هذا الحكم العامَّ المتعلِّق بالسياق، عادَ إلىٰ نفس السياق مُكَمِّلاً له ومُقَرِّراً، علىٰ نهج القرآن في العودة واستقصاء البحث بالتحليل من سائر وجوهه، وضمّن الكلام تأديباً له ﷺ وتمنُّناً، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بإعلامك ما هم عليه ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ عن الحكم العادل، بتُهمتهم لليهودي البريء، إما نفاقاً منهم إن كانوا منافقين، وإما توهُّماً أن الإسلام يبيح الانتصار للمسلم علىٰ غيره ولو بمثل ذلك إن كانوا من ضَعَفة الإيمان أو الحديثين فيه، فجاءك الوحيُ معرِّفاً لك ما أضمروه من البهتان، ﴿وَمَا﴾ كانوا ﴿يُضِلُّونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بانحرافهم عن الصراط المستقيم، الذي هدىٰ الإسلام إليه، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ لأنك اندفعت مع ظاهر الحال، والله عاصُمك من الضلال، ﴿وَ﴾ قد ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي فقهُه ﷺ بمقاصده، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

ثم ندَّد بأمر النجوىٰ في سياق الكلام علىٰ أولئك المتناجين المبيِّتين للمكيدة بقسميهم، وهم المبيِّتون غير الذي يقول الرسول بعد أن قالوا له: طاعة، والمبيِّتون ما لا يرضىٰ اللهُ من القول، وهو تُهمة اليهودي، أو يدبِّرون مكيدة لهم. وجعل الكلام شاملاً للذين يرمون الأبرياء أيضاً، أو يغمُّون الناس ويحزنوهم، ولذلك أخَّره، وذكره بصورة قاعدة تشريعيَّة عامة تشملهم وغيرهم، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال:

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾[١]، والضمير عام لكلِّ مُناجٍ ومُتكلِّم.

ثم استثنىٰ من عموم اللفظ قولَه: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٢]، فالكلام بحسب السياق تعليقٌ علىٰ ما سبق، وبحسب الصيغة تشريعٌ عام، علىٰ نهج القرآن في مثله. وهو تنديدٌ بطبيعة النَّجوىٰ وحالِها، وأنها لا تكون

---

(١) مثل هذا التركيب يدل علىٰ ثلاثة أصناف: الصنف المتحقِّق خيره وهو ما بعد الاستثناء. وصنفان سيِّئان: أحدهما: يتحقق شره، والثاني: لا خير فيه ولا شر، فهو منفيٌّ عنه الخير أيضاً. وعلىٰ حدِّ هذه الآية قولُه تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، فهذا البعض مُتحقِّق الإثم، وما عداه محتمل للإثم والسلامة علىٰ اختلاف في الجهة الغالبة، وللاحتراس من الوقوع في الإثم أمرنا بالاجتناب عنه ما لم يكن فيه ضرورة كالحذر والوقاية، وعدم الإضرار بالغير، وهذا هو الصنف الثالث ما بين البعض والكثير.
والإصلاح بين الناس من أهم العناصر الاجتماعية؛ لأن العداوة بين شخصين تجرُّ إلىٰ العداوة بين العائلتين وأصدقائهما، وقد تتطوَّر إلىٰ انقسام الأمة إذا كان الشخصان من الرؤساء، وربما إلىٰ سفك الدماء. فالإصلاح من صفات النفس الرفيعة، يفضي إلىٰ النفع والخير، ويجعل الأمة متماسكةً تسعىٰ للمصالح ودرء المفاسد. (المؤلف).

(٢) هذه الأمور الثلاثة في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ هي جماعُ الخير المتعلِّق بشؤون الناس، لا يكاد يشذُّ عنها شيءٌ منه؛ لأن الصدقة تمثِّل النفع المادي، والأمر بالمعروف يمثِّل النفع الروحي، والإصلاح بين الناس يمثل دفع الشر عن الأفراد والجماعات، لا فرق بين مؤمن وكافر، فالدول المتحاربة والقبائل المتقاومة والفرق المتنافسة والأفراد المتشاكسة، كلُّ هؤلاء يطلب سبحانه الإصلاح بينهم، ويراه خيراً عظيماً. فهو يحب أن يكون الناس جميعاً متآلفين، تربط بينهم صلات الإنسانية والمحبة والتعاون، ويكره أن يفرقهم التناكر والتخاذل. وإنما أتىٰ بهذا البيان جرياً علىٰ سنة القرآن إذا ذكر قصة أو حادثة قفَّىٰ عليها بما يرشد الناس إلىٰ تجنُّب ما جاء فيها من شرور، وما تضمنته من أحوال رديئة خارجة عن الحق والصواب. (المؤلف).

في الغالب إلا بشرٍّ وإفساد، كما جرىٰ لهؤلاء. فالآيةُ ـ بحسب الصيغة ـ للنَّهي عن النَّجوىٰ، لأنها قليلةُ الخير كثيرةُ الشر، مظهر من مظاهر الإثم والعدوان، كما أشارت إلىٰ ذلك سورة المجادلة.

وقال الأستاذ الإمام: إنَّ الكلام في الذين يختانون أنفسهم، ويَسْتَخْفون من الناس ولا يَسْتَخْفون من الله. ومعنىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: أنَّ الغالبَ عليهم الشرُّ، فهو الذي يجري في نَجْواهم، لأنه أكبر همِّهم.

ثم استثنىٰ من عموم اللفظ علىٰ طريقة الاستثناء المنقطع، هذه الأمور الثلاثة، بمعنىٰ: أنَّ أكثر النجوىٰ لا خير فيه، إلا أن تكون النجوىٰ في هذه الأمور الثلاثة. والنكتة في ذكر الكثير هنا هو أنَّ من النَّجوىٰ ما يكون في الشؤون الخاصَّة بالمتناجين بما لا يُراد إفشاؤه، فلا تُوصَف بالشرِّ ما لم تضرَّ بالغير، ولا هي من أنواع الخير، وإنما المراد بالنجوىٰ الكثيرة المنفي الخير عنها: النجوىٰ في شؤون الغير من الناس، ولذلك استثنىٰ منها الأمور الثلاثة التي هي مجامع الخير للناس[1]. وقد نوَّه بشأنها بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لا رياءً وسُمْعةً ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن وَعْدَه بالجزاء الحسن للذين يتناجَون بالخير، ويبتغون بنفع الناس مَرْضَاةَ الله عزَّ وجل، بيَّن وعيده لأولئك الذين يتناجون بالشر، ويبيِّتون ما يكيدون به للناس، والذين يقولون للرسول: طاعة، ثم يبيِّتون غير ذلك، بيَّنه بصورة قاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في مثله، ناظراً إلىٰ أولئك الذين يُظهِرون الطاعة، فإذا خرجوا بيَّتوا غير الذي يقولون، فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ أي: نتركه وما شاء من اختيار الضلال، ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٣٠).

وقوله: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ يُؤْذِن بأنَّ الإنسان مختار في تصرُّفاته، مستقل في إرادته، وعلىٰ ذلك مدار الثواب والعقاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾.

ثم علَّل جزاء هذه المشاقَّة المتضمِّنة للشرك والناشئة عنه، ببيان فظاعة الشرك، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ومشيئتُه سبحانه إنما تجري بحسب سنَّته وحكمته، وقد جرت سنَّته بأن يغفر للمؤمن من الصغائر واللَّمَم بما يفعله من حسنات، كما جاء في الأثر[1]: إنَّ الصلاة تمحو ما بينها وبين سابقتها مما يصدر عن المصلِّي من لمم وهفوات، وكذلك الحج والصيام. أما ما فوق ذلك، فقد جرت سنَّته تعالىٰ بألَّا يغفر الذنوب إذا لم يَمْحُها صاحبها بالتوبة[2] المتبوعة بالحسنات

---

(١) روىٰ مسلم (٢٣٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الصلاة الخمس، والجمعة إلىٰ الجمعة، كفارة لما بينهنَّ، ما لم تُغْش الكبائر».

(٢) هذا مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلىٰ مذهب المعتزلة في هذه المسألة، وفيه عدولٌ عن ظاهر لفظ الآية، فقد وعد الله تعالىٰ بغفران الصغائر، فنقول به. أما الكبائر فقد توعَّد عليها بالعقاب من جهة، فصار هذا العقاب مُستَحَقاً لصاحبها ما لم يتب، لكنه داخل في عموم آيات الرحمة والمغفرة فيُرجىٰ له ذلك، وعليه فيكون صاحب الكبيرة تحت المشيئة، وهو ظاهر لفظ الآية.

والأعمال الصالحات، التي تُزيل آثارها من نفسه. وعلىٰ هذا الأصل بُنِيَ عدمُ غفران الشرك؛ لأنه يفسد النفوس منتهىٰ الفساد، ويُضِلُّ العقول غايةَ الضلال ويجعل الرُّوحَ قَتاماً سَخاماً، سفيلة شقيَّة، لذلك علَّل سبحانه عدم غفران الشرك بقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾، وأيُّ ضلال أبعد من ضلال مَنْ يشرك بالله الخالق البارئ سبحانه مَنْ لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤]! وجاء عنه ﷺ أنه قال: «أتاني آتٍ من ربي، فأخبرني أن من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة». قال: فقلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: «وإن زنىٰ وإن سرق»[1]. والمعنىٰ: أنه يدخل بعد أن يجازىٰ بأعماله السيئة، أما المشرك فقد حرَّم الله عليه الجنة، ومأواه النار، وإن عمل بعض أعمال إنسانية يخفَّف عنه العذاب.

ثم بيَّن تعالىٰ بعض أحوال المشركين بالله، تسخيفاً لهم وتنديداً بهم، فقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ قيل: المراد بالإناث هنا: الموتىٰ؛ تُطلق عليهِمُ العربُ لفظَ الإناث لضعفهم وعجزهم، فقد كانوا يُعظِّمون الموتىٰ ويدعونها، كما يفعل كثير من أهل الكتاب ومُسلمي هذه العصور[2].

وقيل: هي الأصنام كاللات والعُزَّىٰ ومناة. قال الحسن: لم يكن حيٌّ من أحياء

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٢٢)، ومسلم (٩٤)، عن أبي ذر.

(٢) قَرْنُ مسلمي هذه العصور بأهل الكتاب ومشركي العرب؛ مما لا يُوافَقُ عليه المؤلف رحمه الله، فما يصدر من المشركين من خطاب الأموات ودعائهم ناشئ عن اعتقاد أنهم يضرون وينفعون، أما ما يصدر من بعض المسلمين مما يشبه ذلك فغالبه من باب التوسل، وفيه خلافٌ مشهور، وألفاظُ بعض العوام في ذلك منشؤها الجهل، فالواجب تعليمهم وإرشادهم للصواب، علىٰ أن اعتقادهم سليم في الغالب، وهو أن النفع والضر بيد الله وحده.

العرب إلا ولهم صنمٌ يعبدونه ويسمُّونه: أنثىٰ بني فلان. وقيل: كانوا يُخْلَعون عليها من الحلي ما يخلعونه علىٰ نسائهم وبناتهم.

وعلىٰ كلّ، ففي هذه اللفظة زيادةٌ في التَّسخيف والتَّشنيع. وقُرئ: (إلا أوثاناً)[١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾؛ إذ هو الذي سَوَّل لهم عبادتها. كما حكىٰ تعالىٰ عنه بقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾.

قال الأستاذ الإمام: هو ما للشيطان في نفس كلِّ أحد من الاستعداد للشرّ الذي هو أحد النَّجْدَين. فهذا هو عَوْنُ الشيطان علىٰ الإنسان.

قال صاحب «المنار» ما مُلخَّصه: وهذا القول وأمثاله في القرآن المجيد، في مخاطَبة إبليس مع الباري عزَّ وجل، إنما هو من الأقوال التكوينيَّة التي يعبَّر بها عن تكوين العوالم والمخلوقات وما خلقها الله عليه[٢]، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصِّلت: ١١]. والمعنىٰ: أن الشيطان خُلِقَ هكذا مُغْوياً للبشر مضلاً لهم[٣]. فأكثر الناس بمعاشرتهم للمفسدين منهم، يبدِّلون طبيعتهم الصحيحة التي طبعهم الله عليها وهداهم بها كما هدىٰ سائر المخلوقات، يبدلونها بمصاحبتهم للأشرار منهم إلىٰ طبيعة قبيحة، مخالفة لشريعتهم الغرَّاء وطبيعتهم الصحيحة المهدية بهداية الله.

ثم تابع الحكاية عنه في بعض أنواع الغَواية بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ عن الحق،

---

(١) «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات» لابن جني (١: ١٩٩).

(٢) تقدم التعليق علىٰ هذا التفسير في قصة آدم في سورة البقرة ص٦٧، وبيَّنتُ هناك أن الصواب إجراء هذه الأقوال علىٰ المحاورة الواقعية، أما القول بأنها تمثيلٌ أو أقوال تكوينية فلا دليل عليه، بل فيه العدول عن الظاهر من غير مقتضٍ.

(٣) تفسير «المنار» (٥: ٣٤٨).

﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ بالأماني الباطلة، ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾، وهو ما كانوا يفعلونه بالأنعام من وَسْمها لأصنامهم وخرافاتهم، وذلك بشقٍّ مخصوص في الأذن، أو قطع مخصوص لبعضها، كالبحائر التي كانوا يقطعون أو يشقون آذانها شقاً واسعاً، ويتركون الحَمْل عليها، وكان هذا من أسخف أعمالهم الوثنية وسَفَه عقولهم، ولهذا خصَّهم بالذكر وإن كان داخلاً فيما قبله، وكذلك قوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[1].

وقد ذهب الأستاذ الإمام إلىٰ أنَّ المراد تغيير الفطرة الإنسانية بتحويل النفس عمَّا فُطرت عليه من الاعتدال وصحَّة الأعمال، إلىٰ الانحراف وعمل الرذائل والمنكرات،

---

(١) أي: الفطرة الإنسانية، فقد خلق الله سبحانه الإنسان في أحسن تقويم، وطبعه لتوجيه ذلك التقويم إلىٰ ما أراد الله به سبحانه من السير نحو الكمال وأحسن الأحوال، وأرسل له الأنبياء بالشرائع والتعاليم الملائمة له والمساندة لطبيعته. فإذا تمسَّك بها وعمل بمقتضاها حافظ علىٰ طبيعته ونمَّاها وسار بجودة فطرته وحُسْن تقويمه نحو الهدف الذي خُلق له وهو الكمال، وأحسن الأحوال. وإذا أخرجه الشيطان بوساوسه عن تلك التعاليم، فلم يقبلها وخالفها أو قبلها وأهملها، غيَّر طبيعته عمَّا خلقها الله عليه وحَادَ بها عمَّا خُلقت له وسار معها نحو الانحطاط والتَّسفُّل، فـرُدَّت إلىٰ أسفل سافلين، وانحَطَّت بذلك المسخ والتحطيم إلىٰ ما يشبه أخسّ طبائع الحيوانات وأرذلها، في التَّصرُّف المشين. وقد أشبعتُ الكلام عن هذا الأمر في سورة «والتين» (٨: ٢٨٧-٢٨٨). فارجع إليه.

والحاصل: أن قوله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ عبارة عن الشـرك وملابساته، وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ يريد به الخروج عما فطروا عليه من الاستعداد للإيمان، إلىٰ ما انحرفوا إليه من الشرك، كما جاء في الحديث القدسي: «إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجْتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي...». (المؤلف).

والحديث رواه مسلم (٢٨٦٥)، عن عياض المجاشعي.

فإنَّ الله سبحانه قد أحسَنَ كلَّ شيء خلقه، وهؤلاء يفسدون أنفسهم بتحريف الفطرة[١].

وذهب أكثر المفسِّرين إلىٰ أنَّ المراد به التغيير الحسِّي، كحَلْق الوجه، وأمثاله.

ثم ختم الآية بما فيه تنديد وتهديد، فقال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فينحدر مع غَوايته ويترك هداية الله، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ في مَعَاشه ومعاده.

ثم حرَّر غَواية الشيطان لهم، فقال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ في التَّقرُّب إلىٰ الله بواسطة مَنْ يزعُمون أنهم يُقَرِّبونهم إلىٰ الله زُلْفىٰ، ويحملهم أن يعتقدوا في بعض المخلوقين أنهم في شؤون الله يَتَدخَّلون، ينفعون في الأمور أو يضرُّون، كما يحملهم أن يعتقدوا النفعَ من المضارِّ كالربح من الربا والقمار، والضرر من المنافع كالخسارة من الصدقة والإنفاق في الخير، إلىٰ أمثال ذلك، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾، أي: أباطيل يَفْتريها فيغترُّون بها. والغرور: إظهار النفع بما فيه الضرر، فوساوسه أباطيل وسرابٌ بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماء حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ثم سجَّل علىٰ أولئك المغرورين مصيرهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ أي: مَهْرباً ونجاة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾.

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٥٩).

ثم أردف مصيرَهُم بمصير المؤمنين، كما هو نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي تُصْلح نفوسهم، وَفْقَ ما جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ، ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾، أما أولئك المغرورون المُعْرِضُون عن شريعة الله، فقد اغترُّوا بخداع الشيطان ووقعوا في أحبولته.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الوعد الكريم إنما يكون بالاستحقاق لا بالأمانيّ، فقال: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ إذ كانوا يرون أنهم شعب الله الخاص، لن تمسَّهم النار إلا أياماً معدودة.

ثم قرَّر الحق في ذلك بصورة قاعدة عامة، فقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، لأنَّ الجزاء حسب سنَّة الله تعالىٰ أثر طبيعي للعمل، فإن كان سيئاً يصيبُ روح صاحبه ويُكيِّفها بكيفيَّة سيئة تنال بها العقاب، فيعود عليه بالوبال والنَّكال، من أيِّ ملة وعنصر كان، ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ فلا يُجْديهم نفعاً أولئك الأنبياء الذين ينتسبون إليهم ويستشفعون بهم، ولا يعملون بتعاليمهم الصحيحة. وقد جاء في الحديث: «الكيِّس مَنْ دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسَه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني»(١).

وبعد أن بيَّن النظام العام في عمل السُّوء وجزائه، بيَّن النظام العام في عمل الصالحات وجزائها، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي الأعمال التي تصلح بها النفوس مما جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ في الأوامر والنواهي، من أيِّ شعب كان ذلك العامل، ومن أيِّ صنف كان، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبما جاء عن الله

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن، وأحمد (١٧١٢٣)، عن شداد بن أوس.

علىٰ الوجه الصحيح، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بزكاة أنفسهم وطهارة أرواحهم، ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ أي: ولا يُنقَصون شيئاً وإن قلّ من أعمالهم الصالحة، فلا يُهمَلُ شيءٌ منها، وإن كان في القلّة مِثلَ نقير النواة.

وفي هذه الآية وما قبلها من الموعظة ما يهدم صروح الأمانيِّ من جهلاء المسلمين الذي يعتمدون علىٰ الشفاعة والقرابين، والذين يظنون أنَّ مجرَّد الانتماء إلىٰ الإسلام أو الصُّلحاء كفيلٌ بالنجاة، وقد جاء عن ﷺ: «ليس الإيمان بالتَّمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل»[1].

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا ١٢٦﴾.

قال في «المنار»: ولما بيَّن تعالىٰ أن أمر النجاة، بل السعادة، منوطٌ بالعمل الصالح والإيمان معاً، أتبعه ببيان درجة الكمال في ذلك، وهو الدين القيِّم، فقال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ في ذلك[2]، إذ يخلص له التَّوجُّه، ولم يَتوجَّه معه ولو بعض التوجُّه لغيره، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ أي: مائلاً عن الوثنيَّة التي عمَّت الأرض كلَّ الميل، متمسِّكاً بالتوحيد والتنزيه.

وقد نوَّه سبحانه بشأنه، فقال: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥﴾ أي: اصْطَفاه لتوحيده وإقامة دينه، وكان كاملَ الحب لله، وقد تخلَّل ذلك الحبّ روحه، ولذلك عادىٰ أباه وقومه في حبِّه تعالىٰ والإخلاص له.

---

(١) رواه السُّلَمي في «الأربعين الصوفية» ص٦، عن أنس بن مالك.

(٢) تفسير «المنار» (٥: ٣٥٧).

وقيل: بل المعنىٰ: خصَّه بكرامات تُشبه كرامات الخليل عند خليله، حيث حَبَاه بأقصىٰ سلامة الفطرة، وقوة العقل، وصفاء الروح، وكمال المعرفة، وفنائه في التوحيد، وثباته في ذلك. فهو علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ لـموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

وقال الأستاذ الإمام: ثم ختم السياق بالآية الآتية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ للتذكير بقدرته علىٰ إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها، وللتدليل علىٰ أنه الـمُسْتحقُّ وحده لإسلام الوجه له والتوجُّه إليه في كلِّ حال، ولنـفي ما ربمـا يسبق إلىٰ الأذهان من اللوازم العادية في اتِّخاذ الله إبراهيم خليلاً، كأنْ يتوهَّم أحد أنَّ هنالك شيئاً من المناسبة أو المقاربة، فبيَّن تعالىٰ أنَّ كلَّ ما في السماوات والأرض ملكٌ له ومن خِلْقتِه[1] مهما اختلفت صفات المخلوقات ومراتبها في أنفسها والمميزات، فهو يُحيط بها إحاطةَ قَهْر وتَصَرُّف وتسخير، وإحاطةَ علم وتدبير، ونسبتها إليه نسبة الخالق إلىٰ المخلوق لا غير.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ

(١) في تفسير «المنار» (٥: ٣٥٩): خلقه.

حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

ولما كان من أساليب القرآن الكريم أن يذكر شيئاً من الأحكام، ثم يذكر عقيبه آيات كثيرة في الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويخلط بها آياتٍ دالةً علىٰ كبرياء الله وجلال قدرته وعظمة إلهيته، ثم يعود مرةً أخرىٰ إلىٰ بيان الأحكام، (كما جاء في المادة الثالثة والخامسة من المقدمة الثانية، وفي الفقرة (و) من المادة الأولىٰ منها)؛ عاد بعدما تقدَّم من الآيات إلىٰ أحكام النساء واليتامىٰ، وقرَّر ما سبق منها، فقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، وهذا من أساليب القرآن أيضاً، يضع الأحكام في صورة السؤال والجواب والاستفتاء والفتيا، (كما جاء في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

ويجوز أن يكون قد وقع الاستفتاء فعلاً[1]، والمعنىٰ: يطلبون منك ـ أيها الرسول ـ الفتيا في المُشْكل والغامض من أحكام النساء في الحقوق الماليَّة والزواج والخصام والصُّلح والفراق والعشرة إلىٰ أمثال ذلك، ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾، والمراد بالذي يُتلىٰ عليكم: ما تقدَّم من الآيات في أوَّل السورة في شأن هذه الأحكام، وفيما بعد آيات الفرائض، أي: إنَّ الله يفتيكم بما سيُبَيِّنه هنا، وكذلك يفتيكم به ما تقدَّم من الآيات. فلفظ (ما) معطوف علىٰ لفظ الجلالة أو ضميره المستكن، والكلام علىٰ حدِّ قولهم: أغناني الأمير وإعطاؤه.

---

(١) وهو الحق الذي لا محيد عنه، فهو الذي يفهمه السامع من سماع الآية، وإيرادُه بصيغة سؤال وجواب دون وجودهما في الواقع مما يُنزَّه عنه القرآنُ الكريم.

والمعنىٰ: أفتيتكم قبلُ فعودوا إليه. والمراد ما تقدَّم في السورة من الآيات في هذه المواضيع، يُذكِّرهم سبحانه أن يَتدبَّروها ويتأمَّلوا معانِيَها ويعملوا بها، لأنَّ الإفتاء هو بيان ما يدقُّ ويخفىٰ. وإيثارُ صيغة المضارع في ﴿يُتْلَىٰ﴾ للإيذان باستمرار التلاوة.

والآية تتضمَّن قَطْعَ أملهم من الترخيص في بعض ما ذكر سابقاً من الأحكام، إذ من المتوقَّع بعد أن منعتهم الآيات السابقة في أول السورة من العبث بحقوق النساء واليتامىٰ، فعرفوا شدَّة التَّبِعَة في ذلك، أن يقع لهم اشتباه في بعض الوقائع المتعلقة بذلك، كأن تُحدِّث بعضَهم نفسُه: هل يحلُّ له أن يمنع اليتيمة ما كَتَبَ الله لها ما دام يرغب أن يَنكحها، ويشتبه بعضهم: هل يدخل الحب في العدل بين النساء، إلىٰ أمثال تلك الاشتباهات. فكانت هذه الآية قاطعةً لهذا الأمل، ماحيةً لهذه الشبه، مُحتِّمةً أن يتَّبعوا نصَّ ما تقدَّم من الآيات في ذلك، وما جاء هنا في تكميلها، وبيان ما لم يُبيَّن سابقاً من الأحكام المتعلقة بالنساء.

أي: لا يفتيكم إلا بما تُلي عليكم سابقاً من الأحكام في شأن يتامىٰ النساء اللاتي كنتم لا تُعطونهنَّ ما لهُنَّ من الإرث، و[ترغبون أن] تنكحوهنَّ للتمتُّع بأموالهنَّ، فلا تَنكحونهنَّ ولا تُنكحونهنَّ غيرَكم ليبقىٰ مالُهُنَّ في أيديكم. وكذلك لا يفتيكم إلا بما تُلِيَ عليكم سابقاً من الأحكام في شأن المستضعفين من الولدان الذين كنتم لا تعطونهم حقوقهم من الميراث لصغرهم. فلا تَتوهَّموا أنكم باستفتائكم هذا يفتيكم بغير ما تقدَّم، نزولاً عند رغباتكم، بل يفتيكم بنفس ما تقدَّم، ويُذكِّركم بما سبق من الآيات في حقِّ المرأة واليتيم، أن تتدبَّروها وتفهموا ما احتوت عليه وتعملوا بها، فلا حكم فيهما سوىٰ تلك الأحكام السابقة، وعليكم أن تُعْنَوْا عناية خاصة بتحرِّي العدل في معاملة اليتامىٰ والإقساط إليهم علىٰ أتمِّ الوجوه وأكملها، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ فيُجازيكم عليه الجزاء الأوفىٰ، ويتفضَّل عليكم بالفضل الأسمىٰ.

وقد ورد في نزول الآية: أنَّ حِصْنَ بن عُيينة قال للنبي ﷺ: بلغَنا أنك تُعطي البنت والأخت النصف، وإنما كنا نُورِّثُ مَنْ يشهد القتال ويحوز الغنيمة، فقال ﷺ: «بذلك أُمرت»[1].

ثم ذكر ما وعد ببيانه والإفتاء به هنا من تتمة أحكام النساء، فقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ أي: تجافياً ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة.

رُوي عن بعض مفسِّري السلف: أن هذه الآية نزلت في الرجل تكون عنده المرأة يكرهها لِكِبَر سنِّها أو دمامتها، ويريد التَّزوُّج بخير منها، ويخاف أن لا يعدل بينها وبين الجديدة، فيكاشفها بذلك، ويُخيِّرها بين الطلاق وبين البقاء عنده بشرط أن تُسقط عنه حقها في القَسْم، أي: حصَّتها من المبيت عندها. ومثله الرجل الذي عنده امرأتان يكره إحداهما ويريد فراقها إلا أن تُصالحه علىٰ إسقاط حقِّها في المبيت، أو يعجز عن النفقة عليهما، فيريد أن يطلِّق إحداهما إلا أن تُصالحه علىٰ إسقاط حقِّها من النفقة، إلىٰ غير هذه الصور من صُور الصلح المبنيِّ علىٰ التَّراضي والمعاشرة بالمعروف.

ثم بيَّن تعالىٰ السبب الذي يحُولُ بين الزوجين وبين الصُّلح الذي فيه الخير لأجل أن نتقيه، فقال: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ يقال: أحضره الشيء؛ أي: أتاه به، وأُحضر الشيء؛ أُتي به إليه. والمراد: بيان انطباع النفوس عليه، أي: إنها عُرْضَةٌ له، وحاضرٌ عندها. فعلىٰ كلٍّ من المتصالحين أن يغلب علىٰ ما جُبلت عليه الأنفس من الشحِّ ولا يبخل بما ينبغي بَـذْلُه والتسامحُ فيه من مال أو حقوق زوجية، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا

---

(١) لم أقف عليه.

﴿وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾، فقد حثَّ على إحسان العشرة والتوقِّي من الإعراض والنشوز.

ثم بيَّن حكماً آخر في هذه القضية، صدَّره بما هو كالتعليل لما قبله والتمهيد لما بعده، على نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[1]، أي: في الوجدان النفسيِّ والميل القلبي، مما لا يملكه الإنسان باختياره. وقد جاء عنه ﷺ في ذلك قوله: «اللهمَّ إن هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما لا أملك»[2]، فالعدل هنا غير العدل في أول السورة؛ لأن تلك في العدل بالحقوق، وهذه في العدل بالقلوب. لذلك أمر سبحانه بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بأن تجمعوا إلى مَيْل القلب عنها مَيْل المعاملة أيضاً ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ كأنها لا مُزوَّجة ولا مُطلَّقة، فإنَّ الذي يُغفَر لكم من الميل وما يترتَّب عليه هو ما لا يدخل في

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ إذا قيل: آية تعدد الزوجات مشروطة بالعدل، وهذه الآية تدل علىٰ نفي الاستطاعة علىٰ العدل، نقول: العَدْلان مختلفان في المعنىٰ، فالعدل المشروط إنما هو العدل المادي، أي: في المبيت والطعام والكسوة والسكن وحُسْن العشرة، وهو من المستطاع الميسور. والعدل هنا إنما هو العدل الروحي في مَيْل القلب ودرجة الحب، وهو أمر وجدانيّ ليس بيد الإنسان، ولا مطلوب ومشروط في تعدُّد الزوجات، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول بعد أن يعدل بين زوجاته في العدل المادي: «اللهم هذا قسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»، يعني: درجة الحب والقلب والميل. وقد أتىٰ الإصلاح بمعنىٰ ترك المخاصمة. يقال: أصلح القوم، أي: تركوا النزاع. ويكون المعنىٰ: وإن تتركوا المخاصمة بينكم ويغفر كلٌّ منكم للآخر تتبعون بذلك شأن الله؛ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. (المؤلف).

(٢) رواه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠) عن عائشة. وقال الترمذي: رُوي مرسلاً وهو أصح. وصحَّحه ابنُ الملقِّن في «البدر المنير» (٧: ٤٨١).

الاختيار، ولا يكون من تعمُّد التقصير والإهمال، ﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾ في معاملة النساء، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ظلمهنَّ يغفر لكم ما دون ذلك ممَّا لا تملكون، من مَيْل القلب عنهنّ، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾.

ثم ذكر لحلِّ المسألة وَجْهاً آخر، فقال: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ خَشْيةَ أن لا يقيما حدودَ الله ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وربما يُهيِّئُ لكلٍّ منهما زوجاً صالحاً، أو عيشاً مريحاً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ في فَضْله، ﴿حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ في أحكامه.

فالآية تُشجِّع علىٰ هذا الفراق الواقع بعد استحالة الوفاق؛ لأنَّ مضرَّته ـ وإن عَظُمَت ـ تكون دون مَضرَّة الحياة القائمة علىٰ الكُرْه والشِّقاق، لأنَّها جحيمٌ لا يُطاق.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

ثم أردف بيان هذه الأحكام ببيان عظمته وسلطانه، والوصيَّة بتقواه، حملاً علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ج) من المادة الخامسة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ومُلكاً وتدبيراً.

ثم ذكر ما أوصىٰ به الناس أجمعين، مما يترتَّب علىٰ ذلك السلطان فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في إقامة سُنَنه وشريعته لتعلُوَ معارفُكم، وتَصْطلحَ شؤونُكم، وتزكُو نفوسُكم، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يُنْقِصُ كفرُكم من ملكه شيئاً، ولا يختل به، وإنما ضررُه عليكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ فلا يحتاج إلىٰ شكركم، وكلُّ أوامره خيرٌ لكم.

ثم أعاد تذكيرهم بذلك السلطان، تمهيداً لِتوعُّدهم علىٰ الكفر، وبياناً لقُدرته علىٰ إنجازه ومراقبته لخلقه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ أي: مُهَيمناً ورقيباً فاحذروه، فهو ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بعذاب يُنزله بكم، ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ يحلُّون محلَّكم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾ إذ بيده ملكوتُ كل شيء.

قال في «المنار»: وفي الآية تنبيهٌ للناس وتوجيهٌ لأفكارهم إلىٰ التأمُّل في سُنَنه تعالىٰ في حياة الأمم وموتها، وكَوْن هذه السُّنن قد تعلَّقت بها المشيئة فلا مردَّ لها[1].

ثم أشار إلىٰ أنَّ الإسلام بتعاليمه يهدي أهله إلىٰ سعادة الدارين، وأن ذلك إنما يكون بامتثال أحكامه، فقال: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[2]، فلا تكتفوا بطلب الأدنىٰ الفاني، وتتركوا الأعلىٰ الباقي، والجمع بينهما

---

(١) تفسير «المنار» (٥: ٣٦٩).

(٢) أي: من كان يريد ثواب الدنيا وحدَها فهو خاسر، إذ عند الله ثوابُ الدنيا والآخرة، ومن تعاطىٰ أسباب كلٍّ منهما نالهما. والعملُ للآخرة لا يتنافىٰ مع العمل للدنيا، بل العمل الدنيوي لو قَصَدَ به تأدية الواجب يُؤْجَر صاحبُه عليه ويكون من عمل الآخرة، كالتجارة والزراعة يُقصَدُ بها نفعُ الناس وخدمتهم، أو تحصيل الرزق الحلال. حتىٰ النكاح إن قَصَدَ به التعفّف والنسل فإنه يُؤْجر عليه. وهكذا سائر الأعمال مع صحة القصد وإخلاص النية.
قال ﷺ: «من كانت الآخرةُ همَّه جَعَلَ الله غِنَاهُ في قلبه، وجَمَع له شَمْلَه، وأتَتْه الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همَّه، جَعَل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له». (المؤلف).
والحديث رواه الترمذي (٢٤٦٥)، عن أنس بن مالك.

ميسورٌ لكم باتِّباع هذا الدين وتعاليمه المؤدِّية إلىٰ سعادة الدارين، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ بما يتعاطىٰ الإنسان من قول أو فعل، ولذلك لا يأمركم إلا بما فيه خيركم، فراقبوه وامتثلوا أمره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

وبعد أن نهاهم فيما سبق عن المُحاباة في الحكم في قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ الآيات [النساء: ١٠٥]، عادَ ونهاهم في الآية الآتية عن المُحاباة في الشهادة متمِّماً ومؤكِّداً لما سبق، ومُعرِّضاً بمن اندفع إلىٰ المحاباة في قضية اليهودي السابقة من ضعفاء الإيمان، وذكر ذلك ضمن حكم عامٍّ مستقلٍّ جديد، تهيأ له السياق، علىٰ نهج القرآن في مثل هذه البلاغة العالية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العدل، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بأن تَتحرَّوا في الشهادة الحق الذي يَرضاه، ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالإقْرار بالحق، ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ولا تدفعكم الشفقة علىٰ المحاباة، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المدَّعي أو المدَّعىٰ عليه ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ فلا تعاونوا الفقير علىٰ الغني خلاف الحق، إذ الحق أحقُّ أن يُتَّبع، ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وتُؤْثروه علىٰ ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾، بل آثروا العدل علىٰ الهوىٰ، ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ الشهادةَ أو الحكمَ عن الحق وتُلبسوا فيهما، ﴿أَوْ تُعْرِضُواْ﴾ عنهما فتكتموا الشهادة أو تَجُوروا في الحكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ فلا يُهمل لكم ذلك، بل يحاسبكم عليه حساباً شديداً، ولا تخفىٰ عليه نياتكم.

ثم أردف السياق بما يحمل علىٰ التَّمسُّك بما جاء فيه علىٰ الوجه الذي سبق بيانُه، فأمر المؤمنين أن يُخْلصوا الإيمان بالله ورسوله وبهذا الكتاب الذي يأمرهم بهذا الهدىٰ، حتىٰ يقيموا كـلَّ ما يأمرهم به الله علىٰ لسان رسوله في هذا الكـتاب، ويأتوا به علىٰ الوجه الأكمل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، ثم أمر المؤمنين أن يؤمنوا بسائر الكتب المنزلة؛ لأنها من جنس هذا الكتاب، وعبَّـر عنها بلفظ الجنس، فقال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ ليعلموا أنَّ الله تعالىٰ لم يترك عباده في الزمن الماضي سُدىٰ محرومين من البيِّنات والهدىٰ. ولا يقتضي ذلك أن يعرفوا أعيان تلك الكتب، ولا أن تكون موجودة، ولا أن يكون الموجود منها صحيحاً غير محرّف، لأنّ المراد الإيمـانُ بمُجْمَل ذَوَاتها الأولىٰ المنزلة من الله تعالىٰ، والمنسوخ سابقها بلاحقها. فالآية تأمر المؤمنين أن يؤمنوا بسائر الكتب المنزلة، كما هم مأمورون بالإيمان بهذا القرآن.

ثم قرَّر الأمرَ ببيان مصير مَنْ لا يؤمن بسائر الكتب المنزلة والملائكة والرسول واليوم الآخر، علىٰ نهج القرآن في تقرير الشيء بسلب ضدِّه، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ

نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾.

ثم ذكر حالَ أناس من أصحاب هذا الضلال البعيد ومصيرَهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾﴾، إذ بذبذبتهم بين الإيمان غيرِ المرتكز والكفر، قد طُبع علىٰ قلوبهم، حسب سنَّة الله في طبيعة البشر وفطرتهم، فلا يُرْجَىٰ لهم أن يهتدوا إلىٰ سبيل من سُبُله، ولا يغفر لهم ما دنَّسَ أرواحَهم من ذنوبهم، وكان شوطهم الأخير التركُّز في الكفر والموت عليه.

وقد قيل في هؤلاء قولان:

الأول: أنهم اليهود، آمنوا بموسىٰ ثم كفروا بعبادتهم العِجْلَ، ثم آمنوا عند عَوْدة موسىٰ إليهم، ثم كفروا بعيسىٰ، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ.

والثاني: أنهم قوم من المنافقين تكرَّر منهم الارتداد وأصرُّوا علىٰ الكفر، وازدادوا تمادياً في الغيِّ. وهذا هو الأنسب بقوله: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم ذكر لهم صفةً من صفات نفاقهم التي يتختَّلُون فيها ويستُرونها، ففضحهم بها، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ لاعتقادهم أنَّ الدولة قد تكون لهم، فيجعلون لهم يداً عندهم، أو لأنهم هم أرباب السيطرة والسلطان في الحاضر.

وقد أنَّبهم وجهَّلهم علىٰ ذلك فقال: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ﴾ أي: القوة والغَلَبة؟! خابوا وخسروا، من كان يبتغي العزَّة فليكن من حزب الله، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾﴾، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والغالب في البشارة أن تستعمل فيما يَسُرّ، فهي مأخوذة من انبساط بشْرة الوجه، كما أن السرور مأخوذ من انبساط أساريره. وعلىٰ هذا، يكون استعمالها فيما يسوءُ من باب التهكُّم. وقيل: إن البشارة تستعمل فيما يسوء وما يسرُّ استعمالاً حقيقياً، لأنها الإخبار بما يظهر أثره في بِشْرة الوجه من نتيجة أحد الأمرين.

ثم عقَّب الكلام بهذا الخطاب العام الذي يتوجَّه إلىٰ كل مَنْ يُظهِر الإيمان من صادق ومنافق، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بأمر عام يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، والمراد به تنبيه المؤمنين، وتشديد علىٰ هؤلاء المنافقين، فقال: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن الكريم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾، والمراد من الذي نزل عليكم في الكتاب: هو قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨]، والأنعام مكية، وهذه مدنية. نزلت الأولىٰ في مُشركي مكة، إذ كانوا يخوضون في الكفر وذمّ الإسلام والاستهزاء بالقرآن، وكان بعض المسلمين يجلسون معهم في هذه الحال، ولا يستطيعون الإنكار عليهم لضعفهم وقوة المشركين، فأُمروا بالإعراض عنهم، وعدم الجلوس إليهم في هذه الحال، وكان الأمر مُوجَّهاً إلىٰ المسلمين، ولكن في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك.

ثم إن يهود المدينة كانوا يفعلون فِعلَ مشركي مكة، وكان المنافقون يجلسون معهم ويستمعون لهم، فنهىٰ الله المؤمنين علىٰ الإطلاق عن ذلك، وجعل الآية تشديداً في توبيخ المنافقين، ورداً لتظاهرهم بالإيمان.

ولا يبعد أن يكون بعضُ ضعفاء المؤمنين كانوا يتردَّدون علىٰ مجالس الزعماء

المنافقين، ويغضُّون عمَّا كان يدور في بعضها من كفر وهزءٍ بآيات الله وبنبيِّه، فشدَّد الإنكار عليهم.

ثم توعَّد الفريقين المستهزئين بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾، فهذا وعيدٌ للفريقين المستهزئين من الكفار ومقرَّبيهم من المنافقين بأنهم سيجتمعون في العقاب كما اجتمعوا على الإثم. ويُؤْخذ من هذه الآية أنَّ السكوت عن المنكر منكر، يَحمِلُ فيه الساكتُ مثلَ إثمِ الفاعل، فلْيعتبر بهذه الآية أهلُ هذا الزمان.

ثم ذكر شناعة أخرىٰ لهؤلاء المنافقين الذين يتَّخذون الكافرين أولياء، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ أي: ينتظرون ما يحدثُ لكم، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يطلبون مشاركتكم في نعمتكم، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ من الظفر، ﴿قَالُوٓا۟﴾ لهم ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ألم نتمكَّن منكم فأبقينا عليكم، ﴿وَ﴾ ألم ﴿نَمْنَعْكُم﴾ ونحفظكم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن ثبَّطناهم عنكم.

فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حكماً يليق بشأن كلٍّ منكم. ثم طمأن المؤمنين برعايته لهم وحفظهم منهم، فقال: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾، فقد ضَمِنَ سبحانه وتعالىٰ بوعده هذا النصرَ للمؤمنين الصَّادقي الإيمان، بالشروط التي طالما ذكرها القرآن؛ ومنها: الجهاد في سبيل الله احتساباً وامتثالاً لأمر الله، وإعلاءً لكلمته وابتغاءً لرضوانه. ومنها: الجَرْيُ علىٰ السنن الطبيعيَّة في الحروب وفنونها، بما في ذلك من عَدد وعُدد تماثل العدو، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ومنها: الاتحاد والشجاعة والثبات والصبر علىٰ آلام الحرب وويلاتها ولأوائها وشدائدها، كما قال تعالىٰ للمؤمنين في أول النهضة الإسلامية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

ثم بيَّن تعالىٰ أن هؤلاء المنافقين لم تقتصر مُخادعتهم عليكم، وإنما هم بنفاقهم يُخادعون الله سبحانه وسيجازيهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يفعلون ما يفعل الـمُخادِع من إظهار الإيمان وإبطال نقيضه، ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ لأنّ عاقبتهم علىٰ خلاف ما يُحبُّون، فعبَّر عن ذلك بالخداع. أو المراد المجازاة، وعبَّر عنها بالمخادَعة ليتَشَاكل مع خداعهم. والمشاكلة من أنواع البديع.

ثم ذكر شيئاً من مخادعتهم بقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ﴾ أي: متثاقلين، كالـمُكْرَه علىٰ الفعل، ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ ليحسبوهم مؤمنين، ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ قيل: المراد: أنهم لا ينطقون إلا بالأذكار الجهريَّة التي يسمعها الناس، كالتكبيرات مثلاً. وقيل: بل المعنىٰ: لا يُصَلُّون إلا قليلاً، وذلك إذا كانوا مع المؤمنين. ويجوز أن يُراد الأمران معاً.

ثم نصَّ علىٰ نفاقهم بصيغة الذم، فقال: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مُضْطربين بين الإيمان والكفر، فهم ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: لا يُخلصون في الانتساب إلىٰ واحد من الفريقين؛ لأنهم يطلبون المنفعة، ولا يدرون لمن تكون العاقبة. وهذا

الوصفُ يتناول المتردِّدين في الانقلابات الإصلاحيَّة الذين لا يجهرون بالجديد خشية أن ينخذل حزبُه، ولا بالقديم حذراً من أن يتقلَّص ظلُّه، فيكونون بين بين، ويُماشون الطرفين، حتىٰ يتبيَّن الفوز لأحد الفريقين، وهو نفاق وجبن مشين[1].

ثم بيَّن وَجْهَ ذلك فيهم ومصدرَه منهم، فقال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ في هدايته. وفيه تيئيسٌ له ﷺ من إيمانهم. والمعنىٰ: إنَّ مَنْ تشبَّع بالضلال، حتىٰ أصبح له ديناً أو خُلقاً، لا يمكنه أن يرجع إلىٰ الحق والهدىٰ حسب سُنَّة الله في طبيعة البشر. وفي الكلام إسنادُ الفعل إلىٰ الله تعالىٰ، مع عدم بيان السبب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم نهىٰ المؤمنين ـ بما فيهم ضعفاؤهم ـ عن موالاة الكفار نهياً صريحاً مع زيادة في التحذير ـ وإن كان في بيان حال المنافقين مُزْدَجر عن ذلك ـ مبالغةً في الزَّجْر والتحذير لضُعفاء الإيمان، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم زاد في التحذير والردع بطريقة الإنكار، فقال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ أي: حُجَّة بيِّنة علىٰ استحقاقكم العذابَ. وهذا أوقَعُ وأرهَبُ عبارة في التحذير. وأراد بالكافرين ما هو أعمُّ من المنافقين.

ثم ذكر جزاء هؤلاء المنافقين وسجَّل مصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وهو الطبقة التي في قَعْر جهنم، فجزاؤهم أشدُّ من جزاء الكَفَرة الصُّرحاء. ودلَّ الكلام علىٰ أنَّ دار العذاب دَرَكاتٌ بعضُها أسفل من بعض، كما أنَّ

---

(١) لكن ينبغي أن يُلاحظ هنا أيضاً أن جماعةً من الـمُخلِصين الصادقين تردَّدوا في هذه الانقلابات الإصلاحية، لا جُبناً ونفاقاً، بل شكاً في كونها إصلاحيةً فعلاً، بل عاندها بعضُهم وعاداها لِـمَا كان يعلم من شأنها وحقيقتها، وتبين أن لذلك الشك ولهذا العلم ـ في أحيان كثيرة ـ نصيبٌ من الصحة كبير، ففرق بين الجبن والنفاق وبين التعقُّل والتأني.

دار النعيم درجات بعضها أعلىٰ من بعض. ثم زاد في تهديدهم، فقال: ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ وهذه كناية عن استدامة عذابهم.

ثم استثنىٰ من هذا العموم مَنْ تاب من النفاق والكفر وأصلح العمل، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أعمالهم لزوال نفاقهم ورسوخ إيمانهم، وبما صار للإيمان الراسخ من السلطان علىٰ نفوسهم والتصريف لإرادتهم. أو أنهم بعد رسوخ إيمانهم أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التي تمدُّ الإيمان وتُغذِّيه، وأصبحوا ينصحون لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وذلك باتِّباع ما جاء عن الله مما يقي من عذابه، بحسب ما بيَّنه في هذا القرآن المجيد، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[1] عزَّ وجل، بأن يتَّقوه حقَّ تقواه، ويتوجَّهوا إليه وحده، فلا يدعوا من دونه أحداً، لا لكشف ضُرّ ولا لجَلْب نفع، ولا يُراؤون في عبادة الله، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ التائبون، الذين هم لتلك الأعمال عاملون، يكونون ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أصبحوا منهم، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

ثم عقَّب استثناء التائبين بصيغة بديعة عليّة تدلُّ علىٰ الإنكار ونفي الفائدة من تعذيب المؤمنين بما فيهم التائبون، مبالغةً في تقرير الاستثناء من التعذيب، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ أي: يثيب المحسنين أضعافاً مضاعفة. وهذا الاستفهام مُفيد للنفي علىٰ أبلغ الوجوه، وقد صاغ العبارة بصورة الإنكار ونفي الفائدة من تعذيب المؤمن العامل، مبالغةً في استحقاقه الإحسان وإغداق الخير والثواب عليه.

---

(١) الإخلاص هو: أن يأتي الإنسان بالأعمال نقية لا شرك فيها ولا رياء، وهو من الصفات الروحيَّة التي تسمُو بالمرء إلىٰ منزلةٍ رفيعة من الخلق الإنساني. (المؤلف).

ومؤدَّىٰ الكلام: أن الله سبحانه قَضَتْ حكمتُه ومَضَتْ سُنَّته بأن يكون للإيمان الصحيح والأعمال الصالحة أثرٌ صالح في النفس، يُكيِّفها بكيفيَّة ويُشَخِّصها بشخصيَّة تُؤهِّلها للسعادة في دار الآخرة، حَسَب سُنن الله الكونية حسب التربية الصحيحة والدراسات العالية التي تجعل صاحبَها صالحاً للمراكز السامية، وأن يكون للأعمال السيئة أثرٌ في النفس يُكيِّفها بكيفيَّة تُؤهِّلها للشقاء في تلك الدار. وليس ذلك انتقاماً منه تعالىٰ للشرير، وإنما هو نتيجة طبيعية تكوينيَّة لأعمال الشرير نفسِه تعودُ عليه بالوبال، والله أعلم، وكان العقاب مرتباً علىٰ النفاق، فلمّا زال زال.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

ولما هتك سبحانه سَتْر المنافقين وفضحهم ألمع إلىٰ ما يجري مَجْرىٰ العذر في ذلك ضمن قاعدة ثقافية عامة، أدَّب بها المؤمنين تأديباً عالياً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لأنه مَجْلَبة للعداوة والبغضاء، ومُؤَثِّر في نفوس السامعين تأثيراً ضاراً، فإنَّ الناس يَقْتدي بعضُهم ببعض، ويَقْتفي بعضُهم أثر بعض في الخير والشر، ورُبَّ كلمة خبيثة تفتح لمن تَعْلق بنفسه باباً من الفساد. ولهذا نرىٰ علماء التربية يصُونون كتبهم من كلمة خبيثة أو مستهجنة، وكذلك القرآن. والله أعلم. و(السُّوء من القول): ما يسوء مَنْ يُقال فيه.

ثم استثنىٰ من ذلك العموم قولَه: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ فجَهر بالشكوىٰ مِن ظلمه شارحاً ظُلَامَتَه. ولا ظلم أفظع من الشرك، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. وقد ذيَّل الكلام بما يدلُّ علىٰ أنه تعالىٰ في عَوْن هذا المظلوم علىٰ الظالم، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾.

وحبُّ الله الشيء: رضاؤُه به وإثابتُه عليه. واللهُ سبحانه لا يحبُّ السُّوء بالقول ولا بالفعل، لا بالجهر ولا بالإخفاء. وإنما خصَّ الجهر بالقول لمناسبة السياق الذي جاء به تأنيبُ المنافقين وتشهيرهم.

وهذه الآية مقرِّرةٌ لقاعدة أدبية عامة بحسب الصيغة، وجاريةٌ بحسب السياق مَجْرىٰ العذر عمَّا سَبق من فضيحة أمر المنافقين الظالمين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والله أعلم.

ثم أكمل البيان بذكر حُكم إبداء الخير وإخفائه، سواء كان قولاً أو عملاً، وحُكم العفو عن السُّوء وعدم مُؤَاخَذَةِ فاعله به، فرغَّب المؤمنين بهذه الدرجة العالية من الفضائل، بعد أن رخَّص لهم بالجهر عن ظلم الظالمين، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[1]، يعفو عن مقدرةٍ، فتخلَّقوا بأخلاقه، وهو أن يُقابِلَ العفو بمثله، ويُجْزل المثُوبة للمُبْدين والمُخْفين. وأورَدَ العفو مع المقْدرة وخصَّه بالذكر في معرض جواب الشرط، فجَعَل الجواب للعفو عن السوء، دون سواه، لأنه المقصود والمتناسب مع السياق، وللإيذان بأنه أهم الخصال الثلاث، بل هو العمدة في السياق، نظراً لحكم الجهر بالسُّوء فإنه يدور عليه. فالآية تُرغِّبُ بالعفو عنه بدلاً من الجهر به والتَّشهير، بعد أن رخَّص بذلك في الآية الأولىٰ. ومثل هذا في أساليب القرآن.

---

(١) إنَّ الدين الإسلامي يدورُ علىٰ دعامتين: صِدقٍ مع الحق، وخُلق مع الخلق. وهذا الخلق محصور في أمرين أيضاً: إيصال النفع إليهم، ودفع الضرر عنهم. وقد جمعت الآية ذلك، فإبداء الخير وإخفاؤه يتضمَّن إيصال النفع، والعفو عن السوء أعلىٰ أنواع دفع الضرر. ففي الآية ترغيب بأعمال الخير وبالأخلاق العالية، فاحرص علىٰ ما رغَّبك الله فيه، واعفُ عمَّن ظلمك، وصِلْ من قطعك، وأحسِنْ إلىٰ مَنْ أساء إليك، فذلك ما يرضي الله تعالىٰ. (المؤلف).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

ثم ردَّ عليهم دَعْواهم الإيمان في مَعْرض بيان حقيقة الإيمان وملاكه، ومصير غير المؤمن إيماناً صحيحاً، والمؤمن إيماناً صحيحاً، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[1]، وقد فسَّر نوعاً من التفريق بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾، فهذا عطف تفسير، وفيه التَّجوُّز بالقول عن الفعل، وهو من خصائص اللغة وأساليب القرآن. أي: يؤمنون بالله ولا يؤمنون بالرسل؛ لإنكارهم الوحيَ وزعمهم أنَّ مَنْ يدَّعي النبوَّةَ إنما يأتي بشيءٍ من عنده؛ ومن أرباب هذه العقيدة: البراهمةُ من الهنود، وأكثر المُلحِدين في العصر الحاضر من هذا الفريق. أو يؤمنون ببعض الأنبياء دون بعض، كاليهود والنصارىٰ، فالنصارىٰ لا يؤمنون بمحمد ﷺ، واليهود لا يؤمنون به ولا بعيسىٰ عليهما السلام.

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ من عند أنفسهم. أي: عقيدةً يَبْتدعونها في أنفسهم، كالإيمان بالله دون الرسل، أو الإيمان ببعض الرسل دون بعض، فيقول اليهود: إن موسىٰ نبيٌّ بني إسرائيل، ويقول النصارىٰ: إنَّ محمداً نبي العرب.

---

(١) في هذه الآية عطف السبب علىٰ المسبَّب. والتفريق بين الله ورسله: الإيمان بالله والكفر برسله، ويتحقَّق ذلك بالكفر برسول واحد؛ لأن إنكار الشيء إنكار لما يُماثله. وإذا كان الإيمان مركباً من شطرين: إيمان بالله وإيمان بالرسل، فالكفر بأحدهما كفر بالمجموع، ولا وسط فيه؛ لأن المركَّب من أمرين ينعدم بانعدام أحدهما. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾، بمعنىٰ: أعددنا وهيَّأنا. والمراد بهم: هؤلاء الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ. (المؤلف).

فسجَّل عليهم سبحانه وتوعَّدهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ أي: يَصحَبُه ذلٌّ وإهانة.

ثم ذكر المؤمنين حقاً، وبيَّن مصيرهم، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، بل اعتقدوا برسالة جميعهم وعملوا بشريعة مَنْ كانوا في تاريخه ما لم تُنسَخ، إذ جميعهم مُرسَلٌ من الله علىٰ التتابع، بشرائعَ ثابتةِ الأصول مُتبدِّلةٍ في بعض الفروع بتَبدُّل الأزمان، وبرُقيِّ نوع الإنسان في المعرفة والثقافة والوجدان. وكلُّ شريعة تنسخ ما قبلها ويتحتَّم علىٰ مَنْ حَضَرها من الـمُرسَل إليهم أن يعملوا بها، ولا زال الأمر كذلك، حتىٰ بلغ النوعُ الإنساني أوَّلَ كماله، فأرسل إليه شريعة القرآن، وجعلها ديناً عالمياً ناسخاً لجميع الأديان. فالعاملون بها هم المؤمنون حقاً، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ يغفر هفوات مَنْ صحَّ إيمانه علىٰ الوجه المذكور، ويرحمه بكرمه وإحسانِه وعظيمِ إفضاله.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حال الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض من أهل الكتاب، عناداً وضلالاً، عقّب ببيان آخر عن تعنُّتاتهم ومخالفاتهم الشنيعة، ومثَّل به للتفريق وعدم الإيمان ببعض الرسل، فقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث قالوا: إنَّ موسىٰ قد جاء بألواح من عند الله، فائتِنا بلوح محرَّر بخط سماوي أنك

رسول الله. فلا تَعجَبْ منهم، فهذا شأنهم في التعنُّت والانحراف عن الحق، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾، والخَلَفُ والسَّلَفُ في الأخلاق والسلوك سواء، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ علىٰ يد موسىٰ عليه السلام، ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: ولم نستأصلهم بالعذاب مع كونهم مستحقِّين للاستئصال، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ أي: حُجَّةً ظاهرةً، وهي التوراة. أو المراد: أننا سلَّطناه عليهم، فأخْضَعناهم علىٰ تمرُّدهم وعصيانهم.

﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ أي: أجْرَينا لهم هذه المعجزة، بسبب ميثاقهم؛ ليخافوا ولا ينقضوه. وكان من هذا الميثاق: أن يأخذوا ما أُنزل إليهم بقوة ويعملوا به مُخْلصين. والظاهر أنَّ رفع الطور كان آية من الآيات الكونية، وقد سبق بيانه في سورة البقرة[1].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوا باب القرية التي ستغلبون أهلها، خاضعين لله مائلي الرؤوس خاشعين لله شاكرين، ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[2] أي: لا تتجاوزوا حدودَ الله فيه بالعمل الدنيوي، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ علىٰ ذلك ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾، فنقضوه وخالفوا جميع ما أمرناهم به وانحرفوا عنه عناداً وصَلَفاً[3].

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ

---

(١) وتقدَّم التعليق علىٰ رأي المؤلف فيه هناك (٢: ١١٠).

(٢) حرَّم الله عليهم الشغل يوم السبت، وجعله خاصاً للعبادة، فاحتالوا لحبس الأسماك فيه وصيدها يوم الأحد. (المؤلف).

(٣) الصَّلَف: هو الغلوُّ في الظَّرْف والزيادة علىٰ المقدار مع تكبُّر. «لسان العرب» (صلف).

بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ فعلنا بهم ما فعلنا من اللعن والغضب، وضَرْب الذلة والمسكنة، وتمزيق وحدتهم، وإزالة ملكهم، والتسليط عليهم. تلك الأمور التي دلَّت عليها قَصَصُهم في القرآن، فقد طوىٰ ذكر ذلك اكتفاءً بما هو معلوم في غير هذا الموضع من القرآن، وذكر السبب، فقال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهذا القيدُ للزيادة في التشنيع عليهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع أَغْلَف، وهو الذي عليه غلاف يمنع نفوذ الشيء إليه. أي: إنَّ قلوبنا لا يَنفُذُ إليها شيءٌ مما جاء به الرسول، فلا تُدركه ولا يؤثِّر فيها، كما حكىٰ الله عن المشركين بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ ...﴾ [فصِّلت: ٥].

وقد ردَّ الله عليهم هذا الزعم ببيان الحقيقة في أمرهم، فقال: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ أي: أبعدهم الله عن الصواب بسبب كفرهم وانغماسهم في الضلال، ولم تكن قلوبهم غُلْفاً بالطبع والخِلْقة، ولكن مَضَت سُنَّته تعالىٰ في طباع البشر وأخلاقهم أن يمنعَ الكفرُ صاحبَه من الرويَّة والنظر في الحق، فلا يؤمن إلا إيماناً قليلاً ضئيلاً لا يعتدُّ به؛ لأنه لا يُصلِحُ عملَ صاحبه، إذ القلّة لا يكون لها سلطان علىٰ القلوب. أو المعنىٰ: فلا يؤمن منهم إلا قليل، كعبد الله بن سلام وأصحابه، فإنَّ الأمة مهما فسدت يبقىٰ منها بعض أفراد قلائل تغلب سلامة الفطرة عليهم، ويكونون هم السابقين إلىٰ كل إصلاح جديد. وهذا الاستثناء من تحرِّي الحق الدقيق في القرآن.

ثم تابع الكلام عن بيان سبب الجزاء، وعَطَفَ علىٰ قولِه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم ...﴾ قولَه: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بعيسىٰ عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ﴾ أمِّه ﴿مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، ووصَفَه بصفة الرسالة مبالغةً في تفظيع تَصَدِّيهم لهذا العمل المزعوم، فقد حفظه الله منه، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: والحال أنهم ما قتلوه ـ كما زعموا متبجِّحين بالجريمة ـ وما صلبوه كما ادّعوا وشاع بين الناس، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾[1] أي: مُوِّه عليهم الأمر ولُبِّس، أو وقع لهم الشَّبَهُ أو الشبهة، فظنُّوا أنهم صَلبوا عيسىٰ، وإنما صلبوا غيره.

---

(١) قال ابن حزم في الجزء الأول من كتاب «الملل والنحل» [١: ٥٦-٥٧] ما ملخَّصه: ولكن شُبِّه لهم، أي: مُوِّه عليهم أنه قُتل وصُلب، ولم يكن ذلك واقعاً. وإنك إذا دقَّقت ما جاء في الأناجيل التي بأيديهم عن حادثة الصلب رأيتها تقول: إنه صُلب ليلاً عند افتراق الناس عن الفصح، وكان ذلك في مكان بعيد عن المدينة مستورٍ عن الناس، فلم يره إلا امرأة من العامة يقال لها: مريم المجدلية، فأنت ترىٰ ما يُحيط هذه الرواية من الضعف واحتمال التمويه. وعليه، فيكون قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ كلاماً جارياً علىٰ عامة الناس المُمَوَّه عليهم، بعد إجرائه علىٰ المُمَوِّهين بأنهم قتلوه وصلبوه. ومثل هذا الإجراء المتباين هو من أساليب اللغة ونهج القرآن. ويجوز إجراء الكلام كلِّه علىٰ المجموع الذين فيهم المشبِّهون بأمر القتل والمشبَّه لهم، وذلك أيضاً من أساليب اللغة.

أقول: وإذا قيل: إذا كان المسيح لم يصلب، لم يوقف له علىٰ أثر بعد ذلك. والجواب: إن هذه الشبهة لم تَرِدْ علىٰ الذين يقولون رُفع بجسمه وروحه إلىٰ السماء، وإنما تَرِدُ علىٰ الذين قالوا: توفاه الله في الدنيا ثم رفعه كما رفع إدريس عليه السلام، ولا غرابة في الأمر، فإن أخاه موسىٰ عليه السلام كان بين الألوف من قومه، فانفرد عنهم ومات في مكان لم يعرفه أحد منهم، كما هو منصوصٌ في آخر سفر تثنية الاشتراع في أسفار التوراة. (المؤلف).

والقائلون إنه عليه السلام رُفع بجسمه وروحه إلىٰ السماء من غير موت: هم جمهور العلماء قديماً وحديثاً، وقولهم هو الصواب.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في أمر الصلب، فقال بعضهم: صُلب، وقال بعضهم: لم يُصلب. أو في عيسىٰ، فقال بعضهم: ليس هذا عيسىٰ، وقال بعضهم: إنه هو، ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ في ذلك. وقد كان المسيحُ صاحبَ آيات وخوارقَ عادات، فقد رَوَوا عنه أنه قال لهم: إنهم يشكُّون فيه. وقال مرقس: إنه ظهر لهم بهيئة أخرىٰ، ثم إنهم أشاعوا أنَّ يهوذا الذي صُلِبَ بَدَلَ المسيح؛ أنه انتحر ندماً علىٰ ما فرط منه من دلالته علىٰ المسيح. وقالوا: إن يهوذا الإسخربوطي هذا كان يشبه المسيح في صورته شبهاً قوياً. ويجوز أن يكون نَدَمُه دفعه للاستسلام للصلب بَدَل المسيح.

ثم أعاد الجملة الآتية بصورة أقوىٰ تأكيداً للنص علىٰ الحقيقة، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: إنهم قتلوا شخصاً شاكِّين بأنه عيسىٰ، أو مُموِّهين ومُلبِّسين بأمر الصَّلب. وقد أنقذ الله عيسىٰ من الذين كفروا بعناية منه تعالىٰ، كما أنقذ محمداً ﷺ من قريش بالاختفاء ثم الهجرة حينما هَمُّوا بقتله، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يُغْلَبُ علىٰ أمره، ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ تجري الأمور بحسب حِكَمِهِ الدقيقة، وله في الحوادث حِكَم لا ندركها. وقد علَّقنا علىٰ الرفع والنزول في آخر الزمان عند مثل هذه الآية من سورة آل عمران.

ويجوز أن يكون في قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ مقابلةٌ لدعوىٰ الصَّلب؛ لأنَّ فيه ضَعَة وإهانة، فقابل هذا الادِّعاء الكاذب بأنَّ الله توفَّاه وفاةً فيها رِفعةٌ وكرامة، أو المراد أنه توفَّاه ورفعه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ مع أرواح الأنبياء عليهم السلام[1]. والله أعلم.

---

(١) وقول عامة العلماء وجماهيرِهم من المفسِّرين والفقهاء والمتكلمين وغيرهم: أنه عليه السلام لم يمت، وإنما رفعه الله إلىٰ السماء حياً، وسينزل آخر الزمان قبل قيام الساعة إلىٰ الأرض، ثم يموت. وهو القول الصواب.

وبعد أن سَرَد تاريخ اليهود مع عيسىٰ، بيَّن أنَّ كلَّ واحد من أهل الكتاب سيعرف عند موته الحقَّ في أمر عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: عند الغَرْغَرة[1] ـ كما قال في حقِّ المُحْتَضَر: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ـ إذ تنكشف حينئذ له الحقائقُ بتجرُّد الروح من هذا البدن العائق، فيدرك الحق في أمر عيسىٰ ابن مريم، كما يُدرك غير ذلك من الأمور العظيمة الغيبية وحقائق الأحوال، ويندم علىٰ ما فعل، وقال: فيعلم اليهودي أنَّ عيسىٰ رسولٌ من الله صادق في رسالته، ويعلم النصرانيُّ أنَّ عيسىٰ عبد الله ورسوله، وأنه لم يُصلب وليس بإله ولا ابناً لله، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ كما هو شأن غيره من الأنبياء في أممهم، وكما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما كان من اليهود من نَقْض العهود والكفر وقَتْل الأنبياء، فرَّع علىٰ ذلك ما كان من جزائهم الدنيوي، وقَرَن به مساوئ أخرىٰ من مساوئهم ـ

---

(١) وهذا علىٰ القول بأن الضمير في ﴿مَوْتِهِۦ﴾ يعود إلىٰ الكِتابي، وهو قولٌ في تفسير الآية، والقول الثاني: أن الضمير يعود إلىٰ عيسىٰ عليه السلام، حيثُ يظهرُ لهم عند نزوله إلىٰ الأرض قبل موته أنه ما زال حياً، فيؤمنون به، ويكذبون دعوىٰ الصلب. وهو الأرجح في تفسير الآية.

علىٰ نهج القرآن في التقريع ـ زيادةً في تبريره للحكم والتحريم، فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾، وهي المذكورة في سورة الأنعام في قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ...﴾ [الأنعام: ١٤٦]، وقد عجَّل البيان بالتَّحريم كما تقتضيه البلاغة.

ثم تابع البيان عن السبب فقال: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾، وهذا العطف يجوز أن يكون للمغايرة في الوصف فقط، ويكون المراد بهذا الأكل: الربا نفسَه. ويجوز أن يكون للمغايرة بالذات بأن يكون المرادُ بالثاني غيرَ الأول، كما قالوا: المراد به الرشوة وغيرها.

قال في «المنار»: أي: فإذا كان هؤلاء اليهود قد استحقُّوا ـ بظلمٍ ما ظلموا به أنفسَهم ـ أن نُحرِّم عليهم طيِّبات كانت قد أُحِلَّت لهم ولمن قبلهم، فحرَّمناها عليهم عقوبةً وتربيةً، لعلَّهم يرجعون عن ظلمهم، فكيف لا يستحقُّون أكبر الخِزْي والنَّكال بنقضهم ميثاقَ ربِّهم، وقتلهم لأنبيائه ورسله، وكفرهم بالمسيح، وبَهْتهم لأُمِّه، وَتَبجُّحهم بدعوىٰ قتله وصلبه[1].

وقال الزَّجَّاج: إن قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾ بَدَلٌ من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ...﴾[2]، وكلاهما متعلِّق بقوله: ﴿حَرَّمْنَا﴾، وعليه يكون وجه الربط بين الآيتين بيانَ جزائهم الدنيوي علىٰ هاتيك الأعمال المنكرة كلِّها.

وبعد أن بيَّن جزاءهم في الدنيا بيَّن جزاءهم في الآخرة، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾، وإنما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ ليستدرك قوله: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٤٩).

(٢) «معاني القرآن وإعرابه» (٢: ١٢٧).

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: الآخذون باليقين دون التقليد، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من عطف الصفة علىٰ الصفة لموصوف واحد، أخبر عنه بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً للمؤمنين أو حالاً منها.

ثم تابع الصفات بقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، فقطع هذه الصفة بالنصب علىٰ الاختصاص مبالغةً بشأنها من بين الصفات المنتسقة، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم تابع الانتساق بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، فاستدرك من أهل الكتاب الموصوفين بهذه الصفات، وسجَّل لهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾، فقابل بما سجَّل لهؤلاء من النعيم المقيم، ما سَجَّله علىٰ أولئك من العذاب الأليم.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

قال في «المنار»[1] ما معناه: ثمَّ ختم الكلام في مُحَاجَّة اليهود، ومهَّد للكلام في مُحَاجَّة النَّصارىٰ الآتية ببيان أنَّ الوحيَ جنسٌ واحد، وأنه لو كان إيمانهم بمن يَدَّعون الإيمان بهم من الرسل السابقين صحيحاً مبنياً علىٰ الفهم والبصيرة، لَـمَا كفروا

---

(١) (٦: ٥٥).

بمحمد ﷺ، فقال عزَّ وجل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[1]، والوحيُ: عرفان يجدُه النبيُّ مع اليقين بأنه من قِبَلِ الله، بواسطةٍ أو بغير واسطة.

وقد بدأ بنوح لأنه أقدم نبيٍّ مُرسَل بارز في التاريخ القديم، وكان قبله آدم وإدريس علىٰ الولاء، وبعد نوحٍ بفترة من الأزمان فيها من الرسل التي لم تُقصَصْ علينا قَصَصُهم، جاء هود وصالح، فهما داخلان في عموم قوله: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وبعد فترةٍ من الأحقاب فيها من الرسل التي لم تُقْصَص علينا قَصَصُهم، جاء إبراهيم ومن بعده، ولذلك فَصَلَ الكلام فيهم عن سابقه، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾، وكلُّ مَنْ ذُكر بعد إبراهيم هو من ذُرِّيَّتِه، ويُسَمَّون: أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنَّ الأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في ولد إسماعيل. والمراد بالوحي إليهم: الوحيُ إلىٰ الأنبياء الذين بُعثوا فيهم، وخصَّ منهم بالذكر أشهر المرسلين.

ثم غيَّر النسق فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾، لأنَّ لِزَبورِ داود شأناً خاصّاً في كتب الوحي أو عند أهل الكتاب، أو لأنه واسطة بين قارئه وبين الله تعالىٰ، إذ كلُّه مناجاة لله سبحانه؛ تهليل وتحميد وتمجيد. أي: آتينا داود كتاباً يناجي به الله سبحانه ويمجِّده. ويجوز أن يكون تخصيصه بالذكر لأنه غير مشتمل علىٰ تشريع وأحكام، كما في غيره من الكتب السماوية. أي: آتيناه كتابَ قراءةٍ ومناجاة، لا كتابَ تشريع وأحكام. والله أعلم.

---

(١) لما ذكر سبحانه في الآيات السابقة تعنُّت اليهود في الإيمان بمحمد ﷺ، بيَّن في هذه الآية أنَّ الوحي الذي نزَّله عليك كالوحي الذي نزَّل علىٰ سائر الأنبياء الذين تعترف اليهود بنبوَّتهم، ولكنه شططُ اليهود وطبيعتُهم في الإعنات. فاللهُ يشهدُ لك بما أنزل عليك والملائكة المقرَّبون، وكفىٰ بالله شهيداً. (المؤلف).

ثم قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ أي: وأرسلنا غير هؤلاء الرسل، وقد قصصناهم عليك قبل تنزيل هذه السورة، وهم المسرودةُ أسماؤهم أو المبيَّنةُ قَصَصُهم في السور المكية.

وأجمَعُ الآيات لأسماء الأنبياء قولُه تعالىٰ في سورة الأنعام المكية في سياق الكلام عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٦].

وأجمَعُ السور لقصصهم سورة هود وسورة الشعراء المكيَّتان.

ومن الأنبياء العرب: هود وصالح وشعيب.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وهم المرسلون إلىٰ الأمم العريقة في القدم المجهولِ علمُها وتاريخُها.

ثم غيَّر النسق بقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾[1] وهو الوحيُ بلا واسطة كما تقدَّم، ولذلك سمّاه تكليماً. أي: فما لهم ينكرون عليك ما هو دون ذلك، لأنَّ هذه المنقبة ممتازة من بين ضروب الوحي، وفيها عظيم امتنان.

واستدلوا بتأكيد الفعل علىٰ كَوْن تكليم الله لموسىٰ لم يكن وحياً بواسطة الملك،

---

(١) ابتدأ هذه السلسلة بإبراهيم وختمها بموسىٰ عليهما السلام؛ لأن كلاً منهما ذو شريعة مستقلة كاملة. أما ما بينهما، فالقسم الأول كان تابعاً لشريعة إبراهيم، والقسم التالي كان تابعاً لشريعة موسىٰ؛ لأنَّ عيسىٰ عليه السلام جاء مكملاً لشريعة موسىٰ، وزبور داود لم يزد علىٰ التسبيح والمناجاة، وليس فيه تشريع جديد. هذا ما أظنه، والله أعلم. (المؤلف).

وإنما هو من جنس كلام الله للملائكة أو شبيه به. والله أعلم. وإدراك موسىٰ عليه السلام لكلام الله تعالىٰ لا يتوقَّف علىٰ معرفة كُـنْهه، فإنَّ كثيراً مما نُصدِّق به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقته ولا كُنهَه ولا كيفيَّة تكوينه وإيجاده، فهو عِرفانٌ مع إيقان، دون إدراكٍ لـحقيقة الشأن. فعملية التذكُّر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتم له هذه الحقيقة، مع أنها عملية وعلمية. ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزَوَّدون بالقُدرة علىٰ استلهام المعلومات بطريقةٍ فوق نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك الإيحاء ولا يعلمون كيفيَّته، كما لا يعلم كل إنسان كيفيَّة إدراكه للأشياء وتذكُّره لها. فموسىٰ عليه السلام يُدرِكُ كلام الله سبحانه ولا يعلم كيفيَّة ذلك[1]. والله أعلم.

ثم أجمل الكلام عن الرسل بقوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أي: لمن آمن وكفر، وإنما أُرسلوا ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ حيث يدَّعون أنهم ما كَفَروا وأجرموا إلا لجهلهم ما يجبُ عليهم. وقد تكرَّرت حُجَّة الله هذه علىٰ الناس في كثير من آي القرآن عند الكلام علىٰ الرسل أو مُحَاجَّة غير المؤمنين. ومعناها: إننا إنما أرسلنا الرسل إزالةً لهذا العذر.

وخلاصة المحاجَّة في هذه الآيات: الردُّ علىٰ هؤلاء المنكرين لنبوَّته ﷺ، بأنهم لماذا ينكرون عليك، فقد أوحينا إلىٰ رُسُلٍ من قبلك، وأنزلنا علىٰ بعضهم كتباً كما نزَّلنا إليك، بل قد كلَّمْنا بعضهم تكليماً، وهم يعلمون كلَّ ذلك، فما ينكرون عليك إلا تعنُّتاً وعناداً، وحسداً واغتياظاً.

وقد قَرَنَ الكلام بما يدلُّ علىٰ أنَّ الصبر عليهم لم يكن عن عجز في القدرة، ولكن

---

(١) أي: كيفية إدراكه لكلام الله، أما كلام الله فلا يُكيَّف.

لحكمة تقتضيه، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾، ومِنْ عزَّته وحكمته أن لا يُجاب المتعنِّت إلىٰ مطلوبه، في أن يُنزلَ عليك كتابٌ في قرطاس، كما طلبوا.

ثم استدرك علىٰ ما علم من السياق من إنكارهم نبوَّته ﷺ، مع أنها في مرتبة الوضوح، ثم استدرك علىٰ ذلك بقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: إنَّهم لا يقرُّون بنبوَّتك لكن الله يشهد بما أنزل إليك، وقد أنزله بعلمه وهديه الذي لم تكن تعلمه أنت ولا قومُك من قبل إنزاله إليك، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بذلك أيضاً؛ لأنَّ الذي نزل به إليك هو الروح الأمين منهم، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

وبعد أن تجلَّت الحجَّة وثبتت النبوة، أنَّب الذين يُصِرُّون علىٰ كفرهم، ونددَّ بهم، وقرَّر ضلالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ حتىٰ لم يعودوا يُبصِرون ما تجلَّت به هذه السبيل من الوضوح والاستقامة، ولا يفقهون أنها هي الموصلة إلىٰ ساحل الفلاح والسلامة.

ثم أنذرهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟﴾ بكفرهم وقُبح عملهم المؤدِّي بهم إلىٰ العذاب الأليم ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: ليس من شأنه ولا من مُقْتضىٰ سنَّته في خلقه أن يغفر لهم ذلك الكفر والظلم يوم الحساب؛ لأنَّ الكفر يؤثِّر في النفس ويُكيِّفها بكيفيَّة من فساد الفطرة، تجعلها بعيدةً عن الهداية المؤهّلة للغفران ودخول الجنان. وهذا معنىٰ قوله: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾.

ثم استثنىٰ بطريق المشاكلة والسخرية والاستثناء المنقطع قوله: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾، لأنه من مقتضىٰ سُنَّته وحكمته، فلا تحولُ دونه رأفته ورحمته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

وبعد انتهاء هذا السياق المبيِّن لطريق الحقِّ من طريق الضلال، انتدب الناس لاتِّباع طريق الحق وأمرهم بالإيمان، وأشفعه بالوعد للمجيب والوعيد للمُعْرض، تنبيهاً علىٰ أنَّ الحُجَّة قد لزمت ولم يبق عُذْر لمتخلِّف، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[1] ولصالحكم، لأنَّ الإيمانَ يؤهِّلكم

(١) بعد أن دحض شبه اليهود في تكذيبهم لمحمد ﷺ، وأقام الأدلّة علىٰ صدقه، طلب إلىٰ الناس كافّة ـ وفي ضمنهم اليهود ـ أن يؤمنوا بهذا الرسول، وبالكتاب الذي جاء به، وشهد الله عليه والملائكة المقربون. وإن يكفروا به فلن يضروا الله شيئاً، وسيجازيهم علىٰ ذلك جزاء وفاقاً. (المؤلف).

للسعادة الأبديَّة، ويُطهِّركم من الأدناس الحسيَّة والمعنويَّة، ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: فإنَّ الله غنيٌّ عن إيمانكم، لأنَّ له ما في السماوات والأرض، فأقام العلَّة مقام المعلول، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ذيَّل الكلام بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾، فلا يأمر بأمر إلا عن علم وحكمة بالغة.

ومن مباحث اللفظ أن ﴿خَيْرًا﴾ خبر لـ«يكن» المحذوفة هي واسمها، والتقدير: يكن الإيمان خيراً لكم.

وبعد أن أنهىٰ الكلام في مُحَاجَّة اليهود الذين فرطوا كل التفريط في أمر عيسىٰ عليه السلام والكفر به وإهانته، ودَحَض شُبهاتهم؛ التفتَ إلىٰ النصارىٰ ودَحَض شُبَهَهُم أيضاً في شأن عيسىٰ، وإفراطهم كل الإفراط في تعظيمه وتقديسه إلىٰ حدِّ الألوهية، ومَزَج الكلام بالحجاج والنهي والتنديد والإنذار، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾[1]، فتُجاوِزُوا الحدود التي حدَّها الله لكم، فإنَّ الزيادة في الدين كالنقص فيه، كلاهما مُخْرِجٌ له عن وصفه وصورته، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ إما بنصٍّ دينيٍّ متواتر[2]، وإما ببرهان عقليٍّ قاطع. وليس لكم علىٰ مزاعمكم في المسيح شيء منهما، ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

---

(١) أي: مثل قول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن شعب الله الخاص، ولا تكون النبوة إلا فينا. وقول النصارىٰ بألوهية عيسىٰ عليه السلام، وقولهما: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١] وأمثال ذلك. (المؤلف).

(٢) كأنه يريد: في أصول المسائل العقدية؛ بقرينة السياق، وإلا فاشتراط التواتر غير مُسلَّم.

رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي: كلمة التكوين أو البشارة وأنه بشر، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: إنه لا يختلف عن بقية البشر في كونه جسداً وروحاً من الله[1] ومخلوقاً من جنس المخلوقات الروحيَّة الجسميَّة وهي الإنسان. كما جاء في خلق الإنسان: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ [السجدة: ٩]، أي: نفخ فيه من هذا النوع الممتاز فيما عنده، ولشرفها وامتيازها أضافها سبحانه إلىٰ نفسه. والإلقاء: التمكين، وقد جزمت مريم بالحَمْل عند إعلام الله به بواسطة الملك؛ لأنَّها صِدِّيقة، فجزمت بهذا الإعلام من الله، والجَزْمُ بالشيء يُولِّده[2]. والله أعلم.

وبعد أن قدَّم تلك المقدِّمة في الإرشاد والهدي إلىٰ طريق الرشاد، أمرهم بالإيمان الصحيح، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾؛ الأب والابن والرُّوحُ القُدُس، ويريدون بالروح القدس: ما يقابل قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢]، علىٰ اعتبار أن الإضافة إضافة الجزء إلىٰ الكل، وإنما هي إضافة الملك، كقول القائل: أعطيناه من مالنا، وقول الصانع: أعطيناه من مصنوعاتنا، لا سيما إذا كانت تلك المصنوعات ممتازة. والله سبحانه منزَّه عن الروح، وإنما هو حيٌّ قيوم.

أو: الله والمسيح وأمه، كما قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦]؟

---

(١) الراجح في معنىٰ أن عيسىٰ عليه السلام روح منه، أي: أنه روح ابتُدئ خلقُها من الله تعالىٰ لا من غير الله، ولا أنه بعضٌ من الله! فـ«من» ابتدائية وليست تبعيضة. وهذا نظير قوله تعالىٰ: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] يعني: أن ابتداء خَلْق ذلك كلِّه من الله سبحانه لا من إله غيره.

(٢) لم يثبت هذا، والصحيح الذي لا ينبغي العدول عنه: أن حَمْلَ مريم عليها السلام كان معجزة خارقة للعادات والسنن، وتفسيره علىٰ قوانين الطبيعة غير ممكن.

وقال في «المنار»: فآمِنوا بالله إيماناً يليق به، وهو أنه واحد أحدٌ، فَرْدٌ صَمَد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُواً أحد. تنزَّه عن صفات المُحْدَثات، ونسبتها إليه واحدة، وهي أنها مخلوقة وهو الخالق، ومملوكة وهو المالك. فمن الجهل الفاضح أن يُجعَلَ له نِدٌّ وكفءٌ فيها، أو يقال: إنه حَلَّ أو اتَّحد بشيء منها.

وآمِنوا برسله كلِّهم كما يليق بهم، وهو أنهم عبيدٌ له خصَّهم بضَرْب من العلم والهداية بالوحي إليهم؛ ليعلِّموا الناسَ كيف يُوحِّدون ربَّهم ويعبدونه ويشكرونه، وكيف يُزَكُّون أنفسهم ويُصلحون ذات بينهم.

﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ الآلهة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾؛ الأب والابن والروح القدس، أو: الله ثلاثة أقانيم؛ كلٌّ منها عينُ الآخر، فكلٌّ منها إله كامل، ومجموعها إله واحد، فتُسَفِّهوا أنفسَكم بترك التوحيد الذي هو ملَّة إبراهيم وسائرِ الأنبياء عليهم السلام، والقول بالتثليث الذي هو عقيدة الوثنيين الطَّغام[1]، ثم تدَّعون الجمع بين التثليث والتوحيد الحقيقي، وهو تناقضٌ تُحيله العقولُ ولا تقبله الأفهام، ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾[2] فإن الانتهاء يوصلكم إلىٰ السعادة، والبقاء علىٰ هذه العقيدة الفاسدة يوصلكم إلىٰ الشقاء الأبدي.

فلا تقولوا ثلاثة، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ ليس له أجزاء ولا أقانيم، ولا صاحبة ولا ولد، ﴿سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ فإنه تعالىٰ ليس له جنس فيكون له منه زوج، إذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ خلقاً وملكاً، والمسيحُ وأمُّه جملةٌ من ذلك، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ في تدبير

---

(١) هم أراذل الناس وأوغادُهم. «لسان العرب» (طغم).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٧١- ٧٢).

المخلوقات وحفْظ المُحْدَثات، لا حاجة له إلىٰ معين أو نصير، وكفىٰ به وكيلاً لمن يَكِلُ أموره إليه، ولم يحاول الخروج عن سُنَّته وشرائعه.

ثم صرَّح بما تضمَّنه قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وصاغ العبارة علىٰ وجه يردُّ علىٰ أولئك الضَّالِّين غُلوَّهم وضلالهم، ويقرِّر ما سبق من التنزيه والتوحيد، فقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، ثم توعَّد الناس بقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ وهذا يشمل المُلحِدين والمشركين والمُهمِلين لعبادته والضَّالين فيها، ومنهم المُغَالون في أمر عيسىٰ عليه السلام ومَنْ لفَّ لفَّهم، حيث قالوا فيه علىٰ الله غير الحقِّ، ولم يُنزِّهوه سبحانه ولم يُوحِّدوه، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ ويُحاسِبُهم علىٰ ذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ وهذه الفاصلة إنما تأتي لزيادة الترهيب والتوعد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

وبعد أن أقام سبحانه الحُجَّة علىٰ النصارىٰ، وفيما قَبْلُ علىٰ اليهود، وقد أقام الحجَّة قبل ذلك علىٰ المنافقين والمشركين، خاطب الناس، وقد تهيَّأت عقولُهم لقبول الدعوة، فدعاهم إلىٰ اتِّباع برهانه والاهتداء بالنور الذي أنزله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهو القرآن العظيم الذي نوَّه شأنه بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ يُضيء لصاحبه سُبُلَ السلام. والعطفُ لاختلاف الوصفَيْن، وغيَّر الأسلوب تعظيماً لشأن المُنْزَل، وتمنُّناً بنعمة التنزيل.

ثم بيَّن مصير المؤمنين به، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾، وفي الكلام عطف المسبَّب علىٰ السبب؛ لأنَّ الإيمان سبب الاعتصام، والاعتصام: الاحتماء. وأما قوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾؛ ففي ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ عطفُ السبب علىٰ المسبَّب؛ لأن الهداية سبب الإدخال. وهذا الصِّراطُ المستقيم، يصل سالكه إلىٰ سعادة الدارين. وأما المُعرِضون عنه فليسوا علىٰ شيء، وإن مَلَؤُوا الدنيا جلبةً وضوضاء.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

ثم ختم السورة بهذا الحكم المتمِّم لأحكام الفرائض التي تكلَّم عنها في السورة، علىٰ أسلوب القرآن في الخَتْم بما بدأ، وفي تفريق الموضوع باستطرادات متسلسلة لمناسبات مقتضية، ثم العودة إلىٰ الموضوع مرَّة بعد المرَّة، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، وقد مرَّ الكلام عن المعنىٰ اللغوي للكلالة في أول السورة فارجع إليه، إلا أنه ذكر فيما سبق نصيب الكلالة إذا كانوا إخوة لأم، وذكر هنا نصيبَ الكلالة إذا كانوا من العَصَب، وفي الجملة اكتفاء، علىٰ نهج القرآن، فقد حذف لفظ الكلالة من جملة الاستفتاء اكتفاءً بوجودها في الفتيا. والتقدير: يستفتونك في الكلالة قل: الله يفتيكم فيها.

ومُحَصَّل معنىٰ الكلالة: هو أن يموت ميِّت وليس له ولد ولا والد، كما اختصر ذلك بقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾، والمراد بها: مَنْ ليست لأم فقط؛

لأنَّ فَرْضَ الأخت للأم: السدس، وقد مرَّ بيانه سابقاً. أما هذه ـ وهي الشقيقة أو لأب ـ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ الميت، ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: وإنَّ هذا المرء يرثُ أخته الشقيقة أو لأب إذا ماتت ولم يكن لها ولد ذكر ولا أنثىٰ ولا والد، كما عُلِمَ من معنىٰ الكلالة.

ثم ذكر نصيب الأختين فيها، فقال: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

ثم ذكر نصيب الجمع المختلط من الإخوة والأخوات في الكلالة، فقال: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ﴾ أي: الذين يَرِثُون كلالةً ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ الاهتمام بكلِّ ما سبق من الأحكام، ويُنبِّه علىٰ عِظَمِ ما بها من الهداية والإرشاد، فقال: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ الأحكام حفظاً لكم من ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾ أي: كي لا تَضِلُّوا، وقد وضعها لكم عن علم وحكمة تتَّفق مع مصالحكم وما به الخير لكم وصلاح ذات بينكم، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ لا يضعُ الأحكام إلا بحسب المصالح الصحيحة العامة.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمد وآله أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الثالث[١] من تفسير القرآن المُسمَّىٰ: «أَوْلىٰ ما قيل في آيات التنزيل» يبتدئ بسورة المائدة، وهي مدنيَّة، مئة وعشرون آية، وقد نزلت بعد عقد صُلح الحديبية الذي كان يعتقد كثير من الصحابة أنَّ فيه غبناً فاحشاً علىٰ المسلمين، فضاقوا به ذرعاً، والذي تقرَّر فيه قضاء عمرة الحجِّ في العام المقبل، فقرَّرت السورة الوفاءَ بالعقود؛ تقريراً لهذا العهد، وبيَّنت بعض ما يخصُّ الحج.

(١) حسب تقسيم المؤلف في الطبعة الأولىٰ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ قالوا: العقود ضربان: عقدٌ بين الله تعالىٰ وبين العبد، وهي: الأحكام التي يأمر بها المؤمنين ويعهدُ بها إليهم. وعقدٌ بين العبد وغيره من البشر، كالنكاح والبيع والمعاهدة وغيرِ ذلك من المعاملات الشخصية القائمة بين متعاقدين؛ فردين أو صنفين.

وذكَرَ الجلالُ أنَّ سورة النساء قد اشتملت علىٰ عدَّة عقود، بعضها صريحة وبعضها ضمنية.

فالصريحة: عقد النكاح، وعقد الصَّداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

والضِّمنيَّة: عَقْد الوصيَّة والوديعة وغيرهما مما يدخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨].

فكانت هذه الآية حلقةَ وَصْل بين السورة السابقة واللاحقة، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، فهي من حيث الصيغةُ حكم مستقلٌّ قائمٌ بذاته، ومن حيث السياق تقريرٌ للسياق السابق في سورة النساء، وحَمْلٌ علىٰ العمل به، وتنفيذ ما جاء فيه من أحكام العقود، والمحافظة عليها. كما هي براعةُ استهلال وتمهيدٌ للسياق اللاحق وحثٌّ علىٰ التَّمسُّك بما جاء فيه من الأحكام التي هي عقود وعهود بين الله تعالىٰ وبين المؤمنين.

ومن ذلك بعض مقرَّرات الحجِّ التي مهَّد إليها بقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيما بعدُ في هذه السورة من تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة وما أكل السبع، الآية. فقد أمروا بمطلع السورة أن يتمسَّكوا بهذه الأحكام الـمُدْرَجة فيها ولا يُغيِّروا منها شيئاً.

وقد جعل الله هذا الحِلَّ عامّاً في سائر الأحوال، إلا في حال واحدة ذكرها بقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: وأنتم مُحرِمون بالحج، أو داخلون في أرض الحرم، فقد استثنىٰ من حِلِّ بهيمة الأنعام في سائر الأماكن والأحوال الصَّيدَ في حالة الإحرام، أو من أرض الحرم، فإنَّ ذلك قد حَرَّمه الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾، ولا يريد سبحانه بفضله وإحسانه إلا ما فيه خيرُنا وصالحُنا، علىٰ حسب علمه المحيط وحِكَمِهِ البالغة.

ولما نهىٰ سبحانه عن إحلال الصيد في الإحرام الذي هو من شعائر الحج، أردفه بما يقرِّره من بيان القاعدة العامة، علىٰ نهج القرآن في ذكر القواعد العامة إثر الأحكام الخاصَّة لتشملها وغيرها، وتكون مستمرة المدىٰ. والقاعدة هنا: هي النهي عن العبث بسائر الشعائر الدينيَّة، كالصَّدِّ عن المسجد الحرام، كما فعل المشركون في الحديبية،

فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[١] أي: لا تنتهكوا حُرْمتَها أو تُهملوها أو تمنعوا منها، وهي علائم دينه التي تبيِّن لكم الضَّالَّ من المهتدي، والهدىٰ من الضلال. ومن ذلك: مناسك الحج وفرائضه، بل اعملوا فيها بما بيَّنه لكم الله.

ثم عطف علىٰ الشعائر عَطْفَ الخاص علىٰ العام، فقال: ﴿وَلَا﴾ تُحِلُّوا ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾[٢] فتستأنفوا القتال مع المشركين فيه، ﴿وَلَا﴾ تُحِلُّوا ﴿ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾.

و﴿ٱلْهَدْىَ﴾: هو الذي يُرسَلُ إلىٰ بيت الله من الأنعام، للتوسعة علىٰ مَنْ هناك مِن عاكف وباد. و﴿ٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾: هي الإبل تُـقَلَّد بخيط أو شِبهِهِ علامةً علىٰ أنها هدية لبيت الله، وتُرسَلُ لعين الغرض.

والمعنىٰ: لا تُحِلُّوا الهدي مُقلَّداً ولا غير مُقلَّد، أي: تمنعوه من الوصول. وهذا تمهيدٌ لقوله: ﴿وَلَآ﴾ تُحِلُّوا قتالَ ﴿ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون التجارة والحجَّ معاً. فأمرنا سبحانه أن لا نخيفَ مَنْ قَصَدَ بيتَه من المسلمين، ولا نؤذيَه ونُسيءَ معاملته حتىٰ في البيع والشراء، ولا نمنعه وَهَدْيَه من الوصول إلىٰ البيت.

---

(١) قد مـرَّ الكلام علىٰ معنىٰ (الشعائر) في سورة البقرة عند قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] فارجع إليه. (المؤلف).

(٢) إنَّ بعض المؤمنين ثَقُل عليهم بعض شروط صلح الحديبية، وكانوا يودُّون أن يقاتلوا المشركين، وإن استقبلهم شوال. فألمعت الآية إلىٰ الإنكار علىٰ هذه الرغبة، مُلمِحةً إلىٰ أن ذلك لا يعد دفاعاً يغتفر مثله في الأشهر الحرم الآن، لأن القوم رضوا بالصلح والهدنة فلا سبيل لمقاتلتهم، إذ لم يبق مجال لمضمون قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ...﴾ الآية [البقرة: ١٩٤]. هذا رأيي، والله أعلم. ويجوز أن يكون ـ كالذي بعده ـ نهياً للمؤمنين أن يفعلوا ما فعله المشركون أو صمَّموا عليه من قتالهم في الشهر الحرام، وصدِّهم للهَدْي، ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، تعريضاً بفظاعة ذلك وتقريراً لقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في تقرير القواعد والتشريعات. (المؤلف).

وقال أبو مسلم: المراد بالآية: الكفار الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فلما زال العهد بسورة براءة زال الحظر، وكانوا يبتغون الفضل والرضوان فيما يُصلِحُ لهم دنياهم بالتجارة، فأمر سبحانه أن لا يُعجِّل لهم بالعقوبة.

أقول: وعلىٰ كلٍّ؛ فالآيةُ حكمٌ عام في النهي الشديد عن التصرُّفات المعيقة والمُخِلَّة بمناسك الحج وشعائره، أو بالأمان العام لقاصدي بيت الله الحرام. فكلُّ ذلك من أكبر المحرَّمات.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ مُتمِّم لقوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾، وغايةٌ له، ذكره بعد انتهاء سَرْد المحرَّمات وتناسُقِها، وهو تصريحٌ بما فُهِم ضمناً من قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾. والغاية منه: تقرير هذا الحِلِّ في الحكم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ولما كان قوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾، فيه إشارةٌ إلىٰ ما فعله المشركون مع المؤمنين عام الحديبية من صدِّهم عن البيت، وتعريضٌ بهم؛ نهىٰ المؤمنين أن يقابلوهم بمثله بعد الفتح انتقاماً، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ فتكونوا مثلهم، فضمَّن (يجرم) معنىٰ: يحمل، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في أنواع مجازات القرآن). و(الشنآن): البُغْض، وهذه الآية تؤيد قول أبي مسلم.

ولما أدَّبهم بهذا الأدب العالي، أردفه بقاعدة عامَّة تشمله وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في تقرير القواعد العامة المستمرةِ المدىٰ إثر الأحكام الخاصَّة منها وأيدها بها، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[1]، وذلك لا يكون إلا إذا

(١) البرُّ: كلُّ عمل نافع صالح. والتقوىٰ: تجنُّب كل ضار. والإثمُ: يشمل كلَّ رذيلة. والعدوان: =

خضع المسلمون لتعاليم دينهم بعيدين عن العصبية الجنسية والعصبية المذهبية، فلا يكون بينهم خلافٌ في نزعة من النزعات، وحينئذ يكونون كما أراد الله سبحانه منهم: وحدة واحدة وشخصية واحدة في دينهم ودنياهم ومعناهم ومبناهم، فهذا الحكم يأخذ بالمسلمين إلىٰ السُّمُوِّ عن مواطن الأهواء، ويُشيع فيهم حبَّ الإيثار، ويجعل منهم قوة رهيبة مُوجِّهة إلىٰ الخير والإصلاح، ولا يكون بينهم نزاع ولا شقاق.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بما فيه من الأحكام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ فلا تُهملوا ما يأمركم به.

﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾.

= الظلم بسائر أنواعه. فهما يتناولان كل ما يعود علىٰ الفرد أو المجتمع بالضرر والفساد. فالتعاونُ علىٰ البر والتقوىٰ، والكفُّ عن الإثم والعدوان: من أعلىٰ الصفات النفسيَّة، وأبرزِ منافع الحياة الاجتماعية، ينهض بالمجتمع إلىٰ المستوىٰ الراقي الرفيع المفضي إلىٰ راحة المجموع والرفاه عليه، وتخفيف آلامه. وقد أدركت ذلك العلوم الحديثة، وانتبهت الأمم إلىٰ ميزة هذا التعاون، فانتشرت الجمعيات الخيرية لتوفير الراحة ودفع الآلام. (المؤلف).

ثم أكمل ما حَلَّ بما حرُم، علىٰ نهج القرآن في الإكمال والمقابلة، ونظم في سلك هذه المحرَّمات والمنهيات ما حرم من بهيمة الأنعام التي وعد ببيانها بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، تكميلاً وتحديداً لبيان ما أحلَّ ببيان ما حرَّم، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾، أما تحريم الميتة والدم فلاحتوائهما علىٰ الجراثيم المتلفةِ لصحّة الإنسان[1]. وأما لحم الخنزير، فقد ذكر في تقرير للمعهد الطبِّيِّ في الولايات المتحدة الأميركية أنه في تلك البلاد التي تأكل لحم الخنزير تختلف نسبة الإصابة بديدان التريكينيلا بين ٥ و٣٥ في المئة علىٰ اختلاف تلك البلدان في نسبة تناولها له، كما أن أعراضها تظهر علىٰ ملايين من أهالي تلك البلاد بأشكال شتَّىٰ، مثل ارتفاع الحرارة، ونزلات معدية معوية، وآلام في العضلات والمفاصل. ويقول التقرير المذكور في ختامه: ويحتمل أن بضعة آلاف من الوفيات سنوياً سببُها هذه الدودة. فما أعظم حكمة الإسلام! وما أكبرَ عنايتَهُ بالأرواح والأجسام!

ثم تابع البيان في المحرَّمات، فقال: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾، وهذا إنما حُرِّم لضرره بالروح والعقل والدِّين. والمراد به: ما ذُبح أو نُحر علىٰ ذِكرِ غير اسم الله تعالىٰ من المخلوقات التي يُعظِّمها بعض الناس تعظيماً دينياً، ويتقرَّبون إليها بالذبائح.

و(الإهلال): رفع الصوت، وكانوا يذبحون لأصنامهم فيرفعون صوتهم قائلين: باسم اللات والعزىٰ. ورفعُ الصوت ليس شرطاً للتحريم، وإنما هو بيان للواقع والمعتاد، فلا مفهوم مخالفة له. وإنما حَرُمَ مِثْلُ هذا النوع حفظاً للعقيدة الإسلامية، وابتعاداً عن مظاهر الشرك والوثنية.

---

(١) هذا من باب بيان حكمة الحكم، لا علته، فالحكم ثابت سواء وُجِدَ الضرر أم لا، وسواء تمَّ الاحتراز عنه أم لا، وكذا القول فيما سيأتي في لحم الخنزير، ويدل عليه أن المؤلف رحمه الله ختم كلامه بقوله: «فما أعظم حكمة الإسلام».

ثم ذكر صنوفاً أُخَرَ من المحرَّمات يعرض لها أسباب يغلب فيها الموت، وقد يبقىٰ فيها رمق من الحياة أحياناً. فذكر حُكمَها فقال: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾ وهي التي ماتت بشدَّة الضرب؛ بأن تُضْرَب حتىٰ تنحلَّ قواها وتموت، ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ وهي التي ماتت لوقوعها من عُلو إلىٰ أسفل، ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي ماتت من إثر النطح، ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ أي: افترسه بعض الوحوش. والسبب في تحريم هذه الأنواع صحيٌّ بدني محض[1].

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ استثناءٌ من جميع ما ذكر من المحرَّمات الخمس، فإنها تحلُّ إذا أُدرِكَتْ وفيها رمقٌ محقّق من الحياة، وذُكِّيت تذكية صحيحة.

ثم ذكر نوعاً آخر من المحرَّمات بسبب ديني روحي، فقال: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾، وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها القرابين لمعبوداتها، أو للحجارة نفسها. وإنما أخَّره ليعطف عليه ـ تكميلاً للبحث ـ تحريمَ عمل آخر كانوا يعملونه في الجاهلية، وهو قوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ كما كانت تفعل الجاهلية.

ومعنىٰ (استقسم): طلَبَ معرفةَ ما يقسم له في المستقبل ويكون، وإنما نظم هذا مع مُحَرَّمات الطعام؛ لأنَّ تحليل كلٍّ منهما منشؤه الأوهام. و(الزُّلَم) بضمٍّ ففتح: عودٌ كالسهم يتَّخذون منها ثلاثةً، يُكتَب علىٰ أحدها: أمرني ربي. وعلىٰ الثاني: نهاني ربي. والثالثُ غُفْلٌ[2] ليس عليه كتابة. فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزواً أو زواجاً أو بيعاً أو غير ذلك، أجال هذه الأزلام في كنانتها، واستخرج منها واحداً، فإن خرج له الزُّلَم المكتوب عليه: أمرني ربي، مضىٰ لما أراد. وإن خرج له المكتوب عليه: نهاني ربي، أمسك

---

(١) وهذا حكمة، وليس علةً أيضاً.

(٢) يقال: قِدْح غُفْل: لا خير فيه ولا نصيب له ولا غُرْم عليه. «لسان العرب» (غفل).

عن ذلك. وإن خرج الغَفَلُ، أعاد الاستقسام. فقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي: خروجٌ عن نور الحق، وانغماس في عَمَىٰ البصيرة، وتوغُّل في ظلام الضلال والجَهَالة العمياء؛ إذ لا مَدْخَل لمثل ذلك في علم المستقبل، ولكنها الخُرافات.

ويُلحق بالأزلام ما يشبهها من وسائل الاستقسام التي يعتادها الناس اليوم، كالاستخارة بحبَّات السبحة وفنجان القهوة؛ إذ كل ذلك مثل الاستقسام بالأزلام، ومثل إثمه سواء بسواء.

وكذلك كان للمشركين نوع آخر من الاستقسام بالأزلام إذا اجتمعوا في الحرم يهلُّون بذبائحهم للأصنام، وينحرون جزوراً يسهمون عليها بالأزلام، ويسمُّونه الميسر، فأبطل سبحانه كل ذلك وأنكر عليه.

ولما كان الأمر بالوفاء بالعقود يتناول عقد صلح الحديبية نظراً، لأن المؤمنين ضاقوا به ذرعاً، كما جاء في سورة الفتح التي نزلت قبل المائدة مباشرة، فبعد أن أمرهم بالوفاء به، بيَّن لهم أن خوفهم منه لم يكن في محلِّه، بعد أن يئس الكفار من زوال دينهم، وخَنْقِه في مهده كما كانوا يزعمون ويرومون، فلا يرهبوا دعاية المشركين ضدَّ هذا الدين المبين بعد اليوم ولا حركاتهم، إذ قد كَمُلَ وتمَّت به النعمة علىٰ المسلمين، وقويت سُلطتهم، فلا ينبغي لهم ـ وقد بدَّلهم بضعفهم قوةً، وبخوفهم أمناً، وبفقرهم غنىٰ ـ أن يخشوا غير الله الذي جرَّبوا فَضْلَه عليهم وإعزازه لهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن﴾ زوال ﴿دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ أي: فيما أرضاه لكم وآمركم به من الوفاء وغيره، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. الحمد لله علىٰ الإسلام والسنيَّة حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، اللهم إني أعوذ بك من أن أُشرك بِك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك ممَّا لا أعلم، وأنـزِّهُك عن كلِّ ما لا يُرضيك، فاقبَلْ مني يا أرحم الراحمين.

وقد نزلت هذه الآية ليلة عيد الأضحىٰ، في حَجَّة الوداع، وعَيَّدَ المسلمون في اليوم الثاني من نزولها، وقد قُبض رسول الله ﷺ بعد مضي واحد وثمانين يوماً علىٰ نزول هذه الآية الـمُشْعرة بتمام نزول القرآن العظيم، وكمال ما جاء به من الدين المبين، وإنهاء الرسالة، وهي آخر آية نزلت ما عدا آية: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فإنها نزلت بعدها.

وبعد هذا الاستطراد عاد إلىٰ السياق، ورخَّص للمُضْطر أن يتناول شيئاً مما ذكر من محرمات الطعام، مع بيان شروط تلك الرخصة، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾ لا يؤاخذ علىٰ ذلك، وهذا متَّصل بذكر المحرَّمات، وما بينهما اعتراض. و(المخمصة): شدَّة الجوع، و(المتجانف للإثم): المتعمِّد له والجائِـرُ فيه. فالآية تُرخِّص أكْلَ كُـلِّ شيء مما ذُكر من المحرَّمات للجائع الـمُضْطر، علىٰ أن لا يتعدَّىٰ حدودَ الضرورة. وهذه الجملة من الأصول الكلية في يُسْر الشريعة الإسلامية.

وبعد أن بيَّن ما حرَّمه عليهم، بيَّن ما أحلَّه لهم، مفصِّلاً الإجمالَ في أول السورة، ولمح إلىٰ الوجه والحكمة في التحليل والتحريم، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، فذكر الحكم بطريقة السؤال والجواب، وهو أسلوب من أساليب القرآن، (كما جاء الكلام عنه في المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية).

و(الطيِّبات): هي ما تستطيبها النفوسُ السليمةُ الفطرةِ المعتدلةُ المعيشةِ بمقتضىٰ طبعها، فتأكلها باشتهاء، وكلُّ ما أُكِلَ كذلك يهضم بسهولة ويغذي غذاء صالحاً. وفيه تلميحٌ إلىٰ أنَّ كلَّ ما حَرُم فهو خبيث رديء، وكل ما أُحِلَّ فطيِّبٌ هنيء. فأما البحر فكلُّ حيوانه يؤكل، وأما البر فقد جاء الحديث بالنهي عن أن يؤكل من حيواناته كلُّ

ذي ناب من السباع[١]، وكل ذي مِخْلب من الطير[٢]، وما عَدَا ذلك من حيواناته فهو من الطيِّبات، سوىٰ الحشرات. وعند أبي حنيفة: السَّبُعُ: كلُّ ما يأكُل اللحمَ.

وبعد أن ذكر حِلَّ الطيِّبات بالتذكية المفهومة من مقابلتها بصيد الجوارح الآتي، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، عطف عليه حِلَّ الصيد بشرطه الآتي، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أي: معلِّمين لها الصيد، مشتقٌّ من الكلب؛ لأنه الغالب في الصيد. وفي قوله: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ تذكيرُ الناس بفضل الله عليهم في التعليم والتعلُّم، والتنويه بشأن هذا القرآن ومنَّة الله به وبتعاليمه علىٰ الناس، علىٰ سُنَّة القرآن في مَزْج الأحكام بما يُغذِّي ويُنمِّي الاعتراف بفضل الله وشكر نعمه. وقد قَيَّدَ حِلَّ ما يصيد الجارح، بأن يكون مما أدَّبه الناس وعلَّموه الصيد حتىٰ يكون قَتْلُه له كتذكية. و(ما) موصولة علىٰ حذف مضاف، أي: أحل لكم صيد ما عَلَّمتُم، أو شرطية جوابها قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

وقد جاء عن عَدِيِّ بن حاتم رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «إذا أرسلتَ كلابك المعلَّمة وذكرتَ اسم الله فكُلْ مما أمسكن عليك، إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف أن يكون إنما أمسك علىٰ نفسه»[٣].

وفي رواية: «إذا أرسلتَ كلبك المعلَّم فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدركتَه حياً فاذبحه، وإن أدركتَه قد قتل ولم يأكل منه فكُلْهُ، فإنَّ أخْذَ الكلب ذكاة»[٤].

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢)، عن أبي ثعلبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكلِ كُلِّ ذي ناب من السباع.

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤)، عن ابن عباس قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن كُلِّ ذي ناب من السِّباع، وعن كُلِّ ذي مخلب من الطير.

(٣) متفق عليه، رواه البخاري (٥٤٨٧)، ومسلم (١٩٢٩).

(٤) رواه مسلم (١٩٢٩) (٦).

ورُوي عن بعض السلف الأخذُ بظاهر عموم ما أمسكن، فقالوا: كل ما جاء به الكلب أو غيره ـ أكَـلَ منه أو لم يأكل ـ فهو قد أمسكه علىٰ صاحبه، فله أكله.

أما حدُّ التعليم فقد اكتفىٰ بعض العلمـاء بطاعة الكلب ونحوه لمعلِّمه ثلاث مرات. وعند الشافعية: العبرة بالعُرْف في ذلك. وأما عند الجمهور. فحقيقة التعليم: أن يطلبَ الكلبُ أو البازي الصيدَ إذا أُغري به، ويجيبَ إذا دُعي. ويسمَّىٰ ذلك إشلاء واستشلاء.

وقد اختلف العلماء في حكم التسمية: أواجب أم سنة؟ ولكلٍّ من الفريقين أدلة علىٰ مُدَّعاه.

والمَغْزىٰ في التسمية والحكمةُ فيها: هي الإشارة إلىٰ أنَّ الذبح وإزهاق الروح أمر عظيم لولا إحلال الله له، فهو إنما يُفْعَلُ باسمه تعالىٰ. وفيها أيضاً إبعادٌ عمَّا كان يعمل المشركون من الذبح لغير الله. والله أعلم.

ثم ختم السياق بما يحمل علىٰ التمسُّك بما جاء فيه، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾ أي: احذروا مخالفة أمر الله في تحليل ما أحلَّه وتحريم ما حرَّمه، فإنَّ الله يُوفِّي كلَّ عامل أجرَه عقب عمله، إنْ خيراً أو شراً؛ فإنَّ سُنَّته مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال بلا إبطاء، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا يكون في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت مباشرةً، فيُدرك كلَّ ما عمله من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه، وما يستحق علىٰ كل عمل من نعيم أو عقاب. والله أعلم.

ثم أعاد بيان إحلال الطيِّبات ليمهِّد به لما بعده ويشير إلىٰ أنه من الطيبات، وصاغ التعبير بصيغة تتماثل مع قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾، لتتوافر معها علىٰ بيان المنَّة في إكمال النعمة، أي: كما أتممتُ عليكم نعمتي فيما يتعلَّق

بالدين، أتممت عليكم نعمتي فيما يتعلق بالدنيا. ومنها: إحلال الطيبات، خلافاً لبعض الأمم السابقة التي حرَّم الله عليهم الطيبات بظلمهم، فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ومن ذلك ما يأتي من حِلِّ طعام أهل الكتاب ومناكحتهم.

والباعث علىٰ بيانه هاهنا: هو أنَّ أهل الكتاب في الأصل أهل توحيد، ثم سَرَتْ إليهم نَزَعات الشرك، وكان هذا مظنَّة التشديد في مواكلتهم ومناكحتهم، كما شُدِّدَ في أكل ذبائح مُشركي العرب ومناكحتهم، فبيَّن لنا سبحانه وأعلَمَنا أن لا نُعامِلَ أهل الكتاب معاملة المشركين في ذلك، وأحلَّ لنا مواكلتهم ونكاح نسائهم، وجمع بينهما للتناظر، فقال في بيان حلِّ مواكلتهم: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، وفسَّر الجمهور الطعام هنا بالذبائح واللحوم؛ لأنَّ غيرها حلالٌ بقاعدة أصل الحِل، ولم تحرم حتىٰ من المشركين.

وقد اشترط جمهور الفقهاء أن يكون مما أُحِلَّ لنا وذكِّي بذكاتنا. وشذَّ بعض الفقهاء فقالوا: وإن ذُكِّي بذكاتهم.

ثم عطف علىٰ حِلِّ أكل ذبائحهم حِلَّ مناكحة نسائهم تكميلاً للبحث، وسوَّاهُنَّ بالنساء المؤمنات تقريراً للحكم، فقال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنهنَّ حِلٌّ لكم كالمؤمنات.

وقد اختُلِف في الـمُحصَنات، فقيل: هُنَّ العفيفات، وهو الأَوْلىٰ. وقيل: هُنَّ الحرائر.

ثم شرط لحِلِّ المحصنات إيتاءَهن المهور، فقال: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وقد عبَّر عن المهور بالأجور كما عبَّر في بعض آيات سورة النساء[1].

---

(١) يعني الآية ٢٤.

ثم قيَّد الحِلَّ بأن يكون ذلك النكاح علىٰ وَجْه الإحصان لا السفاح، فقال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾، فأكَّد الإحصان بسَلْب هاتين الصفتين.

ولـما كانت إباحة ذبائح أهل الكتاب والتَّـزوُّج بالكتابيات رفعت من شأن أهل الكتاب وميَّـزتهم عن المشركين، أردَفَ ذلك ببيان أن الكفر يحبط العمل، وإن كان لصاحبه شأنٌ من بعض الوجوه، وذكر ذلك بصورة قاعدة عامة في الكفر، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾، وذلك لأن الكفر بالإيمان يُفسِدُ النفس فساداً عظيماً، فلم يصلح معه عمل يطبعها بما يؤهِّلها لنعيم الآخرة؛ إذ كل ما كان مع الكفر من الأعمال الحسنة النوع فليس لها في نظر الإسلام سوىٰ قيمة الطلاء. ويجوز أن يراد بالعمل الحابط: ما يسمُّونه عبادات، وأما الأعمال الخيرية؛ فإن لم تقترن بالشِّرك والرياء فقد تُخفِّفُ العذاب ـ والله أعلم ـ كما جاء في الحديث عن أبي طالب[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩)، عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من نار ـ أي: قريبٍ من القعر ـ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار».

ولما كانت الصلاة من أهم العهود التي بين العبد وبين الله سبحانه، ومن أعظم مظاهر الإيمان الذي يحفظ كيان الأعمال الصالحة التي تطبع صاحبها بما يُؤهِّله لسعادة الدارَيْن، أدرَجَها مع الأحكام التي انتظمها السياق، ذاكراً لها بحكمٍ من أحكامها الوضعية، وهو الوضوء، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾، وفيه التجوُّز بلفظ الفعل عن مقاربته، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة)، أي: إذا أردتم الصلاة توضؤوا ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ جمع مرفق، وهو أعلىٰ الذراع وأسفل العَضُد، ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد اختلفوا في الباء: أهي للتأكيد فيجب مسح كلِّ الرأس، أم للتبعيض فيكون الواجب مَسْح بعضه؟ ثم عطف علىٰ قوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ قولَه: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ وهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين. وإنما أخَّر الأرجل مع أنها معطوفة علىٰ الأيدي؛ لرعاية أمر الترتيب في أعضاء الوضوء بمقتضىٰ هذا النسق، ولذلك فَرَضَه الشافعيُّ رضي الله عنه.

وبعد أن ذكر الوضوء ذكر الغسل، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾، أي: إذا قمتم إلىٰ الصلاة وكنتم جُنباً فتطهَّروا طهوراً كاملاً؛ بأن تغتسلوا، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ [النساء: ٤٣]، و(الجنب): مَنْ أصابته الجنابة. يقال للواحد والمثنَّىٰ والجمع مذكراً ومؤنثاً.

ولما بيَّن وجوب الطهارتين؛ بيَّن الرخصة في تركهما عند المشقَّة أو العجز؛ لأن الدين يُسْر لا حرج فيه، فقال: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ مرضاً يضرُّ فيه استعمال الماء أو يشق، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ حيث يعزُّ فيه الماء أو يتعذَّر. ثم ذكر سببين؛ أحدهما: من موجبات الوضوء، والثاني: من موجبات الغسل، وأدمجهما في حالة ثالثة مرخِّصة قيَّدهما بها وهي

فقد الماء، فقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ وهو المكان المنخفض الذي كان يُؤْتىٰ لقضاء الحاجة، ثم صار كنايةً عنها، ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ وكنَّىٰ به عن الجماع، ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أي ـ والله أعلم ـ: إذا كنتم علىٰ حال من هذه الأحوال الثلاث ـ المرضِ أو السفرِ أو فقدِ الماء عند الحاجة إليه لإحدىٰ الطهارتين ـ ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: فاقصدوا تراباً أو مكاناً من وجه الأرض طاهراً لا نجاسة عليه، ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ أي: فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم وأيديكم إلىٰ الرُّسْغَين، بحيث يُصيبهما أثر منه.

وقد جاء مِثْلُ هذه الآية في سورة النساء[1]، واستوفيت فيها البحث، فارجع إليه.

والحكمة من التيمُّم: المحافظة علىٰ الصلاة، لأنَّ الصلاة كانت علىٰ المؤمنين كتاباً موقوتاً، لا عُذْر لتركها علىٰ كل حال، والوضوء شرطٌ لها، ولكنه سبحانه خفَّف علينا ببدله في أحوال ثلاثة: المرض، والسفر، وفقد الماء. علىٰ سُنَّته سبحانه في أن يُسهِّل علىٰ الناس كل ما لا يستطيعونه أو يشق عليهم. فأبدل الطهارة الماديَّة ـ وهي الطهارة بالماء ـ بالطهارة الرمزيَّة ـ وهي التيمُّم ـ؛ حفظاً للدوام علىٰ الصلاة وحرصاً عليها.

ولما ذكر فرض الوضوء وفرض الغسل وما يحلُّ محلَّهما عند تعذُّرهما أو تعسُّرهما، بيَّن حكمة شَرْعِهما لنا وفائدتهما لنفوسنا، وضمَّن ذلك بيان قاعدة من أعظم قواعد الشريعة السمحة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾، لأنه غنيٌّ عنكم لا يُريد بما يشرعه لكم مصلحةً له، ولا إحراجاً وتضييقاً عليكم، وإنما هو لمصلحتكم وفائدتكم والتخفيف عليكم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ

---

(١) وهي الآية ٤٣ منها.

﴿نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾، فيبيِّن لكم هدايتكم في كلِّ حال من الأحوال، ويرشدكم لما به الكمال الإنساني والسمو الروحاني وتزكية النفوس والرضوان الأكبر والنعيم المقيم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ أي: وَلِيُعِدَّكُم بذلك لدوام شكره وذكره.

ثم ذكَّرهم بالنعمة وهي الإسلام، وبالعهد الذي أعطوه في السمع والطاعة، تنبيهاً لهم وتنشيطاً للقيام بعمل هذه الواجبات علىٰ أكمل صورة، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بالهداية إلىٰ الإسلام ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: عَهْدَه الذي عاهدكم به حين بايعتم رسول الله ﷺ علىٰ السمع والطاعة في اَلمَنْشط واَلمكْره والعُسْر واليُسْر، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أن تنقضوا عَهْدَه بالمخالفة لما أمركم به ونهاكم عنه في هذه الآيات وغيرها، أو تُحرِّفوا شيئاً فتنسوا حظاً منه كما فعل أهل الكتاب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ لا يخفىٰ عليه ما تحويه الضمائر فَضْلاً عن المظاهر.

وفي هذه الآية دلالةٌ صريحةٌ علىٰ أن الأحكام التشريعيَّة داخلة في العهود، كما ذكرنا ذلك في مفتتح السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠﴾.

وبعد أن ذكَّرهم بالميثاق، نَدَبهم إلىٰ إقامة الأحكام، وأضاف إلىٰ ذلك ما فيه دقَّة مسلك مع الوفاء بالعقود، وهو الشهادة بالقسط وإقامة العدل، رامزاً إلىٰ ما سيكون لهم من السلطان، وناظراً إلىٰ صُلح الحديبية، آمِراً المؤمنين بالتمسُّك به والسكينة إليه،

فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ أي: مبالغين بالقيام بأوامر الله أداءً وتنفيذاً بصورتها الصحيحة حتىٰ تكون مقوَّمة لا نقص فيها. ففيه الحثُّ علىٰ عمل الواجبات السابقة وغيرها كاملةً مقوَّمةً غير منقوصة.

ثم أضاف إليه الحثَّ علىٰ أن يكونوا ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، والشهادة بالقسط تَتَضمَّن إظهار الحق وبيانَه دون مُحاباة لمشهودٍ له ولا لمشهودٍ عليه، كما قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ﴾ أي: لا يحملنَّكم بُغضُكم لقوم وعداوتُكم لهم علىٰ أن لا تعدلوا في حكمهم. فلا عُذرَ لمؤمن إذا لم يعدل، حتىٰ مع عدوه؛ لأن الحق فوق الأهواء وحظوظ النفس.

ثم أكَّد التَّحذير وقرَّره بالأمر، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، فهو فَرْضٌ عليكم لا هوادة فيه، ثم أردف الأمر بالعدل وقرَّره بالترغيب فيه، وذكر ذلك علىٰ وجه التعليل، فقال: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: لاتِّقاء عقاب الله وسخطه. والضمير يعود إلىٰ العدل المفهوم من ﴿ٱعْدِلُواْ﴾، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية).

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بما سبق، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾، لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم إن كانت حقاً أو باطلاً، عدلاً أو جَوْراً، شكراً أو كفراً.

ولما كانت هذه الفاصلة تشير إلىٰ جزاء العاملين المتَّقين وضدِّهم؛ فصَّله بقوله[1]: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وقد حذف الموعود به مبالغةً في تعظيمه

---

(١) يجوز أن يكون بيان المصير هذا في موضع التعليل للأمر بالتقوىٰ والحث عليه، ولما قبله. (المؤلف).

وعدم تحديده، ولكنه استأنف البيان فذكر شيئاً مجملاً من ذلك الموعود به، فقال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ أي: مما لا عَيْنٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

ثم بيَّن مصير المكذِّبين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾، وفي التعبير بأصحاب الجحيم من الإيماء إلىٰ التأبيد والخلود ما لا يقوم به كلمة أخرىٰ. فأعظِمْ ببلاغة القرآن! جلَّ مَنْ هذا كلامُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم ذكَّرهم ببعض نِعَمِهِ عليهم، زيادةً في الحثِّ علىٰ التمسُّك بتلك الأحكام والقيام بالقسط في أمر صُلح الحديبية، وأن لا تضيق صدورُهم منه؛ لأنهم في عناية الله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه: «أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا علىٰ النبيِّ ﷺ وأصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر، ليُوقعوا بهم ويُصيبوا منهم، فأخذهم رسول الله ﷺ، ثم أعتقهم، وكان ذلك سبب الصلح. وهذه الحادثة كانت في الحديبية، بلغت النبي ﷺ، فأرسل لهم كميناً أسر بعضهم وأتىٰ بهم النبيَّ ﷺ»[1].

وكذلك الآية تذكر بحادثة بني النضير عندما حاولوا أن يغتالوا النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنه[2].

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨).

(٢) رواه أبو نعيم في «دلائل النبوة» (٣: ٣٥٤-٣٥٥).

وبقصة المحاربي حين استلَّ سيف النبي ﷺ وهو منفردٌ عن أصحابه غافلٌ عنه، وقال: من يمنعك؟ قال: «الله»، فوقع السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك»؟ فقال: كُنْ خيرَ آخِذٍ، فعفا عنه، إلىٰ آخر القصة[1].

وهناك وقائعُ أخرىٰ كثيرة كفَّ الله فيها أيدي المشركين عن المؤمنين، ذكرنا بعضها في سورة الفتح.

ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ الذي كفَّ أيديهم عنكم، وتوكَّلوا عليه وحده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١١﴾، ولا تحصل حقيقة التوكُّل إلا بالسَّيْر علىٰ سُنة الله في مراعاة نظام الأسباب والمسبَّبات مع التوكل.

﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤﴾.

وبعد أن ذكَّرنا الله سبحانه بميثاقه الذي واثقنا به علىٰ السمع والطاعة لخاتم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٤١٣٩)، ومسلم (٨٤٣)، عن جابر بن عبد الله.

رسله، ذكر لنا أَخْذَ مثل هذا الميثاق علىٰ اليهود والنصارىٰ، وما كان من نقضهم ميثاقَه، ومن عقابه لهم علىٰ ذلك في الدنيا، وما ينتظرون من عقاب الآخرة، لنعتبر بحالهم ونتَّقي حَذْوَ أمثالهم. وصدَّر البيان باللام المُوَطِّئة للقسم؛ لإظهار كمال الاعتناء به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: ليَعمَلُنَّ بالتوراة، ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ والنقيب في القوم: من يُنقِّب عن أحوالهم، ويبحث عن شؤونهم. ونقباء بني إسرائيل: هم زعماء أسباطهم الاثني عشر. والمراد ببعثهم: إرسالهم مع فرقهم لمقاتلة الجبَّارين المعارضين.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ لهم: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بالمعُونة والنصر ما دمتم محافظين علىٰ ميثاقي، و﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى﴾ أي: الذين سأرسلهم لكم بعد موسىٰ، ومنهم عيسىٰ ومحمد ﷺ، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ والتعزير: النصر مع التعظيم. أي: عظَّمتموهم ونصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وبذلتم من المال والمعروف فوق ما أوجبه الله عليكم بالنصِّ، ولا سيما في سبيل الجهاد ونصرة الرسل، فكنتم بذلك كمن أقرض ماله لغنيٍّ وفيٍّ موثوقٍ به يأخذه منه وافياً عند الحاجة إليه. وفي هذا التعبير هزٌّ للنفوس واستدرارٌ للأكف.

أي: فأُقسِمُ لئن فعلتم ذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: لَأُزيلنَّ بتلك الحسنات أثر ما سلف لكم من السيئات، فلا يبقىٰ في نفوسكم منه ما يؤدِّي بكم إلىٰ العقاب، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وبعد أن بيَّن تعالىٰ العمل الصالح، والوعد بالجزاء الحسن عليه، أعقبه ببيان حال مَنْ كان علىٰ ضدِّه، وبيان من عادَ بعد الهُدىٰ إلىٰ الضلال، وقال: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ الذي يُوصِلُ إلىٰ صلاح القلب وتزكية النفس المؤهِّلَين للنعيم المقيم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنهم نقضوا الميثاق ولم يعملوا بتوراتهم حسبما شرع الله لهم فيها، فكان من أمرهم وجزائهم ما ذكره بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: لنقضهم ميثاقَنا الذي أخذناه عليهم وواثقناهم به ﴿لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾، ومعنىٰ هذا: أنَّ نقض الميثاق وما ترتَّب عليه من المعاصي والكفر، كان ـ بحسب سُنَّة الله تعالىٰ في تأثير الأعمال في النفوس ـ مُبْعِداً لهم عن كلِّ ما يستحقُّون به رحمةَ الله وفَضْلَه، ومُقسِّياً لقلوبهم حتىٰ لم تَعُدْ تؤثِّر فيها حُجَّة ولا موعظة.

ثم شَرَح بعض صور نقض الميثاق، فقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾، وذلك بتحريف المعاني، بحَمْل الألفاظ علىٰ غير ما هي له، أو بتحريف الألفاظ نفسها، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: طائفةً من أصل كتابهم، وفسَّر بعض العلماء النسيان بترك العمل بقِسْمٍ منه. وكلا المعنيين واقع؛ فإن التوراة التي أُخِذَ العهد والميثاق علىٰ بني إسرائيل بحفظها، قد فُقدت باتفاق مُؤرِّخي اليهود والنصارىٰ عند سَبْي البابليين لليهود، وما كان عندهم إلا هذه النسخة، ولم يكونوا يستظهرونها، كما كان المسلمون يستظهرون القرآن في عهد النبيِّ ﷺ، وقد حقَّق كثير من مُؤرِّخي الفرنجة أن هذه التوراة التي بين أيديهم كُتبت بعد موسىٰ ببضعة قرون، كتبها عزرا الكاهن، بعد أن أُذن إلىٰ بني إسرائيل بالعودة إلىٰ بلادهم.

ثم أضاف إلىٰ نقض الميثاق فظيعةً أخرىٰ من فظائعهم، فقال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾، والعرب تعبِّر بصيغة الفاعل عن المصدر أحياناً، كالعكس، فاستعملت القائلة بمعنىٰ القيلولة، والخاطئةُ بمعنىٰ الخطيئة. والمعنىٰ: إنك لا تزال تَطَّلِعُ من هؤلاء اليهود المجاورين لكم علىٰ خيانة بعد خيانة، حتىٰ إنهم قد حاولوا اغتياله، كما مرَّ آنفاً.

ثم استثنىٰ من ذلك بعضهم بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، كعبد الله بن سَلَام وإخوانه

الذي أسلموا. والأمة مهما فسدت طِباعُها لا بُدَّ أن يبقىٰ منها بعض أفراد قلائل تغلب سلامةُ الفطرة عليهم، يكونون هم السابقين إلىٰ كل إصلاح جديد.

ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يقابل تلك الخيانة منهم بعد فشلهم وفضيحتهم وذلِّهم، بما يليق به من مكارم الأخلاق وعُلُوِّ الجناب، وقال: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه ما كان من أمر اليهود في نَقْضِهم ميثاقَهم، بيَّن ما كان من أمر النصارىٰ في ذلك، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾، وفي هذا التعبير مبالغة في التأنيب؛ لأنهم إنما سَمُّوا أنفسهم بهذا الاسم ادِّعاءً منهم لِنُصرة الله تعالىٰ، بقول الحواريين لعيسىٰ عليه السلام: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وقد حكىٰ حالهم سبحانه بقوله: ﴿أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ علىٰ ذلك ﴿فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، وفي هذا التعبير تأنيبٌ لهم علىٰ ما ضيَّعوا من كتابهم، كما فعل من قبلهم، وذلك لأن الذين كانوا يتَّبعون الأنبياء من الأمم الغابرة لم يمض علىٰ أعقابهم مدَّة من الزمن حتىٰ يخرجوا عن الدين الصحيح إلىٰ التحريف والتبديل، تحت تأثير الرؤساء الذين يُريد كلٌّ منهم أن يجعل له كياناً خاصاً يتميَّز به عن الآخر وحزبه. فيتَّخذ صِبْغةً خاصَّة للدين، ويدَّعي أنها هي الصحيحة التي يجب اتِّباعها، ولا تزال تلك الصِّبغة تشتد وتبتعد عن الأصل، حتىٰ يصبح الدين غير ذلك الدين، ويفقد روحه وأصله السماويَّ، ويدخل في حدود الأديان الوثنيَّة والعقائد الشركيَّة بتوالي الأزمان.

وهكذا كان أمر اليهود والنصارىٰ، فأنَّبهم سبحانه وتعالىٰ علىٰ فعلهم هذا، ثم بيَّن ما كان بينهم من التفرقة من جراء ذلك، وقال: ﴿فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي: فكان نسيانهم لحظٍّ من كتابهم، واختصاص كل فرقة منهم بشكل من التحريف سبباً لوقوع الاختلاف بينهم والتفرُّق في الدين. وذلك يوجب ـ بحسب السنن الإلهية في طبيعة البشر ـ العداوة والبغضاء، فكان هذا جزاءهم في الدنيا، ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في الأخرىٰ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ من نقض الميثاق ونكث العهد وتبديل الكتاب وتحريف العقيدة والأوامر والنواهي، وذلك عندما يحاسبهم ويجازيهم. فأقام التَّنْبِيءَ عن العمل مقام الجزاء، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

وبعد بيان فظائعهم المنبِّه لـهم علىٰ سوء أمرهم، وجَّه إليهم الخطاب بالدعوة إلىٰ الإسلام الـمُنْقِـذ لـهم من هذا الضلال، وَصْفاً للدواء بعد تـشخيص الداء، ولكنهم لم يقبلوا، فقال: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ

﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾، يعني ـ والله أعلم ـ: يعفُو عن كثير مما كنتم تخفونه لِثِقَلِهِ عليكم، بمعنىٰ: أن شريعته رفعت كثيراً من الأغلال التي كانت عليكم في شريعتكم، فلا تُضَيِّعوا هذه الشريعة فتنقلبوا خاسرين.

ثم نوَّه بشأن الـمُرْسَل به لما ذكر، وللمبالغة في الحثِّ علىٰ اعتناقه، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ بالإيمان به والعمل بموجبه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في الدنيا والآخرة. وهذا التعبير يتضمَّن المقابلة لقوله: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾. وأفرد ضمير ﴿بِهِ﴾ للإشارة إلىٰ أن الكتاب هو النور، وأنهما واحد. وتقديم الصفة وعطف الموصوف عليها للاهتمام بشأن الصفة، وهي النور.

ثم بيَّن تلك الهداية بقوله: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتيسيره وسننه وإرادته، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ يصل سالكه إلىٰ ساحل النجاة ومواطن السعادة في الدنيا والأخرىٰ.

ثم بيَّن ما كفر به النصارىٰ دون ما كفر به اليهود، لما فيه من عظم الفظاعة، فقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وقال الرازي[1] والبيضاوي: هذا لازمُ معتقدهم، ونُسِبَ إليهم توضيحاً لجهلهم، وتفضيحاً لمعتقدهم الذي يلزم ذلك[2].

أقول: إنَّ هذا لازمُ قولِ من يقول منهم: إنَّ الجوهرَ الذي هو الله اتَّحد بالمسيح

---

(١) انظر «تفسير الرازي» (١١: ٣٢٧- ٣٢٨).

(٢) «تفسير البيضاوي» (٢: ١٢٠)، والكلام منه.

وحلَّ به وتدرَّع، فباطنه لاهوت، وظاهره ناسوت. ولازم هذا القول: أنَّ الله هو المسيح. فكفَّرهم سبحانه وتعالىٰ، ثم ردَّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: قل ـ يا أيها الرسول ـ لهؤلاء الجَهَلة المتجرئين علىٰ مقام الألوهية بهذا الزعم السخيف: إنَّ المسيح وأمه من المخلوقات التي هي قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها، كسائر أهل الأرض، فما هما إلا عبدان من عباد الله. وقد ألمع إلىٰ هذا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فهو المستحق للألوهية وحده، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: فإذا خلق عيسىٰ من دون أب، لا يلزم أن يكون ابناً لله، ولكنه مخلوق بقدرة الله القادر علىٰ كل شيء.

ثم بيَّن ما يقوله اليهود والنصارىٰ معاً من السخافة التي تشبه تلك السخافة، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وإطلاق «الابن» علىٰ المحبوب المقرَّب وَرَدَ كثيراً في العهد القديم. والمعنىٰ: إننا مختصُّون بمزيد الشفقة والمحبة من الله تعالىٰ، وإنَّ عنايتَه بنا أشدُّ وأكمَلُ من عنايته بمَنْ سوانا.

فأمر الله سبحانه رسوله أن يردَّ عليهم زَعْمَهم هذا بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ أي: في الدنيا كما تعلمون من تاريخكم الماضي، في استيلاء الأمم عليكم وتخريبهم بلادَكم ومسجدَكم، واستعبادِهم لكم، وتكرَّر ذلك فيكم، ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ تجري عليكم سنن الله كما تجري علىٰ سائر البشر، والله سبحانه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يستحق المغفرة، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ممن يستحقُّ العذاب، ومشيئته تعالىٰ تجري علىٰ حِكَم وسُنن مطردة لا مُحاباة فيها ولا هَوَادة، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، وأعاد الآية هنا تذكيراً بقدرة الله العظيمة وسلطانه الشامل، وذلك لإثارة الشعور بالحذر منه تعالىٰ ومن مخالفة أحكامه، ولذلك

ختمها بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، أما نظيرة هذه الآية فيما سبق فقد جاءت دليلاً علىٰ اختصاصه سبحانه بالألوهيَّة، وعلىٰ قدرته القاهرة، وتَصَرُّفه بسُنن هذا الكون، وخَلْقِهِ ما يشاء، حتىٰ خلق عيسىٰ من دون أب، ولذلك ختمها[١] بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

قال في «المنار»: وبعد أن أقام الله الـحُجَّة علىٰ أهل الكتاب ودَحَضَ شُبهتهم التي غرَّتهم في دينهم، ذَكَّرهم بحُجَّته عليهم يوم القيامة إذا هم أصرُّوا علىٰ غرورهم وضلالهم، فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: قد جاءكم رسولنا المعهود لكم، والمبشَّـر به في كتبكم، والمنتظر في اعتقادكم؛ فإنَّ الله أخبركم علىٰ لسان موسىٰ: أنه سيقيم نبياً من بني إسماعيل إخوتكم. وعلىٰ لسان عيسىٰ ابن مريم: بأنه سيجيء بعده البَارَقْلِيط[٢]؛ روحُ الحقِّ الذي يعلِّمكم كلَّ شيء. ولا تزال هذه البشارات في كتبكم وإن حرَّفتموها، بسُوء فهم أو بسُوء قَصْد منكم.

وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ أي: علىٰ حين فترة، بمعنىٰ: بعد فترة وانقطاع من الرسل. وهذه الحال تُؤْذِن بشدَّة الحاجة للرسول المبيِّنِ لما انطمس من الشرائع، كما تشير إلىٰ ما طرأ علىٰ الشريعة الأولىٰ من التحريف.

ثم علَّل مجيء الرسول للذين هم في أشد الحاجة إليه بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي: إزالةً لهذا العذر، ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ولم يبق لكم حُجَّة ولا اعتذار، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ لا يُعجزه أن يُريَكم صدقَ نبيِّه، بنصر دعوته وإعلاء كلمته. ويجوز أن تكون الفاصلة تأييداً أيضاً لما تضمَّنته الحجَّة من إثبات

---

(١) أي: ختم نظيرة هذه الآية، وهي الآية التي قبلها.

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٤٩).

الحشر والحساب الذي توعَّدهم فيه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾، ففيها زيادةُ تقرير للإنذار والوعيد. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم ذكر لبني إسرائيل هذه القطعة التاريخية التي يَتجلَّىٰ فيها خُلُقُهم في مكابرة الحق ومعاندة الرسل الذين أخذ الله عليهم العهد باتِّباعهم، ذكر ذلك تسليةً له ﷺ، وزيادةَ عرفان بطبائع الأمم وسنن الاجتماع البشري، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا[1] وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ يجوز أن يكون المراد: إنقاذهم من استعباد القبط، فأصبحوا مالكين لأنفسهم، لهم كيان مُستقل بموسىٰ وهارون وأعوانهم. ويجوز أن يكون الكلام من نوع شعور الأنبياء بمستقبل أممهم في شأن من شؤونهم بواسطة الوحي النفسي، وهو الإلهام. ويجوز أن يراد بالملوك: داود وسليمان عليهما السلام لأنهما منهم، قاله بوحي نفسي. ويجوز أن يراد: أن الله جعلكم أرباب خدم وحشم بعد ذل فرعون، والله أعلم، لأن بني إسرائيل صار لهم أنبياء وملوك عديدون بعدما انفكُّوا من استعباد الفراعنة. والله أعلم. =

﴿يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾، فذكَّرهم بالنعمة إثارةً للنخوة؛ لأنَّ الشعور بالشرف يثير الحماس لمحافظته والدفاع عنه، وجعل ذلك تمهيداً لهم علىٰ انتدابهم لاحتلال الأرض المقدَّسة، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا الوصف بالصلة تذكيرٌ بصدق وَعْدِ الله لهم بالنصر، وإشعارٌ به؛ تشجيعاً لهم وتهويناً عليهم. ثم أكَّد الأمر بالدخول بالنهي عن ضدِّه وبيان ما يترتَّب عليه؛ تحذيراً لهم من ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾.

ولكن هذه المعالجة النفسيَّة لم تُجْدِهم نفعاً، فعاندوا وعارضوا و﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فهذا الجواب يُظْهِرُ طبيعتهم في معارضة الأنبياء ومعاندتهم، كما يُظهر جُبْنَهم وذلَّهم، وذلك لأنَّ استعباد المصريينَ لبني إسرائيل قد أذلَّهم وأفسدَ عليهم بأسهم. وكان بنو عناق من الكنعانيين الذين يسكنون فلسطين أدنىٰ الأرض المقدَّسة أُولي قوة وأُولي بأس شديد، فخافوهم وجَبُنُوا تجاههم وعَصَوا رسولَهم لـمَّا أمرهم بمحاربتهم، إلا أنَّ الأمة مهما فسدت أخلاقها لا تعدم أن يكون فيها أفراد بقي فيهم شيءٌ من سلامة الفطرة وصحَّة الطباع، تندفع إلىٰ الحقِّ وتُؤيِّده.

وهكذا كان في بني إسرائيل أناسٌ صالحون، حكىٰ سبحانه عن بعضهم تأييدَهم للحقِّ بقوله: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله منهم دون العدو، وقد ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالتثبيت، واتَّفقَتِ الرواة علىٰ أنَّ هذَيْن الرجلَيْن من صالحي بني إسرائيل: هما يوشع بن نون وكالب بن يفنة؛ وفاقاً لرواية التوراة عند أهل الكتاب، فهما اللذان كانا يحُثَّان القوم علىٰ الطاعة ودخول أول بلد للجبَّارين ثقةً بوعد الله وتأييده. كما قال

= وأما إيتاؤهم ما لم يؤت أحداً من العالمين؛ فيجوز أن يكون إنزال التوراة عليهم؛ لأنه أول كتاب سماوي جامع. والله أعلم. (المؤلف).

تعالىٰ في حكاية قولهما: ﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ أي: باب المدينة، ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ أي: بنصر الله وتأييده لكم، إذا أطعتم أمره وصدقتم وعده، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ أي: وعليكم بعد أن تعملوا ما يدخل في طاقتكم من طاعة ربكم، أن تَكِلُوا أمركم إليه، وتثقوا به فيما لا يصل إليه كسبُكم، فإنَّ التوكُّل إنما يكون بعد بَذْل الوسع في مراعاة السنَّة الطبيعيَّة وامتثال الأمر.

ولكنهم لم تنفعهم موعظة الرجلين، بل أصرُّوا علىٰ التَّمرُّد، كما حكىٰ عنهم سبحانه بقوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، فأكدوا لموسىٰ بأنهم لا يدخلون تلك الأرض ما دام فيها الجبَّارون، وأنهم ليسوا بأهل للقتال. فإن كنت أخرجتَنا من مصر بأمر ربك لنسكن هذه الأرض التي وعدنا الله بها ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ حتىٰ تستأصل شأفة الجبَّارين، أو تتمَّ هزيمتهم.

وهذا القول يدل علىٰ منتهىٰ التمرُّد والخذلان، وضعف القلب والإيمان، وسماجة الطبع وبلادة العقل والحطة والنذالة، والجهل بسنن الله في الكون، وأنه سبحانه يدفع الأمم بعضها ببعض، حتىٰ تعود إلىٰ حظيرة الحق والصواب، ولكنهم يعتقدون أن الأمور تجري عن طريق خوارق العادات، وعجائب المعجزات.

ثم اسمع ما يقوله موسىٰ عليه السلام من بثِّ الحزن والشكوىٰ، مع الإيمان والثقة بالله والخشية منه، فقد ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ أي: إذا أخذتَهم بالعقاب علىٰ فسوقهم وخروجهم عن الحق بانحراف طبائعهم حتىٰ بدَّلوا الطاعة بالعصيان. وقد أقام هذا اللازم ـ وهو طَلَبُ إنجائه وأخيه ـ مقامَ الملزوم، وهو طَلَبُ مجازاتهم، إيذاناً بتحقيق الوقوع.

وقد أجاب الله له ذلك بنوع آخر غير استئصالهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: إنَّ الأرض المقدَّسة مُحرَّمة علىٰ بني إسرائيل تحريماً فعلياً لا تكليفاً شرعياً، مدَّة أربعين سنة، يسيرون في بريَّة من الأرض تائهينَ متحيِّرين، لا يقدرون أن يعودوا إلىٰ مصر خوفاً من المصريين، ولا أن يدخلوا الأرض المقدَّسة خوفاً من الكنعانيين، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فلا تحزن عليهم، فإنهم خرجوا بانحراف فطرتهم من نُور العقل إلىٰ عَماء البصيرة، فاستحقُّوا هذا التأديب الإلهي لتعديل طبائعهم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ أصل البحث رامزاً إلىٰ أنَّ الذي صَرَف اليهود عن الإيمان بالنبيِّ ﷺ، وحَمَلهم علىٰ عداوته والمعارضة له، إنما هو استعداد الحسد في طبيعة الآدميين، إذا صادفها ما يكوِّنه فيه ويُنمِّيه ويدفع إليه؛ إذ الحسد ليس غريزة ذاتية في الإنسان، ولكنه مُنْبعث عن غريزة الطموح وحُبِّ التفوُّق، إذا فسدت بمفاسد التربية. والحسد إذا

قوي يدفع صاحبه إلىٰ ترك التعقُّل وسوء التصرف، لذلك أمر الله نبيَّه أن يقصَّ علىٰ اليهود قصَّة ابني آدم الصالحِ والفاسدِ؛ رامزاً إلىٰ أن ذلك الإعراض عنك ناتج من انطباعهم علىٰ الحسد، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ﴾ ليعلموا أنَّ حالك معهم كحال ابن آدم الصالح مع أخيه الفاسد الحسود. أو المعنىٰ: اتْلُ ذلك علىٰ الناس ليعلموا أنَّ معارضة اليهود إنما هي من حسدهم وبغيهم، ولتعلم أن حكمة الله فيما شرعه علىٰ الباغين.

ثم فصَّل القصة فقال: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾، ولم يُبيِّن لنا تعالىٰ كيف عَلِما أنه تُقبِّل من أحدهما دون الآخر. ويحتمل أن يكون وقتئذ علامةٌ طبيعيةٌ عليه، أو يكون بشعورٍ وجدانيٍّ، لأنَّ النفس عندما تكون في حالة بَسَاطة، كما هو شأنها في أول أدوارها، أو في تربية بسيطة قليلة المعرفة، يقوىٰ معها الحسُّ الباطني، فتدرك خفيَّات الأمور، كما يُقرِّر ذلك علماءُ النفس. ويحتمل أن يكون ذلك بوحي من الله لأبيهما آدم عليه السلام[1].

ولما علم ذلك الذي لم يُتقبَّل منه ﴿قَالَ﴾ للذي تُقُبِّلَ منه مُتوعِّداً إيَّاه: أُقسِمُ ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾، ولم يَرْعَ العهدَ الذي أخذه الله علىٰ بني الإنسان أن لا يتظالموا، فأجابه بما يتضمَّن القاعدة العامة للقَبول وعدمه، وسَبَك ذلك علىٰ الاعتذار، و﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إن كان الله لم يتقبَّل منك فارجع إلىٰ نفسك فحاسِبْها علىٰ السبب، وإني لم أذنب إليك في ذلك ذنباً تقتلني به.

ثم أكمل الجواب ببيان حقيقة أخرىٰ، وهي ما يجبُ علىٰ الناس فيما بينهم من

---

(١) علموا قبولَ القربان من سنَّة بني إسرائيل بأن أكلته النار كما ذكره الزجاج في «معاني القرآن» (٢: ١٦٦).

احترام الدماء وحفظ الأنفس، ولا سيما الأخوة، فقال: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ﴾، وهذا الخُلُق العالي والنظر السديد إنما ينبعث من الانطباعات الدينيّة الصحيحة، وذلك الهَوَج والحمق ينبعث من ضعف الدِّين. وإنما عبَّر بالجملة الاسمية ثانياً دون المضارع المنفي؛ لأنَّ نفي الصفة أبلغ من نفي الفعل، لأنَّه يدلُّ علىٰ أنَّ الفعل ليس من شمائله أبداً.

ثم أكَّد النَّفي ببيان علَّته، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾.

ثم قرَّر هذا البيان بالتذكير بعذاب الآخرة، فقال: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾، أي: إني أُريد من اتِّقاء مقابلة الجناية بمثلها أن ترجعَ ـ إنْ فعلتَها ـ مُتلبِّساً بإثمي وإثمك، أي: إثم قَتْلك إيَّاي، وإثمك الخاص بك الذي كان من شؤمه عَدَمُ قبول قُربانك. وقيل: بل المعنىٰ: إنَّ القاتل يحمل في الآخرة آثام مَنْ قتله.

وبعد أن سمع منه هذا الكلام بقي متردِّداً بين الإقدام والإحجام، حتىٰ غلبته هواجسُ الشرِّ المتأتِّية من إفساد طبيعته، ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾، ومعنىٰ: (طوَّع): جَعَله يطيع، وقد ضمَّنه معنىٰ: سَهَّلَ، أي: إنَّ النفس لا زالت تعالجه بوساوسها وهواجسها حتىٰ طاع هواه ولان ومال إلىٰ هذا الفعل الرهيب، ففعله ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ في الدنيا أخاه الصالحَ، وفي الآخرة نعيمَها الدائم.

وقد تبيَّن من القصة: أنَّ الحسد يدفع صاحبه إلىٰ ترك التَّعقُّل وسُوء التَّصرُّف، ويتبيَّن أن الذي يَتمسَّك بشريعته يحافظ علىٰ طبيعته، فيعرف الحق من الباطل، والهدىٰ من الضلال، ويعمل بالأول ويعرض عن الثاني، والذي يهمل شريعته يفسد طبيعته، فيرتكب الثاني وقد يتعاطىٰ الإجرام.

ولما كان هذا أولَ قَتْلٍ ومَوْتٍ وقع في بني آدم، لم يعرف هذا القاتل الأول كيف يواري جثَّة أخيه المقتول التي يسوؤه أن يراها بارزة، أي: أنهم لم يعرفوا بعدُ أن يدفنوا موتاهم، وكانت تؤلمه جثة أخيه التي اعتدىٰ عليها، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ لأنَّ من عادة الغراب دفن الأشياء، فجاء ودفن شيئاً، فتعلم منه الدفن، وانتبه له، و﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ التي تسوؤني رؤيتها.

ولما تبيَّن جَهْلُه له عَلِمَ أنه إنما أقدَمَ علىٰ قتل أخيه لجهله وقلة معرفته، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ علىٰ قتله.

ويدلُّنا هذا علىٰ أن الإنسان في نشأته الأولىٰ كان في منتهىٰ السذاجة، وأنه لاستعداده الذي يَفْضُلُ به سائر أنواع الحيوانات كان يستفيد من كل شيء علماً وخبرة، ويرتقي بالتدريج. وقد تعلم القتل من الحيوان أيضاً، كما تعلَّم منه الصيد.

وفي الآية دليلٌ واضح علىٰ أن النوع الإنساني يتدرَّج في مدارج الكمال وسُمُوِّ العلم والمعرفة كلما مرت عليه الدهور وتعاقبت العصور، لم يُنزِل الله القرآن إلا بعد وصول الإنسان أول درجة من الكمال؛ ليدرك ما فيه من عظمة وجلال، وكان الصحابي رضي الله عنه يتعلمه، فيحكم البلاد، ويدبر شؤونها أحسن تدبير.

وقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة تحسُّر وتلهُّف تُـقال عند حلول الدواهي والعظائم، والألف مقلوبة عن ياء المتكلم. والنداء للويلة لإفادة حلول سببها.

ولما كان مَرْمَىٰ هذه القصة بيان استعداد البشر لإفساد فطرته واندفاعه في سبيل الشر والجناية، سيما مع الجهل وفساد الفكر، عقَّب عليها بقوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: من أجل أنَّ أكثر بني إسرائيل كابن آدم هذا في إفساد الطبيعة

وسوء النظر والحسد الشرير، كتبنا عليهم هذا الحكمَ الثقيل، وهو: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ لأنه انتهك أكبر حقٍّ للإنسان. ولا تدلُّ الجملة علىٰ أنَّ هذا الحكم لم يكتب علىٰ مَنْ قبلهم، كما لا يدلُّ أن آدم خُلِقَ من طين علىٰ أن الأجناس الأخرىٰ لم تخلق من طين؛ لأن إسناد شيءٍ لشيءٍ لا يستلزم اختصاصه به. وقد أُخرِجَت هذه الجملة مخرج التهويل والتبشيع؛ لأنَّ الجرأة علىٰ القتل مَرَّةً تُذهِبُ بالحُرمة وتُجرِّئُ علىٰ القتل الكثير في المجتمع فتفسده، ولأن الواحد يُمثِّل النوع في جملته، فمَن استحلَّ دماً بغير حق يستحلُّ دمَ كل أحد، فتكون نفسه ضارية بالبغي.

والجمهور علىٰ أنَّ تخصيص بني إسرائيل بالذِّكر في هذا التشريع الشديد؛ للتعريض بإفسادهم لطبيعتهم، حتىٰ أسرفوا في البغي وقتلوا الأنبياء، ولأن التوراة أول كتاب أحكام سماويّ نزل بعد الصُّحف الأُولىٰ، أو في الدورة الأخيرة من دورات التشريع السماوي. ويجوز أن يكون تخصيصهم بالذكر لأنهم موضوع البحث في السياق، والله أعلم.

ثم أكمل البيان العام بما يقابله، فقال: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي: أنقذها من هلاك ﴿فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، لأنَّ من كان سبباً لحياة نفس واحدة وإنقاذها من التَّلف أو الضيق واللهف، فهو يحمل بين جَنْبيه قلباً يدفعه إلىٰ مثل هذا العمل كلما صادفه، ولا يألو جهداً في إنقاذ كل من رآه كذلك وتخليصه، ولا يدَّخر وُسْعاً أن ينقذ الأُمة الـمُتردِّية كلَّها إذا تمكَّن، وهو الإنسان الكامل من بين أفراد الإنسان.

ويجوز أن يكون المراد بـ«الناس جميعاً»: المجتمع، وبالإحياء: إحياؤها بإقامة القصاص لها، فهو يُحيي المجتمع. والله أعلم.

وعلىٰ كلٍّ، فالآية من أساليب الخطاب المعروفة للتفخيم أو التهويل، صَدْرُها للتشنيع في أمر القتل والاعتداء، وعَجُزُها للتفخيم في أمر العطف والإخاء، وفيه إيماءٌ إلىٰ أنَّ الطمأنينة في المجتمع حقٌّ من حقوق العموم.

وفي الآية إرشاد إلىٰ ما يجب من وحدة البشر وحرص كُلٍّ منهم علىٰ حياة الجميع وحياة الفرد إلا بحقِّه، والابتعاد عن ضرر الفرد والجميع، وانتهاكُ حرمة الفرد انتهاكٌ لحرمة الجميع، والقيام بحقِّ الفرد بمقدار ما قرَّر له الشرع قيامٌ بحقِّ الجميع[1].

ولما خصَّ بني إسرائيل بهذا التشديد، للتعريض بإفسادهم لطبيعتهم، وإسرافهم في البغي والفساد، أردفه بهذا البيان المُؤْذِن بنقضهم هذا العهد الذي كتبه عليهم أيضاً، تأييداً للحُجَّة عليهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ في سائر ضروب البغي والفساد.

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم ذكر الجزاء العامَّ للمفسدين المُسْرفين في الإفساد، ولا سيما المحاربين

---

(١) أنزل الله القرآن المبين علىٰ البشر بهذا الدين العظيم بعد أن بلغ النوع الإنساني رُشْدَه في المعرفة والإدراك؛ ليكون ديناً عالمياً واحداً، وتكون لغته كذلك يتعلمها كلُّ أحد في جانب لغته، ليتم بها التفاهم والتعارف والتوادُّ والتآلف بمعونة فهم تعاليم هذا الدين المبين وتوجيهاته الإنسانية القيمة، فيكون البشر أمة واحدة، كالعائلة الواحدة، ولكن الشياطين من أبنائه أبعدته عن هذا الهدف السامي والمقام الرفيع. (المؤلف).

لشرائع الله ومَنْ جاء بها من الرسل؛ ليشملَ أهلَ الكتاب الذين جاء ذِكرُهم في السياق وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بما يشمله وغيره، وعيداً لهم وإنذاراً، وتقريراً لقواعد الأحكام العامة، فقال: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وذلك بمحاربة الشرائع التي يرسلها مع رسله، وبمحاربة المتمسِّكين بها، ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾[1] حيث عارضوا الدعوة بكل قواهم، وكذلك حكم مَنْ تعاقدوا علىٰ الفساد وقطع الطريق، أو تعاقدوا ضدَّ أُولي الأمر وخرجوا عن الطاعة، وأضرُّوا بالفرد والمجتمع[2]، فجزاؤهم: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ

---

(١) هذا حكم عام بعد الكلام عن المعارضين، وهم الذين يحاربون شريعة الله والرسول الذي جاء بها، سواء يحاربون بالسيف أو باللسان.

وقوله: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ وصف عام يشمل هذا الصنف من المفسدين وغيرَهم، ولذلك دخل تحت هذا الوصف قُطَّاع الطرق وأصنافُ المفسدين في المجتمع إفساداً كبيراً.

وتؤيد هذه الآيةُ حكمَ سعد بن معاذ في بني قريظة بعد خيانتهم العظمىٰ في وقعة الأحزاب، ونزولهم علىٰ حكمه بعد المحاصرة، حيث حكم بقتل مقاتلتهم وسبي نسائهم وأطفالهم، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت عليهم بحكم الله، وبه أُمِرت».

وقوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ ...﴾ أنواع للحكم يُنْظَرُ فيها إلىٰ درجة إفسادهم ونوعه، ويوكل بذلك إلىٰ الحاكم أو السلطان. والله أعلم. (المؤلف).

وسيأتي تخريج قصة سيدنا سعد بن معاذ مع بني قريظة في التعليق التالي.

(٢) يجوز ـ والله أعلم ـ أن يكون بمقتضىٰ هذا التشريع حكم سعد بن معاذ بقتل بني قريظة، لتلبُّسهم بالخيانة العظمىٰ في أحرج الأوقات علىٰ المسلمين. وذلك أنَّ النبي ﷺ عقد أول قدومه المدينة معاهدة مسالمة مع يهودها، فلما كانت وقعة الأحزاب وتحرَّج في أثنائها موقف المسلمين، اتفق بنو قريظة مع الأحزاب علىٰ أن يساعدوهم في كل شيء، ويثوروا علىٰ المسلمين من الداخل، فتأزم الموقف تأزماً شديداً حتىٰ بلغت القلوبُ الحناجرَ. ولكنه سبحانه بلطفه الخفيّ خَذَل العدو، فتراجع عن المدينة، وكفىٰ الله المؤمنين القتال. وحينئذ أمر النبي ﷺ =

﴿وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من أرضهم إلىٰ أخرىٰ فتتفرق العصابة.

وهذا التنويع في الجزاء باعتبار تنوُّع الجنايات، فيُقدَّر لكلٍّ منها واحدٌ من هذا الجزاء، فيُقْتَلُ إذا قَتَل، ويُقْتَلُ ويُصلَبُ إذا قَتَل وسَلَب، ويُقْطَع إذا سَلَب ولم يَقْتل، ويُنْفىٰ إذا لم يقتل ولم يتمكَّن من السلب ولكنه أخاف الناس. وهذا رأي جمهور الفقهاء.

وقيل: هو علىٰ رأي الحاكم، فيما يقتضيه الجرم من أحد هذه الأنواع. والتشديد في سدِّ الذرائع ركن من أركان السياسة.

والأصل في كلمة الحرب في اللغة: التعدِّي بسلب المال، أو إزالة الأمن. وقد يكون ذلك بقتل وقتال أو بدونهما. فالآية تدلُّ دلالة صريحة علىٰ أنَّ هذا العقاب لمن يُفسِدُ في الأرض بالسَّلب والنَّهب، أو القتل، أو إهلاك الحَرْث والنَّسل، أو ما شابه ذلك. وقد روي ذلك عن مجاهد، واعتمده عامة الفقهاء، حتىٰ إنَّ بعض المفسِّرين جعل صدر الآية مبالغةً في فظاعة هذا العمل، فهو محاربة لله ولرسوله، لأنه اعتداء علىٰ الحق والعدل الذي أنزله الله علىٰ رسوله، وعدم إذعانٍ لدينه وشرعه في حفظ الحقوق.

= بمُحَاصَرة بني قريظة، وكانوا بمسافة قصيرة عن المدينة، وبعد شيء من المقاومة استسلموا ونزلوا علىٰ حكم سعد بن معاذ، فحكم عليهم بقتل المقاتلة وسَبْي النساء والأطفال. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله، وبه أمرت»، فقتل منهم يومئذ ثلاثمئة مقاتل.
فالآية بصيغتها حكمٌ مستقلٌّ عام يشمل الخيانة العُظمىٰ للمسلمين والنهب والسلب وإهلاك الحرث والنسل، إلىٰ أمثال ذلك من الفساد في الأرض، وبمقتضىٰ السياق عن أهل الكتاب يمكن أن يكون فيها إلماعٌ بهذا الحادث وصحَّة الحكم فيه وفي مثله، علىٰ أولئك المسرفين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والله تعالىٰ أعلم. (المؤلف).
والحديث المذكور متفق عليه، رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، عن أبي سعيد الخدري.

وعلىٰ كلٍّ، فالآيةُ بحسب السياق تعقيبٌ لما قبلها، وبحسب النظم حكمٌ عام، علىٰ نهج القرآن في مثله، والله أعلم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذا الجزاء هو الجزاء الدنيوي فقط، أما جزاؤهم الأخرويّ فهو عذابٌ عظيم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من العقاب هو ﴿لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾، أي: ذلٌّ وفضيحةٌ ليكونوا عبرةً لغيرهم، ﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ بقدر تأثير إفسادهم في تدنيس أرواحهم وتدسية أنفسهم.

ثم استثنىٰ من هذا الحكم التائبين منهم، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾، وهذه الصيغة تُؤْذِن بالترغيب بالعفو عنهم من حيث الحقوق العامة، فوق ما تؤْذِن بقَبول الله سبحانه لتوبتهم، والله أعلم، لأنَّ توبتهم ـ وهم في قوة ومَنَعَة لا يتمكَّن منهم الحاكم ولا يقدر عليهم ـ جديرة بأن تكون توبةً خالصةً لله صادرةً عن اعتقاد بقبح الذنب، والعزم علىٰ عدم العودة إلىٰ فعل مثله، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا، وإذن فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله تركاً صادقاً.

وقال الرازي: قال الشافعي رضي الله عنه: لما شرح ما يجب علىٰ هؤلاء المحاربين من الحدود والعقوبات، استثنىٰ منه ما إذا تابوا قبلَ القُدْرة عليهم، وضَبْطُ الكلام: أنَّ ما يتعلَّق من تلك الأحكام بحقوق الله تعالىٰ، فإنه يسقط بعد هذه التوبة، وما يتعلَّق منها بحقوق الآدميّين فإنه لا يسقط. ويحتمل أن يسقط كُلُّ حدٍّ لله بالتوبة قبل القدرة علىٰ مستحقِّه[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ

(١) «تفسير الرازي» (١١: ٣٤٨).

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام عن انتقاد أهل الكتاب وغرورهم، وبالغ في التشنيع عليهم والتهديد والتأنيب، وذكر حكم المفسدين؛ التفت إلىٰ المؤمنين وقد تهيَّأت نفوسهم من هذه المواعظ لقبول الإرشاد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ بفعل الطاعات وترك المعاصي، ﴿وَجَٰهِدُوا۟﴾ الكفارَ وجاهدوا أنفسَكم ﴿فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾. وهذه الآية وأمثالها في القرآن هي ملاك وجوه البر الموصلةُ إلىٰ سعادة الدارين، وهي اجتناب مَحَارم الله ونواهيه، وطلب التقرُّب إليه بالعبادات، وفعل الخيرات، ومجاهدة النفس، وكبحها عن التَّوغُّل في الهوىٰ والشهوات، فذلك هو طريق السعادة والفلاح في الدنيا والأخرىٰ.

وقيل: إنَّ الوسيلة هي منزلة في الجنة، وقيل: بل هي مطلق التوصُّل إلىٰ فَضْل الله ونعيمه في الآخرة، ويكون ذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي بعد الإيمان بالله تعالىٰ.

ويجوز أن يكون المراد بتقوىٰ الله: الحذر من معاكسة سُنَنه. وابتغاء الوسيلة: الأخذ بتلك السنن الموصلة إلىٰ سعادة الدارين. والله أعلم.

ثم بالغ في الترغيب في ذلك بذكر مصير الكافرين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾، لأنَّ سنَّته تعالىٰ قد مَضَت بأن سبب الفلاح والنجاة إنما يكون من نفس الإنسان لا من خارج عنها، وقد أبان ذلك بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، فلا نَجَاة إلا بتزكية النفس بالفضائل والأعمال الصَّالحة.

ثم بيَّن حالهم أثناء مكابدة العذاب، فقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: دائم لا ينفك أبداً. وصورة التعبير تُؤْذِن بتيئيسهم وتقنيطهم. أعاذنا الله من ذلك بفضله ورحمته، وهو أرحم الراحمين.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

ولما ذكر حكم المفسدين في الأرض، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل جهراً ويغصبونها، وذلك في مضمون قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ ...﴾، عاد فتمَّم البحث عن أصناف المفسدين، وذكر حكم السُّرَّاق الذين يأكلون أموال الناس بالباطل سراً، فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا تحولُ رحمتُه دون جزاء المستحقين، ﴿حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾ يضعُ الأحكامَ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة.

﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ نفسَه وزكَّاها بأعمال البر، حتىٰ أزال عنها تلك الأدران، وعمَّر منها ذلك الفساد والخراب، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إنَّ الله يقبل توبته، فلا يُعذِّبه في الآخرة. وقد اختلفوا في سقوط الحدِّ عنه، فقال بعضهم: لا يسقط. وقال بعضهم: يسقط. وقد خصَّت السنة القطع بما له قيمة في الجملة، فما دون ذلك لا قطع فيه، ولكن فيه التعزير، وجعلت نصاب القطع ما يساوي ربع دينار.

ثم ختم السياق بما يردع النفوس عن الاعتراض علىٰ هذا الجزاء الشديد، فقال:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] ممَّن يستحقون التعذيب أو المغفرة، لأن مشيئته تعالىٰ تجري علىٰ سُننٍ مُطَّردة في هذا الكون، ولا يصدر عنه شيء إلا بالحكمة والعدل، ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ لا يُعْجزه شيءٌ في تدبير ملكه، ولا يمنعه مانع من تنفيذ أمره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) الآية بيانٌ لسلطان الله المطلق وقدرته القاهرة، وأن بيده سبحانه التعذيبَ والشقاءَ والمغفرة والهناء، وليس المعنىٰ أنه سبحانه يُجري ذلك اعتباطاً وجُزافاً، كلا، فإن مشيئته تعالىٰ لا تجري إلا بالحق والعدل، وفي سنن مُطَّردة، فلا يشاء سبحانه إلا تعذيبَ من يستحق التعذيب والحرمان، والغفرانَ لمن يستحق المغفرة والرضوان؛ إذ قد سبقت مشيئته الأزلية أن يعذِّب من أفسد فطرته ودسّاها، وهو الكافر والعاصي، وأن يغفر الهفوات لمن حافظ علىٰ سلامتها وزكّاها، وهو المؤمن الطائع، وأن يكون للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ولا يُجزونَ إلا بما كانوا يعملون، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، والله أعلم.

فالآية علىٰ حدِّ قولهم: المَلِكُ يَنصِبُ ويَعزلُ من يشاء،ويرفع ويخفض من يشاء. فإنه يقال ذلك، والملك لا يفعل شيئاً منه إلا لأعمال تصدرُ عنهم تقتضي ذلك الأمر وتؤدي إليه (المؤلف).

ثم عاد إلىٰ بيان مساوئ أهل الكتاب، وذكر لهم من ذلك ما يتناسب مع السياق من الكلام عن الإفساد في نفاقهم ومشاغباتهم وتجسُّسهم، وفيما هو أكبر من ذلك، وهو نَقْضُهم عَهْدَ الله بتحريفهم الحدود، ومحاولتهم أن يُموِّهوا تحريف حدّ الزنىٰ علىٰ النبيِّ ﷺ[1]، فأحزنه ذلك، فسَلَّاه سبحانه ببيان طبائع البشر المفسودة ووعظه، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾، وقد شرح ذلك بقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ وهم المنافقون، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ والمراد به: ما يقوله رؤساؤهم في النبي ﷺ وفي أحكام الدين التي يتلاعبون فيها بأهوائهم. ويجوز أن يكون المعنىٰ: سمَّاعون لكلام الرسول ﷺ لأجل تحريفه والكذب عليه واستنباط الشُّبهات منه.

ثم ذكر لهم شناعةً ثانيةً من هذا النوع، فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ أي: يَتَسمَّعون عليك لهم، بمعنىٰ: هم جواسيس عليك لرؤسائهم وذوي الكيد فيهم من أعدائك.

وقوله: ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ صفة أخرىٰ لـ«قوم»، أي: لقوم لم يحضروا مجلسك وتَجَافَوْا عنك تكبُّراً أو إفراطاً في البغضاء، وأرسلوا إليك جواسيسهم. وقيل: هم يهود خيبر. والسمَّاعون لهم: بنو قريظة.

---

(١) يشير إلىٰ الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩)، عن ابن عمر: رضي الله عنهما قال: أُتي رسول الله ﷺ بيهودي ويهودية قد أحدَثا جميعاً، فقال لهم: ما تجدون في كتابكم؟ قالوا: إن أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه والتجبية، قال عبد الله بن سلام: ادعُهم يا رسول الله بالتوراة، فأُتي بها، فوضع أحدُهم يدَه علىٰ آية الرجم، وجعل يقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له ابنُ سلام: ارفع يدك، فإذا آيةُ الرجم تحت يده، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال ابنُ عمر: فرجما عند البلاط، فرأيت اليهودي أجنأ عليها [أي: أكبَّ ومال عليها ليَقيَها الحجارة]. «النهاية في غريب الحديث» (جنأ).

وقد اختُلِفَ في المراد مِن وصف المنافقين، فقيل: المراد به عموم المنافقين. وقيل: المراد به منافقو اليهود.

وكذلك اختُلِفَ في قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: أهما وصف لليهود فقط، والواو للاستئناف في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾، أم لهم وللمنافقين معاً، والواو للعطف؟ وهو الأرجح بمقتضىٰ السياق.

واختُلِفَ في اللام في قوله: ﴿لِلْكَذِبِ﴾، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾: أهما للتعليل أم للتقوية؟ ويختلف المعنىٰ في كلِّ ذلك، ولا يخفىٰ المراد علىٰ تقدير كلٍّ منها، فتدبَّر ذلك.

وأما قوله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾؛ فمعناه في المنافقين: أنهم يُحرِّفون ما يسمعونه عن النَّبيِّ ﷺ ويكذبون عليه، ومعناه في اليهود: أنهم يُحرِّفون كَلِمَ التوراة؛ إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة، أو بإخفائه وكتمانه، أو الزيادة فيه والنقص منه. وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ علىٰ غير ما وُضِعَ له، أو علىٰ ما لا يتحمَّله.

ثم ذكر صورة من تلاعبهم بالدين ومراوغتهم في الحكم في حادثة زنىٰ تقاضَوْا فيها عند النبيِّ ﷺ، فقال: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ أي: يقولون لمن أرسلوهم إلىٰ الرسول ﷺ ليسألوه عن حكم رجل وامرأة منهم زَنَيا، وأرادوا أن يُجابوهما بعدم رجمهما، يقولون لهم: إن أُعطيتم من قِبَلِ محمد حكماً بالجلد عِوَضاً عن الرجم فخذوه وارضوا به؛ وإن لم تُعْطَوْه؛ بأن حكم بأنهما يُرجَمان، فاحذروا قبول ذلك والرضاء به.

ومجمل القصة: أنَّ شريفاً من خيبر زنىٰ بشريفة وهما مُحْصَنان، وحدُّهما في التوراة: الرجم، فكرهوا رَجْمَهما لشرفهما، فبعثوا رهطاً منهم إلىٰ بني قريظة ليسألوا

رسول الله ﷺ عن ذلك، وقالوا: إنْ أَمَرَكم بالجلد فاقبلوا، وإنْ أَمَرَكم بالرجم فلا تقبلوا. فأمرهم بالرجم فأبَوا.

وقد نعىٰ عليهم سبحانه كفرهم وضلالهم بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ واختبارَه لإظهار ضلاله بما أفسد من طبيعته، ومَحَا من نور بصيرته، بمفاسد التربية وسوء القدوة، ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ من الهداية والرشد، و﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾، لأنَّ من سنَّة الله تعالىٰ وإرادته التكوينيَّة في قلوب البشر، أنها إذا تَمادت في الباطل والفساد، وصار ذلك من مَلَكاتها الثابتة؛ تفقد الاستعداد للاهتداء.

ثم ذكر جزاءهم مُتَوعِّداً إيَّاهم، فقال: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ وهو ما يلحقهم من الذُّلِّ والهوان، ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾، وأعاذنا الله من ذلك.

ثم أعادَ وَصْفَهم بأنهم سمَّاعون للكذب، وأضاف إليه ما يُناسبه من وصفهم بكَثْرة أكل السُّحت، ليفرِّع علىٰ ذلك ما أمره به من كيفيَّة معاملتهم، فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾، وقد فسَّر ابن مسعود السُّحْتَ بالرشوة في الدين، وابن عباس بالرشوة في الحكم، وعليّ رضي الله عنه بالرشوةِ مطلقاً[1]، وقال بعض المفسِّرين: إنه الحرام الذي فيه عار، كالرشوة وحلوان الزانية وأمثال ذلك.

وبعد أن وصفهم بهذا الوصف وبيَّن حالتهم هذه، أمره أن يعاملهم بما يأتي فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: فإن جاؤوك متحاكمين إليك، فأنت مُخيَّر بين الحكم بينهم أو الإعراض عنهم وتركهم إلىٰ رؤسائهم، ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا﴾، وإن ساءتهم الخيبة واشتدوا في الإفساد، فالله حافظك

---

(١) ذكر هذه الأقوال السيوطي في «الدر المنثور» (٣: ٨٠- ٨١).

من غائلتهم، ﴿وَ﴾ أما ﴿إِنْ﴾ اخترتَ الحكم بينهم و﴿حَكَمْتَ﴾ فيهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾. ولا تخشىٰ غائلتهم ومشاغبتهم. والمراد: إنك إن اخْترتَ الحكمَ بينهم فلك ذلك أيضاً، فاحكم بينهم. وإنما ذكر القسط لبيان الواقع، إذ لا يُتَصَوَّرُ منه ﷺ خلافُ القسط. ويجوز أن يكون ذلك للتنويه بشريعته وَوَصْفاً لها، بمعنىٰ أنها عَدلٌ وقسطٌ في سائر الأحكام.

ثم ختم الكلام بما ينوِّه بشأن العدل، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ حَمْلاً للأمة علىٰ التمسُّك به في أحكامهم، مهما كلَّفهم ذلك من مشقَّة وغائلة وتنفير.

ثم أشار إلىٰ ما انطوت عليه نفوسُهم من المكر والخديعة، فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ولا يرضَوْنَ بحكمك. وهذا تعجيبٌ من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به وبكتابه، وتعجيبٌ من تولِّيهم، مع أنَّ الحكم منصوصٌ عليه في كتابهم الذي يدَّعون الإيمان به، وتنبيهٌ إلىٰ أنهم لم يقصدوا بهذا التحكيم معرفةَ الحقِّ وإقامة الشرع، وإنما طلبوا ما هو أهون عليهم وإن لم يكن ذلك حُكمَ الله علىٰ زَعْمِهم، فلما رأوه موافقاً لحكمهم تولَّوا وأعرضوا. ويجوز أن يكون تعجيباً من إعراضهم عن حكمه ﷺ، وهو مماثل لما في التوراة. والله أعلم. وهذا هو الأَوْلىٰ.

والذي أراه أن محطَّ التَّعجيب قولُه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾، وقولُه: ﴿وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ مجرَّدُ سندٍ لهذا التعجيب. أي: كيف يتولَّون عنه وهو مطابق لما في التوراة؟ وعليه، فليس فيه دلالةٌ علىٰ جواز عملهم بالتوراة بعد نزول القرآن، ولكنه برهانُ جدالٍ فقط، أو هو منسوخ بالقرآن. والله أعلم.

وبعد أن عجَّبه من أمرهم هذا تعجيباً منطوياً علىٰ بيان ما في أنفسهم من خديعة،

قرَّر ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: لم يكن طلبهم للتحاكم إليك إيماناً واطمئناناً بحكمك، وإنما هم في ذلك مُخَادِعون. أو المعنىٰ: ليسوا بمؤمنين بما في توراتهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قال في «المنار»: ثم تابع السياق ببيان كون التوراة كانت هدايةً لبني إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها، لِـمَا عرض لهم من الفساد، وبيان مثل هذا في الإنجيل وأهله، ثم انتقل إلىٰ ذكر القرآن وإنزاله ومزيَّته، مشيراً في كل ما ذكر إلىٰ أن العبرة بالاهتداء بالدين، لا بمُجَرَّد الانتماء إليه، وإن إيثار أهل الكتاب أهواءهم علىٰ هداية دينهم هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به، فقال[1]: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾[2] وُجوهَهم لله مُخْلصين له الدين، وهم أنبياء بني إسرائيل، يحكمون بها ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ بأنها شريعة لهم، ﴿وَ﴾ كذلك يحكم بها ﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ المنسوبون إلىٰ الربِّ تعالىٰ وهم الكَهَنة، ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ وهم العلماء، فيحكم هؤلاء في الأزمنة والأمكنة التي لم يكن بها أنبياء ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ

---

(١) إنما يريد القرآن بالتوراة والإنجيل: المنزَّلين من الله تعالىٰ، لا اللَّذَيْن في أيدي اليهود والنصارىٰ في العهد الحاضر؛ لأنهما من صنع أيديهم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٣٢٨).

﴿وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ أي: بما ائتُمِنوا عليه من كتاب الله، وطُلِبَ منهم حِفظُه من التلاعب به، وكانوا رُقَباء عليه وعلىٰ تطبيق أحكامه، وقلنا لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾، وهذا النَّهيُ لونٌ من ألوان الحَمْل علىٰ الاهتمام والعناية بشأن العدالة.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: لا تتركوا الحقَّ في مقابلة منفعة دنيوية، فإنها تافهة بالنسبة إلىٰ ما يفوتكم من ثواب الآخرة العظيم.

ثم ذيَّل الكلام بهذا البيان العام، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ليتناول ما قبله وغيره. ووَجْهُ الكفر عَدَمُ إذعانهم لما في كتاب الله.

ثم جاء بمثال من أحكام التوراة، فقال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ أي: بما ثَبَتَ له من حقِّ القصاص، بأن عفا عن الجاني، ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ يكفِّر الله بها ذنوبه، ويعفو عنه كما عفا عن أخيه، وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ إجمالٌ بعد التفصيل، أو تتميمٌ للبيان.

ثم كرَّر البيان العام، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾، ووَجْهُ الظلم: عدمُ عدلهم في الحكم. فسجَّل علىٰ المخالفين الظلم بعد أن سَجَّل عليهم الكفر.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

ثم ذكر الإنجيل وعيسىٰ بعد أن ذكر التوراة، فقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي:

آثار أولئك النبيين الذين كانوا يحكمون بالتوراة، قفَّينا ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: عاملاً بها غير ناسخ لها[1]، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ مُضافاً إلىٰ التوراة ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾، «مُصدِّقاً» معطوفٌ علىٰ محلِّ الجملة قبله؛ لأنهما حالان من الإنجيل، وكذلك المصدران بعده لتأويلهما بالوصف، أي: مقرِّراً له ومؤيِّداً، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

وكلمةُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ الأولىٰ حالٌ من عيسىٰ، والثانيةُ حالٌ من الإنجيل ومعطوفةٌ علىٰ محل قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، لأنها حال من الإنجيل أيضاً.

وقوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ صفة ذاتيَّة للإنجيل أيضاً، وقوله: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ صفةٌ فعليَّة له، أي: إنه يؤثِّر هذا التأثير في المتقين الذين لم يفسدوا فِطَرَهم ولم يفقدوا نور استعدادهم لقَبول ذلك.

ثم أردفَ الكلام عن الإنجيل أيضاً بمثل ما قال لأهل التوراة، مما يحمل علىٰ العناية بشأن العدالة في أحكامه والتمسُّك بآدابه، فقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من الآداب والأحكام، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: الخارجون عن حظيرة الدين. ووَجْهُ الفسق: عَدَمُ تأدُّبهم بما في الإنجيل؛ لأنَّ الإنجيل آداب وعمل بأحكام التوراة، والفسق: التملُّص من الحق وإلقاؤه وراء الظهر. فسجَّل علىٰ المخالفين الفسق بعد أنْ سَجَّل عليهم الكفر والظلم، استقصاءً لبيان ما يجرُّ إليه الإعراض عن حكم الله من الأحوال. فمن لم يحكم به لأنه لم يؤمن به فهو كافر، ومن يؤمن به ولم يحكم به لِـهَوًىٰ ومآربَ فهو فاسق، وكلٌّ منهما ظالم للمحكوم عليه بالعدول عن الحق والعدالة.

---

(١) أي: في الجملة، وإن وقع له النسخُ في بعض الأحكام.

وقيل: الكفر والظلم والفسق كلماتٌ تَتَوارد في القرآن علىٰ حقيقة واحدة، وتردُ بمعانٍ مختلفة حسب السياق.

وأقول: ألا يجوز أن يكون الكفر في حقِّ مَنْ يستخفُّ بحكم الله، أو يراه غير صالح لعصره بزعمه، أو ينكر أنه من الله. والظلم في حقِّ مَنْ يعدل عنه لميْل شخصيّ وافق هواه، فحاد به عن الحق ولواه. والفسق في حقِّ من لا يهمُّه أعَدَلَ أم جار، ولكنه يدورُ مع الهوىٰ كيفما دار؟ هذا رأيي. والله أعلم بمراده.

أما إذا نظرنا إلىٰ معانيها اللغوية، فالكفر: هو ستر الحقِّ وإخفاؤه، والظلم: هو الجَوْر ووضع الشيء في غير موضعه، والفسق: هو الخروج عن طريق الحق والصلاح. وهذه المعاني الثلاثة ـ وإن اختلفت في المفاهيم ـ فهي مُتَّحدة في الماصدق، أي: فيما تصدق عليه. وهذا معنىٰ قولهم: تتوارد علىٰ حقيقة واحدة بمعانٍ مختلفة.

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

ثم ذكر القرآن ومكانه من الكتب التي قبله، وألمع إلىٰ أنَّ حكمته اقتضت تعدُّد الشرائع وتدرُّج مناهج الهداية بمقتضىٰ تَدَرُّج النوع الإنساني في الدِّراية، فما كان قبل القرآن فهو مُقدِّمات له ووسيلةٌ، والقرآنُ هو المقصود والعمدة من بين جميع الشرائع،

أنزله بعد أن استعدَّ له البشر برُقيِّ المعرفة وسَعَة الوجدان في نوع الإنسان بعد مرور الزمان ووصوله أول درجة الكمال من المعرفة وسَعَة الإدراك، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجديرَ أن ينصرف عليه اسم الكتاب عند الإطلاق، وهو القرآن. وهذه هي حكمة التعبير بـ«الكتاب» بعد التعبير عن كتاب موسىٰ باسمه الخاص: «التوراة»، وعن كتاب عيسىٰ باسمه الخاص: «الإنجيل». وقوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ جنس الكتاب الإلهيّ، أي: هو المرجع لجميعها والمسيطر عليها.

ثم أتىٰ بما هو كالنتيجة لهذا السياق، ناظراً لقصة التحكيم قبله؛ تلك القصة التي أتىٰ بالسياق تتميماً لمضمونها وتعليلاً وتأنيباً عليها، حتىٰ ذكر إنزال القرآن عليه، فوصل الكلام بها وقال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: فاحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليك من الأحكام والحدود دون ما أنزل إليهم؛ لأنَّ شرعك ناسخٌ لشرائعهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ولو إلىٰ ما صحَّ من شريعتهم؛ لأنها نُسِخَتْ بالقرآن.

ثم علَّل الأمر والنهي بقوله: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، لأن الشرائع العملية وطُرُقَ التزكية الأدبية تختلف باختلاف أحوال الاجتماع واستعداد البشر المتدرج في التقدُّم بتقدُّم الأزمان وزيادة العرفان؛ لأنَّ الإنسان بطبيعته يَحبُو في مدارج الرقيِّ النوعي، بحركته النوعيَّة، فلذلك تدرَّجت الشرائع، وتفاوتت في بعض مظاهرها، ونسخت اللاحقةُ السابقةَ منها. وإنما يتَّفق جميع الرسل في أصل الدين، وهو توحيد الله، وإسلام الوجه له بالإخلاص والإحسان، والإيمان بالملائكة والكتب والرسل والحشر والحساب والنعيم والعذاب.

ثم علَّق علىٰ هذا التعليل بقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ليس اختلافكم من عجز في قدرة الله، ولا قَسْراً لإرادته، وإنما هو مما اقتضته الحكمةُ من خلقكم مختارين في تصرُّفاتكم ليتزايد عملُكم علىٰ الدوام، وتُؤدُّوا خلافتكم في الأرض استنباطاً وإيجاداً. والله أعلم.

قال في «المنار»: أي: ولو شاء الله تعالىٰ أن يجعلكم ـ أيها الناس ـ أمةً واحدةً ذات شريعة واحدة ومنهاج واحد؛ بأن يخلقكم علىٰ استعداد واحد مَقْسور لا يتدرَّج، ويُلزِمَكم حالةً واحدة في أخلاقكم وأطواركم وفي معيشتكم وسلوككم، بحيث تصلح لها شريعة واحدة في كل زمن. وحينئذ تكونون كسائر أنواع الخلق التي يقف استعدادُها عند حدٍّ معيَّن، مطبوعة عليه، كالطير والنحل والنمل مثلاً، ﴿وَلَٰكِن﴾ لم يشأ ذلك لأنَّ مشيئته تجري بمقتضىٰ الحكمة، بل جعلكم نوعاً ممتازاً يرتقي في أطوار الحياة بالتدرُّج، علىٰ سنة الارتقاء، فلا تصلح له شريعة واحدة من أول نشأة النوع إلىٰ نضوج كماله، وآتاكم من الشرائع والمناهج في الفهم والهداية في طَوْر طفوليَّة النوع وغلبةِ المادة عليه ما يصلح له، وفي طور تمييزه وغَلَبة الوجدانيات النفسيَّة عليه ما يصلح له، حتىٰ إذا بلغ النوع سنَّ الرشد، ومستوىٰ استقلال العقل بظهور ذلك في بعض الأقوام بالقوة وفي بعضها بالفعل، ختم له الشرائع والمناهج بالشريعة المحمدية المبنيَّة علىٰ البرهان والدليل، ومداخلة العقل في الفهم[1].

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: ليعاملكم بذلك معاملةَ المُخْتبِر لاستعدادكم فيما أعطاكم من الشرائع والمناهج، فتظهر حكمته في تمييزكم عن غيركم من أنواع الخلق،

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٣٤٦).

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ لأنها هي المقصودة بالذات من الشريعة، ومنهج الدين في الدنيا والآخرة.

ثم ختم الآية بما يحمل علىٰ التمسُّك بصحيح الأعمال، فقال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: إن الأمر سيؤول إلىٰ ما يزول معه الشكُّ ويحصل معه اليقين، وذلك عند مُجَازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته. فأقام التَّنبيءَ مقام الحساب والجزاء، علىٰ نهج القرآن في ذلك.

وفي قوله: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ ...﴾ دليلٌ واضح علىٰ أن الإنسان مختار في تصرُّفاته.

وبعد أن بيَّن سبحانه أنه قد نوَّع الشرائع والأحكام وغيَّرها، حسب تطوُّرات البشر النوعية وتدرُّجه في التقدُّم، وأنَّ الشريعة المحمدية هي الأخيرة من تلك الأنواع، جاءت بعد تكامل البشر في التطوُّر، قرَّر النتيجة السابقة في السياق، وهي الأمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، مُبيِّناً أنَّ ذلك من أهم أركان الشريعة، ومُلمِعاً إلىٰ أنَّ هذه الأحكام هي المنطبقة علىٰ أحوال البشر بعد اليوم والملائمة لشؤونه إلىٰ نهايته. فعطف علىٰ «الكتاب» ـ من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ـ، قولَه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: وأنزلنا إليك أنِ احكم. ويجوز أن يكون معطوفاً علىٰ جملة: ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾، بتقدير: وأمرنا أنِ احكم بينهم بما أنزل الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولو لمصلحة تأليف قلوبهم وجَذْبهم إلىٰ الإسلام، فالحقُّ لا يوصَلُ إليه بطريق الباطل، ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بأن يقولوا: إنَّ في التوراة الحكم بكذا وكذا، أي: خلاف لحكمك، وهذا التعبير لمجرَّد المبالغة في التحذير.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا عن الحكم بما أنزل الله وأرادوا غيره، ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ في هذه الحياة الدنيا قبل الآخرة. والمراد من «بعض ذنوبهم»: ذنب تولِّيهم هذا. وإنما عبَّر عنه بذلك إيذاناً بأنَّ لهم ذنوباً كثيرةً ينالونها في الآخرة.

ثم هوّن عليه أمر تولِّيهم بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: خارجون بإفسادهم لفطرهم من نور الحق إلىٰ ظلمات الضلال، فلا يزال أهل الفسق والضلال أكثر من أهل الحق والهدىٰ والرَّشَاد، فلا يَرُعْكَ ما تراه من فسوقهم وخروجهم عن الحق إلىٰ الباطل[1].

ثم أنَّبهم علىٰ تولِّيهم عن قَبول الحكم بما أنزل الله، فقال: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وهو التفريق في إجراء الأحكام بين القوي والضعيف، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: بدينه، ويُذْعنون أنه موضوع حسب الحِكَم والمصالح، لا مُحاباة فيه ولا جَوْر. واللام للبيان، وتفيد هنا معنىٰ: عند. وحكم الجاهلية: هو تفضيل الشريف علىٰ الوضيع في إجراء الأحكام علىٰ الثاني دون الأول، وهو حكم مُخَرِّبٌ للعمران، مُفْسِدٌ للنظام والمجتمع وطبيعة الإنسان.

---

(١) أنزل الله سبحانه القرآن بالدين الإسلامي بعد أن بلغ النوع الإنساني رُشْده في المعرفة وسَعَة الإدراك، ليكون ديناً عالمياً ناسخاً لكلِّ ما تقدَّمه من الأديان، وتكون لغته كذلك. فيدرك البشر كله من علوم هذا الدين وتوجيهاته الإنسانية القيمة ما يجعلهم أمة واحدة، بل عائلة واحدة في التآلف والتفاهم بلغة هذا الدين، والتوادّ والتراحم بمقتضىٰ مبادئ هذه الملة الإنسانية، إذ لا معنىٰ للإنسانية سوىٰ مبادئ هذا الدين وتوجيهاته. هذا ما أراده سبحانه من البشر كلِّه بعدما أنزل عليه هذا القرآن، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

هذا ما أراده سبحانه من هذا الدين للبشر أجمعين، ولكن الشياطين من أبناء هذا الجنس أبعدته عن هذا الهدف السامي والمقام الرفيع، وردَّت أكثره إلىٰ أسفل سافلين، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤ - ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. (المؤلف).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾.

ثم أردف السياق بنهي المؤمنين ـ بما فيهم ضعفاء الإيمان ـ عن اتِّخاذ هؤلاء اليهود والنصارىٰ أولياء، يثقون بهم في أحوالهم وأسرارهم؛ لأنهم متألِّبون عليهم كارهون لهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ بأن تَثِقوا بهم في أحوالكم وأسراركم، ثم أقام مقامَ التعليل قولَه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ أي: فلا يخلص لكم فريقٌ علىٰ فريق، وإنما يخلصون لبعضهم. ثم توعَّد علىٰ ذلك توعُّداً شديداً، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ وهم الذين يُؤيِّدونهم في آرائهم ويُقَوُّونَهم علىٰ المسلمين، أو يخذلون المسلمين إرضاءً لهم. وقد قيَّد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين[1]، كما كانت الحال في ذلك العصر، إذ قام المشركون وأهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم.

قال في «المنار»: وعليه، فإذا حالف المسلمون أمةً غيرَ مسلمة علىٰ أمةٍ مثلِها لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها، فلا يدخل هذا تحت عموم هذا النهي. والله أعلم[2].

ثم بيَّن وَجْهَ معاداتهم للمؤمنين في دينهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ أي: لأنفسهم بإفسادها وإخراجها من طبيعتها، حتىٰ صار ذلك خُلقاً

---

(١) «تفسير الطبري» (١٠: ٤٠٠).

(٢) تفسير «المنار» (٦: ٣٥٦).

لها ومَلَكةً فيها، فإنهم بذلك يفقدون الاستعداد للهداية حسب سُنَّة الله في خِلْقَةِ البشر، فلا يميلون لهذا الدين وأهله.

وقيل: هذا تعليلٌ للوعيد وبيانٌ لسببه، وهو أنَّ من يُوالي أعداء المؤمنين الذين نَصَبوا لهم الحرب وينصرهم أو يستنصر بهم، فهو ظالم لنفسه بوضع الولاية في غير موضعها. وبهذه الولاية تفسد فطرته، فيفقد الاستعداد للهداية علىٰ وجهها المطلوب.

ثم أكمل البحث بشرح حال المنافقين في موالاتهم لأهل الكتاب والمشركين، وختمه بوعد الله للمؤمنين، تثبيتاً لهم علىٰ ترك هذه الموالاة التي نُهوا عنها، فقال: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: مُعْتلُّو الإيمان، وهم المنافقون، ﴿يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أي: في موالاتهم، ﴿يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ فنحتاج إلىٰ نُصْرَتهم لنا، لذلك نتَّخذ يداً عندهم في السَّرَّاء، ننتفع بها إذا مسّت الضراء. والمراد: أنهم يخشونَ أن تدولَ الدولة لليهود أو للمشركين علىٰ المؤمنين، لأنهم غير موقنين بوعد الله بنصرة رسوله وإظهار دينه. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتهديداً لهم، ضمن تقرير نصر المؤمنين: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ فيهم ﴿فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ علىٰ ما فعلوا ونافقوا، ﴿وَيَقُولُ﴾ حينئذ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بعضُهم لبعض متعجِّبين من عاقبة المنافقين وفضيحة أمرهم: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾؟!

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ يحتمل أن يكون من تتمَّة قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون من قول الله سبحانه تعقيباً علىٰ قول المؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ولما نهىٰ عن موالاة اليهود والنصارىٰ إذا كانت تلك الموالاة تأييداً لهم وتقويةً علىٰ المسلمين، كما في آية الممتحنة، وبيَّن أن موالاتهم هذه مستدعيةٌ للارتداد، حيث قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وفصَّل أمر مَنْ يُواليهم من المنافقين، أردفَ ذلك بمخاطَبَة ضعفاء الإيمان ومرضىٰ القلوب في جملة المؤمنين، وحذَّرهم من الموالاة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: أشدَّاء علىٰ الكفار رحماء بينهم، يحبُّون الله ولا يُوَادُّون مَنْ كفر به، ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ أي: كالمنافقين الذين يخافون لَوْم أوليائهم من اليهود إذا هم قاتلوا مع المؤمنين. وهذا الوصف يدلُّ علىٰ قوَّة الإيمان؛ لأنهم بتلك القوَّة لا يخافون لَوْم لائم علىٰ ما يُصيبهم في سبيل الله، وذلك لأنهم لا يبتغون إلا مرضاة الله.

ثم امتنَّ عليهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكر من الصفات العالية ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن سلمت فِطَرُهم فسَلِمَ لهم نور العقل وجلاء البصيرة التي وهبها الله لهم، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ لا ينحصر فَضْلُه، ويضع الأشياء في مواضعها بحَسَب علمه وحكمته.

وبعد أن بيَّن سبحانه مَنْ لا تجوز ولايته، بيَّن مَنْ تجب ولايته، وأنه لا وليَّ لهم سواه، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليس لكم ـ أيها المؤمنون ـ ناصرٌ ينصركم إلا الله تعالىٰ ورسوله وأنفسكم، بعضكم أولياء بعض، فَلْيؤيِّد بعضُكُم بعضاً ولا تَتَخاذلوا.

ولما كان لقب «الذين آمنوا» يشمل كلَّ مَنْ أسلم في الظاهر، خصَّه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يأتون بها مُقَامَةً علىٰ وجهها الصحيح، دون المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ [المائدة: ٤١]، والذين يأتون بصُورة الصلاة يُراؤون بها الناس. أما هؤلاء المؤمنون الذين أُمِرْتُم بتَوَلِّيهم فإنهم يُخلصون صلاتهم لله تعالىٰ، ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ أي: خاشعون لله خاضعونَ لأمر الله طيِّبةً به نفوسُهم. هذا إذا كانت الواو للحال من فاعل الفِعْلَين، أما إذا كانت استئنافية، فيجوز أن يكون المراد من الركوع المبالغة في مواظبتهم علىٰ النوافل، والله أعلم، لأن الركوع يأتي بمعناه الاصطلاحي، ويأتي بمعناه اللغوي. وهي بمنزلة آية البقرة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. وكآية آل عمران في مريم عليها السلام(١).

وإنما أفرد لفظ ﴿وَلِيُّكُمُ﴾؛ لأنَّ الولاية قد تكون من أكثر من واحد، أو للإيماء إلىٰ أن الوليَّ الناصر بالذات هو الله تعالىٰ، وأنَّ ولاية الرسول والمؤمنين تبعٌ لولايته.

ثم نوَّه بشأن هذه الولاية وثمرتها، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ أي: فهم حزبُ الله، وحزبُ الله هو الغالب.

والآية تدلُّ علىٰ أنَّ المؤمنين كانوا في ذلك العصر طبقتين: طبقةً مخلصة كلَّ الإخلاص لله ولرسوله وللإسلام، وفانيةً فيهم كل الفناء، وقائمة بواجباتها كل القيام. وطبقةً ثانية هي دون تلك بمراحل متفاوتة، والآيةُ تدعوها إلىٰ أن تكون تابعةً لآثار الطبقة الأولىٰ التي نَوَّهت بشأنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ

(١) يعني: الآية ٤٣، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ النَّهي عن اتخاذهم أولياء واصفاً لهم بوصف آخر، يُومئ إلىٰ الملة، ويُهيِّج فيهم النخوة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أمر الموالاة ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾، فلا تضعوها في غير موضعها.

ثم بيَّن استهزاءهم بحكم من أحكام الدين، فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ ولو عقلوا معنىٰ الأذان لخشعت قلوبُهم واستكانت نفوسُهم. وأكثر هذا الاستهزاء أو أشدُّه من اليهود، كما يُعلَمُ ذلك من ردِّ الله تعالىٰ عليهم في الآيات التالية، بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ علىٰ الرسل. أي: هل تنكرون وتعيبون علينا إلا إيماننا الصادق بالله وتوحيده وتنزيهه، وإثبات صفات الكمال له؟ ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ خارجون عن حقيقة هذا الإيمان الصحيح، وليس لكم من الدين إلا العصبيَّة الجنسية والتقاليد الباطلة. فكيف تعيبون الحسن من غيركم، وترضون القبيح من أنفسكم؟ فالاستفهام للتبكيت والتجهيل.

ثم ترقَّىٰ في الإنكار علىٰ استهزائهم إلىٰ ما هو أنكىٰ وأشد منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم، وذلك بما فيه من التذكير بسُوء حالهم مع أنبيائهم، وما كان من جزائهم علىٰ

فسقهم وتمرُّدهم، بأشد ما جازىٰ الله تعالىٰ به الفاسقين الظالمين لأنفسهم، وهو اللعنُ والغضبُ والمسخُ الصُّوري أو المعنوي النفسي، فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: جزاءً وعقاباً ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[1]، أي: مسخهم في الصورة أو الروح، أو القلوب والعقول، علىٰ خلافٍ في ذلك. وقيل: هو كالتمثيل[2]، أي: صاروا كالقِـرَدَة في نزواتها والخنازير في اتِّباع شهواتها. والمراد أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فطرهم تحريفاً أخرجوها به عن طبائع البشر، فردُّوا إلىٰ أسفل سافلين، وضلوا ضلالاً بعيداً، بَعُدوا به عن رحمة الله. وأفرد الضمير في قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ باعتبار لـفظ ﴿مَن﴾ وجـمعه في قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ باعتبار معنىٰ ﴿مَن﴾، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وإنما أفراد الضمير في «لعن» و«غضب» لأن ذلك يتعلق بالفرد.

وقوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فيه قراءتان:

الأولىٰ: بنصب «الطاغوت» علىٰ أنه مفعول به، ﴿وَعَبَدَ﴾: فعلٌ ماضٍ معطوفٌ علىٰ ﴿لَّعَنَهُ﴾، أي: من لعنه الله وعبد الطاغوت، فيكون عطف السبب علىٰ المسبَّب. أو من لعنه الله وعبد الطاغوت.

---

(١) تُلهِمُ هذه الآية أن استهزاءهم كان ينطوي علىٰ انتقاصهم للمؤمنين وتصويرهم أشراراً ضالِّين مُضلِّين، فلقَّن الله سبحانه رسوله أن يفنِّدهم بما يدحض بهتانهم، ويردُّ الوصف عليهم، مُثْبتاً ذلك بالواقع، بعد أن مهَّد لهذا الرد بنزاهة عقيدة المؤمنين وكمال إيمانهم. ومفاد الرد: أن المؤمنين ليس كما تُصوِّرونهم وتبهتونهم، ولكن هل أُنبئكم بمن هم أشرّ من ذلك وأنكىٰ جزاء، هم مَنْ غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير، أي: تحوَّلت طبائعهم إلىٰ هذه الطبائع. (المؤلف).

(٢) وهو أضعفُ الأقوال في تفسير الآية وأبعَدُها، والصحيح من الأقوال المذكورة قبله: أن المسخ وقع في الصورة، لأن فساد الروح أو القلب أو العقل لا يُقال عنه: مَسْخ، في اللغة بحسب الحقيقة، والحقيقة هي المُقدَّمة ما دامت ممكنة.

والثانية: بجرِّ «الطاغوت»، فيكون «عُبَّد» جمع عابد، مثل خُدَّم وخادم، وهو معطوف علىٰ «القِرَدة»، أي: وجَعَل منهم القردةَ وعبيدَ الطاغوت، بإفسادهم لفطرهم وخروجهم من نور البصيرة والنظر الصحيح، إلىٰ ظلام التقليد والجمود علىٰ الضلال[1].

و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: كلُّ رأس في الضلال، وكلُّ ما يُعبد من دون الله.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، إذ لا مكان لهم في الآخرة إلا النار. أو المرادُ من إثبات الشر لمكانهم: إثباتُه لأنفسهم من باب الكناية، مثل: خبيث الثوب، خبيث الدار. أي: هم أشرُّ الناس، ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ أي: عن قَصْد طريق الحق. والـمَثُوبة: الجزاء مطلقاً. وقيل: هي الجزاء الحسن، واستعمالها هنا في الجزاء السَّيِّئ تهكُّم.

ثم تابع شرح حالهم بالكلام عن حال منافقيهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي: خرجوا من عندك كما دخلوا لم يُؤثِّر فيهم ما سمعوا منك. والباء للمُصَاحَبَة والملابَسَة. وهذا تعبيرٌ عن النفاق بأبلغ الوجوه، يُسَجِّل عليهم بقاءَهم علىٰ الكفر المتأصِّل فيهم، وأنَّ ما يَدَّعونه من الدخول فيكم بالإيمان، إنما هو مُجرَّد مُخَادَعة ونفاق، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ثم تابع الكلام عنهم بشرح حال أكثرهم، فقال: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾، وهو الدنيء من المحرَّم. فسجَّل عليهم التوبيخ بقوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم وبَّخ الربانيين والأحبار علىٰ إهمالهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ

---

(١) انظر القراءة في «المحتسب» (١: ٢١٤).

آل الأمر بهؤلاء إلىٰ ما قصَّه عنهم، فقال: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّٰنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ قال ابن عباس: ما في القرآن أشدّ توبيخاً من هذه الآية[1]. والصُّنع: إجادةُ الفعل، ففيه تهكُّم بديع.

وفي الآية تأنيبٌ شديدٌ لمن يتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سيما من كان أهلاً لذلك.

ويجوز أن يكون في الآية تأنيبٌ للرؤساء بعد تأنيب الأتباع، أي: كان عليهم أن يهتدوا ويهدوهم. وكلمة ﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض التهكُّمي التأنيبي. ويجوز أن يكون حضّاً حقيقياً، علىٰ نهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان بعد نقد الكفر والعصيان.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم بيَّن شيئاً من قولهم الإثمَ مُشنِّعاً عليهم ومُشَهِّراً بهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قال الجاحظ: يعنون أنه سبحانه يضيق العيش علىٰ الفقراء؛ لأنَّ اليهود قوم جبريَّة، والجبريَّة تُبَخِّل الله مرة وتُظَلِّمه أخرىٰ، وهو لازمُ عقيدتها، وإن لم تُقرَّ بلسانها[2].

وروي عن مجاهد: أنهم قالوا: لقد أجْهَدَنا اللهُ حتىٰ جعل يَدَهُ في نحره؛ يريدون: أنه ضيَّق عليهم الرزق.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠: ٤٤٩).

(٢) «رسائل الجاحظ» (٣: ٣٤٥).

ويجوز أن يكون هذا الموقف منهم منبعثاً مما كان يملأ صدورهم من الغيظ والسخط من رسوخ قدم النبي ﷺ وانتشار دعوته، ومقاطعة المسلمين لهم بسبب مواقف الكيد والجحود، حتىٰ أثَّر ذلك علىٰ حالتهم الاقتصادية، فدفعهم إلىٰ ما كان منهم من سُوء الأدب في حقِّ الله. فقال تعالىٰ رداً عليهم وتوعُّداً لهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، فهو دعاءٌ عليهم يُناسب جُرْمَهم هذا، وجزاءٌ لهم بالطرد والإبعاد من رحمة الله. فما زالوا أبخَلَ الأمم، لا يبذل أحدهم شيئاً ما لم يَرَ أن من ورائه ربحاً.

وبعد ذكر الجزاء صرَّح بالرد، فقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، ومشيئتُه تعالىٰ تجري حسب الحكمة وفي سَنَن مُطَّردة لا تتبدَّل، أي: بل هو صاحب العطاء الشامل والجود العميم، يُعطي حسبما تقتضيه الحكمة، لا علىٰ رغائب البشر.

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ كنايةٌ عن منتهىٰ السخاء، مأخوذٌ من حال المُخَاطَبين، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية)، لأنَّ الذي يكون في منتهىٰ السخاء يُعطي بيديه لكثرة السائلين.

ولما كان مضمون ما تقدَّم يدل ـ فوق ما ذكرنا ـ علىٰ شدَّة حرصهم علىٰ الدنيا وما إليها، أردفه بما يتضمَّن أن إنكارهم لنبوته ﷺ من جملة ذلك، وألمع إلىٰ أنَّ سوء أدبهم هذا مُنْبعِثٌ عن هذا الإنكار وما تسبَّب عنه، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾[1]؛ حَسَداً منهم وبغياً أن يكون نبيٌّ من غيرهم، وغضباً لذلك، رغماً عمَّا يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة من صحَّة ما أنزل إليك.

---

(١) ومن ذلك: لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ [البقرة: ٢٤٥]، تصدَّىٰ كثير من الصحابة إلىٰ وقف أعزِّ أموالهم للفقراء والمصالح الخيرية، أما اليهود فقد قالوا استهزاءً بالآية وإنكاراً لصحَّة القرآن ونبوة محمد ﷺ، قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ومن ذلك: العجاجة التي أثاروها في تحويل القبلة، وأشباههما. (المؤلف).

ثم أزاح ما عسىٰ أن يُـتوهَّمَ من ضررهم له ﷺ من جرَّاء هذا الحسد، فقال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إذ كانوا يسعون لتأليب المشركين ضدَّ النبيِّ ﷺ فتفشل خططهم.

ثم ذكر انطباعهم علىٰ الفساد، وجعله في موضع التعليل لما قبله أو التقرير، وقرنه بالوعيد، فقال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾، فيُجازيهم علىٰ ذلك جزاءً شديداً. فالآيةُ تدلُّ علىٰ شدَّة سعيهم بالفساد وفشلهم فيه. وكثيراً ما كانوا يُغْرونَ المشركين بالنبيِّ ﷺ والمؤمنين. ومنشأُ تلك العداوة فيهم: عَبَثُهم بالدين حتىٰ أصبح غير مُرَبّ للنفوس، وأصبح التنافس والتشاحن والتحاسد والتباغض خُلُقَهم الدائم وشأنهم العميم. وضمير: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ قيل: يعود لليهود، وقيل: لهم وللنصارىٰ.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وبعد أن بالغ في ذمِّهم وتهجين طريقتهم، بيَّن الطريقة الصحيحة التي لو اتَّبعوها نَجَحوا وربحوا، علىٰ نهج القرآن في الدعوة إلىٰ الإيمان بعد نقد الكفر والطغيان؛ وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾.

وبعد أن بيَّن جزاءهم في الآخرة علىٰ ذلك، بيَّن جزاءَهم في الدنيا وصلاحَ حالهم إذا أقاموا دينهم علىٰ الوجه الصحيح، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾[1]

---

(١) لا يقدح أن للتوراة والإنجيل الصحيحَيْن لم يبق لهما وجود عندهم، لأن الكلام علىٰ التمثيل والإلزام الجدلي. وإنما الآن مندمجان في القرآن، فإقامته إقامة لهما. (المؤلف).

الصحيحَيْن بالعمل بهما علىٰ أقوم الوجوه، ﴿وَ﴾ كذلك أقاموا ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ علىٰ لسان هذا النبي الذي بشَّرت به كتُبُهم، ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[1] أي: من بركة أمطار السماء ونبات الأرض. وهي كنايةٌ عن سَعَة رزقهم مع الراحة والهناء، وذلك لأنَّ في إقامة شرائع الله علىٰ وجهها الصحيح إصلاحاً للنفوس، وتنظيماً للأحوال، ووقوفاً عند الحقوق، وأماناً في المعاملات، وتآلفاً بين الأفراد والجماعات، وفي صلاح المجتمعات تفاهمٌ وتَحَابٌّ، وخيرٌ وبركات، وسعادةٌ ورفاه، وسَعَةٌ في الرزق وعيشٌ رغيد.

وفي هذا تنبيه إلىٰ أنَّ ما أصابهم من الضَّنْك والضِّيق إنما هو من شؤم جناياتهم، وعدم إقامتهم التوراة والإنجيل الصحيحَيْن، وفقد الثقة في المعاملات والمعاهدات، وفساد المجتمعات، لا من قصور في فيض الله وعظيم عطائه. وفيه إشارة إلىٰ أنهم لو أقاموهما لَـمَا عاندوا النبيَّ ﷺ ذلك العناد ولآمنوا به، لأنهما يأمرانهم بذلك، وحينئذ لم يقاطعهم المسلمون هذه المقاطعة التي أثَّرت في حالتهم الاقتصادية أثراً بالغاً.

ويجوز أن يراد بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾: أسلافُهم الذين كانوا زمن العمل بهما، وبقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ المعاصرون لرسول الله ﷺ ومَنْ بعدهم؛ لأن الصِّنفَيْن وحدةٌ واحدة.

ولما كان القرآن العظيم عاليَ الشأن في الضبط وتحرِّي الحق الدقيق والعدل في الأحكام علىٰ الأشياء وتمحيص الحقائق، أردف البيان السابق العام عن أهل الكتاب بهذا التَّخصيص الاستثنائي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء لتحقيق الحق

---

(١) لا شرَّ يحدث للفرد والجماعات إلا بمعاكسة سنن الله الكونية، والكتب السماوية كفيلة بالحفظ من ذلك. (المؤلف).

الدقيق، فقال: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: ليسوا كلُّهم كذلك، بل منهم أمة معتدلة في أمر الدين من السلف والخلف؛ لأنَّ الأمة مهما أوْغَلت في الفساد لا تخلو من أفراد يحافظون علىٰ سلامة فِطَرِهم ونور بصيرتهم، ولكنهم لا يقدرون علىٰ رَدْعِها لقلَّتهم وضآلة صوتهم وخُفُوته. وهكذا تهلك الأمم بكثرة الذين يعملون السوء من أشرارها، وقلة الذين يعملون الصالحات من أخيارها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

وبعد أن ناقش أهل الكتاب والمنافقين، ودَحَض شُبَهَهم، وأنَّبهم علىٰ معارضتهم لهذا الدين المبين، وحَكَم بكفرهم، التفت إلىٰ الرسول ﷺ يأمره بقوةٍ أن يبالغَ في الدعوة إلىٰ ما أُنزل عليه من ربِّه، ولا يألوا جهداً فيها، ولا يهتم بهؤلاء المعارضين، لأنه سبحانه عاصمُه منهم وحابطٌ لخبائثهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[1]، عَنْوَنَه بالرسالة للإيذان بأنها من موجبات التبليغ.

ثم شدَّد عليه بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم بيَّن سبحانه شدَّة عنايته به، فلا يخشىٰ مكروهَهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

ثم علَّل ذلك من ناحية السُّنن الكونيَّة والنشأة الإنسانيَّة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: لا يهديهم إلىٰ طريق النجاح فيما يَهُمُّون به من صدِّك،

---

(١) هذه الآية امتداد لما في السياق من معارضة أهل الكتاب وغيرهم، وتعقيب بما فيه حضٌّ علىٰ الثبات وتأييد وتشجيع. وختمها بما فيه تهوينٌ لأمر الكافرين المعارضين. (المؤلف).

فيكونون خائبين؛ لأنَّ المتشبِّع بالكفر والضلال لا يهتدي للطرق الصحيحة والرؤية الصادقة بالنسبة إلىٰ المؤمن إيماناً صحيحاً، والمسلم إسلاماً صريحاً.

ويجوز أن تكون هذه الفاصلة بياناً لوجه ما تضمَّنه السياق من تصلُّب هؤلاء الكافرين في معارضتهم لهذا الدين المبين، فتكون تعليلاً لذلك، علىٰ نهج القرآن في مثله. أي: إن ذلك ناشئٌ من تشبُّعهم بالكفر والضلال، فإنَّ مَنْ تشبَّع بهما فَقَدَ الاستعداد للهدىٰ والرشاد، حيث يُمحَىٰ منه صفاءُ القلب ونورُ البصيرة.

وفي الآية تسليةٌ له وتهوينٌ عليه، أي: إنَّ هذا هو المنتظر منهم لفساد طبيعتهم، فلا يثقل أمرُهم عليك.

وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ أُخْرِجَ مَخرَجَ التَّشديد والإغْراء بمضمونه، وذلك لونٌ من ألوان شدَّة البيان في القرآن. وهذا المضمونُ والإغراءُ يُلْمِعُ بفَحْواه أنَّ الرسول ﷺ معصومٌ عن كلِّ ما يُخلُّ بذلك، وأنه أدَّىٰ الرسالة علىٰ أكمل الوجوه.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

وبعد أن أمره بالتبليغ ـ طاب علىٰ السامع أو ثقل ـ أمَرَه أن يُجَابه أهل الكتاب بهذه الحقيقة المُرَّة، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الصحيحَيْن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في هذا القرآن. والإقامة: أن يُعمَلَ به مقوماً علىٰ وجهه الصحيح، وفيهما الإيمان بمحمد ﷺ.

وفي الآية عبرةٌ للمسلمين، وأنهم ليسوا علىٰ شيء أيضاً ما لم يقيموا ما أُنزل إليهم من ربهم، ولا يكفيهم مجرَّد الانتماء إلىٰ الإسلام والتسمية به. فحُجَّة الله علىٰ جميع عباده واحدة بلا تفريق.

وهذا الكلام مبنيٌّ علىٰ الإلزام الجَدَلي، فلا يكون حُجَّة علىٰ أنَّ الكتب التي في أيديهم هي توراة وإنجيل صحيحان، ولا علىٰ وجوب عملهم بها الآن، وإنما المراد إقامة التوراة والإنجيل الصحيحَيْن اللذَين تضمَّنهما القرآن، وفيهما وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ واتِّباعه، وفاقاً لما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [الآيات من سورة آل عمران: ٨١].

ثم أعاد الجملة الآتية تيئيساً من إيمانهم، أو إيمان الكثير منهم، فقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لأنهم ينظرون إليه بعين العصبية والعدوان، لا بعين الإخلاص وتحرِّي الحق وتبيُّنه، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ إذا لم يؤمنوا، وقد وضع الظاهر موضع المُضمَر، للإيماء علىٰ علَّة الحكم، وهي تشبُّعهم بالكفر، فهو الذي يمنعهم من الإيمان، حَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في طبيعة الإنسان.

ثم أردف ما تقدَّم، ببيان حقيقة الإيمان والمؤمنين ومصيرهم، ومصير أولئك القليل من أهل الكتاب المقيمين له، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾، وإنما كان ذلك قبل أن تُنسَخ كتبُهم، وقبل أن يعبثوا بها. ومن هؤلاء كذلك مَنْ عُذِّب علىٰ توحيد الله ورُمي بالزندقة لرفضه تقاليد الكنائس والبدع التي شَرَعها الأحبار والرهبان في مجتمعاتهم. وهذا وعدٌ كريم وأجرٌ عظيمٌ، لا حرمنا الله منه.

وإنما رفع (الصابئون) لأنه مُقْحَم في السياق وجديدٌ فيه، إذ لم يكن مشهوراً أنهم من أهل الكتاب، فهو علىٰ معنىٰ: والصابئون كذلك، لأنَّهم أهل كتاب أيضاً. فنبَّه علىٰ هذا بتغيير نسق الإعراب، وذلك من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية)، وقدَّمه علىٰ «النصارىٰ» ليتمَّ الترتيب، ولم يفعل مثل هذا في الآية الشبيهة في سورة البقرة؛ لأن السياق هناك لم يكن في أهل الكتاب، وإنما كان في اليهود. والله أعلم. جلَّ مَنْ هذا كلامه، وخاب مَنْ يقول بترجمة القرآن.

وقد كان الصابئون علىٰ ملَّة إبراهيم قبل أن يحدث فيها الشرك. وقيل: هم من أتباع يحيىٰ، فهم قبل النصارىٰ.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

ثم أعاد التذكير بأخذ الميثاق علىٰ بني إسرائيل، فختم السياق بما بدأه به، علىٰ نهج القرآن في مثله، وقد ذكر معه إرسال الرسل إليهم، وما كان من تمرُّدهم وعُتُوِّهم، فقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، والمراد بأخذ الميثاق: إرسال الشريعة وتكليفُهم بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾، فكانوا ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: بما يُخالف أهواءهم، وما يُضادُّ شهواتهم، من الأحكام الحقَّة، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ فأفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتِّباع الأهواء الدرجةَ القصوىٰ. والتعبير عن القتل بالمضارع دون الماضي لاستحضار صورته المنكرة في الذهن كأنه واقع في الحال. وفي تقديم المفعول تشويقٌ للمتأخر، ففيه تنبيهُ الذهن إلىٰ شَناعة الفعل.

ثم زادهم شناعةً ببيان أنَّ منشأ تماديهم في هذا الفساد والتمرُّد والعتو، إنما هو غرورهم وزَعْمُهم الباطل بأنهم أبناء الله وأحباؤه، فلا يصيبهم ببلاء، فقال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ أي: حسبوا أنهم لا يصيبهم بلاءُ ما يفعلون؛ لأنهم مقرَّبون عند الله، وآمِنون من عذابه، ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ عن آيات الله في كتبه المؤْذنة بعقابه للأمم المُفْسِدة، وأن ذلك من سنن الله في خلقه، وعن سماع المواعظ التي جاءهم بها الرسل، وأنذروهم عقاب الله لمن نقض ميثاقه، فعَمُوا وصمُّوا عن كلِّ ذلك، فسَلَّط الله عليهم البابليين فجاسُوا خلال الديار، وأحرقوا المسجد الأقصىٰ، ونَهَبوا الأموال، وسَبَوُا الأمة، وسلبوها الملك والاستقلال، ﴿ثُمَّ﴾ تابعوا وأقلعوا عن الفساد و﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ورحمهم وأعاد إليهم ملكهم وعزَّهُم، ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ مرةً أخرىٰ، فأفسدوا وتمرَّدوا، وعَتَوْا وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيىٰ، فسلَّط الله عليهم الفُرْسَ ثم الروم، فأزالوا ملكهم واستقلالَهم، وسيأتي هذا أيضاً في سورة الإسراء.

أما قوله: ﴿كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ فهو بَدَلٌ من الواو في الفِعْلَين. والغرض منه: تحرِّي الحق الدقيق في الحكم عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثله. بمعنىٰ: أن ذلك لم يكن مستغرقاً لجميع أفرادهم، وإنما هو الغالب فيهم، لأنَّ الأمة ـ مهما أوْغَلَت في الفساد ـ لا تَعدِمُ أفراداً منها سَلِمَت فِطَرُهم وبقي فيهم بقية من نور البصيرة، ولكن العبرة بالغالب لا بالقليل النادر، فإنه لا يؤثر في صلاح ولا فساد. ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾.

﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ

وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾.

ثم انتقل من بيان حال اليهود وفظائعهم، إلىٰ بيان حال النصارىٰ وفساد عقيدتهم، ونقضهم لميثاق الله الذي هو قبولُهم للدين وما جاء فيه، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وهذا قولُ طائفة منهم، وهي التي تقول: إنَّ الجوهر ـ الذي هو الله ـ حلَّ في المسيح وتدرَّع به، فباطنُه لاهوت، وظاهرُه ناسوت.

وقال البيضاوي والرازي: إنَّ هذا لازمُ قولِهم: إن فيه لاهوتاً؛ لأن معناه الحلول. وقد نسب إليهم لازمَ قولهم، توضيحاً لجهلهم بما يلزم في عقيدتهم هذه من أنَّ الله هو المسيح، وتفضيحاً لمعتقدهم هذا، وتشنيعاً عليهم[1].

ثم ردَّ عليهم اعتقادهم هذا، ببيان ما قد قاله المسيح لهم، من التوحيد والتحذير من الشِّرك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾، هذا ما قاله لهم المسيح، أمَرَهم بالتوحيد الخالص، وقفَّىٰ عليه بالتَّحذير من الشرك، والوعيد عليه، وهم ينسبون له ادعاء الألوهية.

ثم ذكر سبحانه شناعةَ طائفة أخرىٰ من طوائفهم، وقرنها بالردِّ والوعيد، فقال:

---

(١) انظر «تفسير البيضاوي» (٢: ١٢٠)، و«تفسير الرازي» (١١: ٣٢٧- ٣٢٨).

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهم: الله والمسيح ومريم، أو الأب والابن وروح القدس. وهذه بعينها عقيدة الرومان، فإنهم يقولون: الإله وزوجته وابنه الوحيد.

فردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وهو الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: الذين أصرُّوا علىٰ هذا الكفر، وبقوا عليه، ﴿لَيَمَسَّنَّهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ في الآخرة. وهذا وعيدٌ رهيب.

وبعد أن ألزمهم بقول المسيح عليه السلام، وتوعَّدهم إذا بقوا علىٰ باطلهم، رغَّبهم بالتوبة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدىٰ.

ثم ذكر الحقَّ في أمر المسيح، مقروناً بالبرهان العقلي في الردِّ عليهم، وتسخيف عقيدتهم في ألوهيته، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وهو مِثلُهم وواحدٌ منهم، لا يمتاز عليهم بشيء، ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ كسائر الصِّدِّيقين، فهما بَشَران كسائر البشر، ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: لا يمتازان بشيءٍ عن حقيقة الإنسان، فكيف يكون المسيح إلهاً؟!

ثم عجَّب من حال هؤلاء المدَّعين هذه الدعوىٰ في المسيح، وجهَّلهم، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ بالحُجج الدامغة علىٰ بطلان دعواهم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي: يُلْعَبُ بعقولهم، ويُصْرَفون عن الحق.

ثم ذكر وجهاً آخر في تبكيتهم والردِّ عليهم، فقال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فهذا دليلٌ آخر علىٰ بطلان عقيدتهم في المسيح وردٌّ عليهم، ذيَّله بما فيه أمران: اختصاص الألوهية بالله تعالىٰ، ووعيدهم علىٰ إشراكهم، فقال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ الذي يحيط عِلمُه بجميع الأشياء، فهو وحده المستحقّ للألوهية، ولا يخفىٰ عليه من أمرهم خافية، فلهم الويل مما يصفون.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾.

ثم جمع الخطاب للفريقين؛ اليهود والنصارىٰ، بالدعوة إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، بعد أن فنَّد أضاليلهم وأباطيلهم بالانفراد، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، وضمَّن ﴿تَغْلُوا۟﴾ معنىٰ: تقولوا ـ علىٰ نهج القرآن في التضمين ـ فعدَّاه تعديته.

قال في «المنار»: الغلوُّ: الإفراط وتجاوز الحدِّ في الأمر، فإذا كان في الدين فهو تجاوز حدِّ الوحي المنزَّل إلىٰ ما تهوىٰ الأنفس، كجَعْل الأنبياء والصالحين أرباباً ينفعون ويضرُّون، بسلطة غيبيَّة لهم، فوق سنن الله في الأسباب والمُسبِّبات الكسبيَّة، واتِّخاذهم لأجل ذلك آلهةً يُعبدون، فيُدعَوْن من دون الله تعالىٰ، أو مع الله، سواء أُطلق عليهم لقب الرَّبِّ والإله ـ كما فعلت النصارىٰ ـ أم لا، وكشَرْع عبادات لم يأذن بها الله، كزيارة

العتبات عند الشيعة، وتحريم ما لم يُحرِّم الله، كالطيِّبات التي حرَّمها القُسوس والرهبان علىٰ أنفسهم وعلىٰ مَنْ اتَّبعهم مبالغةً في التنسُّك، سواء كان ذلك لوجه الله أم كان رياءً وسمعة. ونهىٰ الله سبحانه وتعالىٰ أهل الكتاب الذين كانوا في عصر التنزيل عن هذا الغُلُوِّ الذي كان عليه مَنْ قبلَهم من أهل ملَّتهم، وعن التقليد الذي كان سببَ ضلالتهم، فذكَّرهم بأنَّ الذين كانوا قبلهم قد ضلُّوا باتِّباع أهوائهم في الدين، وعدم اتِّباعهم فيه سنَّةَ المرسلين والنبيين والصَّالحين من الحواريين الذين كانوا مُوحِّدين ولم يكونوا مُفْرِطين ولا مُفَرِّطين، وإنما كانوا للشرك والغُلُوِّ مُنكِرين[1]. فنهاهم أن يتبعوا أسلافَهم الضالِّين، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ من الناس، ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿وَضَلُّواْ﴾ بذلك ﴿عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾، وهم المشركون المثلِّثون، كالرومان وغيرهم من أرباب عقيدة التثليث.

وكان الرومان يقولون بالأب والابن والزوجة، فلما اعتنقوا النصرانية قالوا بالأب والابن والروح القُدُس، ويعنون ما جاء في القرآن: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] علىٰ أن الإضافة من نوع إضافة الجزء إلىٰ الكلِّ، والله سبحانه منزَّه عن الروح، وإنما هو حيٌّ قيُّوم، والروح مخلوق ممتاز من مخلوقات الله. والإضافة لمجرَّد التعظيم، مثل: بيت الله، وناقة الله، وخليل الله، وأمثال ذلك.

وقد قرن الله سبحانه هنا الرُّوحَ بثلاثة أصناف من المخلوقات: الإنسان والجن والملك. وقوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] للإشارة إلىٰ أن عيسىٰ كبقية الناس، وإن لم يكن له أب، فإنه فَرْدٌ من بني الإنسان كما قال في آدم: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

---

(١) تفسير «المنار» (٦: ٤٠٥).

ثم أشار سبحانه إلىٰ أنَّ مصدر انتشار ذلك الضلال فيهم إنما هو سكوتُ المهتدين عن المُضلِّين الأوَّلين، وتقاعدُهم عن معارضتهم وردِّهم بالحُجَّة الدامغة، وأنهم بعملهم هذا نقضوا عهدَ الله الذي أخذه عليهم في تَناهيهم عن المنكر، فقال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ أي: في الزَّبور والإنجيل. والله أعلم.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾.

ثم فسَّر الاعتداء بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾، وفي قوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ﴾ إلماعٌ بإدخال الساكت في حكم الفاعل. والله أعلم. فنعىٰ عليهم ذلك وأنَّبهم بقوله: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ والنَّهيُ عن المنكر هو حِفَاظُ الدين وسياجُ الفضائل والآداب، والسكوتُ عنه مُشَجِّعٌ لأربابه، وسببٌ لانتشاره، ومَفْسَدَةٌ للأخلاق ومِقْراضٌ للأمم. وعلىٰ كلٍّ فالآية نَقْدٌ للرؤساء بعد نَقْد الأتباع.

وفي الآية عبرةٌ لنا معشر المسلمين، وتنبيهٌ إلىٰ أنَّ سبب انتشار الفساد والضلال فينا إنما هو من سكوت العارفين عن الجاهلين، والمهتدين عن الضالين، في بيان الحق باليقين، وتقاعدِهم عن القيام بوجه المُضِلِّين وردِّهم بالحجج الملزمة والبرهان المبين، لأن أحكام الله تعالىٰ في سائر الأمم علىٰ السواء، لا تختصُّ بها أمةٌ دون أمةٍ، ولا محاباة فيها ولا هوادة. اللهم اجعل تفسيري هذا دعايةً لسبيلك، وخالصاً لوجهك الكريم.

ثم ذكر سبحانه لرسوله حالاً من أحوالهم الحاضرة التي هي من آثار تلك السيرة الراسخة، فقال: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من مُشْركي قومك ويُحرِّضونهم علىٰ قتالك، وأنت تؤمن بالله وما أنزله علىٰ أنبيائهم، والمشركون لا

يُوحِّدون الله ولا يؤمنون بكتبه ولا برسله. فنعىٰ عليهم وأنَّبهم بما سبكه علىٰ التوعُّد، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والمصدرُ المؤوَّلُ مخصوصٌ بالذم، وفيه بلاغة إيجاز القرآن، وهي إقامة المسبَّب مقام السبب، وهو ما أوجب ذلك السخط من أعمالهم.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾، أعاذنا الله.

ثم نفىٰ عن أكثرهم الإيمان، وألزمهم بواضح البرهان، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ﴾ الذين يدَّعون الانتماء إليه، وهو موسىٰ عليه السلام، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ما اتَّخذوا الذين كفروا أولياءَ لهم، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: خارجون عن حظيرة الدين. وذهب مجاهد إلىٰ أنَّ المراد بالذين يتولَّون هم اليهود والمنافقون[1]. وقيل: بل المراد منافقُو اليهود.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

ثم ختم هذا السياق في مُحاجَّة أهل الكتاب بهذه الآيات التي بيَّن فيها حالتَهم النفسيَّة في عداوة المؤمنين ومَوَدَّتهم، ودرجةَ قُربهم منهم وبُعْدهم عنهم، وكذا حالة

---

(١) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٦: ٢٥٤) دون ذكر اليهود.

المشركين مع المؤمنين، ذكرها بالتبع، فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾، ثم خصَّ بالذكر صنفاً منهم أهلَ علم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ عن الإذعان للحقِّ إذا ظهر لهم واستبان، ولا يقولون كما يقول اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه فكيف نكون تبعاً للعرب؟!

وفي الذين نزل فيهم هذا التفصيل قولان:

أحدهما: أنهم يهودُ الحجاز ومشركو العرب ونصارىٰ الحبشة، أو وفدٌ جاء من نصارىٰ العرب الذين هم في شمال الجزيرة، أو أغلب مَنْ كان من النصارىٰ في المدينة أو في مكة[1]. علىٰ أقوال في ذلك، فيكون الكلام عمَّن كان في تلك المنطقة من هذه الأصناف في عصر التنزيل، سواء وفدوا أو انتقلوا إليها عندما وعدهم عيسىٰ عليه السلام بظهور نبيٍّ في هذه المنطقة، وعليهم أن يَتَّبعوه. والخطاب للنبيِّ ﷺ.

والثاني: أنه عامٌّ في عصر التنزيل.

والأول هو الظاهر، ويؤيِّده قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، لأنَّ المراد به أناسٌ مخصوصون في عصر

---

(١) كان في مكة والمدينة جاليات من نصارىٰ الروم من التجار وغيرهم، يأتون لغرض اقتصادي، وحقيقة أمرهم: يأتون لمراقبة ظهور النبي الذي بشَّر به عيسىٰ يكون في ذلك الزمن وتلك المنطقة من الأرض، وعلىٰ هذا الضوء كان وجود قس بن ساعدة وورقة بن نوفل وبحيرا الراهب، وأمثالهم. وكان من هذا النوع خديجة وأبو بكر رضي الله عنهم. وكانت طبقة أخرىٰ تتصل بهذه الجاليات، وكان منهم أبو جهل في شبابه وأبو عامر الراهب وأمية بن [أبي] الصلت وأمثالهم، إلا أن هذه الطبقة تنكَّرت عند ظهور الرسول حَسَداً ولؤماً ولم تؤمن به. (المؤلف).

التنزيل، أو نصارىٰ الحبشة، فقد جاء هذا في السيرة والتاريخ عنهم، إذ هذا هو الظاهر منها.

ثم بيَّن تعالىٰ ما كان من مقالهم بعد بيان ما كان من حالهم، فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي: الذين شَهِدوا بأنه حقٌّ. أو المراد: أتباع محمد ﷺ الذين علموا لهم هذا الوصف من كتبهم، وهم يُريدون بهذا القول إنشاء الإيمان والتضرُّع إلىٰ الله تعالىٰ بأن يقبله منهم ويجعلهم من أمة محمد ﷺ.

وقال ابن عباس: هؤلاء هم النجاشي وأصحابه، قرأ عليهم جعفر الطيار سورةَ مريم، فأخذ النجاشي تبنة من الأرض، وقال: والله ما زاد علىٰ ما قال الله في الإنجيل مثل هذه، وما زالوا يبكون حتىٰ فرغ جعفر[1].

ثم حكىٰ سبحانه عنهم ما تملَّك قلوبهم من هذا الإيمان؛ بسبب وضوح الأمر لديهم، وتحقُّق صدق هذا الرسول عندهم، وأنَّ أتباعَه هم المفلحون، فقال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾، وهذا النَّظم والتركيب من أعلىٰ تعابير البيان عن مثل هذا الشعور والحنان. فهم يستبعدون عدم إيمانهم، مع وضوح الحق وتبيُّن الصدق وتحقُّق الفلاح، ويُظهِرون تحقيق إيمانهم وتقريره، بإنكار انتفائه مع قيام الداعي الذي هو الطمع في الانخراط مع الصَّالحين. أي: كيف لا نؤمن به بعدما ظهر لنا أنه البارقليط روح الحق الذي بشَّر به المسيح عليه السلام؟!

وقد آذنهم سبحانه وتعالىٰ بقَبول إيمانهم هذا، وأثابهم عليه بهذا الوعد الكريم، وقال: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

---

(١) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٢: ٤١٤).

وعلينا أن نقف في وصف نعيم الآخرة علىٰ ما جاء به القرآن الكريم، وصحَّت به السنة النبوية، لأنه أمر لا يتصوَّره الفكر ولا تفي به العبارةُ، إذ لا يتَّفق مع عالَـمِنا هذا في شيء إلا بالأسماء.

ثم قفَّىٰ علىٰ ذلك بمصير الكافرين، علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

وبعد أن استقصىٰ المناظرة مع اليهود والنصارىٰ، عاد إلىٰ بيان الأحكام التي بدأت بها السورة، علىٰ نهج القرآن في مَزْج آيات الأحكام بآيات المناقشة والمواعظ والعبر، وما إلىٰ ذلك، (كما جاء في المادة الثالثة من المقدمة الثانية)، وجعل وَجْهَ الربط هنا: الرَّدْعَ عما يتبادر إلىٰ الأذهان من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ من الرغبة بالرهبنة والتبتُّـل وترك التمتُّع بالطيِّبات، كمـا فهمه قليلٌ من الصحابة وعملوا به[1]؛ لأنَّ ذلك لم يستهدفه الإسلام، ولم يُرِدْ أن يكون فيه طبقة بهذه الصفة، وهو الذي أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث، ورفع الإصْـر والتـكاليف التي كانت في

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه؛ رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، عن سعد بن أبي وقاص قال: ردَّ رسول الله ﷺ علىٰ عثمان بن مظعون التبتُّل، ولو أذِنَ له لاختَصَينا.

الشرائع السابقة، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا﴾ تتَّبعوا خطوات أهل الكتاب في الغُلوِّ و﴿تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ تبتُّلاً ورَهْبنة وتنسُّكاً، ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ بتجاوز حدود شريعته الموضوعة عن علم وحكمة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ حدودَ ما شَرَعه الله، ولو بقَصْدِ التنسُّك والتَّزهُّد، إذ لا رهبانية في الإسلام، والزيادة مشوِّهة كالنقصان. ويجوز أن يكون من جملة معنىٰ ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾: لا تتجاوزوا حَدَّ الاعتدال والتوسُّط في تناول الطيِّبات. والله أعلم.

ثم صرَّح بما تضمَّنه النهي، زيادةً في التقرير، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾، فلا تتجاوزوا حدودَه فيما أحلَّ أو حرَّم، فالدينُ الإسلاميُّ يُعطي الجسم حقَّه، والروح حقَّه، ويجعل الاقتصار علىٰ الثاني اعتداءً وتقصيراً، وينهىٰ عن التبتُّل وتَرْك حظوظ الدنيا، ويُوجِّه إلىٰ الأخذ من كلٍّ منهما بنصيب، وقد جاء في الأثر: «ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتىٰ يصيب منهما جميعاً، فإنَّ الدنيا بلاغٌ إلىٰ الآخرة، ولا تكونوا كَلًّا علىٰ الناس»[1]. علىٰ أنْ لا نصل إلىٰ حدِّ الاعتداء والإسراف.

والخلاصة: أنه ينبغي للمؤمن أن يتمتَّع بما تيسَّر له من الطيِّبات بلا تأثُّم ولا تحرُّج، وهو بذلك عاملٌ بشرع الله مقيمٌ لسُنَّة الفطرة التي فطر الناس عليها، كما أنَّ امتناعه عن الطيِّبات التي رزقه الله إياها بقصد التقرب إلىٰ الله، مع الداعية الفطرية إلىٰ الاستمتاع بها، إثمٌ يجْنيه علىٰ نفسه في الدنيا، ويستحقُّ عليه العتاب في الأُخرىٰ، لزيادته في دين الله قُربات لم يأذن بها الله، ولإضاعته حقوقَ الله وحقوقَ عباده، كإضاعة حقوق امرأته وعياله. والتحريمُ والتحليلُ تشريع، وهو من حقوق الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخه» (٦٥: ١٩٧).

وعن الحسن البصري: إنَّ الله أدَّب عباده فأحسَنَ أدبهم، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ﴾ [الطلاق: ٧]. وعنه: أنه قيل له: فلان يتحرَّج من أكل الفالوذج، ويقول: لا أُؤدِّي شكره. قال: أفيشرب الماء؟ قالوا: نعم. قال: إنه جاهل، إنَّ نعمة الله عليه في الماء البارد أكبر من نعمته عليه في الفالوذج[١].

ولما كان مثل هذا التحريم علىٰ النفس يقترن عادةً بالعهد واليمين، كما حَدَث ذلك للصحابة الثلاثة الذين كانوا سببَ نزول هذه الآيات، فإنهم تبتَّلوا وحرَّموا علىٰ أنفسهم النساء وطيبات الطعام واللباس، وتعاهدوا عليه، فنهاهم الله تعالىٰ عن ذلك بالآية السابقة، ذكر حكم الأيمان ليتحلّلوا من تَعاهُدِهم، فقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾، وقد ذكرتُ هذا مفصَّلاً في تعليق علىٰ مثل هذه الآية من سورة البقرة[٢]. والذي عليه المحققون أن معنىٰ لغو اليمين قول المتكلِّم: لا والله، بلىٰ والله، كلّا والله، يَصِلُ بها كلامَه من دون قصد. كما روي ذلك عن عائشة رضي الله تعالىٰ عنها[٣].

وقال الراغب: «اللغو من الكلام: ما لا يعتد به، وهو الذي يُورَد لا عن رُوِيَّة، فلا مؤاخذة عليه»[٤].

﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ أي: بما صمَّمتم عليه وقَصَدتموه. وقد جاء عنه ﷺ: «إذا حَلَفتَ علىٰ يمين، فرأيتَ غيرَها خيراً منها، فائتِ الذي هو خير،

---

(١) ذكرهما الزمخشري في «تفسيره» (١: ٧٠٥).

(٢) يعني: الآية ٢٢٥ منها.

(٣) رواه مالك في «الموطأ» (٧٥٥)، والشافعي في «مسنده» (١١٠٧)، عن عائشة قالت: لغوُ اليمين قولُ الإنسان: لا والله، وبلىٰ والله.

(٤) «المفردات» ص٧٤٢.

وكفِّر عن يمينك»[١]، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾، وجاء في تعليقات البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وعكرمة: إن ما كان في القرآن ﴿أَوْ﴾ فصاحبُه بالخيار[٢].

ثم قرَّر هذا الحكم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾.

ثم حذَّر من الحلف والحنث، فقال: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾، فلا تبذلوها في كل أمر، ولا تحنثوا بها إذا حلفتم. ولا يجوز الحلف بغير الله وأسمائه وصفاته.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «من حلف بغير الله فقد كفر»[٣].

ثم ختم السياق بتمنُّنه تعالىٰ علينا ببيان تلك الأحكام المهذِّبة لنفوسنا، حملاً علىٰ التمسُّك بها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: بالعمل بها، وتدريب نفوسكم عليها، أو تشكرونه علىٰ ما هداكم إلىٰ هذه الأعمال المهذِّبة لنفوسكم والمُصْلحة لأحوالكم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٧١٤٧)، ومسلم (١٦٥٢)، عن عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) ذكره البخاري معلَّقاً مجزوماً به في «صحيحه»، باب قوله تعالىٰ: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ قبل حديث (٦٧٠٨).

(٣) رواه الترمذي (١٥٣٥) ـ وقال: حديث حسن ـ، وأحمد (٦٠٧٢)، والحاكم (٤: ٣٣٠) عن ابن عمر. وصحَّحه الحاكم علىٰ شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

ولما كانت الخمر من الخبائث وليست من الطيِّبات، ذكر النَّهيَ عنها في هذا السياق المتضمِّن للرخصة في تناول الطيِّبات، إذ ربما يَرِدُ علىٰ الوهم الدنيء والذوق الرديء أنَّ الخمر من الطيِّبات، وقد قَرَنها بالميسر والأنْصاب والأزلام؛ تسويةً بها، وتكميلاً للبحث، وتعميماً للنهي عمَّا كان عليه الجاهلية من الرذائل واتِّباع خطوات الشيطان وتعاطي الخبائث، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ﴾ وهو: كُلُّ مُسكِر من أيِّ نوع اسْتُخرج، ﴿وَٱلْمَيْسِرُ﴾ وهو: القمار بأيِّ صورة كان، ﴿وَٱلْأَنصَابُ﴾ وهي: الأصنام تُذبح عندها القرابين، وأراد نفس القرابين، من ذكر السبب وإرادة المسبَّب، ﴿وَٱلْأَزْلَٰمُ﴾ وهي: سهامٌ يَسْتَقْسِمُونَ بها. وقد تقدَّم الكلام عليها فيما سبق من هذه السورة[1]، كلُّ ذلك ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وهذا القيدُ نصٌّ في كون الرِّجْس هنا معنوياً[2].

قال الراغب: الرِّجْسُ: الشيءُ القذر[3]. وقوله: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ محمولٌ علىٰ جميع ما ذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والذي أراه أنَّ كلمة «رجس» تأتي في القرآن لما اشتدَّ قبحه وعَظُم تحريمه. وقوله: ﴿مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ كناية في اللسان العربي وفي أسلوب القرآن عن غاية القبح ونهاية الشر، أو المراد: وَسْوَسَتُه لهم بذلك. والله أعلم.

---

(١) يعني: في الآية ٣.

(٢) لكنْ ليس فيه نفيُ النجاسة الحسية أيضاً، فتُطلب من جهة أخرىٰ، وقد ثبتت هذه النجاسة ـ عند جمهور الفقهاء ـ في الخمر دون غيرها من المذكورات معها.

(٣) «المفردات» ص٣٤٢.

وبعد أن ذكر العلَّـةَ ذكر الحكمَ، فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ أي: هذا الرِّجْس، أو ما ذكر، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في الدنيا والآخرة بتزكية نفوسكم، إذ بالتزكية يتحقَّق الكمال الإنساني، وهو مصدر كل خير.

ثم خصَّ الخمر والميسر بتفصيل ما فيها من المفاسد الدينيَّة والدنيويَّة المقتضية للتحريم، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: إنَّ الخمر والميسر مَصْدَرٌ لهذه المفاسد الثلاث؛ لأنَّ السكران لا يعقل ما يقول، وقلبُ المقامر مشغولٌ إلىٰ هذا الحد أو أبعد.

ويجوز أن يُخَصَّ الأول بالميسر، والثاني بالخمر. والميسر يُعوِّد الناس علىٰ الكسل وطلبِ الرزق من السُّبُل الوهميَّة، وفيه خرابُ البيوت، والانتقالُ طفرةً من الغنىٰ إلىٰ الفقر المدقع الكئيب. أعاذنا الله. وإنما خصَّ الخمر والميسر بهذا البيان دون ما قُرن بهما؛ لأن بيان تحريمهما هو المقصود بالذات هنا، أما الأنصاب والأزلام فكان المؤمنون قد تركوهما، لأنهما من أعمال الجاهلية وخرافات الوثنية. وإنما قرنهما بهما للإيماء إلىٰ مُساواتهما في الفظاعة، لذلك قال عمر رضي الله عنه عند نزول الآية: أُقْرِنْتِ بالميسر والأنصاب والأزلام، بُعْداً لكِ وسُحْقاً[1].

وقد جاء في سبب النـزول: أنه كان قد وقع شقاق ونـزاع بين صَحبٍ من المسلمين[2] مما هو مألوفُ الحدوث في حالة السكر وتعاطي الخمر، وإنَّ الحادث كان

---

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣: ١٦٠).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٠: ٥٦٩)، عن سعد أنه قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعانا. قال: فشربنا الخمر حتىٰ انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقالت الأنصار: نحن أفضل منكم! قال: فأخذ رجل من الأنصار لحيىٰ جمل، فضرب به أنفَ سعد، ففزره، فكان سعد أفزر الأنف. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ إلىٰ آخر الآية.

خطيرَ الأثر، حتىٰ استثار حنق الناس وأسفهم، فكانت مناسبة ملائمة للخطوة النهائية إلىٰ حظر الخمر حظراً باتاً، لمعالجة الحالة الحادثة، ولتكون تشريعاً عاماً مستمرَّ المدىٰ، علىٰ نهج القرآن في نزول آياته، وتقرير بياناته في المناسبات والحوادث الملائمة لذلك.

وبعد أن بيَّن مفاسدهما أكَّد الحكم بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾، وهذه الصيغة من أبلغ صيغ النَّهي؛ لأنَّ فيها إيذاناً بأنَّ أمر المنع والتحذير قد بلغ الغاية، وأن الأعذار قد انقطعت.

ثم أكَّد الحكم ثانياً بهذا الأمر العام المقرون بالتهديد، فقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيما يأمركم به علىٰ لسانه، ﴿وَٱحْذَرُوا۟﴾ العصيان.

ثمَّ هدَّد غير المطيعين بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾، وقد أدَّاه، وحسابكم وعقابكم عند الله، واللهُ شديد العقاب. قالوا: ولم يُؤَكَّدْ شيءٌ في القرآن بعد الربا وبعد التبذير مِثلَ هذا التأكيد.

ثم عاد إلىٰ آية تحريم الطيِّبات، وعقَّبه ببيان العفو عمَّا سلف عذراً للماضين، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فإنّه يُعقب الأحكام التي يقمع بها رذيلةً من الرذائل بما يُؤْذن بالعفو عمَّا سلف من ذلك. ويظهر أن الذين كانوا يتعاطون الخمرة من المسلمين، هَلَعَوا من أسلوب الآيات وسَلْكها الخمر في سِلْك عبادة الأصنام، فسكَّن الله سبحانه هَلَعَهم، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟﴾ أي: ليس عليهم إثم فيما تناولوه من قبل. يقال: طَعِمَ الشيءَ يَطعَمُهُ، أي: ذاق طعْمَه. وهو يستعمل في الطعام والشراب. ومن الأول: قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣]. ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي: مَنْ لم يَذُقْ طعمَه.

وقد قيَّد هذا العفو بقوله: ﴿إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ﴾، فكرَّر التقوىٰ وقَرَن الأولىٰ بالإيمان والثانية بالإحسان، للإيذان بأنَّ شرط العفو دوام التقوىٰ المقرونة بالإيمان والإحسان في كلِّ ما يؤمرون به وينهون عنه.

ثم ذكر علَّة العفو عنهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾، وفيه حثٌّ علىٰ الإحسان وترغيبٌ فيه، وقد جاء عنه ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

وَوَرَد في عدَّة روايات أنَّ بعض الصحابة اسْتشكلوا عند نزول الآية السابقة في الخمر، حالَ مَنْ مات من المؤمنين، حيث جاء فيها أنه يَصُدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة. وكان الله سبحانه قد عرَّض بتحريم الخمر قبل نزول آيات المائدة، بما تبيَّنه في سورة البقرة والنساء[2]، فظنُّوا أنهم مُقصِّرون في اجتهادهم السابق، وفهمهم لحكم الخمر. فنزلت هذه الآية عُذْراً للماضين، وحُجَّة علىٰ الباقين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عن أبي هريرة.

(٢) وذلك في الآية ٢١٩ من سورة البقرة، والآية ٤٣ من سورة النساء.

ثم ذكر حكم الصيد في الإحرام، لأنه مستثنىٰ من حِلِّ الطيّبات المتقدِّم الذكر في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨]، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾، وهذا الوصف للصيد يُراد به كَثْرتُه وسهولتُه وإمكانُ الاستخفاء بالتمتُّع به. أي: يبتليكم به علىٰ هذه الصورة وأنتم مُحرمون، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: حال كونه غائباً عن أعين الناس، غير خائف ولا مُراءٍ، فيمتثل الأمر مُخْلصاً لله. ووجْه الابتلاء بذلك: أنَّ الصيد ألذُّ الطعام وأطيبُه عندهم، وناهيك باستطابته وشدَّة الحاجة إليه في السفر الطويل. وسهولةُ تناول اللذيذ تُغْري به، فالامتناع منه يدلُّ علىٰ التقوىٰ.

ثم شدَّد التَّحذير من الخلاف وتوعَّد المخالفين، فقال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد أن بيَّن لكم أنه سيَخْتبركم بهذا الأمر الموضوع خاصَّة للاختبار، ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ لأنَّ من خالف بعد أن تبيَّن له الأمر يستحق أعظم الجزاء. والظاهر أنَّ هذا كان اختباراً خاصّاً للمؤمنين في الحديبية[1]، باعثاً لهم علىٰ تثبيت العزم في تنفيذ أوامر الله والرسول، ولا سيما في مقاومة المشركين التي هم في صَدَدِها ومتعرِّضون لها، وتطبيق المعاهدة التي ثقلت عليهم. وذلك علىٰ حدِّ الحكمة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ [البقرة: ٢٤٩]، والله أعلم.

وبعد هذا البيان والتمهيد به عاد إلىٰ النَّهي العام عن الصيد في الإحرام الذي تقدَّم في أول السورة[2] ليقرنه ببيان حُكْمِه وكفارته، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟

---

(١) لعل وجه الابتلاء في هذا الحكم الشرعي في الحديبية أظهر منه في غيرها، لكن هذا لا يدل علىٰ الخصوصية، فقد جاء الحكم عاماً، وكل حكم شرعي فيه معنىٰ الابتلاء، وسيأتي في كلام المؤلف قريباً تصريحه بعموم الحكم في هذه المسألة.

(٢) يعني: في الآية الأولىٰ منها.

﴿ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أي: وأنتم مُحرمون بالحج أو العمرة، إذ فيه انتهاكٌ لشعائر الله، فإنَّ الحج مرحلة سلام كامل.

ثم بيَّن حُكْمَه، فقال: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي: فعليه جزاءٌ من الأنعام مماثلٌ لِـمَا قتله، ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: يحكم بالجزاء المماثل رجلان من أهل العدالة والمعرفة منكم أيها المؤمنون، ووَجْه الحاجة إلىٰ حكم العَدْلَين: أنَّ المماثلة بين النَّعَم ـ وهي الإبل والبقر والغنم بأنواعها ـ وبين الصَّيد الوحشي ـ وأنواعه كثيرة ـ: مما يخفىٰ علىٰ أكثر الناس.

ثم بيَّن ما يُصنع بهذا الجزاء، فقال: ﴿هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ أي: يُجعَلُ هذا المماثل من النعم هَدْياً يُذْبَح في مكة، حيث تؤدَّىٰ المناسك، ويفرّق لحمه علىٰ المساكين من أهل الحرم، ﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ﴾ بقيمةِ ما يُماثله من النعم، يُعطىٰ لكلِّ مسكين مُدٌّ من الطعام عند الشافعية، ونصف صاع عند الحنفية، ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: عَدْلُ عَدَدِ المساكين بأن يصوم بَدَلَ كل مسكين يوماً.

ثم علَّل هذا الجزاء بقوله: ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي: لينال سوء عاقبة هتكه لحرمة الإحرام.

ثم بيَّن ما هو من سنَّة القرآن عند تشريع الأحكام، وهو ذكر العفو عما سلف، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾، قال الجمهور: أي: إنَّ الجزاء في الدنيا إنما يمنع العقاب في الآخرة إذا لم يتكرَّر الذنب، فإن تكرّر استحقَّ صاحبه الجزاء في الدنيا والعقاب في الآخرة. والانتقام: من النقمة، وهي: السطوة والعقوبة. وقد يستعمل في لغة التخاطب بمعنىٰ التَّشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ محال علىٰ الله.

ثم جمع بين إحلالِ صيد البحر وأكلِه للمحرمين، وتحريم صيد البر وأكله عليهم، إيذاناً بالفرق بينهما، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: ما يُصاد في سائر أنواع المياه، ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ وهو ما يطفو منه علىٰ وَجْه الماء، وما يبقىٰ بعد الجَزْر.

ولما كان إحلال صيد البحر مظنَّة أن يتبادر منه أنه خاص في رُكَّاب البحر، دفع ذلك بقوله: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: للمقيم والمسافر، ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ أي: مُحْرمين في الحج أو العمرة.

وقيل: الكلام هنا أعمُّ من تحريم قتل الصيد، فإنه يشمل أخذه من غير قتل. وقيل: يشمل أكلَه وإنْ صاده غيرُ المحرم، لأنَّ المراد من طعامه أكلُه. والكلمةُ مرعيةٌ في الفقرة الثانية أيضاً. والتقدير: وحُرِّم عليكم صيدُ البر وطعامُه ما دمتم حُرماً، علىٰ نهج القرآن في إيجاز الاكتفاء، (كما جاء في المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

أقول: وتخصيص التحريم بالاصطياد أَظْهَر، إذ قد جاءت أحاديث الآحاد بترخيص أكل المحرم مما يصيده غيرُ المحرم.

ثم ختم الكلام بما يحمل علىٰ التمسُّك بهذه الأحكام، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي: فالتزموا أحكامه وما يشرعه لكم.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم ذكر حكمة تحريمِ صيد الحَرَم وصيد المُحْرِم، وتعليله ضمن البيان عن فوائد الحج، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا

﴿لِّلنَّاسِ﴾، وقوام الأمر وقيامه: نظامه وعماده وما يقوم به. أي: بها قوام مصالحهم الروحيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة، ومن مقتضيات ذلك: أن تكون حَرَماً آمناً يُؤْمَنُ الاجتماعُ فيها. وللمبالغة في زيادة انطباع نفوس الناس علىٰ احترامها، حرَّم حتىٰ صيدها، ﴿وَ﴾ للغرض[1] عَيْنِه شرع ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وجعله موسماً للحج، ليكون فيه زيادة مبالغة علىٰ الاحترام والردع عن الأذىٰ، تسهيلاً لأمر الحج، ﴿وَ﴾ شرع ﴿الهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ﴾ وهي: البُدْنُ تُقَلَّدُ للإيذان بأنها تُهْدىٰ إلىٰ الكعبة، طُعْمَةً لمساكينها وتعظيماً لها، ليزدادَ انطباعُ الناس علىٰ احترامها.

وروىٰ ابن جرير عن قتادة: إن هذه الأشياء حواجز أبقاها الله في الجاهلية بين الناس ليسهل أمر الحج[2].

ولما كان كَوْن الحج ومناسكه قواماً لأمر الناس، أدقَّ من أن تدركه كثير من الأفهام، وأوسعَ من أن تُحيط بتحديده المدارك والأوهام، عمد إلىٰ تقريره بأسلوب القرآن المعجز، فنبَّه إلىٰ أنَّ واضعَ هذا النظام وجاعلَ هذا القوام هو الذي يعلم السرَّ في السماوات والأرض، فلا تكون أحكامه وشرائعه إلا للحكمة والمصلحة العامة، ولكنكم لا تُدركون أكثر تلك الحِكَم لدقَّتها وبُعدها عن الأفهام، فيجب أن تُفوِّضوا الأمر إلىٰ العليم العلَّام، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ويعلم ما فيه المصالح والمنافع والحِكَم، ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦].

---

(١) التعبير بالغرض في أفعال الله تعالىٰ وأحكامه فيه مؤاخذة، لأن «الغرض» فيه معنىٰ البعث علىٰ الفعل وتشريع الحكم، فيكون فيه نوعُ تأثير، والله سبحانه هو المُؤثِّر في غيره، وغيره لا يؤثر فيه مطلقاً، لذلك ينبغي التعبير بالحكمة، إذ ليس فيها هذا المحذور.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٩٣).

ثم أتبع الصفة الفعلية في سَعَة علمه، بالصفة الذاتية فيه، لمزيد التقرير، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾.

ثم أردف آيات الأحكام بالترهيب والترغيب، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن دسَّىٰ نفسه بالشرك والفسوق والعصيان، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ لمن زكَّىٰ نفسه بالإيمان والتوحيد والأعمال الصالحة والتمسُّك بحدود الله، فلا يُؤاخذه بما سَلَف، ولا بما يعمل من السوء بجهالةٍ إذا بادَرَ إلىٰ التوبة والإصلاح.

وقد أبلغكم الرسول، و﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾[1]، فيجازيكم علىٰ الإحسان حُسْناً، وعلىٰ الإساءة سوءاً[2].

ولـمّا بيّن سبحانه الجزاء في فحوىٰ الكلام، وأنه مَنُوطٌ بالأعمال، رغَّب في الجيّد منها مُؤْذناً بأنّه يقابَل بأكرم الثواب، وصاغ ذلك بصورة مثلٍ عامٍّ برهانُه منه، فقال:

---

(١) الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أن هذا التعقيب علىٰ كل ما تقدم في السياق للحَمْل علىٰ ما جاء فيه صريحاً أو ضمناً. ومحصَّله: أن الرسول بلَّغكم، فهذا وما علىٰ الرسول إلا البلاغ، والله سبحانه هو المحاسب، ويعلم ما ظهر وما بطن، وسوف يُجازي علىٰ السيئات جزاءً وفاقاً، وعلىٰ الحسنات الجزاء الأوفىٰ. ثم أشار إلىٰ هذا المعنىٰ بقاعدة عامة، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. ومُحصَّلها: الفرق الكبير بين الطيب والخبيث، وإنْ قلَّ ذلك الطيب، وكان الخبيث بالغ الكثرة والمقدار، يرمز إلىٰ الفرق البعيد بين من يتمسَّك بتعاليم الله سبحانه، ومن يُعرض عنها أو يقاومها لينال حظوظ الدنيا أو شهواتها ويتَّبع هواه. فلذلك أردفها بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (المؤلف).

(٢) هذا التعبير مما قد يُتَسامَحُ فيه من باب المقابلة، لكن الأَوْلىٰ اجتنابُه، تأدُّباً مع الله تبارك وتعالىٰ، ولأن جزاءه سبحانه عَدْل، فلا يُوصَفُ بأنه سُوء مطلقاً، وإنما هو سوء علىٰ مَنْ يصيبه، ولذلك قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ولم يقل: ليجزي الذين أساؤوا بالسُّوأىٰ. والله أعلم.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ إذ إنَّ كثرة الخبيث مهما بلغت لا تزيده إلا خبثاً. والخطاب في ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ عامٌّ لكلِّ مُخَاطَب، ومثله سائغ في عرف التخاطب.

ثم فرَّع علىٰ ذلك بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ بجَوْدة الأعمال، وهذا الوصف لإثارة الانتباه، أو لأنَّ أهل البصيرة هم الذين يعتبرون.

ثم علَّل ذلك بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ للإيذان بأنَّ الفلاح موقوفٌ علىٰ التقوىٰ، لا يتأتىٰ بغيرها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف بيان الأحكام بهذا النِّظام المؤْذِن لنا بأن لا نتشدَّق في فهمها واستنباط فروعها، فتؤول إلىٰ صورة لا نتحمَّلها أو لا يريدها الله سبحانه، كما تشدَّق بنو إسرائيل في فهم أوصاف البقرة التي طَلَبها الله منهم، وضمَّن ذلك أن الرسول ﷺ قد أدَّىٰ وظيفته في البلاغ علىٰ أكمل الوجوه، ولم يترك شيئاً دون بيان حتىٰ يُسأَل عنه.

وقد جاء هذا النَّهي في سياق التَّلميح إلىٰ أنَّ بعض الأحكام لا تُدرَكُ حكمتُها ـ كما في بعض شعائر الحج ـ فجعل الكلام نهياً عن الاعتراض علىٰ الحكم إذا لم تظهر حكمته، وعن الإلحاح فيما سكتت عنه الشريعة رحمةً بنا، وخصَّ القسم الثاني في الإيضاح، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾، وإنما سكَتَ عنها رحمةً بنا. وقد قال ﷺ للأعرابي الذي سأله عن فريضة الحج: أفي كلِّ سنةٍ هي؟ قال: «ويحك، ماذا يؤمِّنك أن أقول: نعم، ولو قلت:

نعم، لوجبت»[١]، ولا يتبادرنَّ إلىٰ الذهن أنه ﷺ يقول: نعم، من نفسه، كلا! فقد جاء عنه ﷺ: «إني لا آمركم إلا بما أمرني الله به، ولا أنهاكم إلا عما نهاني الله عنه»[٢]. وإنما يعني أنهم لو سألوه عن المسكوت عنه لجاء الوحي بالجواب الإيجابي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ أي: فإنَّ اللهَ يُبْديها لكم علىٰ لسان رسوله، كما أبداها في بقرة بني إسرائيل.

والآية تُؤْذن بأنَّ الله سبحانه سكت عن بعض التكاليف التي كلَّف بها الأمم السابقة رحمةً بالمسلمين، فلم يُكلِّفهم إلا بما لا بدَّ لهم منه، ولا غنىٰ لأحد عنه. والله أعلم.

وقد جاء في الحديث: «إن الله تعالىٰ فرض فرائضَ فلا تُضيِّعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان، فلا تسألوا عنها»[٣].

وعنه ﷺ: «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك مَنْ كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافُهم علىٰ أنبيائهم»[٤].

---

(١) رواه الطحاوي (١٤٧٤) عن أبي أمامة الباهلي.

ورواه مسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتىٰ قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت: نعم، لوجبت، ولَمَا استطعتُم. ثم قال: ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتكم عن شيء فدَعُوه».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) رواه الطبراني (٢٢: ٢٢١)، والدارقطني (٤: ١٨٣)، عن أبي ثعلبة الخشني. وحسَّنه النووي في «الأربعين».

(٤) متفق عليه، رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عن أبي هريرة.

والآيةُ تدلُّ علىٰ أنَّ البيان منه تعالىٰ لا يتأخَّر عن وقت الحاجة.

قال في «المنار» ما مُلخَّصه: وثمَّ وَجْهٌ ثانٍ في معنىٰ الجملة، وهو: إن تسألوا عن تلك الأشياء في زمن نزول القرآن وعهد التَّشريع يُظهرها الله لكم. فالله تعالىٰ يُبيِّن لعباده بنصِّ الخطاب ما لا بدَّ منه لصلاح أَمْرَيْ معادِهم ومعاشِهم، وبفحوىٰ الخطاب أو الإشارة ما يفتح لهم بابَ الاجتهاد، فيُعْمَلُ بما يظهر أنه الحق والمصلحة، ويُتْرَكُ ما يَظهَرُ أنه الباطل والمفسدُ[1]. وإذا كان الأمر كذلك فالواجب أن يُتْرَكَ أمرُ التشريع إليه تعالىٰ، لأنه أعلم بمصالح العباد من أنفسهم. فلا تسألوا عن أشياء إنْ أُبْدِيَتْ لكم أحكامُها تَسُؤْكُم وتُحْرِجُكم. ومتىٰ سألتم عنها في عهد التشريع لا بد أن تجابوا وتُبيَّنَ لكم، ولكن هذا البيان قد يسدُّ في وجوهكم بابَ الاجتهاد الذي فوَّضه إليكم، فاسكتوا ما دام قد ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وسكت عن بيانها رحمةً بكم بمقتضىٰ حِلمه ومغفرته، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

وفي معنىٰ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ وَجْهٌ آخر، وهو: أنَّ الله سبحانه قد عفا عما كان منكم قبل هذا النهي من السؤال عن مثل تلك الأشياء، فلا يعاقبكم عليها لسَعَة مغفرته وحِلْمه، وذلك علىٰ نهج القرآن إذا نهىٰ عن أمر عفا عمَّا كان منه قبل النهي، فهي كقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: ٩٥]. ويكون تأنيث الضمير علىٰ هذا المعنىٰ، باعتبار الخصلة أو الفعلة أو الأسئلة. ويجوز إرادة المعنيين معاً، إذ لا مانع منهما معاً، علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثمَّ وضَّح حكمة النهي، بما كان في مثلها عن الأمم الماضية، من الإعراض بعد الإبداء لصعوبتها، فقال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ١١٢ - ١١٣).

أي: قد سار هذا السَّير وسأل هذا النوع من الأسئلة مَنْ كان قبلكم من الأمم، فلمَّا كَثُرت عليهم الأحكام وتشدَّدت، مَلُّوها وفسقوا عن أمر ربهم.

وفي «تفسير الرازي» ما مُلخصه: «وقيل: بل المعنىٰ في قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾: أنهم سألوا الآيات الكونية، كقوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها، فلما اختلف السؤالان في النوع اختلفت العبارة، فقال في المؤمنين: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ﴾، وفيمن قبلهم من الأمم: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾، ولم يقل: سألوا عنها[1]. ووجه المقارنة بينهما: أنَّ النوعين يشتركان في وصف واحد، وهو الطلب والخوض في الفضول، وعدم العمل بموجب المسؤول.

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ محوره السابق، وهو النَّهيُ عن تحريم الطيِّبات، تتميماً للبحث، علىٰ نهج القرآن في مثله. وذلك أنه لما نهىٰ سبحانه عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لنا، وعن الاعتداء وتجاوز الحد فيما شرعه الله، وكان فحوىٰ الآيات ينبئ عن أن التشريع أمر منوط به سبحانه، وأنه يكون علىٰ مقتضىٰ المصالح والحِكَم، تهكَّم علىٰ الجاهلية المشركين بما شرعوا لأنفسهم، وبكَّتهم لتحريم الطيبات علىٰ أنفسهم بقوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾، فبعد أن نهىٰ عن تحليلهم الخبائث في الخمر والميسر، نهىٰ عن تحريمهم الطيِّبات بمثل هذه الخرافات.

---

(١) «تفسير الرازي» (١٢: ٤٤٥).

وإنما قدَّم الصنف الأول وأخّر هذا الصنف؛ ليتناسب آخرُ الموضوع مع صدره، وهو النهي عن تحريم الطيبات، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك ـ والله أعلم ـ، ليذكِّرَ آخرُ الكلام بأوله، وينبِّهَ عليه، وليقرِّر بها آيةَ النهي عن التشدُّق في الأحكام والتدخُّل فيها.

والبحيرة: الناقة تنتج خمسة أبطن، فيبحرون أذنها، أي: يشقُّونها شقاً واسعاً، ويحرمونها علىٰ أنفسهم.

والسائبة: هي المنذورة لآلهتهم، يُحرِّمونها علىٰ أنفسهم أيضاً، لا يُحمل عليها ولا تُحلب إلا لضيف، ولا يُجَزُّ صوفها.

والوصيلة: الشاة التي ينذرون ذكور نتاجها لآلهتهم، فإذا ولدت توأماً ذكراً وأُنثىٰ، يعفون الذكر، لأن أخته وَصَلَتْه.

والحامي: الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن، فيقولون: حمىٰ ظهره، فلا يُحمل عليه ولا يُمنَعُ ماءً ولا مرعىٰ.

وقد جاء لهذه الصفات تفسيرات متباينة بعض التباين، وأظنها تختلف مدلولاتها وأوضاعها عند قبائل العرب، فمن ذلك ما قيل: إنَّ **البحيرة**: هي الناقة نُتِجَت[1] خمسةَ أبطن، فإن كان الخامس ذكراً نحروه، فأكله الرجال والنساء، وإن كان أنثىٰ بَحَروا أذنها، أي: شقُّوها وكانت حراماً علىٰ النساء لحمها ولبنها، فإذا ماتت حلَّت للنساء. **والسائبة**: هي البعير يُسيَّب بنذر يكون علىٰ الرجل، إن سلَّمه الله من مرض أو بلَّغه مَنزِلَه، يفعل به ذلك، فلا يُحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد. **والوصيلة** من الغنم: كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكراً ذُبِحَ فأكل منه

---

(١) يقال: نُتِجَت كذا أبطناً، فهو يتعدَّىٰ للمفعول به، وإن كان علىٰ صيغة المجهول. (المؤلف).

الرجال والنساء، وإن كانت أنثىٰ تُركت في الغنم، وإن كان توأماً ذكراً وأنثىٰ، قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبح لمكانها، وكان لحمها حراماً علىٰ النساء، وكذلك لبن الأنثىٰ، إلا أن يموت الذكر أو الأنثىٰ فيحل أكله للنساء والرجال معاً. **والحامي**: هو الفحل ينتج منه عشرة أبطن، فيُحْمَىٰ ظهرُه فلا يُركب ولا يُمنع من كلأ أو ماء.

فهذه أربعة نعوت لأربعة أنواع من محرَّمات الأنعام التي حرمتها الجاهلية علىٰ أنفسها، جهلاً وضلالاً، ولم يحرمها الله، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ في تحريمها، حيث يفترون بدَعْواهم أنها محرَّمة من الله، ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ أنهم يفترون علىٰ الله الكذب، بتحريم ما حرَّموا علىٰ أنفسهم[1].

ثم نعىٰ عليهم جمودَهم علىٰ التقليد الأعمىٰ، وتمسُّكَهم بالضلال، وصدودَهم عن الرشد، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ أي: أيتَّبعون آباءهم ولو كانوا في منتهىٰ الجهل والضلال.

قال في «المنار»: وبعد أن بيَّن الله بطلان التقليد، وهو أن يتبع المرء غيره من الناس في فهمه للدين، ورأيه فيه، بغير علم ولا حُجَّة[2]، أمر المؤمنين بصيغة الإغْراء أن يهتمُّوا بإصلاح أنفسهم، بالعلم الصحيح والعمل الصحيح، فإذا فعلوا فلا يضرُّهم مَنْ ضلَّ من الناس عن الصراط السوي بالجهل والتقليد، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ

---

(١) يقال: أول من سنَّ هذا التشريع عمرو بن لُحي الخُزاعي. ويجوز أن يكون هو أول من بدأ به، ثم تكامل بعده علىٰ هذه الصور، واختلف في القبائل. (المؤلف).

(٢) التقليد: منه المذموم المُحرَّم، كالتقليد في العقائد أو في الأحكام المخالفة للنص قطعي الثبوت قطعي الدلالة ـ كما هنا ـ، ومنه المأمور به لمن لم يبلغ درجة الاجتهاد، وذلك في الأحكام الفقهية الظنية، فقد قال سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[1]؛ إذ لا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرىٰ[2]. ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، وهذه الآية فيما بيننا وبين الكافرين، لا فيما بين المؤمنين أنفسهم، فإنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ بينهم، وإهماله إثم كبير وخلل عظيم، إذ تَرْكُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فسادٌ كبير في المجتمعات ومقراضٌ عظيم للأمم. والمنقول عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: أن هذه الآية تسلية للمؤمن إذا قام بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلم يفلح. وذلك لأن السلف متَّفقون علىٰ أنَّ المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرَّد إصلاحه لنفسه، إذا لم يهتمَّ بإصلاح غيره، ويَأمُرْ بالمعروف وينْهَ عن المنكر، إذ هما من جملة الاهتداء، بل هما عملٌ عظيم في حفظ هذا الدين ونشره في البشر أجمعين. اللهم اجعل تفسيري هذا هدايةً للناس، ودعايةً إلىٰ سبيلك.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ

---

(١) أرىٰ في وجه الربط: أنه لما ذكر في السياق هذه الألاعيب من جَهَلة البشر، التفت إلىٰ المؤمنين يحملهم علىٰ التمسُّك بما جاءهم من الأحكام، ويبيِّن لهم أنَّ تَبِعَة هؤلاء الضَّالين لا تضرُّهم شيئاً، ذكر ذلك رضاء عن المؤمنين وسخطاً علىٰ الكافرين. والله أعلم.

وهناك وجه ثالث، وهو: لما كان السياق في تأنيب المشركين وإعراضهم عن هذا الحق المبين، وكان المؤمنون يتألمون من بقاء أقربائهم علىٰ الشرك والإعراض عن القرآن، عقَّب ذلك بما يتضمَّن التهوين عليهم والتطمين. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٧: ١٧٦).

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

ثم تابع سَرْدَ الأحكام مراعياً دقَّة المسلك مع الفقرة الأخيرة ومناسبة السياق، فإنه لما أَنَّب سبحانه غير المسلمين علىٰ سيرتهم وإعراضهم عن الهدىٰ وتقليدهم الأعمىٰ لآبائهم في الضلال، وحطَّ من شأنهم لِفَرْط جهلهم وضِيقِ مداركهم مما يُبعِدُهم عن الإنسانية والأمانة والصدق وأحوال المجتمع، استدرك وبيَّن أن ذلك لا يمنع من استشهادهم علىٰ الوصيَّة في السفر إذا لم يكن أحد من المسلمين.

وقد مهَّد لذلك بما ذَكَّرنا سبحانه وتعالىٰ به من الموت والحساب في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، فأرشدنا إلىٰ الوصية قبل الموت حتىٰ يبيِّن الشخص ما له وما عليه، وإلىٰ العناية بالإشهاد عليها ولو من هؤلاء الضَّالِّين، إذا لم يكن أحد من المسلمين، وذلك للاهتمام بالوصيَّة وأن لا تُضَيَّعَ في السفر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ أي: من المسلمين. أما في السفر فيجوز أن يكونا من غير المسلمين، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: إن سافرتم، ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ولم يكن معكم من المسلمين، فاستَشهِدوا من غيرهم.

ثم بيَّن سبحانه كيفيَّة أداء غير المسلمين للشهادة، فقال: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ليشهدَ جماعةُ المُصَلِّين هذا المَحْضَر وأداء الشهادة. وذلك لأنَّ مسجد النبي ﷺ كما كان مجلسَ إرشاد ووعظ، كان مجلسَ قضاء أيضاً. وكان هذا المجلس يلتئم بعد الصلوات.

وقال الأكثرون: المراد صلاة العصر؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حلّف عَدِيّاً وتميماً في هذا الوقت. والحكمة في ذلك: حضور الناس بكثرة في هذا الوقت، لأنه وقت فراغ من الأشغال، فكان ذلك تتميماً للحكمة في هذه الشهادة، أو هو الوقت الذي يقعد فيه الحكام للفصل في المظالم والدعاوىٰ.

ثم ذكر كيفية شهادتهما، وقال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ﴾، وذلك ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في صدقهما. أما الأمين فيصدَّق بلا يمين. وجاءت هذه الجملة معترضة بين القسم والمقسَم عليه، وهو ﴿لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا﴾ أي: لا نحلف كاذبَين متحيِّزَين ممالَئين لأحد، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ منا، يبالغون في التنزُّه عن الحلف الكاذب، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: التي أُمِرْنا بإقامتها. وإضافةُ الشهادة إلىٰ الله لتعظيم شأنها، والترهيب من التلاعب بها. والجملة معطوفة علىٰ جملة: ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ داخلة معها في المُقْسَم عليه.

ثم يؤكِّدان ذلك بقولهما: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: إن كتمناها.

وبهذا الحلف يثبت الحق بهذه الشهادة، وتبرأ ذمتُهما إن كانا قد ائتُمِنا علىٰ بضائع الوصية، ﴿فَإِنْ عُثِرَ﴾ بعد هذا الحلف ﴿عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ أي: بالكذب أو الكتمان في الشهادة، أو بالخيانة وكتمان شيء من التركة في حالة ائتمانهما عليها، كما ظهر في الواقعة التي كانت سبب النزول، فالواجب حينئذ أن يُرَدَّ اليمين إلىٰ الورثة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ في الحبس والتحليف علىٰ الوجه الذي ذكر ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ أي: جُني عليهم أو حُكِمَ عليهم. وهذا إذا قُرئ الفعل بصيغة المجهول، أما إذا قُرئ بصيغة المعلوم[1]، فيكون معناه: من الذين وقع عليهم الحقُّ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] أي: وقع التقطُّع بينكم.

---

(١) «السبعة في القراءات» ص٢٤٨.

وبعد أن وُصِفَ الآخران بكونهما من الذين وقع الحقُّ عليهم، فتعرَّفا أو تخصَّصا بالموصول، أبدَلَهما أو وَصَفَهُما بقوله: ﴿ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ بالميت والأقربان إليه. فقد سوَّغ وصف النكرة بالمعرفة بيانُها بـ﴿مِن﴾ الداخلة علىٰ الموصول.

ثم ذكر كيفيَّة شهادتهما بقوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ﴾ أي: في هذه الشهادة أو في هذا الطلب، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ يبالغون في التنزُّه عن الحلف الكاذب، أو الطلب الكاذب.

ثم بيَّن تعالىٰ حكمة شرعه لهذه الشهادة وهذه الأيمان علىٰ هذه الصورة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقربُ ﴿أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: إن هذه الصورة التي ذُكِرَت لأداء الشهادة ورد اليمين إلىٰ الورثة، إن عُثِرَ علىٰ شيء في الشهادة الأولىٰ، هي التي تضمن صحة أداء مُتحمِّلي الشهادة الأولىٰ من غيركم، لأنها تحمل الشاهدَين أن يؤدِّيا شهادتهما علىٰ وجه الحق، خشية أن تُردَّ اليمين إلىٰ الورثة بعد حلفهما فيفتضحا. فمن لم يمنعه خوف الله لضعف دينه أو فقده، يمنعه خوفُ الفضيحة علىٰ ملأ الأشهاد. ويجوز أن تُضَمَّنَ كلمةُ ﴿تُرَدَّ﴾ معنىٰ: تُطلب.

وتُؤْذن الآية بأن الشاهد الذي يُرتاب في شهادته يجب علىٰ الحاكم أن يعالجه بما يستظهر به الحق، ولو بالمحاورة في الكلام، حتىٰ يستنبط منه الصدق علىٰ أقرب الوجوه للواقع. والله أعلم.

ثم ختم الكلام بما يبعث علىٰ التزام الحقِّ في الأحكام، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾ ما تؤمرون به، ثم ندَّد بالمخالفين وبيَّن الحاجة لهذه الصورة في شهادة الضالِّين عن الدين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: الذين أفسدوا طبيعتهم فخرجوا عن نور الفطرة وجلاء البصيرة إلىٰ ظلمة الجهالة وفساد الطبع والإعراض عن الدين، فإنهم لا يرون الحقَّ ولا ينكرون الباطلَ لفساد طبيعتهم.

أما القصةُ التي كانت سَبَبَ نزول هذه الآية ـ كما جاء في الصحاح ـ فهي كما يلي: أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الداري وعَدِيٌّ بن بداء رجلَيْن نصرانيَّيْن يتَّجران إلىٰ مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النبيُّ ﷺ حَوَّلا متجرهما إلىٰ المدينة. فخرج بديل بن أبي مارية مولىٰ عمرو بن العاص تاجراً حتىٰ قدم المدينة، فخرجوا جميعاً تجاراً إلىٰ الشام، حتىٰ إذا كانوا ببعض الطريق، اشتكىٰ بديل، فكتب وصيَّتَه بيده، ثم دسَّها في متاعه، وأوصىٰ إليهما، فلما مات فتحا مَتاعَه، فأخذا منه شيئاً، ثم حَجَراه كما كان، وقدما المدينة علىٰ أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهلُه متاعَه، فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضناه له ودفع إلينا. فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعا إلىٰ النبي ﷺ، فنزلت هذه الآية إلىٰ قوله: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ﴾، فأمر النبيُّ ﷺ أن يستحلفوهما في دُبر صلاة العصر ـ مُجْتَمَع الناسِ ـ بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا له غير هذا ولا كتمنا. فمَكثا ما شاء الله أن يمكثا، ثم ظهر معهما علىٰ إناء من فضة منقوش مُموَّه بذهب، فقال أهله: هذا من متاعه. قالا: نعم، ولكننا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حَلَفنا، فكرهنا أن نكذب نفوسنا. فترافعوا إلىٰ النبي ﷺ فنزلت الآية الأخرىٰ: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾، فأمر النبي ﷺ رجلَيْن من أهل الميت أن يحلفا علىٰ ما كتما وغيَّبا ويستحقانه، ثم إن تميماً الداري أسلم بعد هذا وبايع النبيَّ ﷺ، وكان يقول: صدق الله ورسوله، أنا أخذت الإناء[1].

وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ قال: برئ الناس منها غيري وغير عَدِيِّ بن

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ١٨٧ - ١٨٨).

بداء، وكانا نصرانيَّيْن يختلفان إلىٰ الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولىٰ لبني سهم ـ يقال له: بديل بن أبي مريم ـ بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو أعظم تجارته، فمرض وأوصىٰ إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك إلىٰ أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمنا أنا وعدي بن بداء، فلمَّا قدمنا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا وفقدوا الجام، فسألونا عنه. فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ، تأثَّمت من ذلك، فأتيتُ أهله فأخبرتهم الخبر، وأدَّيتُ إليهم خمسمئة درهم. وأخبرتهم أنَّ عند صاحبي مثلها، فأتوا به رسول الله ﷺ، فسألهم البيِّنة فلم يجدوا. فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم علىٰ أهل دينه، فحلف فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾، فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمئة من عدي بن بداء[1].

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾
إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ
وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٥٩) وقال: هذا حديث غريب وليس إسناده بصحيح، والطبري في «تفسيره» (١١/ ١٨٦ - ١٨٧)، عن تميم الداري.

وقال ابن كثير بعد أن ذكر الحديث في «تفسيره» (٣: ٢١٩): وقد ذكر هذه القصّة مرسلةً غيرُ واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير. وكذا ذكرها مرسلة: مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل علىٰ اشتهارها في السلف وصحتها.

وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ثم عاد بالكلام إلىٰ مُحاجَّة أهل الكتاب، بأن ما كان في تاريخ نبوَّة عيسىٰ، إن هو إلا معجزات أيَّده الله بها علىٰ نسق معجزات الأنبياء، وبما سيكون يوم القيامة من إنكاره وتفصيله وتبرئته من اعتقادهم الألوهية فيه، علىٰ نهج القرآن في العودة المرَّة بعد المرَّة إلىٰ ما يريد الإشباع بالكلام عنه، (كما جاء في الفقرة (و) من المادة الأولىٰ من المقدمة الثانية). وافتتحه بالتذكير بيوم الجمع والحساب، وسؤال الرسل عن أممهم، ليكون وجه الاتصال في الآية ما فيها من الحمل والحثِّ علىٰ التمسُّك بالأحكام المتقدمة، والرد والتنديد بالكفار الذين جرت المناقشة معهم في السياق في أمر شركهم، وفي أمر عيسىٰ عليه السلام، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾، والمراد من هذا السؤال: توبيخ أممهم، وإقامة الحُجَّة علىٰ الكافرين. ولذلك كان الجواب: ﴿قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾، وهذا ليس بنفيٍ لعلمهم علىٰ الإطلاق، وإنما هو نفيٌ لعلم الإحاطة الذي هو خاصٌّ به تعالىٰ؛ لأنهم لا يعلمون بواطنَهم ولا حالَ مَنْ لم يروه من أممهم.

ويجوز أن يكون هذا الجواب المُقْتَضَب ناشئاً عن هَوْل الموقف الذي أنساهم كل شيء، وأذهلهم عن الذكرىٰ ـ والله أعلم ـ فأحالوا العلم إلىٰ الله. اللهم كن لنا في ذلك الموقف الرهيب، ولا تكن علينا يا أرحم الراحمين.

ويجوز أن يكون المراد: لا علم لنا بعد علمك. والله أعلم.

وبعد أن ذكر سؤالَ الرسلِ وجوابَهم بالإجمال، بيَّن سؤالَ وجوابَ واحدٍ منهم بالتفصيل؛ ليكون نموذجاً لتفصيل أحوال الباقين، وخصَّ عيسىٰ عليه السلام ليكون

الكلام امتداداً لما سبق، وتمكيناً لإقامة الحُجَّة علىٰ مَن يدَّعون اتِّباعه في دينه، وهم الذين حاجَجَتْهُم هذه السورة فيما يقولون في رسولهم أَوْسَعَ حِجَاجٍ، وأقامت عليهم البرهان إثر البرهان، وقد أعاد عليهم الكرَّة في الإلزام بالمعجزات التي أنعم بها علىٰ عيسىٰ عليه السلام، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو مَلَكُ الوحي الذي يُؤيِّد اللهُ به الرسلَ بالتعليم الإلهي والتثبيت، أي: جعلتك رسولاً مؤيداً بالوحي الإلهي.

ثم ذكر نعمة أخرىٰ، فقال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وهذا العطف للمقارنة والمساواة، فقد قَرَن الحالين لبيان أنهما علىٰ نَسَق واحد، مقترنان برزانة الرأي والتدبير. فكلامُه في المهد مِثلُ كلامه وهو كهل. وهذه معجزة أيَّده الله بها، أو هو إرهاص، وهو ما يصدر عن الرسل من الغرائب قبل الرسالة.

ثم ذكر نعمة أخرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾، فذكرهما أولاً بالجنس والوصف، ثم خصَّهما بالذكر، إظهاراً لشرفهما.

ثم تابع الكلام عن المعجزات بأسلوب الامتنان، فقال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أي: تصنع وتسوِّي ﴿مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أي: بتسهيلي وتيسيري، ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أي: بتكويني وإيجادي، بأن يظهر ذلك علىٰ يده عليه السلام، ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو من وُلِدَ أعمىٰ، ولكن أراد به الأعمىٰ مطلقاً، من ذكر الخاصِّ وإرادة العامّ، مبالغةً في العَمىٰ، ﴿وَ﴾ تُبرِئُ ﴿الْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾. وفي ظاهر قوله: ﴿بِإِذْنِى﴾، إشارةٌ إلىٰ أنَّ المسيح لم يُعْطَ هذه القوة دائماً، بل كانت تقع إذا أذن الله له بذلك عند الحاجة إليها، تأييداً لنبوَّته، والله أعلم.

ثم أعاد كلمة ﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ للاهتمام بهذه المعجزة،

وكذلك قوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وفي هذا زيادةُ تعريض وتقريع للكفار الذين حكىٰ عنهم بقوله: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ أي: ظاهر، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسىٰ، والمعنىٰ: فكذَّبوك مع ظهور معجزاتك، وأرادوا قَتْلَكَ وصَلْبَك، وكَفَفْتُهم عنك.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم الذين يُخْلصون للرجل سراً وجهراً، فألهمتُهم ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: واذكر نعمتي عليك حين ألهمتُ الحواريين المحافظين لسلامة طباعهم أن يؤمنوا بك، وقد كذَّبك جمهور بني إسرائيل، فجعلتهم أنصاراً لك، يُؤيِّدون حُجَّتك، وينشرون دعوتك.

ثم ذكر ما جرىٰ بينه وبينهم لبيان نعمةٍ معجزة أخرىٰ ظهرت من جرَّاء ذلك، فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1]، قال العلماء: إنَّ سؤالهم عن الاستطاعة بحسب الحكمة الإلهية لا

---

(١) الحواريُّون لعيسىٰ كالأنصار لمحمد عليهما السلام، وعلىٰ اعتبار أنَّ هذه الآيات تدل علىٰ شكهم، لا تعارض الآيات التي جاءت في حقِّهم، ودلَّت علىٰ إيمانهم كاملاً خالصاً، إذ من المعلوم =

بحسب القدرة، أي: هل ينافي ذلك حكمة ربك؟ وإن هذا السؤال لأجل اطمئنان القلب بإيمان العيان لا للشكِّ في قدرة الله علىٰ ذلك، فهو علىٰ حدِّ سؤال إبراهيم عليه السلام رؤيةَ كيفيَّة إحياء الموتىٰ.

وذهب بعضهم إلىٰ أن هذا من المجاز المرسل، فقد أطلق الاستطاعة علىٰ الفعل لأنها لازمة له، أي: هل يفعل ذلك، ولا حكمة مانعة منه.

فأجابهم عيسىٰ و﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾، ولا تقترحوا مِثلَ ما اقترح أسلافكم علىٰ موسىٰ، لئلا تكونَ فتنة لكم. فإنَّ من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يطلب من ربِّه أن يعيش بخوارق العادات، وعلىٰ غير السنن التي جَرَت عليها معايش الناس. أو المعنىٰ: اتقوا الله وقوموا بواجب الإيمان من العمل والتوكل عسىٰ أن يعطيكم ذلك.

فبيَّنوا ما دعاهم إلىٰ هذا السؤال، وأنه ليس إزاحةً لشبهة، بل طلباً لمنفعة، حيث

= أن الدعوات تبتدئ بمرحلة من التردُّد في نفوس المَدْعُوِّين، تختلف باختلاف استعداد الأفراد لإدراك الحق وقَبوله، فمنهم مَنْ يبادر إلىٰ الإيمان، ومنهم من يمتد به التردُّد حتىٰ يرىٰ ما يُطَمْئِنُه. وما كان تأخُّر مثل عُمَرَ وخالدٍ بالذي يبعدهم عن مرتبة النُّصرة للحق والصدق في الإيمان بمحمد ﷺ ودعوته.

وعلىٰ قراءة: (هل تستطيع ربك) أي: سؤالَه، لا يبقىٰ هذا الإشكال الصُّوري أيضاً. ويجوز حَمْل قراءة الجمهور علىٰ معنىٰ هذه القراءة، أي: أَمِنَ الممكن أن يُطلب منه هذا الطلب. ومن العلماء من يرىٰ أن المائدة المسؤولة لم تُنَزَّل؛ لأنه لما قيل لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أشفقوا من ذلك واستعفوا من طلبهم واستغفروا ربهم، وقالوا: لا نريدها. وممن قال بهذا الرأي بعض مُفسِّري السلف، كالحسن وقتادة ومجاهد. والجمهور يقولون: إن قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ وعدٌ، ووعدُ الله لا يتخلَّف. ويقول مخالفوهم: إنه وعد مقيَّد بما رُتِّب عليه من نزول العذاب، فلما أشفقوا وطلبوا العفو لم ينفذ. والله أعلم. (المؤلف).

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ أكلَ تبرُّك، أو لأننا في حاجة إلىٰ الطعام، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بما نُؤمِنُ به من قَبولنا عند الله، بضمِّ علم المشاهدة إلىٰ علم السمع منك، وعلم النظر والاستدلال، ﴿وَنَعْلَمَ﴾ بالمشاهدة ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ ما وعدتَنا من ثمرات الإيمان، أو المعنىٰ: لتكون معجزة لك، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ عند بني إسرائيل، فيؤمن المستعد للإيمان، ويزداد الذين آمنوا إيماناً.

ويجوز أن يكون ضمير ﴿صَدَقْتَنَا﴾ راجعاً للأمة بما فيها المتكلّمون، وهم يريدون الأمة بمجموعها لا بجميعها، ومثله من خصائص اللغة، فلا يُعارض إيمان الحواريين الطالبين لها.

ويجوز أن تكون الجملة عبارةً مبالغاً فيها عن العلم الاطمئناني، لا العلم الابتدائي، علىٰ حدِّ قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فلما رأىٰ عيسىٰ عليه السلام أنَّ لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأنهم لا يُقلِعون عنه، أزْمَع علىٰ استدعائها، فدَعا الله كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ علىٰ صدق نبوتي، ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

فاقترن دعاؤه عليه السلام بالإجابة، و﴿قَالَ اللَّهُ﴾ تعالىٰ: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ وأيُّ عذر لمن يرىٰ الآيات من رسوله، ثم يقترح آية أخرىٰ مبيَّنة علىٰ وجه مخصوص، فيُعطَىٰ ما طلب، ثم ينكص علىٰ عقبيه، ويكون من الكافرين.

وقد جَرَت سُنَّة الله تعالىٰ في مُقْتَرِحي الآيات إذا كفروا بعدها، أن يستأصلهم بالعذاب.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

ثم عاد بالكلام عما يجري يوم القيامة من المحاورة مع الرسل، لتوبيخ الكافرين، وإقامة الحجَّة عليهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يريد سبحانه بهذا السؤال توبيخَ الكَفَرة وتبكيتهم، بما أجاب به عيسىٰ عليه السلام، حيث ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي: ليس ذلك من شأني، ولا مما يصحُّ وقوعُه مني. وهذا اللونُ من النَّفي أبلَغُ في البراءة من نَفْيِ القول، لأنَّ نَفْيَ الشأن يستلزم نَفْيَ الفعل بالدليل.

ثم أكَّد هذا النفي بحُجَّة قاطعة، فقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ وهذا إقرارٌ بالعبودية دليلُه منه، وقد أيَّده بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾، وبعد التنصُّل وإقامة البرهان علىٰ براءته، بيَّن حقيقة ما قاله لقومه، وضمَّنه ما يؤكِّد براءته مما أسندوه إليه، واعترافه بأنه عبدٌ مثلهم، يمتاز عليهم بالرسالة فقط، فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

أقول: وإن الدعوة لله وحده واضحة في الأناجيل التي بين أيديهم لو كانوا يفقهون. فقوله فيها: «أبي الذي في السماوات»، مثل قوله فيها للحواريين: «أبيكم الذي

في السماوات»، فهو في كليهما تعبير مجازيٌّ ظاهر لا خفاء فيه. وكان يجري هذا الكلام في أنبياء بني إسرائيل، ولكن مجامع القسطنطينية حرَّفته بالتأويل في حقِّ عيسىٰ عليه السلام بتأثير عقيدة الرومان الشركية التثليثية، عندما دخلوا في النصرانية وشكَّلوا هذه المؤتمرات، وكانوا يعتقدون بالإله وزوجته وولده، فجعلوا عقيدتهم بالأب والابن والروح القدس، جمعاً بين عقيدتهم الشركية وبين النصرانية.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنتُ أراقبهم فيما يقولون وفيما يفعلون، فأُقرُّ الحق وأنكر الباطل، مدَّة وجودي فيهم، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وانتهت رسالتي فيهم ومراقبتي لهم، فلا عِلمَ لي عنهم بعد ذلك، ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ وهذا تذييل مُقرِّرٌ لما قبله، ومُؤْذِنٌ بأنه شهيدٌ عليهم وعليه، حين كان بينهم أيضاً. وقد علَّقنا علىٰ أمر الوفاة والنزول في آخر الزمان عند مثل هذه الآية من سورة آل عمران[1].

وفي الآية تصريحٌ بأنه مُتوفّىٰ منذ فارق قومه[2]، وفي الكلام إيماءٌ إلىٰ أنَّ عيسىٰ عليه السلام لم يعرف شيئاً من ذلك إلا بعد أن عرَّفه الله سبحانه بهذا السؤال.

ثم قَرَن بالشهادة نتيجتَها، فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي: إن تُعذِّب مَنْ يستحقُّ العذاب من المشركين منهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ و[أنتَ] أحقُّ بأمرهم من نفسهم، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: وإن تَغْفِر لمن يستحق المغفرة ممن لم يضلَّ هذا الضلالَ منهم ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ

---

(١) يعني: الآية ٥٥ منها.

(٢) نعم، الآية مُصرِّحة بالتوفي، لكن الخلاف في معناه، فقال بعض العلماء: التوفي هنا بقبض الروح، وإليه يميل المؤلف، وقال الجمهور: التوفي: أخذُ الشيء وافياً، والموتُ نوعٌ منه، فيكون المعنىٰ هنا: فلما استوفيتَ لي مدتي بينهم وأخذتَني إليك بالرفع إلىٰ السماء.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ أي: القادر القويُّ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة. والضمير الراجع إلىٰ جملتهم، هو ضمير الجنس، يَصدُقُ ببعض الأفراد.

وخلاصة المعنىٰ: إنك إن تُعَذِّبْ فإنما تُعَذِّبُ مَنْ يستحق التعذيب، وإن تَغْفِرْ فإنما تَغْفِرُ لمن هو أهلٌ لذلك؛ إذ قد سبقت المشيئة الأزليَّة أن يعذِّب من أفسد فطرته ودسَّاها، وهو الكافر العاصي. وأن يرحم مَنْ حافظ علىٰ سلامتها وزكَّاها، وهو المؤمن الطائع، وجاءت بذلك الأنبياء والكتب المنزلة. والله أعلم.

ويجوز أن يكون الكلام مُجَرَّدَ بيان عن كمال سلطانه تعالىٰ، لأنَّ الشرك لا يُغفَرُ لأصحابه. فهو كما تقول: الملك هو الذي يثيب ويعاقب، وتريد أنه يُثيب ويعاقب بالاستحقاق، وأنه هو صاحب السلطان لا يعارضه أحد في ذلك.

وبعد انتهاء كلام عيسىٰ عليه السلام المحكي عنه يومَ يَجْمَعُ اللهُ الرسل، ووصول القضية إلىٰ حكم الله، ذَكَر مصير المؤمنين منهم ومن غيرهم، فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فجزاهم أحسن الجزاء، ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ لأنه جزاءٌ فوق ما كانوا يظنون ويؤمِّلون، جزاهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر علىٰ قلب بشر.

ثم نوَّه سبحانه بشأن هذه السعادة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾، وأيُّ فوز أعظم من أن يُعطَىٰ الإنسان من النعيم حتىٰ يرضىٰ؟! اللهمَّ لا تحرمنا من هذه السعادة، يا أرحم الراحمين.

ثم ختم سبحانه الكلام بدليل قدرته علىٰ إنجاز ما وَعَد، وعلىٰ استحقاقه وحده أن يُؤَلَّه ويُعبَد، فقال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾، فهو المستحقُّ للألوهيَّة وحده دون سواه، وهو القادر علىٰ تنفيذ ما ذكر من إجراءات الله في وَعدِهِ ووعيده، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير.



مكيَّة إلا آية: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [١١١]، وهي مئة وخمس وستون آية، وقد نزلت دفعة واحدة، فدعا النبي ﷺ الكُتَّابَ فكتبوها من ليلتهم.

وينحصر الغرض منها في إثبات التوحيد والنبوة، ودَحْض مذاهب الـمُبطِلين والملحدين، وإبطال ما ابتدعوه من تحليل الحرام وتحريم الحلال من الطيِّبات، تقرُّباً لأصنامهم.

وهي من بين السور المكيَّة ذات شأن كبير في تركيز الدعوة؛ تقرِّر حقائقَها، وتفنِّد شُبَهَ المعارِضين، وتردُّهم علىٰ أعقابهم خائبين. فهي في ذلك ذات امتياز خاص، كما قاله جمهور العلماء، وقد كثُر فيها الأسلوب التَّلقيني المصدَّر بقوله: ﴿قُلْ﴾، والمتضمِّن لقوَّة الحُجَّة والبرهان.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ بإيجاد النظام الشمسي، من أنظمة هذا الكون، ذلك النِّظام الذي له الأثر العظيم في حياة الإنسان ومعاشه، ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ أي: يَعدِلون به غيرَه ويُسَوُّون به مَنْ لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون. فما أفظع هذه الضلالة! وما أشنع هذه الجهالة!

ثم تابع الكلام علىٰ ما يستحقُّ به الحمد والتوحيد، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ علىٰ تَبَايُنٍ ما بينكم وبين الطين من الشؤون والخصائص والطبائع. فما أعظم هذه القدرة! وما أقدرَها علىٰ إعادتكم بعد الموت إلىٰ حياة أخرىٰ! لا إله إلا هو. وفي هذا مجازُ نسبةِ ما للأصل إلىٰ الفرع من مجازات القرآن، (كما جاء في المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة). ويجوز أن يبقىٰ الكلام علىٰ الحقيقة، لأنَّ عناصر الأصل تبقىٰ في

الفرع، ويجوز أن يكون المراد كونَ المنيِّ متولِّداً من الأغذية بما فيها النبات، وهو مُتولِّد من الأرض ومكوَّن منها. والله أعلم.

﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ وقدَّر ﴿أَجَلًا﴾ لموت كلِّ فرد منكم، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ تعالىٰ لإعادتكم وبعثكم بعد موت الجميع، وانقضاء عمر الدنيا، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ وتشكُّون في بعثكم هذا، وترونه غير ممكن، ولا تلتفتون إلىٰ ما في خلقكم من طين وفي حياتكم الأولىٰ وموتكم من قدرة الله وصنعه العظيمين العجيبين، لتعلموا أنَّ مَنْ فعل هذا يفعل ذاك، بل هو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ.

وبعد أن قرَّر الحَشْر، قرَّر توحيد الله وسلطانه المُطْلَق، وألمع إلىٰ ما سيجريه من الجزاء، فقال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُعترَفٌ به وبألوهيَّته فيهما، وبعظيم صنعه بهما، وقوَّة سلطانه عليهما، و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ أي: ما تعملون من خير أو شر، فيجازيكم عليه الجزاء الوفاق والأوفىٰ.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ هؤلاء الكافرين لم يلتفتوا إلىٰ تلك الآيات الكونيَّة والبراهين القطعيَّة الدالَّة علىٰ وحدانيَّته وقدرته علىٰ البعث، ونعىٰ عليهم إعراضَهم عنها، وخِذلانَهم في ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ مُنزَّلة ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ تُنبِّئهم عن آياته الكونيَّة في الآفاق وفي أنفسهم، وتُعلِّمُهم كيف يسلكون ويسيرون في دنياهم، لِيَحْسُنَ مصيرُهم فيها وفي أخراهم، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤﴾ غير متدبِّرين لما تدلُّ عليه من العلم اليقين، والصراط المستقيم.

ثم أنَّبهم علىٰ ذلك وتوعَّدهم فقال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وهو هذا القرآن وما بيَّنه لهم من أحوال الآخرة، نعيمِها وشقائِها، وارتباط ذلك بأعمالهم في الدنيا وإيمانهم بالله، ولكنهم كذَّبوه واستهزؤوا بما وَعَدهم وتوعَّدهم به، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥﴾.

وهذا يجوز أن يُراد به عذاب الآخرة، ويكون «مجيء الأنباء» مستعاراً لمشاهدة القيامة وما بعدها، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

ويجوز أن يُراد ما توعَّدهم به من عذاب الدنيا أيضاً، كخذلانهم يوم بدر، ولذلك قفَّىٰ عليه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾، والقرن من الناس: القرن المتعاصرون في زمن واحد. ولزيادة التَّهديد بيَّنَ حالَ هؤلاء المُهْلَكين، مع تفوُّقهم عليهم، بقوله: ﴿مَكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ كالمصريين القدماء، يصفهم بالقوَّة والقهر للأمم، والقدرة علىٰ الصناعة، واستثمار كُنوز الأرض وخيراتها، ويصف بلادهم بكثرة الريِّ والخِصْب، ولكنَّهم قابلوا نِعَم الله بالكفر به مثل هؤلاء، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ رغم قوَّتهم وقدرتهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦﴾، وهذا بيانٌ لكون ما توعَّدهم به هو سُنَّة الله في مُكَذِّبي الأنبياء، وفاسدي الأخلاق والنفوس. فإذا نظرنا إلىٰ الأمة التي تعقب الحروب والويلات، نراها تختلف عن سلفها في تحسين أخلاقها، وحفظ الحقوق والمساواة فيما بينها، وقلة الانغماس في الشهوات وما ينشأ عنها من المفاسد، وتنتبه للحقِّ ومناصرته وللأوضاع الاجتماعية الصحيحة في الجملة.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾.

ولـمّا كان ﷺ يعجب من كفر قومه به وبما نزل عليه مع وضوح برهانه وظهور إعجازه، ويضيق صَدْرُه لذلك، ويبلغ منه الحزن والأسف كلَّ مبلغ، بيَّن له سبحانه أسباب ذلك الكفر ومصادره من طباع البشر وأخلاقهم إذا فسدت بمفاسد التربية والتقليد، ليعلم أنَّ الحجة ـ مهما كانت ناهضة ـ فإنها لا تُجْدي نفعاً إلا عند مَنْ كان محافظاً علىٰ سلامة فطرته واستعداده لقبول الحق، فلا تَعرِضُ له موانعُ الكبر والعناد، خلافاً لمثل هؤلاء الذين بيَّنَ شدَّة عنادهم، وأن ما يَدَّعونه من الشبه إنما هو تعنُّت وشقاق، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ أنْ آمِنوا بمحمّد، كما اقترحوا ذلك، ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ورأوه بأعينهم نازلاً عليهم، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ عناداً وتعنُّتاً: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ قد خُيِّل لنا، وما ثَمَّ كتابٌ نزل، ولا قِرطاس لُـمِس. كما قال تعالىٰ في هذا المعنىٰ في سورة الحِجْر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]، ولا علاج للمكابرة والعناد. وهذا حال الإنسان إذا فَسَدَت طبيعته بتَدْسِيَتِه لنفسه، فيفسد عقلَه ونَظَرَه من أثر ذلك.

ثم ذكر لهم اقتراحاً آخر من هذا النوع، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾، اقترح هذا أهل مكة، اقترحوا أن يُنزَّل علىٰ الرسول مَلَك من السماء يكون معه نذيراً مؤيِّداً له أمامهم، كما في سورة الفرقان[1]، كما حكىٰ الله سبحانه عن غيرهم أيضاً مِثلَ هذا الاقتراح في غير هذه السورة.

وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم من وجهين: فبيَّن أولاً أنَّ هذه الاقتراح يُفْضي بهم إلىٰ تعجيل العذاب لهم إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ فلم يؤمنوا ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ

(١) في الآية ٧ منها.

﴿لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾، بل يُعجَّلُ لهم بالعذاب، حسب سُنَّة الله في مُقْتَرحي الآيات إذا لم يُؤمنوا بعد أن يُعْطَوها، كما مَضَتْ بذلك سُنَّة الله في الأوَّلين.

وبيَّن ثانياً أنَّ هذا الاقتراح لا يُزيل التباسَهُم الذي لبَسوه علىٰ أنفسهم، فقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: لجَعلناه مُتَمثِّلاً في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه، إذ لا يمكن للبشر أن يُدرك الملك علىٰ صورته الأصليَّة إلا الأنبياء أحياناً، وحينئذ يعتقدون أنه بشر مثلهم، لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية، فيقعون في نفس اللبس والاشتباه الذي يلبسونه علىٰ أنفسهم، باستنكار كَوْنِ الرسول بشراً. وقد عبَّر عن هذا باللبْس عليهم تجوُّزاً، وأسند اللبْس عليهم إلىٰ الله، بحَسَب سُنَنه الكونيَّة في طبيعة الإنسان وطبيعة الملك.

وبعد هذا الردِّ توعَّدهم بأن ينالهم ما نال أمثالهم من مُعَاندي الرسل قبلهم، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: من عذاب الاستئصال الذي كانوا يتوعَّدونهم به ويسخرون منهم عليه، و(حاق) بمعنىٰ: أحاط ونزل.

ولما كان ذلك ممّا يرتاب فيه مشركو مكة الذين يجهلون التاريخ، أمر الله سبحانه رسوله بأن يدلّهم علىٰ الطريق الذي يُوصلهم إلىٰ علم ذلك بأنفسهم، فقال: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ديار عاد وثمود وأشباههم، ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ للرسل حيث تشاهدون من آثارهم وتسمعون من أخبارهم أنهم فَنُوا وأصبحت ديارُهم بلاقِعَ[1] بعد أن عَمَروها أكثر مما عمَرتم دياركم، لأنهم أعلم منكم بعلوم العمران، وأقدرُ منكم علىٰ ذلك بكثير. فالكلام علىٰ التَّهديد والاعتبار.

---

(١) البلاقعُ: التي لا شيء فيها. «لسان العرب» (بلقع).

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

وبعد أن بيَّن من عِنادهم وضلالهم المقرون بالردِّ عليهم والتقريع لهم، ما شاء أن يُبيِّن، وتوعَّدهم بما جرىٰ علىٰ المكذِّبين من أمثالهم، أمر نبيَّه ﷺ أن يُلقي عليهم برهان التوحيد، مَسْبوكاً علىٰ إلزامهم بما لا يمكنهم إنكاره، فقال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

ولما كان جواب هذا السؤال بديهياً لا يحتمل الإنكار ولا ينكرونه، أمره بأن يجيب هو بالجواب، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ لا خلاف بيني وبينكم في ذلك، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئاً إلىٰ غيره.

وإتيانُ السائل المجادل بالجواب، يَحْسُن إذا كان ما يأتي به هو عَيْنُ ما يعتقده المسؤول وما يجيب به إن أجاب، وإنما يسبقه إليه ليبني عليه شيئاً مِن لوازمه؛ مما يجهله المسؤول، أو يغفل عنه، أو ينكره لجهله أو غفلته عن كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده.

ثم أضاف إلىٰ إثباتِ التوحيد إثباتَ الحشر، علىٰ أسلوب القرآن في السبك والجمع بينهما، فقال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ [1] لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ذلك اليوم الذي ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

---

(١) يريد ـ والله أعلم ـ أنه خلق الإنسان ليكون سعيداً في الدارين، وجهَّزه بطبيعة صالحة لذلك شاعرة به، وأرسل له تعاليم تُعينه في بُغْيته، ولكن أكثرهم أهملها أو عارضها، فانغمس في الشقاء. (المؤلف).

قال في «المنار» ما ملخَّصه: والمعنىٰ: أنَّ الله تعالىٰ الذي تُقِرُّون معي بأنَّ له ما في السماوات وما في الأرض، قد أَوْجَبَ علىٰ ذاته العليَّة الرحمةَ بخَلْقه، كما يُعلَمُ ذلك من إفاضة نِعَمِهِ عليهم ظاهرةً وباطنة. ومن مقتضىٰ هذه الرحمة: أن يجمعَكم إلىٰ يوم القيامة الذي لا رَيْب فيه، أي: ليس من شأنه أن يرتاب فيه مَنْ تَدَبَّرَ دلائلَ رحمة الله وحكمته وقدرته.

فإن البيان عن هذا الجمع لأجل الحساب والجزاء رحمةٌ بالمكلَّفين تحملهم علىٰ تهذيب النفس، وتنـزعهم عن الفوْضىٰ واستباحة الظلم، فيكون مجتمعهم سعيداً، وتُؤهِّلهم لنعيم الآخرة العظيم المقيم. أي: إنَّ من أصول دينه القويم ـ الذي هو مَظْهَر رحمته العليا الموافق لفطرته التي فَطَرَ الناس عليها ـ أن لأعمال البشر جزاءً فطرياً هو أثر لازم للعمل بحسب سنَّته تعالىٰ في تأثير الأعمال النفسية والبدنية في إصلاح الأنفس أو إفسادها[1]. ويُفْضي الأول: إلىٰ نعيم الدارين، والثاني: إلىٰ شقائهما إفضاءً طبيعياً. والله أعلم.

ثم خصَّ بالذكر مِنْ ضمير ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: أخصُّ من بينهم الذين خَسروا أنفسهم؛ تنبيهاً لهم وإيقاظاً.

ثم علَّل ذلك الخسران بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾، والفاء للسببية، أي: إنما خَصَصناهم بهذا التنبيه والوعيد لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فسوف يَـرَوْنَ هَوْل ذلك اليوم.

ثم تابع دليل القدرة والتوحيد، بذِكْرِ أفعال الله وصفاته المقتضية لاختصاصه

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٢٧٢).

بالعبادة، فقال: ﴿وَلَهُۥ﴾ مُلْكاً وإيجاداً ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَ﴾ ما تحرَّك في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾[1]، وقد اكتفىٰ بذكر السُّكون عن ذكر الحركة المقابلة له، علىٰ نهج إيجاز القرآن في مثل ذلك. وخَصَّ السَّكَن بالذكر؛ للإيماء إلىٰ حكمة النوم في الليل ورحمته فيه، إذ لولاه لما عاش حيوان؛ لأنه يستعيد به ما فقده من قواه في النهار بعمله وحركته، ففيه إشارةٌ إلىٰ نِعَمِ الله ورحمته التي كتبها علىٰ نفسه وذكرها في السياق.

ثم أردف السكون المقتضي للخَفَاء، بما يناسبه من خصائص الربوبيَّة، وذكرها علىٰ سبيل الوعد والوعيد، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ أي: لا تخفىٰ عليه منكم خافية.

قال أبو مسلم: ذكر في الآية الأولىٰ السماوات والأرض، إذ لا مكان سواهما. وذكر في هذه الآية الليل والنهار، إذ لا زمان سواهما. والزمان والمكان هما ظرفا المُحْدَثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيَّات والزمان والزمانيَّات، لا يخفىٰ عليه شيء من أمرهما.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

وبعد هذا البيان الملزم بألوهيَّة الله وحده، لاقتصار أفعال الألوهيَّة وصفاتها عليه، أمره أن يُؤنِّبهم علىٰ الشِّرك بأبلغ التأنيب، وهو أن يوجِّه الإنكار إلىٰ نفسه بدلاً من توجيهه إليهم، تقريراً لكون ما يدعو إليه من اختصاص العبادة والتوجه لله وحده

---

(١) لا يبعد إذا قلنا: إنَّ الآية من باب نسبة الشيء لما هو لواحد منهما، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. (المؤلف).

تعالىٰ هو الحق المبين، فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: مُبدِعها ومُنظِّمها، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ وهي من خصائص الألوهية. وفي هذا تعريضٌ بمن اتَّخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة؟!

ثم أردف الإنكار والنقد بالتوجيه، علىٰ نهج القرآن في إرداف النقد بالإرشاد، فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من لَدُنْ ربِّي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، وقيل لي: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ الذين اتَّخذوا من دونه أولياء. وإضمارُ القول من أساليب القرآن. وهذه الجملة تكميلٌ للجملة السابقة بأسلوب بليغ يشير إلىٰ فظاعة الشرك والتحذير منه.

ثم أمره أن يتابع البيان عن جزاء مَنْ يخالف ذلك، بنفس الأسلوب السابق فقال: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾، فقدَّم ذكر الخوف علىٰ شرطه اهتماماً به. والكلام علىٰ الفرض، أي: فرض وقوع العصيان مني. وشرطُ ﴿إِنْ﴾ لا يقتضي الوقوع، فهو لونٌ من ألوان شدَّة البيان أو تحقُّق الخوف علىٰ كلِّ من عصىٰ، علىٰ نهج القرآن في مثله. وفي الآية إشارةٌ إلىٰ أن هذا اليوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيماً، وأنه منوط بالأعمال.

ثم تابع وصف ذلك اليوم بالهول، فقال: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ ذلك العذابُ ﴿يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الله، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ لِمَا يتبعه من النعيم المقيم. اللهُمَّ اصْرِف عنا ذلك الهول، يا أرحم الراحمين.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

ثم أتىٰ بما ينهجه القرآن علىٰ أثر بيان عناد المنكرين من تثبيته ﷺ ضدَّهم، ووَعْـدِهِ بالحفظ من مكرهم، وذكر ذلك بصورةٍ حقيقـةٍ عامة، علىٰ نهج القرآن في مثله. وقد نظمه في سلك دليل التوحيد وجعله تكميلاً له، فقال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾[1].

قال في «المنار»: إنما قابل الخير بالضُّرّ، ولم يقابله بالشر؛ لأن الضُّرَّ من الله تعالىٰ؛ ليس شراً، وإنما هو تربية واختبار للعبد، يستفيد به من هو أهل للاستفادة[2].

ومعنىٰ الآية بعمومها: إنْ أصابك ـ أيها الإنسان ـ ضُرٌّ اقْتَضَته سُنَّةُ الله تعالىٰ؛ فلا صارفَ له إلا الله، يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب حسب لطفه الخفيّ، فله الحمد. وكذلك إن يَمْسَسْك بخير.

ثم تابع الكلام بما هو مُكمِّل له ومؤيِّد، فبعد أن أثبت لجلاله كمال القدرة، أثبت له كمال السلطان، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: المتسلِّط الغالب، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ يضع الأمور حسب الحكمة البالغة، والخبرة الواسعة.

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

ثم ختم سبحانه الأوامرَ القوليَّة والبراهين العقليَّة التي سبقت في بيان حقيقة الدين وإبطال الشرك وإثبات الوحدانية، ختمها وأشفعها بشهادته لرسوله وشهادة

---

(١) إنما يكون هذا الضر من معاكسة سُنن الله الكونيَّة، فنسبته إلىٰ الله باعتبار تلك السُّنن، والمسبِّبُ له هو الإنسان نفسه، مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٢٧٩).

رسوله له، فقال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾، وقد طوىٰ من الكلام قولهم: (الله أكبر شهادة)، سواء كان ذلك بتصريحهم أو لا؛ لأنهم لا ينكرونه.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم أنه تعالىٰ يشهد برسالته وصدق ما جاء به، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: علىٰ صدقي في دعوىٰ الرسالة، ودعوىٰ الوحدانية لله، فهو يشهد علىٰ صدقي فيهما بآياته في القرآن، وآياته في الأكوان، وآياته المودعة في العقل والوجدان.

ثم لخَّصَ الدعوىٰ التي شهد الله له عليها، فقال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي: ولأُنذر كلَّ من بَلَغه القرآن بعدي إلىٰ يوم القيامة؛ لأنه دين عالميٌّ ناسخ لجميع الأديان السماوية قبله، ولغته عالمية لأنه لا يمكن أن يُعرف إلا بها، وقد بَلغ القرآنُ كلَّ أمة علىٰ وجه البسيطة بواسطة سَلَفِنا الصَّالح الذي نشر دينَه في الآفاق، ولم يَأْلُ جُهداً في ذلك، وعلىٰ البشر الذي اكتشف العجائب في هذا العصر أن يُحقِّق الدين الصحيح لِيَنْجُوَ به من شقاء الآخرة، وينال سعادتها جهداً، وعلىٰ هذا يكون البشر علىٰ معرفة بهذا الدين العالمي، ولا عُذْر له في التقليد الأعمىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣].

ثم أمر الله تعالىٰ رسوله بالشهادة له بالوحدانيَّة التي جَحَدها المشركون، وبراءته من قولهم بالشرك، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾؟! ينكر عليهم ذلك ويتحقّقه منهم، كأنه يَسْتَبْعد أن يقوله عاقل.

ثم أمره أن يجيب هو بأنه لا يشهد كما يشهدون، إذ لا يجهل كما يجهلون، فقال: ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾.

ثم أمره أمراً آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون، ويتبرَّأ مما يزعمون، ويُبيِّن الحقيقة الواضحة الراهنة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾، فما

أبدع هذا التعبير! إنه في منتهىٰ البلاغة، جلَّ مَنْ هذا كلامه. وهو علىٰ نهج القرآن في الجمع بين نقد المشركين وإرشادهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد أن ذكر ما ذكر من الحُجَج علىٰ صدق رسالته، ومنها: شهادة الله في هذا القرآن وفي الكتب القديمة، شَنَّع علىٰ المنكرين من أهل الكتاب إنكارَهم ما يعرفون من صدق رسالته، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾، ثم خصَّ بالوعيد منهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، أي: بإنكارهم الحقَّ الذي يعرفونه فيه، وقد حكم عليهم بقوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾[1] إيثاراً لِـمَا لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم، علىٰ الاعتراف برسالته التي يعرفونها والإيمان به؛ لاعتقادهم أنَّ هذا الإيمان يسلبهم ذلك.

ولـما كان إنكارُ الحق مع العلم به هو أعظم أنواع الظلم، لا سيما فيما يتعلّق بالله ورسله وشرائعه، شنَّع عليهم بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، كَمَنْ يزعم أنَّ له ولداً أو شريكاً، أو زاد في دينه ما ليس منه، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزَّلة كالقرآن المجيد، أو الكونيَّة الدالة علىٰ وحدانيَّته، أو التي يُؤيِّد بها رُسُلَه.

---

(١) يجوز أن تكون الفاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ للتفريع. ويكون المعنىٰ: الذين خسروا أنفسهم بتدسيتهم لها وإفسادهم لطبيعتها لم يروا الحقَّ حقاً فيتَّبعوه، فهم لذلك لا يؤمنون بما جئت به من الحق. ويجوز أن تكون الفاء للتعليل، والمعنىٰ: إنَّ عدم إيمانهم سبب خسارتهم لأنفسهم، إذ أوقعوها به في شقاء الدنيا والآخرة. ولو أنهم آمنوا وعملوا بالتعاليم التي جئتهم بها لنالوا السعادة في الدارين. (المؤلف).

ثم بيَّن سُوءَ عاقبتهم، ببيان عامٍّ في الظالمين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾، بل عليهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

ثم بيَّن شيئاً من عدم فلاحهم وسوء مصيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وهذه الإضافة هي من نوع الإضافة لأدنىٰ ملابسة، أي: الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لله، يُدعَوْنَ ويُستعانون كما يُدعىٰ ويُستعان، وأنهم يُقرِّبونكم إلىٰ الله زُلْفىٰ، ويشفعون لكم عنده. وهذا الاستفهام للتوبيخ والاحتجاج.

وكان جوابهم عليه ما حكاه عنهم سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1]، والمراد من الفتنة هنا: الشرك، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]، فالمراد بيان مصير الشرك، أي: لم تكن عاقبة شركهم الذي فَتَنهم

---

(١) هذا النفي للمبالغة في التَّبرُّؤ، لا للإنكار والتكذيب. ويجوز أن يكون تكذيباً ناشئاً عما علموا من الحقِّ طول الأزمان التي مرَّت عليهم بين الموت والحساب، لأن العقيدة تتغير تغيراً شديداً بتغيُّر العلم وقوة الإبصار. ويجوز أن يكون هذا بياناً لصنف من المشركين. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧١٨١).

وقاتلوا عليه إلا التبرؤ منه يوم القيامة، إذ إنهم حينئذ ينكشف الأمر لهم، ويخجلون من الشِّرك، ويشعرون أنه لا يفعله عاقل. ويجوز أن ينسوه لطول المدَّة، وبما يدركون من عظمة الله، ولا يُصدِّقون أنَّ أحداً ينحط إلىٰ هذا القول السخيف، وهذا شأن بعضهم.

فَعَجَّبه سبحانه وتعالىٰ من جوابهم هذا، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: في دار الدنيا بزَعْمِهم أنهم اتَّخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، وأنَّ هذا تعظيمٌ لله لا كفرٌ به، ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الإشراك، في الآخرة. ومُحصَّله: أنهم لم يَجدوا من عملهم ما كانوا منه يُؤَمِّلون، وخَسِرَ هنالك المُبطِلون.

ثم ذكر حال فريق منهم عند سماعه للقرآن، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إذا تَلَوْتَ القرآن، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، فشبَّه الحُجُبَ والموانعَ المعنويَّة بالحُجُب والموانع الحسيَّة، وهي الأكِنَّة والوَقْر، واستعارها لها.

قال في «المنار»: ومعنىٰ هذا الجعل: ما مَضَت به سنَّة الله تعالىٰ في طباع البشر من كون التقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه، يكون مانعاً له من النظر والاستدلال والبحثِ عن الحقائق، فهو لا يستمع إلىٰ متكلِّم ولا إلىٰ داعٍ للتمييز بين الحق والباطل. وإذا وصل إلىٰ سمعه قولٌ مخالف لما هو دينٌ له أو عادة، لا يتدبّره ولا يراه جديراً بأن يكون في موضع المقابلة والتنظير مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة[1]. كما بيَّن سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ من الآيات الدالة علىٰ صحَّة نبوتك وصدق دعوتك ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾، لأنهم لا يتدبَّرونها ولا يُدركون المراد منها. وكان من نتيجة ذلك ما حكاه سبحانه عنهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في دعوتك لهم، ﴿يَقُولُ

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٢٩٠).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥﴾ أي: قَصَصهم وخُرافاتهم. يعني: إنهم لا يعقلون مما في القرآن إلا قصص الأمم، ويقولون عنها: إنها حكايات وخرافات، ويقولون هذا القول أيضاً في حقِّ الحشر والحساب والنعيم والعذاب وما إلىٰ ذلك. وإنما وَضَع الموصول مَوْضع الضمير؛ ذمّاً لهم بصفة الكفر، وإشعاراً بعلَّة ذلك القول.

ثم تابع المعنىٰ عنهم بقوله: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: يَنْـهَوْنَ الناس عن سماع القرآن، ﴿وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُ﴾ أي: يَبعُدون عنه كلَّ البُعْد، ﴿وَإِن يُهۡلِكُونَ﴾ بذلك ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ أنَّ إعراضهم عنه يُبْعدهم عن طريق النجاة والسعادة، ويؤدِّي بهم إلىٰ طريق الشقاء والهلاك في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧ بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾.

ثم ذكر شيئاً من ذلك الهلاك الأُخروي وندمِهم الشديد حينذاك، فقال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾، وهذا ندم بعد فوات الأوان، أعاذنا الله. ونَصَبَ الفعلَ بإضمار «أن» بعد الواو، إجراءً لها مَجْرىٰ الفاء. والمعنىٰ: إنْ رُددنا لم نكذِّبْ ونكن من المؤمنين. وجواب (لو) محذوف للمبالغة في التهويل، علىٰ نهج القرآن والتقدير: لرأيت هَوْلاً عظيماً، ولرأيتهم في أشدِّ الجزع والثبور.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ قولهم هذا نتيجة ما شاهدوه من الهَوْل الذي كانوا يعلمون عنه في الدنيا، ببيان الله له في كتابه المنزَّل، ولكنهم ما كان في وُسْعِهم تصديقُه، إذ قد أوْغَل فيهم الكفر والفساد. ولهذا المعنىٰ أتىٰ بكلمة ﴿بَلۡ﴾ وكلمة ﴿بَدَا﴾، فقال: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ﴾ ويكذبون به ﴿مِن قَبۡلُ﴾، وإنما قال: يخفون، إيذاناً بأنَّ الغريزة الدينيَّة في

الإنسان لا تنعدم تماماً مع تصلُّب الفساد، ولكنه يغلبها، إلا عند الشدائد، فإن زالت الشدَّة عاد الغلب، ولو بعد مثل هذا الموقف الرهيب. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ في ادِّعاء الإصلاح إذا عادوا إلىٰ الدنيا، لأن الفساد إذا أصبح مَلَكة للروح، وطبعاً لها لا يُمكن الإقلاعُ عنه أبداً. هذا ما مَضَت به سُنَّة الله في طبيعة الإنسان.

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثم بيَّن شأناً آخر لصنف آخر من هؤلاء المكذِّبين، وهو إنكار البعث وندمهم الشديد عندما يعلمون ذلك ويرونه عياناً، فقال: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أليس هذا هو البَعْث الذي كنتم فيه تمترون؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

ثم نعىٰ عليهم بقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾، وهذا من باب التمثيل واستعارة الحالة الماديَّة للحالة المعنويَّة، إشعاراً بشدَّة الثقل والشقاء.

ثم شنَّع ونعىٰ عليهم بقوله: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾، وافتتاح الجملة بـ«ألا»، للمبالغة في التَّشنيع.

ثم ختم السياق بما يحضُّ على الانتباه والاهتمام للآخرة، فقال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ كأعمال الصبيان ولعبهم، ثم ينصرفون عنه إلى غير طائل. وهكذا الحياة الدنيا بالنسبة إلى عَظَمة الآخرة، إذ كلُّ نعيم دون الجنة حقير، كما قال: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾، أي: ألم تكونوا من أهل العقل والمعرفة، فتتبصَّروا وتتمسَّكوا بتعاليم هذا القرآن.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وبعد الكلام عن حال هؤلاء المشركين وعنادهم، ذكر ما فيه تسلية له عن ذلك، على نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ فيك وفي دعوتك ونبوَّتك من تكذيب وطعن وتنفير عنك، فلا تهتمّ لذلك، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾، وَوَجْهُ التسلية: أنَّ تكذيبه عليه السلام تكذيبٌ لآياتِ الله، واللهُ من ورائهم محيط، فهو وعدٌ لهم بخذلانهم وبالغَلَبة عليهم.

ثم تابع المعنى في التسلية بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي منها وَعْدُه للرسل بالنصر. ثم قرَّر مضمون الوعد الكريم له بالنصر بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ﴾ أي: في هذا القرآن ﴿مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ في النصر لهم بعد التكذيب والصبر، فاصْبِر كما صبروا؛ تَظْفر كما ظفروا.

ويجوز أن يُراد بـ«كلمات الله»: سننه الكونية والتي منها معارضة الرسل من جانب مَنْ أفسدوا طباعَهم من البشر.

ثم أردف الكلام بما يؤكِّد وجوب الصبر تجاه تكذيبهم، والإعراض عن اقتراحاتهم للآيات كما يأتي، وعبَّر عن ذلك بصورة من صور شدَّة البيان، فقال: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا طلبوا، أي: إن استطعت أن تَغُوص إلىٰ أعماق الأرض، أو تصعد إلىٰ أعالي السماء فتأتِيَهم بما طلبوا من الآيات، فافعل. وما دمتَ تعلم أنَّ ذلك أمرٌ مَنُوط بعلم الله وحكمتِه وقدرتِه وسُنـنِه الكونيّة، فأعرض عنهم ولا تذهبْ نفسُك عليهم حَسَرات.

وهذا الكلام لم يكن مُوجَّهاً للنبيِّ ﷺ علىٰ سبيل التقريع، كما يُوهم ظاهره، وإنما هو بيانٌ لهؤلاء الجهَّال، عن حدود الرسالة، وأن الرسول مهما عَظُم في الكمال ليس في قدرته أن يأتي بشيء من الآيات كالتي طلبوها. وأمَرَه أن يجيبَهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ثم أكمل البحث ببيان ما طَبَع اللهُ البشرَ عليه من الاستعداد للخير والشر معاً، وضمَّن ذلك أنَّ معارضتهم هذه لم تكن عن عجزٍ في القدرة، ولا قَسْراً للإرادة الإلهية، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بأن يَخْلقهم مُسْتَعدِّين لذلك فقط كالملائكة، إلا أنّ تلك الخِلْقةَ مُخالفةٌ للحكمة التي اقتضت خَلْـقَ الإنسان بهذه الطبيعة الحرة، وهَدْيَه للنَّجْدَين، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بسُنَن الله في أنواع خلقه حسبما تقتضيه الحكمة ويتطلّبه التدبير. وليس الجهل عيباً بهذا المعنىٰ، إذ لا يمكن للبشر مهما بلغ من الكمال أن يحيط بكلِّ شيء علماً، ولا أن يعلم عن مثل ذلك علماً إجمالياً إلا بعد

التنبيه عليه من جانب الله. ومن هذا المعنىٰ قولُه تعالىٰ لنوح عليه السلام: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ الناس ـ بحسب طبيعتهم هذه ـ منهم مَنْ يحافظ علىٰ صلاحها ويُزكِّيها، ومنهم مَنْ يفسدها ويُدسِّيها. والصنف الأول: هو الذي يهتدي بالهُدىٰ ويتَّبعه فينال في الآخرة الجزاء الأَوْفىٰ، والصنف الثاني: هو الذي يُعرِض عنه أو يقاومه فيناله العقاب الأليم، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وهم القسم الأول، يسمعون كلامَ الله ووحيَه سماعَ فَهْم وتدبُّر، ويستجيبون له.

أما القسم الثاني ﴿وَ﴾ هم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: موتىٰ القلوب الذين أماتوها بإفسادها ومَحْق نور استعدادها، فلا يستجيبون، وسينالهم العقاب الأليم حين ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ استعارةٌ أو توريةٌ بديعة، عقد فيها المشابهة بين الميت والجَمَل البارك.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

ثم أكمل السياق بوجه آخر من الردِّ علىٰ اقتراح الآيات، فنبَّههم إلىٰ أنَّ أفعال الله تعالىٰ في هذا الكون كلُّها آيات لو كانوا يعقلون، فلمَ يقترحون آيةً ومِنْ حَوْلِهِمُ الآيات! وأدمج في الكلام أنَّ عدم إجابتهم في طلب الآية المخصوصة ليس عن عَجْز في القدرة الإلهية، ولكنه بابٌ من أبواب الحكمة الربانية، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن

رَّبِّهِۦ﴾ كما أُنزل علىٰ موسىٰ وعيسىٰ، ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾[1] إذا اقتَضتِ الحكمةُ ذلك، لا إذا اشتَهَوْها، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وُجُوهَ الحِكَمِ في أفعال الله.

ثم ذكر لهم ما حولهم من الآيات وهم عنها غافلون، فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في النُّظم الاجتماعية والأحوال المعاشيَّة والشؤون الحيويَّة، تدلُّ علىٰ حكمةِ الخالق القدير واختصاصه بالألوهيَّة. ولو تدبَّروا القرآن لرأوا آياتٍ وبراهينَ علىٰ الحقِّ اليقين لا تُحصىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾، فقد قلَّبَ سبحانه لهم فيه العِبَر، ونوَّع لهم الحجج والبينات، وأوقفهم علىٰ المصير، وأنهم سيُعادون، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾[2]، ويُجازىٰ المعرضون جزاءً

---

(١) الذي أراه في هذه الآيات أنَّ الله سبحانه أمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم: إنَّ الله سبحانه لا يُعجزه أن يُنزل آية كما طلبتم، ولكن الحكمة لا تقتضيه. ثم بيَّن أنَّ هذا الكون كلَّه آياتٌ ومن ذلك أن جعل سبحانه أصناف الحيوان أمماً أمثالكم لهم نُظم معاشيَّة وشؤون حيويَّة.

ثم بيَّن سبحانه أنه قد نوَّع لهم في هذا القرآن الحُجَج والبيانات، وَقَلَّب لهم الأمر علىٰ سائر صفحاته، فلم يبقَ فيه غموض ولا خفاء.

ثم توعَّدهم بعد ذلك علىٰ الإعراض والمعارضة، بما سينالهم بعد الحشر والحساب، فقال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. وعليه، فالمراد من الحشر: حَشْرُ هؤلاء المجرمين، لا حشر البهائم والطيور وغير العاقلين. والله أعلم. أي: بيّنا لهم في الكتاب كلَّ شيء، وسنحشرهم ونجازيهم علىٰ الكفر به والإعراض. (المؤلف).

(٢) قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معطوف علىٰ جملة ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أو مستأنف، لأن معناه: أوضحنا لهم كل شيء في هذا الكتاب، فلم يبق لهم حجَّة لطلب الآيات، فتوعَّدهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، لأن ﴿ثُمَّ﴾ قد تأتي لتجديد بيان عن خبر مهم عظيم. (المؤلف).

وِفَاقاً. فكلُّ ما في الكون آيات تكشف الحقَّ الثابت المستقر، ﴿وَ﴾ لكن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لا يَرَوْنَ الحق ولا يسمعون الهادي إليه سماعَ فَهْم وتدبُّر، ولا ينطقون بما عرفوا عنه، ولا يقرُّون ولا ينتبهون لما يُحيط بهم من الحُجَج الدامغة والبراهين القاطعة.

ثم عقّب علىٰ هذا ببيان منشئه فيهم، فقال: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾، وهذه المشيئةُ جاريةٌ علىٰ مشيئته سبحانه لفطرة الإنسان في انطباعاته وتَكَوُّنِ أخلاقِه في الهدىٰ والضلال والخير والشر بصنعه، وذلك بحَسَب سُنَّة الله في تأثير الأعمال النفسيَّة في صلاح الأنفس أو فسادها. فمن سَلِمت له فِطرتُه بما صادفت من تربية صحيحة، وحافظ علىٰ نور بصيرته، هُدي إلىٰ الصِّراط المستقيم، ومن أفسد فطرته بمخالطة الفاسدين واتِّباع الضَّالِّين، ضلَّ عن الهدىٰ بعد إذ جاءه. وكذلك مَضَت سُنَّة الله في البشر أن يعرض المستكبر عن دعوة مَنْ يراه دونه بحسب نظره، وإن ظهر له أنَّ ما يدعو إليه هو الحق والصواب. وأن يعرض المقلِّد عن النظر في الآيات والدلائل ويصرّ علىٰ تقليده. وفي الكلام إسناد الفعل إلىٰ الله من دون ذكر للسبب، علىٰ طريقة القرآن في مثله، (كما جاء في القاعدة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في أساليب القرآن).

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ٤١﴾.

وبعد هذا السياق أمر الله نبيَّه أنْ يذكِّر المشركين بما أوْدَعَ في فطرتهم من توحيده عزَّ وجل، وما يظهر من ذلك في شعورهم رغم أنوفهم، عندما تصيبهم الشدائد. وسَبَك ذلك علىٰ تهديدهم بعذاب الدنيا الذي يستهزئون به، وأنه إذا نزل بهم فلا

يفزعون إلا إليه، وأضاف إلىٰ ذلك تَوعُّدَهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾[1] أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ أي: في الدنيا، ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: إن صَدَقتُموني في المقال، ولم تكتموا الحال.

ثم أردف الاستفهام بالتقرير، علىٰ نهج القرآن في أساليبه، فقال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: تتركونهم مَنسِيِّين وتخصُّونه حينئذ وحدَه بالدعاء والالتجاء دون شركائكم، إذ تعلمون أنهم لا يقدرون علىٰ شيء، وهذا الشعور الحقيقي حينئذ إنما يكون بسائق الغريزة الدينيَّة، والفطرة البشريَّة، حيث تندفع النفس إلىٰ الله وحده، كما تنبعث لطلب الغذاء عند الجوع، إذ تشعر أنْ لا ملجأ إلا إليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تسليته ﷺ بتذكيره بسُنَّة الله في اسْتئصال المعاندين للرسل بعد أن يستدرجَهم بالإمهال، علىٰ نهج القرآن في العودة إلىٰ المبحث المرة بعد المرة، ولكنه زاد في هذه المرة ما فيه تنبيهٌ وتحذيرٌ للمعاندين، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فلم يؤمنوا ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: الشدائد ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: الآفات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلىٰ الله ويتوبون من كفرهم، إذ مضت سُنَّته تعالىٰ أن يَجعَل الشدائدَ مربيةً لنفوس الناس.

---

(١) قال البصريون: الضمير مفعول به، والمعنىٰ: أرأيتم أنفسكم، وقال الكوفيون: هو لتأكيد الخطاب والمعنىٰ: أرأيتم، ومحصل المعنيين: أخبروني. (المؤلف).

ثم وصف الدواء بعد تشخيص الداء، علىٰ نهج القرآن، وقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ وأصلحوا شأنهم وآمنوا، لَسَلِمُوا من الاستئصال، ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بما يوسوس إليهم من تحسين الثبات علىٰ ما هم عليه، وما كان عليه آباؤهم.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضَّراء التي تكون للإنذار قبل عذاب الاستئصال ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ليستوفوا حظوظَهم من الدنيا، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ منها ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بعذاب الاستئصال ﴿بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: مُتحسِّرون ذالُّون يائسون من النجاة.

﴿فَقُطِعَ﴾ بذلك ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسَهم بتكذيب الرسل والإصرار علىٰ الشرك، واستُؤْصِلوا عن آخرهم، ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ علىٰ نَصْره لرُسله واستئصال الظالمين.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۦ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

وبعد أن أنذرهم بحال الأمم المعارضة للرسل وبمصيرهم، ذكَّرهم ثانياً بدليل التوحيد، وهو اختصاصه سبحانه بأفعال الألوهيَّة، ولكن بأسلوب جديد، يتضمَّن قدرته سبحانه علىٰ ما يقترحون وعلىٰ أكثر من ذلك، وسَبَكَه علىٰ التهديد والوعيد بعذاب الدنيا فَضْلاً عن الأخرىٰ، وضمَّنه التنبيه إلىٰ نِعَم الله الفطريَّة عليهم، وأنه إن

سلبها منهم فمَنْ يأتيهم بمثلها، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾، فأصبحتم لا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون؟ ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي: هل تقدر آلهتكم علىٰ شيء من ذلك؟ فهو تبكيتٌ لهم علىٰ مقابلة هذه المواهب بالكفر والعصيان ولم يستعملوها في النظر الصحيح وإدراك البرهان.

ثم ختم السياق بما ينطوي علىٰ التَّعجيب والتَّأنيب، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ بتنويع الحجج والبيِّنات والبصائر، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ عنها ويُعرِضون، ولا يسمعون ولا ينتفعون. والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لإفادة أن ذلك الصُّدوف مع تصريف الحجج علىٰ هذه الصورة كان مُستبعداً وغير مُتصوَّر.

ثم توعَّدهم علىٰ ذلك، وسَبَكَ الكلام علىٰ التنبيه والإيقاظ، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي: بعد ظهور أماراته، فماذا يكون من أمركم ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾؟!

ثم أردف ذلك ببيان أنَّ الله سبحانه يبعث الرسل للتبشير والإنذار، فينجِّي المؤمنين ويُعذِّب المكذِّبين، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ بالثواب العظيم علىٰ الطاعة والإيمان، ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب الأليم علىٰ الكفر والعصيان، ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ﴾ نفسه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، فقد وعدهم الله سبحانه بهذا الوعد الكريم المُؤْذِن بالنعيم المقيم، ثم توعَّد الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: بما كانوا يخرجون عن جادَّة الإيمان إلىٰ وعورة الكفر والطغيان، فيستحقُّون العذاب المهين.

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم أمره سبحانه أن يردَّ علىٰ هؤلاء المعاندين الذين يقترحون عليه الآيات الكونيَّة، بردٍّ آخرَ سلبيٍّ، يَتضمَّن بيان حدود النبوَّة، وعَجْزها عن متعلِّقات القدرة الإلهية، فقال: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أتصرَّف بها ما أشاء من أرزاق العباد وشؤون المخلوقات، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتىٰ تسألوني عن الساعة، أو وقت نزول العذاب، أو ما شابه ذلك.

قال في «المنار»: والغيب قسمان: غيبٌ حقيقيٌّ مطلق، وهو ما غاب علمُه عن جميع المخلوقين، حتىٰ الملائكة المقرَّبين، وفيه يقول الله عزَّ وجل: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وغيبٌ إضافيٌّ، وهو ما غاب علمُه عن بعض المخلوقين دون بعض، كالذي يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره، ولا يعلمه البشر مثلاً. وإن ما يُظْهِرُ تعالىٰ عليه الرُّسُل، هو من الغيب الإضافي الذي لم يُؤْتَ أحدٌ من خلقه الاستعدادَ لعلمه، وليس داخلاً في علومهم الكسبيَّة.

وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها، فلا يدخل في عموم معنىٰ

الغيب الوارد في كتاب الله. ومن ذلك ما قد يصل إلىٰ حدِّ العلم من الإدراكات النفسيَّة الخفيَّة كالفراسة والإلهام. وأكثر هذا النوع من الانكشاف: لوائحُ تلوحُ للنفس لا يُجْزم بها إلا بعد وقوعها، وأظهر شروط هذا النوع من الإدراك: قوة الاستعداد الفطري في النفس لذلك، وتوجُّه النفس إلىٰ المُدْرَك[١] توجُّهاً قوياً، لا يُعارضه اشتغال قوًىٰ بغيره من المُدْرَكات. وكثيراً ما يقع هذا في حال مرض عصبيّ أو انفعال نفسيّ قوي يَحْصُرُ هَمَّ النفسِ كلَّه فيه، فيكون هناك فاعل وقابل، أو مُرسِل ولاقِط، وقد يكون ذلك في حالة صفاء الروح. انتهىٰ بتصرُّف[٢].

وهناك أنواع أخرىٰ من الانكشافات النفسيَّة غير هذا النوع، فقد ثبت في الحديث الصحيح: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان «من المُحَدَّثين»[٣].

وقد عبَّر ﷺ عن مَلَك الإلهام بأنه: «واعظُ الله في قلب كلِّ مؤمن»[٤].

وجاء في الحديث أيضاً: «إنَّ للشيطان لـمّةً بابن آدم، وللمَلَك لـمّةً، فأمَّا لـمّةُ الشيطان فإيعادٌ بالشرِّ وتكذيب بالحقِّ، وأما لـمّة المَلَك فإيعادٌ بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فَلْيعلم أنه منه تعالىٰ فَلْيَحمد الله، ومَنْ وجد الأُخرىٰ فَلْيتعوَّذ بالله

---

(١) في تفسير «المنار»: المدارك.

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٣٥٣- ٣٥٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إنه قد كان فيما مضىٰ قبلكم من الأمم محدَّثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم، فإنه عمر بن الخطاب».
ورواه مسلم (٢٣٩٨)، عن عائشة.

(٤) رواه أحمد في «مسنده» (١٧٦٣٤) عن حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه بلفظ: (مسلم) بدل (مؤمن). وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣: ١٧١) ـ بلفظ المؤلف ـ وقال: ذكره رزين، ولم أره في أصوله، عن ابن مسعود.

من الشيطان»[١]. وكلُّ هذا ليس من خوارق العادات، وإنما هو من عالم الأسباب والمسبَّبات.

ثم تابع الكلام في الردِّ علىٰ المعاندين بقوله: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾، قال في «المنار»: فأعاد هنا كلمة: ﴿لَآ أَقُولُ﴾، ولم يُعدها في نفي علم الغيب، لأنَّ نَفْيَ علم الغيب ونَفْيَ التَّصرُّف في خزائن الله يؤلِّفان التبرُّؤ من دعوىٰ واحدة؛ هي دعوىٰ الصفات الخاصَّة بالله تعالىٰ. وأما نفيُ ادعاء المَلَكِية فهو شيءٌ آخر، فأعيد العامل لإفادة ذلك، كأنه قال: إنني لا أدَّعي صفاتِ الإله حتىٰ تطلبوا مني ما لا يقدر أو ما لا يعلمه إلا الله. ولا أدَّعي أني مَلَكٌ حتىٰ تطلبوا مني ما جعله الله في قدرة الملائكة، بل ادَّعيتُ أني عبدُ الله ورسوله. وإنما وظيفة العبدِ الطاعةُ، ووظيفة الرسول التبليغ.

وعبَّر عن هذا المعنىٰ بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ من ربّي، أي: ما أفعل ـ من حيث أنا عبد ورسول ـ إلا اتِّباعَ ما يُوحيه إليَّ مَنْ أرسلني، من تبليغ دينه بالتبشير والإنذار والعمل به[٢].

ثم أردفه بما يُبيِّن الفرق بين المهتدي بهَدْي الوحي، والضالِّ عنه، تنويهاً بشأن المهتدي، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، فعبَّر عن المتَّبع بالبصير، وغير المتَّبع بالأعمىٰ، لأنَّ العمل بغير الوحي يجري مجرىٰ عمل الأعمىٰ، والعمل بمقتضىٰ الوحي يجري مجرىٰ عمل البصير، ثم أنَّبهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾.

وبعد بيان حال هؤلاء الضَّالِّين الذين أفسدوا فِطَرَهم حتىٰ لم يبق فيهم شيء من

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨٨) عن ابن مسعود. وقال الترمذي: هذا حديث غريب، وهو حديث أبي الأحوص، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث أبي الأحوص.

(٢) تفسير «المنار» (٧: ٣٥٥-٣٥٦).

نور القلب وجلاء البصيرة، أمره أن يُعرض عنهم ويشتغل بهدي الذين سَلِمَت فِطَرُهم وبصائرهم، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾، فإنهم هم الجديرون بفهم حقيقة الرسالة، والانتفاع بالنُّذُر. والكلام عطفٌ علىٰ مُقدَّر، علىٰ نهج إيجازات القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة).

والتقدير: أعرِضْ عن هؤلاء الضَّالِّين، وأنذِر الذين يخافون أن يُحشَروا إلىٰ ربهم.

ثم أردف الأمر بالإنذار بالنهي عن ضدِّه، تقريراً له، علىٰ نهج القرآن في ذلك، وصاغ الكلامَ من مادَّة فيها تنديدٌ بالمشركين، إذ يطلبون منه ﷺ أن يطرد عنه فقراء المؤمنين، لأنهم لا يدخلون في دينٍ هؤلاءِ من أهله. وغَرَضُهم من هذا الطلب: أن يَصُدُّوا عن هذا الدين الأقوياء من قريش، بإثارة الحميَّة فيهم والكبرياء، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾[1] ورضاه، أي: يتوجَّهون إليه مُخلصين له الدِّين. وهذا تنويهٌ بشأنهم.

ثم رشَّح النَّهي وقوّاه بهذه الجملة الاعتراضية، فقال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾، وفي قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم

---

(١) لما نزل مبدأ المساواة بين الناس علىٰ أساس قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وبدأ الرسول ﷺ بتطبيقه نَفَر ذلك المشركون من زعماء قريش وأنكروا هذا المبدأ، وطلبوا إذا أراد النبي أن يدعوهم إلىٰ الإسلام، أن يفردهم بالدعوة، ثم تنزلوا أن يفرد لهم مَجْلساً خاصاً لا يجتمع معهم فيه صعاليك المسلمين. فنزلت هذه الآية، تنهىٰ الرسول ﷺ عن ذلك. والآية شبيهة بآية الشعراء عن قوم نوح: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] الآية. (المؤلف).

﴿مِن شَيۡءٖ﴾ تتميمٌ للقاعدة، وهي: أن لا تُسأل نفسٌ عن نفس شيئاً، وإيماءٌ إلىٰ أنه مسؤول عن طَرْدِ من يَغْشاه لسماع تبليغه مهما كان شأنه، وتضمينٌ لمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقولُه: ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ تفريعٌ وجوابٌ لنفي الحساب تنتهي به الجملة الاعتراضية، وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾ تفريعٌ وجوابٌ للنهي عن الطرد في صدر الجملة، ويجوز أن يُعطَفَ علىٰ ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾.

وهذه الآيةُ متمِّمةٌ أيضاً لتحديد وظائف الرسول، فإنه تعالىٰ صرَّح أنَّ الرسول لا يملك حسابَ المؤمنين ولا جزاءَهُم، بعد أن صرَّح في الآية السابقة أنه لا يملك التَّصرُّف في الكون ولا يعلم الغيب، وأنه ليس بمَلَك، وصرَّح قبلها بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾. وليس الغرضُ من هذه الآية ظاهرَها، وهو التَّشديد علىٰ النبي ﷺ بأن لا يطرد المؤمنين، لأنَّ ذلك أمرٌ غير واقع ولا يخطر له ببال، ولكن المراد بها التَّبكيت للمشركين والرد عليهم، علىٰ نهج القرآن في مثله.

فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: مرَّ الملأ من قريش علىٰ النبي ﷺ، وعنده صهيبٌ وعمار وخبَّاب ونحوُهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، اطرد هؤلاء عنك، فلعلك إنْ طردتهم أن نتَّبعك، وكانوا يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا[1]. وهذا العمل منهم نوع من المشاغبة، فإنهم كانوا يسعَون في التفريق والتنفير بأنواع منوَّعة، كما كانوا يصدُّون الأقوياء بإثارة الحميَّة والكبرياء.

ثم ذكر أنَّ منشأ ذلك فيهم طبيعتهم المفسودة بسوء التربية، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ أي: جعلنا ـ بحسب سُنَّتنا في غرائز البشر وأخلاقهم ـ بعضَهم

---

(١) رواه أحمد (٣٩٨٥)، والطبري في «تفسيره» (١١: ٣٧٤). وقال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (٧: ٨٨): ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة.

فتنةً لبعض، تظهر به حقيقة حاله الرديئة، لا سيما ما ينشأ من إفساد غريزة حب التفوُّق، ومن ذلك ما كان من إعراض هؤلاء المشركين عن الدين، تحاشياً عن المساواة بضعفاء المسلمين، وإنكاراً أن يسبقوهم إليه لو كان هو خيراً، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ أي: لا يتأتَّىٰ ذلك؛ لأنهم يزعمون أنهم مُفَضَّلون عليهم بما أعطاهم الله من الغنىٰ والجاه والقوة، فلو كان هذا خيراً لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء.

وقد بيَّن الله تعالىٰ لهم مِثلَ هذا الخطل في آيات كثيرة من القرآن، ومنشأُ ذلك فيهم تشبُّعهم بالغرور وفساد النظر. وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾، وهذا الاستفهام للتقرير والردِّ علىٰ أكمل الوجوه وألطف الأساليب.

ووجهُ الرد: أنَّ الحقيق بمنِّ الله تعالىٰ وزيادة نِعَمِه، إنَّما هم الذين يقدِّرونها ويعرفون حقَّ المُنعِم بها، فيشكرونها له باستعمالها فيما تتمُّ به حكمتُه، وتُنال مرضاتُه، لا مَنْ كفروا نِعَمَهُ، وبَطَرُوا وعَتَوا عن أمره.

ثم أردف النَّهي عن طردهم، بما يُلْمِعُ إلىٰ الأمر بضدِّه، تقريراً للغرض، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فأمره بتكريمهم، وقد ضمَّن هذا الأمر تبشيرهم بالمغفرة لما مضىٰ منهم، وذكر ذلك بصورة حكم عام، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي: سَفَهٍ وخفَّةِ عقل، كغضب شديد يؤدِّي إلىٰ عمل سَيِّئ، أو شهوة طائشة تقودُ إلىٰ سَيِّئ كذلك. فالمراد بالجهالة: ما يقابل الرويَّة والحكمة. وقيل: المراد بالجهالة: الجهل الذي يقابله العلم، أي: فمن عمل سوءاً لجهله به ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ أي:

ثم رجع نادماً وأصلح عمله بأن أتْبَعَ السُّوءَ بعمل يُضَادُّه ويَذهَبُ بأثره حتىٰ يعود إلىٰ النفس زكاؤها وطهارتها، وتصير كما كانت في أصلها، أهلاً لنظر الربِّ وقُربه، ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ وهذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والتوبة: تغييرُ المرء نفسَه وتحويلُها من السُّوأَىٰ إلىٰ الحسنىٰ مقروناً بالندم وألم الضمير.

ثم قال في «المنار»: وهذه قاعدةٌ من قواعد الدين، وأسٌّ من أساسه، أمر الله تعالىٰ رسوله أن يُبلِّغها لمن يدخلون في هذا الدين ليهتدوا بها، حتىٰ لا يغترُّوا برحمة الله ومغفرته مطلقاً وجزافاً، فيحملهم الغرورُ علىٰ التفريط في جَنْب الله، والغفلة عن تزكية أنفسهم، وعن المبادرة إلىٰ تطهيرها من إفساد الذنوب لها، كي لا تحيط بها خطيئتها[1].

ثم ختم البيان بما يحمل علىٰ الاهتمام به، ويتضمَّن الإعذار بعد الإنذار، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: ومِثلَ هذا التفصيل الواضح وعلىٰ نحوه نُفَصِّل الآيات المنزلة في بيان الحقائق والأحكام ليهتدي بها أهل النظر الصحيح، لِـمَا فيها من العلم والحكمة والموعظة والعبرة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ للنظرة والبصيرة ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المعارضين.

فقولُه: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ معطوفٌ علىٰ فعل محذوف، حسب نهج القرآن في أنواع الإيجاز.

﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٧٦).

عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ تلقينه لرسوله ما يُحاجُّ به المشركين من بلاغ الوحي وناصع البراهين، وضمَّنه النهي عن سلوك سبيل المجرمين، فقال: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ثم كرَّر الأمرَ اعتناءً بشأن المأمور به، وزيادةً في البيان، فقال: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾، وفي هذا تجهيلٌ لهم وتنصيصٌ علىٰ أنهم ـ فيما هم فيه ـ تابعون لأهواء باطلة، وليسوا علىٰ شيء مما ينطلِق عليه اسم الدين أصلاً.

ثم قرَّر الكلام بما يدلُّ علىٰ أنه انتهىٰ عمَّا نهي عنه لكونه في غاية الضلال، فقال: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾، والعدولُ إلىٰ الجملة الاسمية للدلالة علىٰ الاستمرار.

ثم زاد في التقرير والبيان بأنه علىٰ حق في ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنِّى﴾ فيما أخالفكم فيه ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ هداني إليها بالوحي والعقل.

قال في «المنار»: والبيِّنة: كل ما يُتبيَّنُ به الحقُّ من الحُجج والدلائل العقليَّة، والشواهد والآيات الحسيَّة. والقرآنُ بيِّنة مشتملةٌ علىٰ أنواع كثيرة من الحُجَج، والبيِّنات العقلية والكونية، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿كَذَّبْتُم بِهِۦ﴾، فكيف تُكذِّبون أنتم ببيِّنة البيِّنات علىٰ أظهر الحقائق وأبين الهدايات، ثم تطمعون أن أتَّبعكم علىٰ ضلال مبين لا بيِّنةَ لكم عليه إلا مَحْض التقليد الأعمىٰ؟! فالكلام دَحْضٌ لهم وتشنيعٌ عليهم وتبكيت[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٧٨).

ولما ذكر بيِّنته وتكذيبهم بها، قفَّىٰ عليه بردِّ شبهةٍ تخطر عند ذلك بالبال، ومن شأنها أن يقع عنها منهم السؤال، وهي أنَّ هذا القرآن قد أنذرهم عذاباً يحلُّ بهم إذا أصرُّوا علىٰ عِنادِهم وكفرهم، ووعد بأن ينصر رسوله عليهم، وقد استعجلوا النَّبيَّ ﷺ في ذلك، فكان عَدَمُ وقوعه شبهةً لهم علىٰ صدق القرآن، لجهلهم بسُنن الله تعالىٰ في الأكوان وفي شؤون الإنسان، فأمر الله تعالىٰ رسوله أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي: ليس عندي ما تطلبون أن يُعجِّل الله لكم من وعيده، بمعنىٰ: ليس ذلك بيدي، ولا أنا عليه بقادر، حتىٰ تطالبوني به وتَتَحَدَّوْني، وتعدُّون عَدَمَ إيقاعه حُجَّةً علىٰ تكذيبه وتكذيبي، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ما الحكم في ذلك وغيره من التصرُّف في شؤون الأمم إلا لله وحده، وله في ذلك سُنَنٌ حكيمة ومقاديرُ منتظمة، تجري عليها أفعاله، وآجالٌ مُسمَّاة تقع فيها، فلا يتقدَّم شيء عن أجله ولا يتأخر، ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ في وعيد أفعاله وأحكامه، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ في الأمور، لأنه الحكم العَدْل، المحيطُ علمُه، والنافذُ حُكمُه في كل شيء.

ثم عاد إلىٰ الجواب بصيغة أخرىٰ، ومن جهة ثانية، فقال: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ أي: في مَكِنَتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من أمر عذابكم ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ بإهلاكي حالاً للظالمين منكم الذين يصدونني عن تبليغ دعوتي، ويصدُّون الناس عني، فإنَّ الإنسان خُلق من عَجَل.

ثم قرن ما تضمنه الكلام من كَوْن الأمر بيد الله، قَرَنه بما يُؤْذِنُ بحكمة الإمهال، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: أعلم بضمائرهم وشؤونهم وما يقتضي في عقابهم من التأجيل والتعجيل، بحسب الحِكَم البالغة والمصالح العامة.

قال في «المنار»: أي: أعلَمُ بالذين تمكَّن الظلم من أنفسهم وأحاط بها، فلا رجاء

برجوعهم منه إلىٰ الإيمان والحق والعدل، وبالذين ألمَّ بهم الظلم وألـمُّوا به، ولكنه لم يَمْحُ نورَ الفطرة من أنفسهم، ولم يَذهَبْ باستعدادهم للاهتداء إلىٰ الحق الذي أدعوهم إليه[١].

ومؤدَّىٰ كلامه: أنَّ الله سبحانه يؤجِّل العقاب رجاء أن يهتدي المستعدون للهداية، ثم يمحق الله المصرِّين علىٰ الكفر والضلال.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

ثم ساق السياق وأيَّد مضمونه ببيان سَعَة علم الله سبحانه واختصاصه بعلم الغيب، فقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فهو وحده الذي يعلم وقت إنجاز وَعْدِهِ لرسوله بالنصر، ووعيده لأعدائه بالعذاب.

ثم بيَّن دقةَ عِلمِه سبحانه وسَعَتَه تأييداً لذلك، فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ لم يقتصر علمُه سبحانه علىٰ ذوات الأشياء، بل يتناول عمومَ أحوالها حتىٰ ﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ وهو علم الله تعالىٰ المحيط بكلِّ شيء، وقد شبهه بالمكتوب في ثباته وعدم تغيُّره[٢]. والله أعلم.

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٣٨٠).

(٢) المراد باللوح المحفوظ ـ كما قال غير واحد من أهل التفسير ـ: الكتاب الذي كتب الله فيه =

ومن مباحث اللفظ: أن لفظ ﴿حَبَّةٍ﴾ وما بعدها معطوفٌ علىٰ ﴿وَرَقَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ بدل من الاستثناء السابق. وقُرئ برفع (حَبَّة) وما بعدها، وحينئذ تكون مبتدأً و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ خبَرَها.

ثم قَرَنَ بين حكمته في أفعاله وعلمه الواسع وقُدرته العظيمة علىٰ نقل الذوات من النوم إلىٰ اليقظة، ومن الموت إلىٰ الحياة، واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال، وتدبيرها علىٰ أحسن الوجوه، قَرَنَ بين ذلك كله جَمْعاً بين دليلَي الاختصاص بالألوهيَّة والقدرة علىٰ الحشر وعلمه سبحانه بأعمال الخلق التي تُؤدِّي بهم للنعيم أو للجحيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ما صنعتُم بالجوارح، وهي الأعضاء، سُمِّيت جوارح تشبيهاً لها بجوارح السباع، وكذلك التَّوفِّي مَجَازٌ في النوم، أطلقه عليه تشبيهاً له بالموت.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: في النهار، كلامٌ مستأنف أو معطوف علىٰ

= مقادير الخلق قبل أن يخلقهم، وهو الكتاب المبين المذكور في الآية المشار إليها في قول الله تعالىٰ: ﴿... وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد ذكر بهذا اللفظ وبغيره في آيات كثيرة من كتاب الله تعالىٰ، جاء في «تفسير الطبري»: قال أبو جعفر: يقول تعالىٰ ذِكرُه: ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري، ولا في الأمصار والقرىٰ، إلا الله يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، يقول: ولا شيء أيضًا مما هو موجود، أو ممّا سيوجد ولم يوجد بعد، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ مكتوبٌ ذلك فيه، ومرسوم عددُه ومبلغه، والوقت الذي يوجد فيه، والحالُ التي يفنىٰ فيها، ويعني بقوله: مبين ـ أنه يبين عن صحة ما هو فيه، بوجود ما رُسم فيه علىٰ ما رُسم. انتهىٰ.

وينظر ما يأتي في التعليق علىٰ ما نقله المؤلف عن محمد عبده في تفسير قوله تعالىٰ في سورة البروج: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾، وأطلق البَعْثَ علىٰ اليقظة تشبيهاً له بها، وأخَّر هذه الفقرة عن سابقتها مع أنَّ النَّظْمَ يقتضي العكس في الظاهر، لتتَّصل بعلَّتها المقصودة بالذكر في السياق، وهي قوله: ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: يُوقظكم ويُرْسِلُكم في أعمالكم لأجلِ أن يُقضىٰ وينفَّذ الأجل المسمَّىٰ في علم الله تعالىٰ لكلِّ فرد منكم، فإنَّ لأعماركم آجالاً مقدَّرة مكتوبة لا بدَّ من قضائها وإتمامها، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ إذا انتهت آجالكم ومتُّم، ﴿ثُمَّ﴾ يبعثكم كما كان يبعثكم من مضاجع النوم ويحشركم و﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فيُحَاسبكم عليه ويَجْزيكم به، إنْ خيراً فخير، وإنْ شراً فشر.

وموقع هذه الآية في السياق ما تضمَّنته من الوعد والوعيد، لما جاء فيه من ذكر سلوك الكافرين وسلوك المؤمنين وكذلك ما يمدُّها. وفي الكلام تنبيهٌ علىٰ أنَّ القادر علىٰ البعث لمن تُوفي بالنوم، قادرٌ علىٰ البعث لمن تُوفي بالموت. وقال ﷺ: «إنكم لتموتُنَّ كما تنامون، ولتُبعَثُنَّ كما تستيقظون، ولتُجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً، وبالسوء سوءاً»(١).

ثم ذكر البعث والحساب بصيغةٍ أخرىٰ، علىٰ أسلوب القرآن في تَرادُفِ الجمل مع الزيادة في الثانية، مُبْتَدِئاً بذكر قهره للعباد واستعلائه عليهم وإرساله الحَفَظة لإحصاء أعمالهم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، وقد جاء عنه ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار... »(٢) إلىٰ آخر الحديث.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ في تقديمٍ ولا

---

(١) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٣: ٤٤٠) عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بلفظ: «والله لتموتن، ثم لتبعثن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار». وذكره القرطبي في تفسيره (١٥: ٣٦١) بلفظ: «كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون».

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٢٢٣)، ومسلم (٦٣٢)، عن أبي هريرة.

تأخير عن الأجل المُسمَّىٰ. ويجوز أن يعود الضمير للحَفَظة، ويكون المعنىٰ: أنهم يُحصُونَ لهم وعليهم كلَّ ما عملوا، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ عبَّر هنا بصيغة الجمع ليفيد العموم، وبصيغة المجهول ليتهيأ ذكرُ اسم الجلالة، ووَصْفُه بما وَصَفَه به، ليدلَّ علىٰ أنَّ الردَّ إليه حَتْم. ولا يخفىٰ أنَّ تأثير هذا الوصف علىٰ النفس أعظم من تأثير ضمير التكلُّم.

ثم زاد في التأثير بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾، فأتىٰ بـ«ألا» الافتتاحية للتنبيه علىٰ الاهتمام بمضمون الجملة، وعرَّف الحكم لإفادة الحصْر، أي: إنَّما الحكم له لا لغيره، ﴿وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾ يُوفِّي كلَّ كاسبٍ أجرَه عَقِبَ عمله بلا إبْطاء؛ لأنَّ سُنَّته في الكون مَضَتْ أن تكون النتائج آثار الأعمال، وكما يكون الجزاء سريعاً في الدنيا يكون كذلك في الآخرة، فإنَّ أثر الأعمال يظهر للمرء عقب الموت، وهو أول قَدَم يضعه في عالم الآخرة، وهكذا سرعة الحساب يوم الحساب، تكون بإدراك الناس كلِّهم أعمالهم كلَّها، فيُدرك كلُّ واحد جميعَ ما عمل من خير أو شر، ويعلم ما له وما عليه وما يستحق علىٰ كلٍّ من نعيم أو عذاب.

﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ ٦٥ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ٦٦ لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾.

وبعد أن ذكر قَـهْرَه وسلطانَه وحِفْظَه وإحسانَه، ذكر دليل قدرته ومنَّته ضمن تذكيرهم بشعورهم بالتوحيد فطرةً رغم أنوفهم، وذلك عند الشدائد حيث تَتجرَّد أرواحهم بتأثير ذلك الحال من عوائقها التي عرضت لها بتَدْسيتهم لأنفسهم وإفسادهم

لِفطَرِهم، فقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ المراد بظلماتهما: مجاهيلهما ومتاهيهما، لا سيما أثناء ظلام الليل واشتباه المعالم، وكذا أثناء ثوران البحر، إذ تُطلَقُ الظلمة على كلِّ شدَّة لها عاقبة سيئة مجهولة تُخشى. فإنهم في تلك الحال يُنيبون إلى الله قائلينَ بلسان شعورهم: ﴿لَئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: منتظمين في سلك أهل الشكر من المؤمنين.

ولما كان جوابُ هذا السؤال قد بلغ من الظهور بحيث لا يقدر على إنكاره مُنكِر، أمَرَه بالجواب على نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (أ) من المادة الثالثة عشرة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا﴾ المرَّة بعد المرَّة، ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ بعد زوال الشدَّة وعَوْدِ الكثافة والدناسة إلى أرواحكم، وذلك لأنَّ نفوسهم حينئذ تَتَجرَّد من شركها الطارئ عليها بإفساد صاحبها لها، وتلتجئ إلى الله وحده بحكم طبيعتها، فإذا انكشف الضرُّ عنها، عاد إليها الدنس العارض الذي انطبعت عليه بالتقليد والبيئة الفاسدة.

ثم ذكَّرهم بقدرته على تعذيبهم، إثر التذكير بقدرته على تَنْجيتهم، وسَبَكَه على التهديد والردِّ على استعجالهم العذاب تَعنُّتاً، فقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ بالصواعق والطُّوفان وحَبْس المطر والريح الشديدة ونحو ذلك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ بالخَسْف والقحط وبعض الأمراض الوبائية ونحو ذلك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالحروب فيما بينكم.

ثم ختم الكلام بما يتضمَّن تعجيبه من جمودهم على باطلهم، رغماً عن إيضاح الحق وبيانه لهم، فقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نُنوِّع المواعظ فنجعلها على أنحاء شتى، ومنها ما طريقه العقل ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾، ولكنهم لم يفقهوا. والفقه:

فهمُ الشيء بدليله وعلَّته المُفْضية إلىٰ الاعتبار والعمل به. وإنما يُرجىٰ الحصول علىٰ مثل ذلك بتنوُّع البيانات وتعدُّد البيِّنات.

وبعد بيان قدرته سبحانه علىٰ إرسال العذاب بالصُّورة المذكورة المريعة، تَوَعَّد المكذِّبين، ووَعَدَه بالنصر عليهم، فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب الذي تُوُعِّدوا به، أو بالقرآن علىٰ ما صَرَّفْنَا فيه من الآيات الجاذبة إلىٰ الإيمان؛ كَذَّبَ به ﴿قَوْمُكَ﴾ أي: المُعانِدون منهم، مِنْ ذِكْرِ العامِّ وإرادةِ الخاصّ. كذَّبوا به ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت المتحقِّق.

فأمره أن يقابل تكذيبهم هذا بقوله: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾، وهذا القول يتضمَّن تهديدَهم بالله سبحانه وبعذابه، وتَسْليتَه عن إعراضهم، علىٰ نهج القرآن في تسليته ﷺ إثْرَ بيان عناد المنكرين ومُكابرة الجاحدين.

والمعنىٰ: لستُ بمسيطر عليكم ولا مسؤولاً عن كفركم، وإنما أنا رسول ونذير لكم بين يَدَي عذاب شديد.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: وقتٌ يتحقَّق فيه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾، وفي هذا تهديدٌ مريعٌ.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ثم تابع الكلام عن هؤلاء المكذِّبين، مُبيِّناً ما يجب علىٰ المؤمنين تجاههم حالةَ خَوْضهم في التكذيب لهذه الآيات، وقد بيَّن ذلك بصورة عامَّة تشمل أمثالهم من أهل البدع والضلال الذين يُؤَوِّلون الآيات بالباطل، لتأييد ما استحدثوا من المذاهب والآراء، وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء، علىٰ نهج القرآن في تعقيب المعنىٰ الخاص بالمعنىٰ العام الذي يشمله وغيره حكماً عاماً. وخاطب المؤمنين في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالتكذيب والتأويل الفاسد، والاستهزاء والطعن فيها، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بترك مجالستهم والقيام عنهم ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾.

ثم ذكر حكم الناسي، فقال: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فمتىٰ تذكَّرت ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾، قال مجاهد: نُهِيَ ﷺ أن يقعد معهم إلا أن ينسىٰ[1].

ولما كان هذا النَّهْيُ يترك شيئاً من الخوف في قلوب المؤمنين، لا سيما الذين كانوا يقعدون مع هؤلاء المشركين قبل النَّهْي، هوَّن عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ أي: من حساب هؤلاء الخائضين ﴿مِّن شَىْءٍ﴾، فلا يُحاسَبون علىٰ شيءٍ من خوضهم، ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي: ولكن عليهم أن يُذكِّروهم ويَعِظُوهم ويقوموا عنهم زجْراً وتحقيراً لهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ عقابَ الله، ويتركون الخوض في آيات الله. أو المعنىٰ: ولكن هذا النَّهي تذكيرٌ للمؤمنين، لعلَّهم يتَّقون كلَّ ما لا ينبغي لهم من مثل سماع الخوض في آيات الله بالباطل. والذكرىٰ الأُولىٰ بمعنىٰ التذكرة، والثانية: بمعنىٰ التذكير. والتقوىٰ الأولىٰ عامَّة، والثانية خاصَّة بالخائضين. ويجوز أن يكون القيام عنهم تذكيراً لهم.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١١: ٤٣٨).

ثم أردف السياق بما فيه حثٌّ للنبيِّ ﷺ على الاهتمام بأمر الدعوة إلىٰ هذا الدين، والإعراض عن هؤلاء المشركين وعدم المبالاة بهم. وفي صورة التعبير إيماءٌ لعناية الله سبحانه برسوله وتشجيعٌ له، فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: صُوراً ورسوماً؛ لا تُزكِّي نفساً، ولا تُطهِّر قلباً، ولا تُهذِّب خُلقاً، ولا تُصلح فاسداً.

ثم ألمع إلىٰ ما دفعهم إلىٰ هذا العمل، وهو الإفراط في طلب الدنيا، فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بالقرآن وحذِّر ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: تُقهَرَ قهراً شديداً، لأنَّ كلمة (تُبْسل) فعل مجهول من البسالة، أي: تُؤخذ ببَسَالةٍ أخذاً وبيلاً حال كونها ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي: وإن تَفْتَدِ بكل فداء لا يُقبَل منها، والكلامُ كنايةٌ عن أنه لا نجاة ولا خلاص.

وبعد أن ذكر هذا البيان العامَّ في جزاء النفس المجرمة، خصَّ بالبيان جزاءَ أولئك المكذِّبين، وأجرىٰ الكلام عليهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟﴾ أي: عُذِّبوا ببسالة وشدَّة ﴿بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وهو الماء في أشدِّ غليانه، ﴿وَ﴾ لهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾، وذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ويكذبون بهذا الدين.

ويجوز أن يكون ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ...﴾ تتمَّةً للبيان العام السابق عليه ينصُّ علىٰ نوع العذاب لتلك النفوس. أما أولئك المكذِّبون فداخلون في عموم هذا الوعيد.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ

كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

وبعد أن قَرَّر في الآيات السابقة بيِّنات التوحيد ودلائله، أردفَ ذلك بهذه الآية المُجَهِّلة لهؤلاء المكذِّبين المستهزئين بالدين، والمفنِّدة لهم والمُسَخِّفَةِ لعقولهم والهازئة بهم، فقال: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ ونُشرِكُ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ للإيمان والتوحيد. والاستفهام للإنكار والتَّجهيل، أي: أيعقل أن نختار هذه الحال السُّوأىٰ؟

ثم شبَّه المرتد عن هذا الدين القويم بعد الإيمان به بهذا التَّشبيه البليغ الذي عرَّض فيه بهؤلاء المشركين الذين يدعونه لدينهم، وهذا شأنهم فيه، فقال: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ قائلين له: ﴿ٱئْتِنَا﴾ عُدْ إلينا. فشبَّه مَنْ يَرتَدُّ مشركاً بعد الإيمان بالمُسْتهام الذي يَضِلُّ في الفلوات حَيْران لا يهتدي، تاركاً رفاقَه علىٰ الجادَّة ووَضَحِ الطريق، ينادونه: ائتنا، عُدْ إلينا، عُد إلىٰ الطريق الواضح. فلا يستجيب لهم لانحداره وراء ما تَرَاءىٰ له من الغيلان بغير عقل ولا بصيرة.

هذا شأنُ المؤمنين مع المشركين في دعواهم إلىٰ الإيمان، وامتناعهم عنه، وبقائهم في الضلال المبين. وهذا التشبيهُ مبنيٌّ علىٰ المتعارف الموهوم بين الناس من استهواء الجنِّ[1]، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، (كما جاء في الفقرة (هـ) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة من مجازات القرآن).

ثم أردف الإنكار بالتقرير، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ لا ما تَدْعون إليه من أهوائكم، اتِّباعاً لما ألفَيْتُم عليه آباءكم، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ

(١) تقدَّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ في المقدمة ص٦٩٣.

لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ فأسلمنا، ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ ففعلنا، ثمَّ ختم الكلام بما يحمل علىٰ الامتثال، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم تابع الكلام بما يُنبِّه علىٰ قدرته العظيمة، تحقيقاً لأمر الحشر، وإثارة للشعور به والعمل بما يؤدِّي إلىٰ السعادة فيه والحذر منه تعالىٰ، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ فلا يترك الناس سُدىٰ، ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يوم إعادة الإيجاد والتكوين، يتحقَّق ذلك الحق اليقين، وهو ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ في بَعْثِ مَنْ في القبور إلىٰ الحشر والنشور، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ فلا تملكُ يومئذ نفسٌ شيئاً، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فلا يغيبُ عليه من الأمر شيء، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء بمقتضيات العلم والحكمة البالغة، ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بمقتضيات الأشياء حسب علمه الواسع الدقيق.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم أردف السياق بما كان من أمر إبراهيم عليه السلام، بمقتضىٰ كماله الفطريِّ، من اهتدائه للحقِّ منذ صغره، وتضليله عَبَدة الأصنام، واستنْباطه لبراهين التوحيد وبطلان الشرك، ومن أنه جاء بالدعوة إلىٰ التوحيد، أردف السياق بهذا ليحتجَّ ويردَّ

علىٰ هؤلاء المشركين المعاندين الذين يدَّعون أنهم علىٰ ملَّة إبراهيم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾، والضلال لغةً: العدولُ عن الطريق المُوصِل إلىٰ الغاية، والمبين: الواضح، إذ من السَّفَه الفاضح عبادة الإنسان مَنْ هو مثله، فَضْلاً عمَّا هو دونه.

وقد ذكر تعالىٰ وَجْهَ هداية إبراهيم عليه السلام، وفرَّع عليه وجه هَدْيه لقومه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] أي: كما أرينا إبراهيم بطلان ما كان عليه قومه وضلالهم، كنا نُريهِ أيضاً المرة بعد المرة عجائبَ السماوات

---

(١) الذي أظنُّه ـ والله أعلم ـ أن ما جرىٰ لإبراهيم عليه السلام من النظر في ملكوت السماوات إنما كان في صغره وعند مبدأ انتباهه للتفكير والاستنباط، فأخذ يُحلِّل ببصيرته عبادة قومه للكواكب والشمس والقمر، ويُقلِّب فيها وجوه النظر، فانْجلىٰ له خَطَل قومه في هذا الأمر، وتبيَّن له أنَّ خصائص هذه الكواكب ـ وإن كانت جليلة ـ لا تُؤهِّلها أن تكون آلهة وأرباباً؛ لأن المتغيِّر يكون من أشخاص هذا العالم، فلا يصح أن يكون إلهاً، وإنَّ الذي يستحقُّ ذلك إنما هو خالقها ومُدبِّرها الذي وَهَبَ لها هذه الخصائص. فأخذ يحاور أباه في الصغر، ثم قومه وهو فتىٰ في هذا الشأن، ويزداد فيه بُعْدَ نظر، يصحبه تمكين، حتىٰ جاءته النبوَّة وأتاه اليقين. وعلىٰ هذه الوتيرة كان سائر الأنبياء والمرسلين ينتبهون إلىٰ مثل ذلك من صِغَرهم، بمقتضىٰ كمالهم البشري. فقد كان محمد ﷺ في صغره يرىٰ أنَّ عبادة قومه لهذه الأصنام ضلال بعيد، ولذلك لم يعبد صنماً قط، ثم تطلَّب له ديناً فقلَّب اليهودية والنصرانية في ذلك الحين، فرآها مشحونةً بالضلال، فتوجَّه إلىٰ الله سبحانه أن ينقذه من هذه الحيرة، ويهديه سواءَ السبيل. ولم يزل مُتحيِّراً حتىٰ أتاه اليقين من ربِّ العالمين، وهداه إلىٰ صراطه المستقيم بالوحي المبين. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧] أي: مُتحيِّراً في أمرك فهداك للرُّشْد والفلاح. (المؤلف).
قلت: ما ذكره المؤلف من أن النبيَّ ﷺ قلَّب اليهودية والنصرانية بحثاً عن الدين الحقّ؛ كلامٌ لا يُوافَقُ عليه، لعدم ثبوت ذلك في روايات السيرة النبوية، ولو كان لاتخذه المشركون مطعناً في دعوته عليه السلام، ولم يفعلوا، فدلَّ علىٰ أنه لم يكن.

والأرض وبدائعهما، وعَظَمةَ الله وسلطانه فيهما، ليعلم من اختصاص أفعال الألوهية وصفاتها في خالقهما، أنه هو المستحق وحده للعبادة والتوحيد لا مخلوقاته، ﴿وَلِيَكُونَ﴾[1] في ذلك ﴿مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فيكون أهلاً لاصْطفائه والإيحاء إليه. وهذا هو الدليل القاطع المؤدي إلىٰ الإيقان في وجود الله سبحانه وصفاته العليَّة، وتوحيده واستحقاقه للألوهية والجلال.

وبعد أن اصْطَفاه الله نبياً ورسولاً عَمَد إلىٰ نشر الدعوة في قومه، وأراد هدايتهم من طريق النظر والاستدلال، لأنهم أهل علم ونظر، فعمد إلىٰ إبطال عقيدتهم في تأليه الكواكب بصورة مُستدرجة لإقبالهم عليه، وغير مُنفِّرة لهم، ومُنبِّهة لشعورهم علىٰ خطئهم الفاضح. وجعل طريقة المناظرة معهم هادئة مُتَدرِّجة إلىٰ الأقوىٰ فالأقوىٰ من الحُجَّة والبرهان، فابتدأ بوصفها في الربوبية، ثم أظهر الشك في ذلك، كما حكىٰ عنه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ قيل: هو المشتري، وكان من جملة ما يعبدون. فجارىٰ خصمه في المناظرة ليكون النقض والإبطال أشدَّ تأثيراً وأحكم إلزاماً و﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾، وجعل صورة الكلام تمهيداً للإنكار علىٰ قومه، واستدراجاً لهم في سماع حُجَّته علىٰ بطلان هذه المقالة، إذ أوهمهم أنه موافقٌ لهم علىٰ زعمهم، ثم كرَّ علىٰ هذا الزعم بالنقض والإبطال، بانياً دليله علىٰ قاعدة الحسِّ ونظر العقل، فبيَّن لهم أنَّ الأُفولَ لا يجوز علىٰ الإله، كما حكىٰ الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ أي: إنه محكوم عليه بنظام، وليس بحاكم مطلق، فلا يجوز أن يكون رباً لهذا الكون.

وقد تَضمَّنت الآية إقامة الدليل علىٰ حدوث العالم، بحركات الكواكب وتبدُّل أوضاعها.

---

(١) كلمة ﴿وَلِيَكُونَ﴾ معطوفة علىٰ محذوف، حسب نهج القرآن في أنواع الإيجاز. (المؤلف).

وهكذا تَدَرَّج من النجم إلىٰ القمر، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: مبتدئاً في الظهور، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ﴾ مُسْمِعاً مَنْ حوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾، وهذا تعريضٌ بضلال قومه. والغالب أنَّ المناظرة في القمر كانت في غير ليلة المناظرة في الكواكب، عملاً بالإمهال بين مناظرة وأخرىٰ، لأنه أصلَحُ في الإقناع وأجْلَبُ للنفوس، فكان يتظاهر بعبادتها ثم يُبطِلها.

ثم تدرَّج من القمر إلىٰ الشمس، كما حكىٰ عنه سبحانه بقوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، وفي هذا الوصف مبالغةٌ في المجاراة، وتمهيدٌ قويٌّ لإقامة الحُجَّة البالغة عليهم، واستدراجٌ لهم إلىٰ التَّمادي في الاستماع له، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ وقامت الحُجَّة عليهم؛ صرَّح بشركهم وتبرَّأ من عقيدتهم، و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾، وهذا هو مَحَطُّ المناقشة وهدفها[1].

ثم قفَّىٰ علىٰ التصريح بشركهم ببيان عقيدته الحقَّة، وهي التوحيد الخالص، فقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ

---

(١) الذي يظهر لي ـ والله أعلم ـ أنَّ مفاهيم هذه المناظرة كانت تدورُ في مخيلة إبراهيم عليه السلام منذ الصِّغر، ولكنه جادل بها قومه في الكبر. وما يتخلَّلها من خطاب قومه كان في الصغر خطاب تفكير، يؤنِّب بها قومه في ذهنه، وكان عند المجادلة خطاب مشافهة. وقد جريت في تفسير الآيات مَجْرىٰ المفسِّرين، حيث يعتبرون الدور الثاني، وهو المجادلة الشفهية، فَسِرْتُ سَيْرَهُم في التفسير، وخالفتهم في الهوامش والتعليق. (المؤلف).

ولو بقي المؤلف رحمه الله جاريًا مجرىٰ المفسِّرين لكان أَوْلىٰ، فلا دلالةَ في الآيات علىٰ دَوْرَين من المجادلة، ثم حَمْلُ القول المُصرَّح به في الآية علىٰ أنه كان تفكيرًا في المخيلة غير صحيح، ولو فتحنا هذا الباب لأفسَدْنا كثيراً من المعاني المقصودة في كتاب الله.

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾، والتعبير بـ«فاطر السماوات والأرض» ـ وهو وَجْهُ الحجَّة في الآية، أي: أؤمن بالله لا بمخلوقاته ـ يتناسب مع رؤية تلك الأجرام والمُحَاجَّة بها.

وظاهر ما حكاه سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: أن قومه كانوا يتَّخذون الأصنام آلهةً لا أرباباً، ويتَّخذون الكواكب أرباباً لا آلهة. والإله: هو المعبود، والربُّ: هو المتصرِّف المُدبِّر للكون. فهم يعتقدون أنَّ تدبير الكون صادرٌ عن هذه الكواكب.

والأصل في اختراع عبادة غيرِ الله من حَجَر أو شجر أو شمس أو قمر، هو أنَّ بعض ضِعَاف العقول رأوا بعضَ ظواهر قُدرته تعالىٰ في بعض مخلوقاته، فتوهَّموا أنَّ ذلك فيها إنما هو صفةٌ من صفات ألوهيَّتها، فعبدوها، ثم أقاموا مقامها في الأرض أصناماً تُذكِّرهم بها. وهكذا كان قوم إبراهيم عليه السلام، فاتَّخذوا الكواكب أرباباً لاعتقادهم أنَّ لها تأثيرات في تدبير العالم الأرضي، فكانوا يعتقدون أنَّ الشمس ربُّ الناس، والقمر ربُّ الملوك، والمشتري ربُّ العدل، والمريخ ربُّ الحرب، والزهرة ربُّ السعادة، وعطارد ربُّ العلم والحكمة. وهكذا كانوا في جهل عميق وضلال بعيد.

ويجوز أن يكون ما أرىٰ الله سبحانه إبراهيمَ عليه السلام من هذا النظر والتَّبصُّر في ملكوت السماوات والأرض، إنما كان منذ صغره، فتبرَّأ مما كان عليه قومه، كما وقع لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وبعد أن اشتدَّ ساعدُ إبراهيم عليه السلام في هذا النظر والاستدلال، وقويت عنده الحجَّة، وتمكَّن من المناظرة، أخذ يناظر قومه فيه ويُسفِّه رأيهم في دينهم. والله أعلم. وعلىٰ هذا، يكون قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ليس بخطاب مواجهة مطلقاً، ولكنه تبرُّؤٌ بصورة خطاب خيالي وحديثٍ نفسي في حال الصغر، وخطابٌ حقيقيٌّ في حال الكبر والمناظرة مع قومه[1].

---

(١) تقدّم التعليقُ علىٰ هذا المعنىٰ وبيان ضعفه قريبًا ص٣٣٠.

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

ولما حاجَّ إبراهيمُ عليه السلام قومَه ببيان بطلان عبادة الأصنام وربوبيّة الكواكب، وبإثبات وحدانيَّة الله تعالىٰ، ووجوب عبادته وحده، وهي الحنيفيَّة البيضاء، حاجُّوه هم أيضاً ببيان أن اتِّخاذ الوسطاء لا يُنافي الإيمان بالله، وخوَّفوه أن تمسَّه آلهتهم بسُوء، كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ من الكواكب والأصنام أن تُصيبني بسُوء، فإني أعلمُ عِلمَ اليقين أنها لا تَضُرُّ ولا تنفع، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ بي، وهذا استثناء منقطع، أي: فإنه يقع ما يشاء ولا يقع سواه. فقد شاء سبحانه أنَّ مَنْ يعاكس نظام الصحة مثلاً يمرض، ومن يعاكس نظام الكسب تسُوءُ حاله ويفتقر، وهكذا، ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فلا يخرج عن علمه شيء. ومشيئتُه سبحانه تَجْري بحسب ذلك العلم، وقد نظَّم الكون علىٰ سنن مُطَّردة، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ لتدركوا ذلك في سنن هذا الكون وأنظمته.

ثم ردَّ عليهم بوجه آخر يردُّ به تخويفهم له من معبوداتهم. ومحصَّله: كيف تنكرون عليَّ الأمنَ في موضع الأمن، ولا تنكرون علىٰ أنفسكم الأمنَ في موضع الخوف، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ من الكواكب والأصنام العاجزة، ﴿وَلَا تَخَافُونَ

﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ فافتياتُكُم علىٰ خالقكم القويِّ العزيز بهذه الدعوىٰ الكاذبة هو الذي يجب أن يُخاف ويتَّقىٰ.

وهذا القيد ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ إنما هو لزيادة البيان في البطلان، وللإيماء إلىٰ أنَّ الحقَّ لا يثبت إلا بالبرهان.

ثم مَخَّضَ الإلزام، وجعله علىٰ وجه التَّسخيف، وقال: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: إن كنتم من أهل العلم والبصيرة.

وبعد هذا الاستفهام التبكيتي، صرَّح بالجواب عنه، مبالغةً في التبكيت وتوضيحاً للحقيق بالأمن، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: بشيءٍ من الشرك في العقيدة، أو الشرك المطلق في العبادة كما تفعلون، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ إلىٰ الحق، ومَنْ عداهم من أرباب الشِّرك هم في ضلال مبين، ومُهدَّدون بعذاب الله في الدنيا والآخرة.

وقيل: إنَّ قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ...﴾ من كلام الله تعالىٰ، فَصَلَ به القضاء بين إبراهيم ومَنْ حَاجَّهُ من قومه. والمراد من الأمن هنا: ما يقابل الخوف المذكور في السياق.

والظاهر أنَّهم لما لم يجدوا حُجَّة عقليَّة علىٰ شركهم بالله، خوَّفوه أن تمسَّه آلهتهم بسوء، ولا بدَّ للمحجوج من بارد العذر، وكثيراً ما يَضْطرب المقلِّد لسماع الحُجَّة، إذ يُومِضُ في قلبه نورُها، ثم يعود إلىٰ سابق وهمه، خائفاً مما لا يُخيف، راجياً مما لا يُرجىٰ، كما يُشاهَدُ لدىٰ زائري قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهَّمون أنَّ هذه القبور تدفع عن زائرها الضررَ، وتكشف عنه السُّوءَ، وتدرُّ عليه الرزقَ، وتكْبت العدوَّ، إما بتصرُّفهم في الخلق، وإما لأنهم مُقَرَّبون عند الله، ولا يرون هذا شيئاً ناقضاً للإيمان الصحيح،

وفي مثله يقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦][1].

ثم ختم هذه المُحَاجَّة بالتنويه بشأنها، تبكيتاً للمشركين، فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: أرشدناه إليها.

ثم نوَّه بشأن إبراهيم عليه السلام، مُمتنّاً عليه بما آتاه من كمال العقل وقوَّة الحُجَّة ورِفْعة النبوة، فقال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ فيما يفعله من رفع وخفض. وفيه تلميحٌ أيضاً إلىٰ أنَّ الرسول ﷺ ممَّن رفع درجتهم، وإظهارٌ لمزيد لطفه به عليه الصلاة والسلام.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

---

(١) لا ينبغي تنزيلُ الآيات الواردة في المشركين شركًا صراحًا علىٰ المؤمنين الذين يقع لهم خطأ في التعبير؛ بسبب جهلهم بالألفاظ ودلالاتها، مع سلامة اعتقادهم من حيث نسبة النفع والضرّ إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ وحده، والواجب تعليم العوام وإرشادهم إلىٰ الصِّيَغ السليمة والعبارات الصحيحة.

وبعد أن بيَّن رَفْعَ درجة إبراهيم عليه السلام، بيَّن فَضْلَه ونِعَمَه عليه في جعل الكتاب والحكمة والنبوة في ذريته، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ أي: بما آتيناهم من النبوَّة والحكمة وقوَّة الحجة ونور البصيرة.

ثم ألمع إلىٰ أنَّ هذه الهداية قديمةٌ في البشر، فقال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ إلىٰ مِثلِ ما هَدَيْنا إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ من النبوة والحكمة وإرشاد الخلق وتلقين الحجة.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ هذه النعمة والكرامة لم تقتصر علىٰ أولاد إبراهيم الأَدْنَيْنَ فقط، ولكن شملت بعض ذريته أيضاً، فقال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

ثم ذيَّل بهذا الوعد الكريم المسبوك علىٰ التَّمنُّن، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾، والإشارةُ إلىٰ ما يُفهَمُ من النظم الكريم من جزاء إبراهيم عليه السلام.

ثم تابع السَّرْد فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾، فقد امتازوا بشدَّة الزهد عن الدنيا، والإعراض عن سلطانها.

ثم تابع السرد فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: فضَّلنا سائر الأنبياء علىٰ العالمين.

وهذه الآيات أجمعُ الآيات لأسماء الأنبياء.

وقد ذهب بعض المفسِّرين إلىٰ أنَّ الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ لنوح، لأنَّ لوطاً ويونس ليسا من ذُرِّية إبراهيم. وذهب سائرهم إلىٰ أنَّ الضمير عائدٌ إلىٰ إبراهيم، لأنَّ

الكلام في شأنه، وما آتاه الله من فَضْله. وإنما ذكر نوحاً لأنه جدُّه، فهو لبيان نِعَمِ الله عليه في أفضل أصوله، تمهيداً لبيان نِعَمِه عليه في الكثير من فروعه. وإنَّ يونس من ذريَّة إبراهيم، وإنَّ لوطاً ابن أخيه، وقد هاجر معه، فهو يدخل في ذرِّيته بطريق التَّغليب، ويُعَدُّ منها كذلك بطريق التَّجوُّز في عرفهم العام الذي يُسمُّون به العَمَّ أباً. والمذكورون كلهم مفاعيلُ لـ﴿هَدَيْنَا﴾.

ثم قال في «المنار» ما مُحصَّله: وقد ذكر الله تعالىٰ في هذه الآيات الثلاث أربعة عشر نبياً لم يُرتِّبهم علىٰ حسب تاريخهم وأزمانهم؛ لأنه أنزل كتابَه هدىٰ وموعظة، لا تاريخاً، ولا علىٰ حسب فضلِهم ومناقبِهم، لأنه ليس كتابَ مناقب، وإنما هو كتابُ تذكرةٍ وعِبرة.

وقد جعلهم ثلاثة أقسام، لمعانٍ في ذلك جامعةٍ بين كل قسم منهم، متناسبةٍ مع سياق التمنُّن علىٰ إبراهيم بشرف ذريته.

فالقسم الأول: داود ومَنْ ذكر معه. والمعنىٰ الجامع بين هؤلاء: أنَّ الله تعالىٰ آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوَّة والرسالة، فداود وسليمان كانا مَلِكَيْن، وأيوب كان أميراً غنياً كثير الإحسان، ويوسف كان وزيراً عظيماً، وموسىٰ وهارون كانا حاكمَيْن ولم يكونا مَلِكَيْن.

والقسم الثاني: زكريا ومَنْ ذكر معه، وهؤلاء قد امتازوا بشدَّة الزُّهْد في الدنيا والإعراض عن سلطانها.

والقسم الثالث: إسماعيل ومَنْ ذكر معه، أخَّر ذِكرَهم لعدم الخصوصيَّة، وقفَّىٰ علىٰ ذكرهم بالوصف العام للأنبياء، وهو التَّفضيل علىٰ العالمين[1].

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٤٨٩ - ٤٩٠).

ثم تابع الكلام عما ذكر من أحوال الأنبياء، فقال: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ فعطفه علىٰ قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، فهو في سياق ﴿هَدَيْنَا﴾، والمفعول محذوف يُفهَمُ من التبعيض، أي: وهَدَيْنا من آبائهم وذريَّاتهم وإخوانهم ـ أي: أتباعهم ـ جماعاتٍ كثيرة، وقوله: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿فَضَّلْنَا﴾. وأُعيدَ ذِكرُ الهداية لبيان متعلّقها، وهو قوله: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ أي: يَصِلُ سالكُه إلىٰ سعادة الدارين.

ثم نوَّه بشأن هذه الهداية، وسَبَك ذلك علىٰ الامتنان بها، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الهدىٰ ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وهذه الهداية علىٰ نوعين: هداية ليس لصاحبها سَعْيٌ لها ولا هي مما يُنال بالكسب، وهي النبوَّة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧]، وهداية قد تنال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهي والتوفيق.

ثم أتىٰ بهذه الجملة الفرضية لبيان عِظَم الشرك، تهديداً لأولئك المشركين وتنديداً بهم، فقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: ولو فُرِضَ أنْ أَشرَكَ هؤلاء الأنبياء المنوَّه بشأنهم بالله سبحانه وتعالىٰ ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ من أعمالهم العظيمة التي نوَّهنا عنها، ولم تنفعهم شيئاً مع الشرك بالله. والغرض من هذا: بيانُ فظاعة الشِّرك وحَبْطه للأعمال من أيِّ مكان، لأنه يفسد النفوس إلىٰ حدٍّ لا يصلح معه عَمَلٌ أبداً.

ثم قفَّىٰ علىٰ هذا الغرض؛ إبعاداً له عن هؤلاء العظماء، ببيان عُلوِّ شأنهم وكمال فَضْلهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، والمراد من الكتاب: جنسه، ومن الحكم: العلم والفقه به، ولا يبعد أن يراد بالحكم معناه الحقيقي، لأنه لازمٌ للنبوة طبعاً. والله أعلم.

والمراد من إيتاء الكتاب: الأمر بالإنذار به، سواءٌ نزل عليه أو علىٰ غيره. وبهذا يتفاضلون في الدرجة، فمن نزل عليه كتاب أعلىٰ درجةً ممَّن لم ينزل عليه كتاب.

ثم ختم الكلام بما هو كالنتيجة له والغرض منه، وهو التَّشنيع علىٰ المشركين الذين ساق قصة إبراهيم عليه السلام حُجَّةً عليهم، والتنويه بالمؤمنين الذين ساق القصة حُجَّةً لهم؛ ذكر ذلك بطريقة الاستطراد، فقال: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ أي: بهذه الثلاثة: الكتاب والحكم والنبوة، أو بالنبوة الجامعة للباقين؛ فإنْ يكفر بها ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: كفَّار قريش. وذلك لأنهم بكفرهم برسول الله ﷺ وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يُصدِّقه، فإن يكفروا بالنبوَّة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ وهم أصحابُ رسول الله ﷺ ومَنْ جاء بعدهم.

ثم التفت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ مُخاطباً له بهذا الإرشاد، وسَبَكه علىٰ التنويه بشأن أولئك الأنبياء والتكريم لهم، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: الأنبياء المذكورون هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

وهذا الخطاب يجوز أن يكون عامّاً لكلِّ مُخاطَب أو للأمة، ولكن في شخص النبي ﷺ، علىٰ أسلوب القرآن في مثل ذلك. ويكون المراد من الاقتداء بهَدْيِهم: التوحيد والتنزيه.

ويجوز أن يكون خاصاً به ﷺ. ويكون المعنىٰ: اقْتَدِ بهم ـ أيها الرسول ـ فيما يتناوله كَسْبُك وعملك، مما بُعثت به من تبليغ الدعوة، وإقامة الحُجَّة، والصبر علىٰ التكذيب والجحود، وإيذاء أهل العناد والجمود، وإعطاء كلِّ حال حقَّه من مكارم الأخلاق وأحاسن الأعمال.

وقد كان ﷺ مهتدياً بهداهم كلِّهم، فكانت مناقبه وفضائله الكسبيَّة أعلىٰ من

مناقبهم وفضائلهم، لأنه اقتدىٰ بها كلِّها، فاجتمع له من الكمال ما كان مُتفرِّقاً فيهم، مُضافاً إلىٰ ما أُوتيه دونهم. ولذلك شهد له ربُّه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ثم ختم السياق المتضمِّن لدعوته ﷺ بما يختم القرآن به أكثر دعوات الأنبياء لأقوامهم، وهو أنهم لا يسألون علىٰ هذه الدعوة أجراً، يُبَرهنون بذلك علىٰ أنه لا غَرَضَ شخصياً لهم من وراء تلك الدعوة، ولا استفادة دنيويَّة، وإنما هي إرشاد الله لعباده بواسطة أنبيائه، فقال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ حتىٰ تَتَّهموني بأنَّ لي غَرَضاً شخصياً وهدفاً دنيوياً بهذه الدعوة، كلا ﴿إِنْ هُوَ﴾ الذي أدعوكُم إليه ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ من الله ﴿لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، يذكِّرهم بما يجب عليهم ليَقُوا أنفسَهُم من النار، وينالوا رحمةَ العزيز الغفَّار، ويحوزوا الراحة في الدنيا والسعادة في الأخرىٰ.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

وبعد أن بيَّن شأن أولئك الرسل وهدايتهم بما هداهم الله به من إنزال الكتب والشرائع عليهم، وأنَّ الرسول الأعظم ﷺ واحدٌ منهم، شنَّع علىٰ هؤلاء المشركين إنكارهم للوحي والنبوة وكفرهم بها، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[1] في اللطف

(١) يجوز أن يكون هذا الكلام تصويراً لـهؤلاء المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهم قد عبثوا بكتابهم السماوي غايةَ العبث، فهم لم يَقْدُرُوا الله سبحانه في لطفه بعباده وعظيم =

بعباده والرحمة بهم، وتوجيههم إلىٰ الرَّشاد بإرسال الرسل لهم، وإنزال الكتب عليهم، ﴿إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ فإنَّ إنكارهم لِـمَا أنزل الله علىٰ البشر من الشرائع والتعاليم معناه: أن الله سبحانه خلق البشر مُختاراً في تصرُّفاته، ولم يُبيِّن له المنهج الذي يلزم أن ينهجه في تلك التَّصرُّفات لينال الخير والسعادة، ويَتجنَّب الشرَّ والشقاء، ولا سيما في الأمور التي لا يدركها عقلُه من أحوال الآخرة وشؤونها. وذلك يُنافي الرحمة منه سبحانه واللطف والحكمة والجلال.

وقد دَحَضَ سبحانه هذا الزعم منهم مشاركاً معهم مَنْ يعلِّمونهم هذا الإنكار، وهم اليهود الذين يَخْدعونهم بهذا الإنكار، ويُضلِّلونهم بما لا يعتقدون.

ويجوز أن تكون حكايةُ القرآن عن قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ مبالغةً في إنكارهم بنبوَّة محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه، وذلك مِنْ ذكر العامّ وإرادة الخاصّ، وهو مِنْ عُرف التخاطب.

فأمر الله نبيَّه ﷺ أن يُلزِمَهم بما لا ينكرونه، فقال بطريقة الاستفهام الإلزامي التقريري: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ثم استطرد إلىٰ بيان تلاعبهم به استطراداً واستتباعاً بديعاً، وزاد في تأنيبهم والتشنيع عليهم، مُلمعاً إلىٰ شدَّة احتياجهم لتجديد الشريعة، فقال: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾، فضمَّن هذا الإلزام الفاضح نَقْدَ اليهود والتَّشنيع عليهم بإخفائهم بعض نصوص

= إحسانه حقَّ قدره، حيث أنكروا أن يرسل الله سبحانه للبشر رسولاً بكتاب جديد يُوجِّههم للصراط المستقيم، بعد أن ضلُّوا عنه ضلالاً بعيداً. وكان عليهم أن يشكروه علىٰ ذلك، ولكن قابلوه بالكفران. فهو يُؤنِّبهم علىٰ هذا الإنكار غايةَ التأنيب، بأبدع التعبير، وأبلغ التقريع. (المؤلف).

التوراة علىٰ عِظَم شأنها. ومن ذلك إخفاؤهم أمر البشارة بمحمد ﷺ وبيان صفاته، وإخفاؤهم حكم الرَّجْم للزاني المُحْصَن وإبطالُه في ذوي الوجاهة منهم دون عامة الناس، وفتاويهم في تحليل الحرام بصور من التأويلات إرضاءً لشهوات الملوك وكبار الأغنياء، لقاءَ أموال يأخذونها منهم. أي: تركتم العمل بجميعه علىٰ الصورة التي نزل عليها ﴿وَ﴾ الحالُ قد ﴿عُلِّمْتُمْ﴾ به ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ من عظيم الأحكام وجليل التَّعاليم والآداب، ففرَّطتُم به وتركتُموه وراءَ ظهوركم.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وصفاً للقرآن، ذكره بعد أن بيَّن عبثهم بتوراتهم. أي: إنَّ توراتكم أصبحت ـ بعد أن أخفيتم بعضها وتلاعبتم بها ـ غير صالحة للتشريع. وقد أنزل إليكم عِوَضَها هذا القرآن العظيم الذي فيه ما ليس موجوداً في سائر الكتب السماوية.

والمعنىٰ الأول: مفاد قول قتادة، والمعنىٰ الثاني: مفاد قول مجاهد[1].

ثم أمره أن يجيب علىٰ هذا السؤال بالجواب القطعي الذي لا ينكرونه، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزل ذلك الكتاب، وهو الذي أنزل هذا الكتاب، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ في الباطل وإخفاء الحق ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ كما يلعب الصبيان، ويقولون: ما أنزل الله من شيء، ينكرون نبوَّتك، ويعارضون دعوتك، فلا تهتم بأمرهم، فإنَّما عليك البلاغ وعلينا الحساب. وَوَجْه الإلزام: كيف تنكرون نزول القرآن علىٰ محمَّد لأنه بشر، وأنتم مُصَدِّقون بنزول التوراة علىٰ موسىٰ وهو بشرٌ مثله؟

وبعد هذا الإلزام صرَّح بما تضمَّنه من أنَّ هذا القرآن هو أحد تلك الكتب السماويَّة ومُصَدِّق لها، علىٰ طريقة القرآن في التصريح بعد التلميح أو التضمين، (كما

---

(١) ذكر قولهما ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤: ١٣٤٣).

جاء في الفقرة (و) من المادة الرابعة من المقدمة الثانية)، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآنُ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: ما تقدَّمه من الكتب السماوية أنزلناه عليه لتُبشِّر، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وأمُّ القرىٰ: هي مكة، وخصَّها بالذكر لأنها مركز الدعوة وعاصمتُها والوطنُ الذي نشأ فيه ﷺ. ولذلك سمَّاها أم القرىٰ. ويكون المراد ممَّا حولها: سائر بلاد العالم، باعتبار أنَّ مكة المركز والقبلة لهذه الدعوة العامة الموجهة لكافَّة الناس.

وقوله: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ معطوف علىٰ محذوف، علىٰ نهج القرآن في مثله، وخصَّه بالذكر لأنه هو منشأُ الدعوة.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهم أتباع محمد ﷺ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيه تعريضٌ بغير المؤمنين به من أهل الكتاب بأنهم لا يؤمنون بالآخرة إيماناً صحيحاً، إذ لو كانوا يؤمنون بها إيماناً صحيحاً لآمنوا بهذا القرآن. وما مَثَلُ مؤمني أهل الكتاب بهذا القرآن عند نزوله إلا كَمَثَلِ قومٍ ضلُّوا الطريق في صحراء مُهلكة، فجاءهم مَنْ أرشدهم إليه وقبلوا منه، فإذا هم به مؤمنون، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ لأنها أكبرُ عاملٍ في نَيْل تلك السعادة والفوز والنجاة، والجملةُ تقريرٌ لإيمانهم وتنويهٌ به.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن أنَّ الوحي من شؤونه تعالىٰ، وأنَّ القرآن وحيٌ من الله أنزله علىٰ محمد ﷺ كالتوراة التي يعترفون بإنزالها علىٰ موسىٰ، قفَّىٰ علىٰ ذلك بالوعيد لمن كَذَب علىٰ الله أو ادَّعىٰ الرسالة، أو ادَّعىٰ أنه قادرٌ علىٰ الإتيان بمثل هذا القرآن، تقريراً لما سبق وزيادةَ إثبات له، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ باتِّخاذ الشركاء أو قال: ما أنزل الله علىٰ بشر من شيء، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، وفي هذا تلميحٌ بصدق محمد ﷺ في دَعْواه النبوة. وقالوا: إنَّ الآية تدل أيضاً بفَحْواها علىٰ شيءٍ من غيب القرآن، وهو ما حدث بعد ذلك من ادِّعاء بعض الكذَّابين للنبوَّة والوحي، كمُسَيلمة الكذاب، ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ كمَنْ قال من المشركين: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١]، وهم يعلمون أنهم لا يقدرون، ولكنهم يشاغبون ويكذبون.

ثم توعَّدهم بهذا الوعيد العام الذي يشملهم وغيرَهم، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾ إليهم بالعذاب؛ قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الذُّلَّ والهوان، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من اتخاذ الشركاء له، ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فلا تؤمنون بها؛ بغْياً وعِناداً، وعُتواً وفساداً.

ثم قفَّىٰ علىٰ هذا بما يُذَكِّرُون به يوم القيامة تذكيرَ تأنيب وتنديم، مما كانوا يجحدونه ويستبعدونه، ومما كانوا يعتزُّون به أو يثقون بشفاعته، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي: منفردينَ عن الأموال والأولاد، وعن الشفعاء والنصراء، ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: علىٰ حياةٍ مِثلِ حياتكم الأولىٰ، وقد كنتم تنكرون ذلك، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: ما أعطيناكم من الخَوَل كالعبيد والأموال والأنعام والمراكز الاجتماعية،

مما كان سبباً في إعراضكم عن الحق؛ تركتموها ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾[1] فلَمْ تَقْدَمُوا بشيءٍ منها، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ مع الله، والأديانُ الوثنية قائمةٌ علىٰ عقيدة الفداء والشفاعة، وفي هذه الآية تشنيعٌ ونعيٌ علىٰ المتورِّطين في هذه العقيدة.

وفي صورة التعبير مَثَارٌ للندم والشعور بالخيبة، قرَّره بقوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ الوَصْلُ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبين الشفعاء، ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ من الفداء والشفاعة، وساء ظنُّكم وخَاب.

وإنما أكَّد الخبر بلام الابتداء في قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾، مع أنَّ المجيء قد وقع، تذكيراً لهم بما كان من جحودهم إيَّاه واستبعادهم لوقوعه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

وبعد أن شنَّع علىٰ المشركين في السياق المنتهي، ونَدَّد بهم وتوعَّدهم، وبيَّن ما سيلحقهم من الخيبة والندم، وَوَعَت العقول ورهبت النفوس، دَعَا إلىٰ التوحيد المُنقِذِ

---

(١) كان زعماء العرب المقاومون لدعوة النبيِّ ﷺ يدركون أنَّ الأمر ليس مجرَّد عقيدة وتبديل عادة، ولكنه نهجٌ يحطم عليهم كل أُسسهم الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم وعيشهم الأرستقراطي، لذلك قاوموه أشدَّ المقاومة، وشنُّوا عليه تلك الحرب الشعواء باللسان والسنان، وخاصموه ذلك الخصام الشديد، فكان كلُّ ذلك دفاعاً عمَّا خوَّلهم الله من مال ومراكز اجتماعية، تركوها بعد موتهم وذهبوا مجرَّدين، فهو يُجهِّلهم وينعىٰ عليهم بما ضلُّوا بأنفسهم، بسبب أمور لم تفدهم شيئاً، بل تخلَّوا عنها في أحرج الأوقات وأشدِّ الأحوال، فوق ما كانت سبباً لإعراضهم وبلائهم. (المؤلف).

من ذلك، ذاكراً من صفاته تعالىٰ وأفعاله ما يستلزم اختصاصَه بالألوهية وانفرادَه بأن يُعبَدَ ويُقصَد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ يُنبِتُ منهما الزرع والشجر، فهو بذلك ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، ولما كانت هذه الجملة تفسيراً للأولىٰ وبياناً لها، عَطَفَ علىٰ الأولىٰ ولم يَعطِفْ عليها، فقال: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ فهو معطوف علىٰ ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ الذي هو بمعنىٰ: مُخْرِج الحي من الميت. ولذلك عبَّر باسم الفاعل دون الفعل.

وإخراج الحيِّ من الميِّت كإخراج النبات من بذوره، والحيوان من مواده. وإخراج الـميِّت من الحي كإخراج الحبوب من النبات، والمواد من الحيوان. ولا يَرِدُ ما يقوله العلماء من أن في النطفة والبيضة والبذرة حياة؛ يريدون ما بها من قوة التوليد والإنبات، لأنَّ هذا الإطلاق اصْطلاحٌ لأهل الفنِّ في عُرْفهم دون العرف العام الذي يجيء به التنزيل.

وبعد أن ذكر تلك الصفات والأفعال لله تعالىٰ، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ الذي تُدْعَون لعبادته وحده، ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي: تُخدَعون وتُصرَفون لعبادة غيره ممَّن لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ويُلْعَبُ بعقولكم وأنتم لا تفقهون؟

ثم تابع الكلام عن أفعال الألوهية وصفاتها المقتصرة عليه تعالىٰ، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي: مُخْرِجُ ضياء الصبح من ظلام الليل، بما أبدع في وضع النظام الشمسي، ﴿وَ﴾ من ذلك أنه ﴿جَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، ولولا هذا السكن لما دامت حياة إنسان ولا حيوان، إذ به يستعيد ما فَـقَده من قُواه أثناء عمل النهار، ﴿وَ﴾ منه أنْ جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بضبط دقيق، ونظام مُتْـقَن، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجعل السديد العظيم هو ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾، فكيف تُشركون به مَنْ لا يَخْلُقون شيئاً وهم يُخْلَقون؟!

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

ثم ذكر مِنَّة أخرىٰ ضمن إبداعٍ آخر، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] أي: في ظلمات الليل في البرِّ والبحر، وإضافةُ الظلمة إليهما للمُلابَسَة، أو المراد بها: مشتبهات الطرق والجهات ليلاً في البر والبحر، لإطلاق الظلمة علىٰ كلِّ أمر مجهول الغاية.

ومن المعلوم أنَّ هذه الفائدة من النجوم هي واحدة من فوائد كثيرة لا يحصيها العدّ، ولا يستقصيها العلم، ولكن هذا مسلك من مسالك القرآن يُساوِقُ به السياق إذا اقتضاه البيان.

قال في «الكشاف»: وكان اهتداؤهم بالنجوم قسمين: أحدهما: معرفة الوقت من الليل أو من السنة. والثاني: معرفة المسالك والطرق والجهات. وإنما فصل هذا عن

---

(١) من المعلوم أنَّ كون النجوم هدايةً في ظلمات البر والبحر ليس هو كل ما يُراد منها، فإنَّ ما أنيط بهذه النجوم من جلائل المقاصد وعظائم الآثار لا يُحصيه العدّ ولا يستقصيه العلم والعرفان، ولكن مثل هذا التحديد والاقتصار مَسْلك من مسالك القرآن، يُساوق به السياق إذا اقتضاه الحال، واستدعاه المقال، فذلك من أنواع إيجازاته وألوان أساليبه وعباراته، حيث يكتفي من الشيء العظيم بلمحة دالة، أو بشأن واحدٍ يتعلق بالسياق أو بالغرض. (المؤلف).

سابقه لأنَّ عالم النجوم هو العالم السماويُّ العظيم، والنظام الشمسيُّ جزءٌ صغير منه مُـخْتَصٌّ بعالمنا، وفائدته عظيمة علينا، ولذلك خصَّه بالذكر أولاً، فذكر الإصْبَاح والليل والشمس والقمر، ثم ذكر النجوم علىٰ العموم. وقد ذكرنا شيئاً من تفصيل العالم النجمي في سورة البقرة فارجع إليه.

ولعظمة شـأن هذا السـياق، ذيَّـل الآيـة بقولـه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

وبعد أن ذكَّرنا الله سبحانه وتعالىٰ بآياته الكونيَّة في الأرض وفي السماء، ذكَّرنا ببعض آياته في أنفسنا، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾، قال صاحب «المنار»: وعندي أنَّ المُستَقَرّ: الروح، والمُستودَع: الجسم[1]. أقول: وهذا علىٰ اعتبار أن تكون الصيغة اسمَ مفعول لا اسمَ مكان، وعلىٰ تقدير أن تكون اسمَ مكان للنفس، فقد قيل: المستقر: الآخرة، والمستودع: الدنيا.

وقال أبو مسلم: المستقر: الأب، والمستودع: الأم. فجعلهما مكاناً للنطفة، وإنما جعل الأب مُستَقَرَّ النطفة لأنها تتولَّد منه.

أعتقد أن المراد من النفس حوَّاء، لأنَّ الرحم هو مَعمَلُ الولد، ومن مواده تكوَّن، وليس للرجل إلا التلقيح، وهو جزءٌ لا يتجزأ، والمراد بالمستقر: الحياة الآخرة، وبالمستودع: الحياة الدنيا. والله أعلم.

ولـما كانت أطوار الروح وأطوار تخليق الإنسان ممَّا تَحار في شأنه ذوو الألباب، ذيَّل الكلام بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾، إذ الفقه دقَّةُ النظر في فهم الأمور واستنْباط خفاياها وإدراك مزاياها، ولا سيما أمر الآخرة.

---

(١) تفسير «المنار» (٧: ٥٣٤).

ثم ذكَّرهم بنوع آخر من آيات التكوين العجيبة والامتنان العظيم، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وإنما التفت إلىٰ التكلُّم لإظهار كمال العناية بهذا الإخراج الذي فصَّله بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي: شيئاً أخضَرَ مُتشعِّباً، ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ بعضه فوق بعض، علىٰ نظام وتنسيق بديع مُتْقن سديد. وهذا تفصيلٌ لِـمَا لا ساق له من النبات ونتاجه، عطف عليه حال نظيره من الشجر، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾، والقِنوان: جمع قنو، وهو العِذْق، وهو من النخل كالعنقود من العنب. والطلع: أول ما يطلع منه قبل أن يتعثكل. وقوله: ﴿دَانِيَةٌ﴾ معناه: متدليةٌ ومتقاربٌ بعضها من بعضها لكثرتها، وقد زاد جمالها بهذا الوضع والتنسيق.

ثم عطف علىٰ قولِه: ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ قولَه: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا﴾ في بعض الصفات لشدَّة تشابهها وتقاربها، ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في بعض أُخَر، أي: متقارب في بعض الصفات ومتباعدها في بعض. وهذا الاشتباه بين أنواع كل واحدٍ منها، فالرمان مثلاً منه الحلو والحامض والمرّ. وهكذا أيضاً تَتَمايز أنواع العنب والزيتون لوناً أو شكلاً أو طعماً، وتتطوَّر الثمار أطواراً عديدة بين طلعها ونضوجها. لذلك قال: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ إذا أينع، أي: نَضَجَ وبَدَأ صلاحُه، وتأمَّلوا صفاته ومميِّزاته في كلٍّ من الحالين ـ الإثمار والإيناع ـ وما بينهما، يظهر لكم من لطف الله وتدبيره وحكمته في تقديره وتطويره ما يدلُّ أوضَحَ الدلالة علىٰ وجوب توحيده في الألوهية والربوبية ونفي كل شريك.

ويجوز أن يكون في الآية تنبيهٌ وإلفاتُ نظر إلىٰ تطوُّرات الإنسان من الطفولة إلىٰ الشيخوخة، ومن الحياة إلىٰ الموت، ثم من الموت إلىٰ الحياة الثانية، فكلُّها تطوُّرات تستلزمها أنظمة طبيعيَّة وسنن كونيَّة. والله أعلم.

ثم ختم السياق بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾، فإنَّ المؤمن مُستعدٌّ للنظر والتدقيق في آثار الله، فهو يُدرك أنَّ مَنْ كانت هذه قدرته لا يُعْجِزُه الحشر والإعادة.

ومن بلاغة القرآن أنَّ ما بدأ به هذا البحث من إخراج الحي من الميت والميت من الحي يتناول سائر هذه الأنواع المذكورة في هذه الآيات وأطوارها، فكأنها تفصيلٌ له وتمثيل؛ لأنَّ الحبَّ حيٌّ يُنبِت، والتين لا يُنبِت. وقد لوَّن الخطاب وتفنَّن في طرق الإعراب للتنبيه إلىٰ ما فيه من أنواع في الإبداع والتخليق.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

وبعد أن ذكر الآيات الدالة علىٰ عَظَمة الله تعالىٰ واستحقاقه وحده لأن يُعْبَد، حكىٰ بعض ضروب الشِّرك لبعض مشركي العرب، استخفافاً بعقولهم واستهجاناً لبلادتهم، إذ لم ينتبهوا لمثل آثار الله هذه المستلزمة لاختصاص الألوهية به تعالىٰ، ويجعلون له شركاء، فقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾، وأتىٰ بصيغة البدلية ولم يقل: وجعلوا الجنَّ شركاءَ لله، لإفادة الغرابة من أمرين، الأول؛ جَعْل شركاء لله العظيم الذي هذا شأنه. والثاني: كونهم من الجن. فهم يشركون به غيره ﴿وَ﴾الحالُ أنه تعالىٰ هو الذي ﴿خَلَقَهُمْ﴾، وليس لشركائهم شيءٌ في ذلك الخلق، أفلا يعقلون؟!

ثم ذكر سخافةً أخرىٰ لبعضٍ آخرَ مُبيِّناً أنها ناشئةٌ من خُرْقِهم وحُمْقِهم، فقال:

﴿وَخَرَقُوا﴾ أي: اختلقوا بسخافتهم ﴿لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فسمَّىٰ مشركو العرب الملائكةَ بناتِ الله، وسَمَّىٰ غيرهم بعضَ الأنبياء أبناءَ الله، ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: هو مُنَزَّه عن ذلك مُتعال عنه، كيف لا وهو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقها علىٰ أبدع نظام، وكلُّ ما في الكائنات من إيجاده، ونسبتُها إليه نسبةُ المُبْدَع إلىٰ مَنْ أبدعه، والمخلوق إلىٰ من خَلَقه سبحانه. وليس له جنس حتىٰ يكون له منه زوج وولد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ يَنشَأُ الولدُ من ازدواجه بها، ولا معنىٰ للولد إلا ما كان كذلك، وإنما صدور جميع الكائنات عنه صدور إيجاد وإبداع، ﴿وَ﴾ هو قد ﴿خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ خلقاً، ولم يلده ولادة، فما خرقتم له من الولد مخلوق له لا مولود، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ يردُّ علىٰ مَنْ يدَّعي أنَّ عيسىٰ ابنُ الله لأنه خُلِقَ من دون أب من البشر، فبيَّن سبحانه أنه يعلم كيف يخلق ولداً من دون أب، ولا يستلزم ذلك أن يكون ولداً لله، سبحانه وتعالىٰ عما يقولون علواً كبيراً. وهاتان الجملتان لتقرير نفي الولد[1].

---

(١) وتصلح أن تكون الآية رداً علىٰ ما يشمل أقوال الفلاسفة القائلين بأن العقول والنفوس تصدر عنه تعالىٰ صدور المعلول عن العلَّة، كما تصدر أشعة الشمس عن الشمس، ويزعمون أنها الملائكة، وأن العقول بمنزلة البنين، والنفوس بمنزلة البنات، فقوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أنه سبحانه مُبدعها إبداعاً وخالقها خلقاً، وقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ نفيٌ للولد والولادة المعهودة، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ نفيٌ للولادة العقليَّة، وهي التولُّد والانبثاق والصدور، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ نفيٌ لما يدَّعيه بعضهم من أنه سبحانه لا يتعلق علمه إلا بالكليات، إلىٰ أمثال ذلك من التقوُّلات والتَّخرُّصات الصادرة عن الهوس والوهم والضلال. تعالىٰ الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ للإشارة إلىٰ أنه سبحانه يعلم ما يقتضي أن يكون عليه بعض المخلوقات من التمايز، ولا يخرجها ذلك عن حدود العبودية لله. (المؤلف).

وبعد هذه البراهين المُفحِمَة، مَخَّضَ النتيجة بالدعوة إلىٰ التوحيد والعبادة له تعالىٰ؛ لأنه لا يُماثله شيء وخالق كل شيء، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ ولا تُشركوا به شيئاً ﴿وَ﴾ ارهبوه إذ ﴿هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ يتصرَّف فيه بقدرته، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فلا تَخْفىٰ عليه مِن أمركم خافية، ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ الذي لا تُدرِكُ كُنْهَهُ العقول، والذي يُدرِكُ دقائق الأشياء وخفيَّات الأمور، فيُجري أمره وحُكمَه بمقتضاها، كما يجري إبداعه لبعض مخلوقاته لِحِكَمٍ تقتضيها، فالله يعلمُ وأنتم لا تعلمون. وهذه الصِّفات هي صفاتُ الإلهِ الحق، وهي أعظمُ دليلٍ علىٰ ألوهيَّته؛ لأنَّ من شأن الإله أن لا تُدركه الأبصار.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم نبَّه إلىٰ مكانة ما سبق من العلم والهداية؛ زيادةً في التَّحسيس والحَمْل عليها، مُجْرياً الكلام علىٰ لسان رسوله، علىٰ نهج القرآن ونَقْلِه من إجراء إلىٰ إجراء آخر، فقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: براهين واضحة تُبصِّركم الحق، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ثمرةُ ذلك الإبصار، ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ عن الحق ﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فسوءُ نتيجة ذلك العمىٰ علىٰ نفسه، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ يُراقب أعمالكم ويُحصيها عليكم، وإنما أنا بشير ونذير، والله علىٰ كل شيء حفيظ.

ثم ختم السِّياق بما يتضمَّن التَّنويه بشأنه وتوبيخهم علىٰ الجمود في الباطل مع هذا البيان الحافز، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: مِثلَ هذا التنويع في البيان وتوضيح الحُجَّة والبرهان نُصرِّف الآيات. أما قوله: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾ فمعطوفٌ

علىٰ محذوف، حسب نهج القرآن في مثله، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). أي: ليهتدي بها المستعدّون، وهم المحافظون علىٰ سلامة فِطَرِهم، وليقول المعاندون: دَرَسْتَ هذا علىٰ غيرك، وليس هذا بوحي. وهذا قول البعض منهم. وهذه اللام هي التي تسمىٰ لام العاقبة والـمآل، أما لام التعليل الحقيقي ففي قوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ إذ هم الذين يتأمَّلونه ويتبيَّنون حقيقة ما فيه من أنواع البيان المؤيَّد بالحجة والبرهان.

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم أردف السياق المتضمِّن لمعارضتهم وتعنُّتهم، رغم وضوح البرهان، أردفه بما يتضمَّن تثبيته وتسليته ﷺ عن ذلك، علىٰ نهج القرآن في تعقيب مثل هذا السياق بالتسلية والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ﴾ بالصبر والحلم ﴿عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ وتعنُّتهم، ﴿وَ﴾ ليس تعنُّتهم هذا قهراً للإرادة، إذ ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة، ولكن مضت سُنَّته وحكمته بأن يكونوا عاملينَ مختارينَ، ليكونوا علماء عاملين في الأرض مستقرِّين، وهداهم بالطبيعة والشريعة. وبهذا الاختيار في التَّصرُّف صاروا مُسْتَعدِّين للإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والطاعة والفسق. فأما غرائزُهم وفِطَرُهم فكلها خير، وأما تصرُّفهم فيها وكَسْبهم بها لعلومهم وأعمالهم فمنه الخير والشر، وذلك تابعٌ لما يَتَهيَّأ لهم من نوع التربية والتنشئة والتثقيف، لا من أصل الخِلقة والتكوين، وبذلك تكونُ الحُجَّة البالغةُ لله علىٰ الناس أجمعين.

وبعد أن أمر الله رسولَه بتبليغ وحيِهِ بالقول والفعل، وأمره بالإعراض عن المشركين في مقابلة جحودهم وطعنهم في الوحي، وعلَّل صدور ذلك منهم بأنَّ مِنْ مقتضىٰ سُنَّتِهِ في خَلْق البشر مختارين أن يكونوا مُستعدِّين للهداية والضلال، أكَّد الأمر ببيان حدود الرسالة؛ للإيذان بأنَّ من مقتضىٰ حكمته في بَعْث الرسل أن يكونوا مُبلِّغين لا مُسَيْطرين، فعليهم أن لا يَضيقوا ذَرْعاً بانحراف الناس ومعارضتهم، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ عليهم أعمالهم لِتُحاسبهم عليها، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ تتولَّىٰ أمورهم وتسأل عنها؛ لأن الوكالة تستلزم السيطرة والمسؤولية، وإنما أنت بشير ونذير، والله هو الوكيل الحفيظ. وفي هذا بيانٌ لوظيفة الرسول، وأنه مُبلِّغ لا مسيطر، وهادٍ لا جبَّار، فينبغي أن لا يضيق ذَرْعاً بما يَلقىٰ من المعارضين من الازدراء والطعن في الدين، فاللهُ يتولَّىٰ أمرهم، ويجازيهم جزاءً وفاقاً.

ثم عطف علىٰ أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم والصبر عليهم، نهيَ المسلمين عن سبِّ آلهتهم، كي لا يقابلوا ذلك بالمثل، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ومعنىٰ: ﴿عَدْوًۢا﴾: مقابلةً بالمثل، من قولهم: عَدَا عليه؛ إذا هَجَم أو قابل. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: لاعتقاد السَّابِّ أنَّ خَصْمَه لا يعبد الله حقيقةً، فإذا سَبَّ معبودَه يعتقد أنَّه لم يسب الله تعالىٰ. أو المراد من نفي العلم: نفيُ الشُّعور؛ لصدور السَّبِّ منهم في حالة الغضب والملاحاة في المراء والجدال.

وفي الآية تأديبٌ للمسلمين يتمشىٰ مع السنة الطبيعية البشرية، ولا سيما المنحرفة، وهي أنَّ كلَّ امرئ يرىٰ أنَّ ما هو عليه هو الحق والصواب، فلا يتحمَّل تسفيهاً فيه، فالسبُّ يزيد المشكلةَ تعقيداً والعِنادَ تَصَلُّباً وتشديداً، فعليهم أن يتركوا أمرهم لله ما داموا مُصرِّين علىٰ الكفر، وسَيَنالون جزاءهم يوم القيامة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: أنهم قالوا: يا محمد، لتنتهينَّ عن سَبِّك آلهتَنا أو لَنَهْجُونَّ ربَّك[١]. وفي رواية غيره: أو نشتم مَنْ يأمرك[٢].

وقال الراغب: سبُّهم لله ليس علىٰ أنهم يسبُّونه صريحاً، ولكن يَخُوضون في ذكره، فيذكرونه بما لا يليق به، ويتمادَوْن في ذلك بالمجادلة، فيزدادون في ذكره بما تنزَّه عنه تعالىٰ[٣].

ثم بيَّن منشأ ذلك فيهم حَسَب السُّنَّة التكوينيَّة، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي: مَضَتْ سُنَّة الله في أخلاق البشر وشؤونهم أن يَسْتَحسنوا ما يَجْرُون عليه ويتعوَّدونه، ممَّا كان عليه آباؤهم، أو مما استحدثوه لأنفسهم، سواء كان عن تقليد وجهل أم علىٰ بيِّنة وعلم، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ وينجلي للمُحِقِّ أنه مُحِقٌّ ورابحٌ، وللمُبْطِل أنه مُبْطِلٌ وخاسرٌ، وينال كلُّ صنف جزاءه الذي يستحق، ولا يظلم ربك أحداً. وكثيراً ما يكتفي القرآن بذكر التَّنْبِيءِ عن الجزاء، إيذاناً بإحْصائه لأعمالهم ومجازاتهم بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧٧٦٠).

(٢) المصدر السابق (٧٧٦٢)، عن السُّدِّيّ.

(٣) «المفردات في غريب القرآن» ص٣٩١.

ثم ذكر للمعاندين حالةً أخرىٰ من تعنُّتهم وردَّها عليهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ كونية ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي: يؤمنون بصدق رسوله إذا جاء بآيةٍ مُعجِزة، كآية موسىٰ.

فردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فهو وحده القادر عليها، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨].

ثم خاطب المؤمنين الذي يَتمنَّونَ مجيءَ الآية ليؤمن المعاندون، ونبَّههم إلىٰ سُنن الله الكونيَّة في أخلاق البشر، فقال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ لانطباعهم علىٰ الكفر والعِناد، ﴿وَ﴾ بذلك ﴿نُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ باستنْباط الاحتمالات والتأويلات ﴿وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ بتوهُّم التَّخيُّلات. وذلك لِـمَا انطبعوا عليه من الضلال بإفسادهم لِفِطَرهم، وفَقْدِهم لنور بصائرهم، ولعدم وجود صلة عقلية قطعية بين الآية وما أريدت له من إثبات رسالة الرسل في البراهين العملية، فيُسارع إلىٰ نفوسهم الشك بعد الإصرار، كما جرىٰ لقوم صالح بعد إيجاد الله الناقة لهم كما طلبوا، فلم يعتقدوا أنها آية من عند الله، ولم يؤمنوا بمن جاء بها ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: كما أنهم لم يؤمنوا بالنبيِّ ﷺ أول مرة. أي: يكون شأنهم بعد وجود الآية كشأنهم في عدم إيمانهم من أول الأمر. وذلك لسُنَّة الله في أخلاق الإنسان وانطباعاته إذا تشبَّع بها، فإنه يعارض ويُوهي كلَّ مخالفة لها، ويَتخيَّل لذلك الاحتمالات والتأويلات. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥].

﴿وَ﴾ هكذا ﴿نَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾، والعَمَه: التَّردُّد في الأمر من الحيرة فيه، فهم يتردَّدون في الآية أهي الحقُّ المبين أم السحرُ الذي يخدع الناظرين؟

والأرجح اتِّباعه بعدما تبيَّن، أم المكابرة له والجدال فيه أَنَفَةً وكِبْراً؟ ورسوخهم في الطغيان والكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب والأبصار هذا التقليب، وإنما أسند ذلك إلىٰ الله تعالىٰ، نظراً لسُنَّته في طبيعة الإنسان، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

ثم تابع المعنىٰ ببيان ما هو أبلغ وأشدُّ في تصوير تعنُّتهم وعدم إيمانهم ولو رأوا أعظم الآيات، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فرأوها المرَّة بعد المرَّة، ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ منهم في ذلك بإحيائنا إيَّاهم، آيةً لك وحُجَّةً علىٰ صدق ما جئت به عن الله، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ أي: جمعنا عليهم كلَّ شيء من الآيات والدلائل أمام أعينهم، وسقناه إليهم قبيلاً قبيلاً؛ ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي: ما كان من شأنهم ولا من مقتضىٰ استعدادهم الذي أفسدوه بصنعهم أن يؤمنوا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا أن يكونوا علىٰ السنة الكونيَّة التي شاءها الله، في إمكان إيمان مَنْ أفسد فطرته بمفاسد التربية وسوء القدوة، وهي أن يبقىٰ فيه بقية من نور البصيرة والتفكير الصحيح، وإلا فلا. هذا ما أراه، والله أعلم.

وجاء في تفسير «المنار» ما ملخصه: والقرآن يعقب باستثناء المشيئة علىٰ كل مؤبَّد لا لإفادة نقض التأبيد، بل لإفادة أنَّ ذلك المقرَّر والمؤبَّد مبنيٌّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحَسَب الحكمة العامة، ولو شاء غيرها لفعل. فالمعنىٰ: إلا أن يشاء الله غير تلك النواميس في تكوُّن الأخلاق والميول في البشر. ومؤدَّىٰ هذا الاستثناء الجزمُ بعدم إيمان هؤلاء، لأنه جارٍ بحسب طبيعة الإنسان وجِبلَّتِهِ في الانطباعات علىٰ الميول التي ترسخ فيه بفعله وسيره وكسبه لعلومه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ تلك السننَ الطبيعية، لذلك يتمنَّىٰ بعض المؤمنين لو يُؤْتىٰ مُقْتَرِحو الآيات ما اقتَرَحُوهُ؛ لظنِّهم أنَّ ذلك يكون سبباً لإيمانهم، وهم واهمون؛ لأنه سبحانه شاء أنَّ من دسَّىٰ نفسه وأفسدها

بمفاسد التربية لا يُمكِنُه أن يرجع إلىٰ الحقِّ مهما جاءه من الآيات الكونيَّة ووسائل الإيمان.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

قال في «المنار»: ولـمَّا تضمَّن القول السابق أنَّ أولئك المشركين المُقترِحينَ للآيات أعداء للنبيِّ ﷺ، وما اقترحوا إلا لاعتقادهم أنهم لا يُؤْتَونه، فيكون ذلك باباً للطعن في رسالته، أراد الله تعالىٰ تسليتَه ببيان أنَّ مثل ذلك يجري مع جميع الأنبياء حسب السنة البشريَّـة أيضاً، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[1]؛ إذ الجنُّ مكلَّفون باتِّباع الشرائع المنزلة علىٰ الأنبياء، كما تُؤْذِنُ بذلك سورة الجن؛ ومنهم مَنْ يؤمن، ومنهم من يكفر ويعارض.

والعدو يُطلَقُ علىٰ المفرد والمثنىٰ والجمع، وعلىٰ المذكر والمؤنث، أي: كما جعلنا هؤلاء أعداءً لك، جعلنا لكلِّ نبيٍّ أعداءً من عُتاة الإنس ومَرَدَة الجن.

ومعنىٰ هذا الجعل: أنَّ سنة الله تعالىٰ في طبائع البشر مَضَتْ بأن يكون الشرير العاتي عن الحق، أي: الذي لا ينقاد له كِبْراً وعناداً، يكون عدواً للدعاة إليه من الأنبياء والهُدَاة، خوفاً علىٰ زعامته ومركزه وهنائه وترفه، وكذلك مَرَدَة الجن، فيجتمع هؤلاء ويتعصَّبون، و﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أي: يُوحي شياطينُ الإنس بعضهم إلىٰ بعض، وشياطين الجن كذلك، وقد عدّ الأتباع شياطين أيضاً بحكم التبعية. ويجوز أن يكون الإيحاء بين شياطين الجن وشياطين الإنس.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٥).

وعلىٰ كلٍّ من المعنيين، فالمراد: يُزَخْرِفُ بعضُهم إلىٰ بعضٍ القولَ خداعاً حتىٰ يتواطؤوا ويتدابروا في نشر الدعايات، وترويج الأكاذيب المموَّهة والمزخرَفة، لإعاقة نشر الدعوة وتثبيطها، بطُرق دقيقة خدَّاعة لا يفطن لبطلانها الجاهلون. وما ذلك إلا نتيجة الإفساد لسُنَن الله في طبيعة البشر، لا عَجْزاً في القدرة الإلهيَّة، ولا قَهْراً للإرادة الربَّانية، كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، وذلك بأن يخلق الإنسان مقسوراً علىٰ الخير كالملائكة. ولكن شاءت حكمته تعالىٰ في هذا البشر أن يكون مُخْتاراً في سلوكه، فكان مُسْتعداً للحقِّ والباطل في تصرُّفاته وكسبه للعلوم والأفعال، فأفسد الضالُّ طبيعتَه وسلك طريق الضلال، وهذا هو مؤدَّىٰ قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، وقول الله لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ إذ لو لم يجعله مختاراً في تصرُّفاته لَـمَا حَصَل علىٰ العلم الذي جعله معمِّراً وخليفة فيها.

وقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ معطوفٌ علىٰ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بحسب المعنىٰ، أي: فذَرْهُم ليفتروا ولتُصغىٰ.

ثم ذيَّل الكلام بما يُقوِّي عَزْمَه ويُلْمِعُ له بالغَلَبة عليهم والوعد بخذلانهم، فقال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: مِنْ كَذِبٍ، ويَخْلقون مِن إفك، فإنهم لا يضرُّونك شيئاً. واستقم كما أمرت، فإنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، وما يفعلون هذا الفعل إلا إقناعاً لضمائرهم وتغريراً لأتباعهم، ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ممَّن أفسدوا فطرهم، ﴿وَلِيَرْضَوْهُ﴾ من غير بحث في صحّته ولا تفكير، ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ من المعاصي.

فدلَّت الآية علىٰ أنَّ وَحْيَ الشياطين لا يتأثَّر به إلا مرضىٰ القلوب، فيُفتنون به من دون تمحيص، ويفعلون ما يغضب الله. فقوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ معطوفٌ علىٰ مقدَّر،

حسب نهج القرآن في مثله. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ ...﴾ معطوفًا على ﴿يُوحِي﴾، وأن يكون قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ...﴾ جملةً معترضة.

ومُحصَّل الكلام: أنهم يتحاورون بزخرف القول وخداعه ليقنعوا ضمائرهم بعقيدتهم الزائفة، ولتصغىٰ إلىٰ ذلك القول أفئدةُ الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليَرْضَوْهُ ويقبلوه ويَقْترفوا ما يجرُّ إليه من الشِّرك والضلال زاعمين أنه الهدىٰ والصلاح.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

وبعد أن أشبع الكلام عن مُقْتَرحي الآيات، وبيَّن أنهم لا يؤمنون ولو أُعطوا ما اقترحوه، لتمكُّن الكفر من قلوبهم، لقَّن الحُجَّة القاطعة لنبيِّه ﷺ، وهي أنَّ هذا القرآن أكبرُ الآيات الدَّالَّة علىٰ صدق رسالته، لو كانوا يعقلون. علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، فقال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ يحكم بيني وبينكم في هذا الأمر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ بالبراهين القاطعة، والحُجَج الناصعة، في إثبات التوحيد وإبطال الشِّرك وإثبات الحشر والحساب، كما أنَّ فيه دلالةً واضحةً بطبيعته وعظمته وبلاغته علىٰ أنه كتابٌ من عند الله لا ريب فيه، فإنزاله مشتملاً علىٰ الحكم التفصيلي للعقائد والشرائع، وقواعد الأخلاق والاجتماع، والعبر والمواعظ وغيرها، علىٰ لسان رجل أُمِّيٍّ منكم، هو أكبر دليل واضح علىٰ أنه آية من عند الله تعالىٰ، لا من عنده، وأيُّ آية أعظم من هذا تريدون.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كعلماء اليهود والنصارىٰ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، قال في «المنار» ما ملخَّصه: وبيان هذا من وجهين:

أحدهما: أن العالم بالشيء يُميِّز ما كان منه حقاً وما لم يكن، وما كان خالصاً وما لم يكن. فعلماءُ أهل الكتاب يعرفون أنَّ هذا القرآن من أعلىٰ الكتب السماوية وأكملها.

وثانيهما: أن في الكتب الأخيرة كالتوراة والإنجيل بشارات بالنبيِّ ﷺ[1].

فأَمْرُ نزول هذا القرآن من الله تعالىٰ أمرٌ واضح بيِّن لا شك فيه ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، وهذا خطاب للأمة في شخص النبيِّ ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثله، وللمبالغة في النهي، علىٰ نهج القرآن في مثله، مما هو غير مخالف لما في نفسه ﷺ، ومبنيٌّ علىٰ أنَّ مشركي العرب يثقون بأهل الكتاب ويعتمدون علىٰ أقوالهم، فشهادتهم بذلك حُجَّة عليهم.

وفي صورة التعبير زيادةُ مبالغةٍ في تقرير رسالته. وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ علىٰ إضمار القول، أي: قل: أفغير الله، وذلك علىٰ نهج القرآن في مثله.

ثم ختم السياق بما يدلُّ علىٰ تحقيق ما جاء فيه وتقريره، ويُنبِّه إلىٰ مكانة ما سَبَق من العلم والهداية، فقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ في الأخبار والأحكام، أو: فيما وعدك به من نصرك علىٰ هؤلاء المُقْتَرِحينَ للآيات استهزاءً وتَعَنُّتاً، ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فيما يقوله ويقرِّره، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ فلا يَخْفىٰ عليه من أمرهم خافية، ولا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ١٠).

ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

ولما كان ما سبق يدلُّ بمضمونه علىٰ أنَّ الخطط الصحيحة هي التي يُوحيها الله تعالىٰ إلىٰ رُسله وأنبيائه للبشر، فمَن اتَّبعها فهو مهتدٍ، ومَنْ أعرَضَ عنها فهو ضالّ، وعلىٰ أن هناك شياطينَ يزخرفون الباطل لِيُضِلُّوا به الجُهَّال، خاطب الأمة في شخص النبيِّ ﷺ محذِّراً إياهم من الخداع، ومبيِّناً أن أكثر أهل الأرض ضالُّون مُضلُّون، مفتونون فاتنون، ينبغي أن يُحذر منهم، فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ فيما يعتقدون وينكرون، وفيما يُحلِّلون ويُحرِّمون، و﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: إن الله سبحانه هو الذي يعلم خطط الهداية من خطط الضلال. وإنما ذكر الضَّالِّين والمهتدين بدل طرق الضلال والهداية؛ ليدلَّ الكلام علىٰ الوعد والوعيد أيضاً لمن يتمسَّك بتلك الطرق ولمن لا يتمسَّك بها. والآية نصٌّ بأن أهلَ الحقِّ قليلون، وأهلَ الباطل كثيرون.

وبعد أن ذكر أن أكثر أهل الأرض ضالُّون مُضِلُّون عَرَّض بخطط المشركين الضالة في ذبائحهم لغير الله تعبُّداً، واستتبع حكم الذبائح، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾، يحثُّهم علىٰ التَّمسُّك بما شَرَعَه لهم في أمر الذبائح والإعراض عن الطرق الضالة فيها.

قال في «المنار»: أي: إذا كان أمر أكثر الناس علىٰ ما بيَّنْتُه لكم، فكُلُوا مما ذُكِرَ

اسمُ الله عليه من الذبائح، دون غيره من ذبح أهلِ الضلال، إن كنتم بآياته التي جاءتكم بالهدىٰ والعلم مؤمنين، وبما يخالفها من ضلال الشرك والكفر والجهل مُكذِّبين. وحكمة الاهتمام بهذه المسألة في هذا السياق، وقَرْنها بمسائل العقائد: هو أنَّ مُشْركي العرب وغيرَهم من أهل الملل، جَعَلوا الذبائح من أمور العبادات، بل نظموها في سلك أمور[1] الدين والاعتقادات، فصاروا يتعبَّدون بذبح الذبائح لآلهتهم ومَنْ قدَّسوا من رجال دينهم، ويُهِلُّون لهم بها عند ذبحها. وهذا شركٌ بالله، لأنه عبادةٌ تُوَجَّهُ إلىٰ غيره، وسواءٌ سُمِّي ذلك الغير إلهاً معبوداً أم لا[2].

وهذا هو الوجه لِذِكرِها في هذه السورة بين مسائل الكفر والإيمان، والشرك والتوحيد.

ثم حثَّهم علىٰ التمسُّك بما شَرَع لهم في أمر الذبائح، والإعراض عما كان فيها من الأضاليل، بصورةٍ من صور تفنُّن القرآن في ابتداع التعابير، حيث نزَّلهم منزلة مَنْ لم يتمسَّك بشرائع الله بعد أن بُـيِّنت مفصَّلة، ولم يبقَ عذر لمعتذر. والغرض من ذلك: المبالغة في الحَمْل علىٰ التمسُّك بما شرع، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك في أول سورة المائدة[3]، وفيما يأتي من هذه السُّورة، وكان قد نَزَل قبل هذه الآية.

ثم استثنىٰ من ذلك المحرَّم قوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، وقد مرَّ بيانُه في سورة المائدة فارجع إليه[4].

---

(١) في تفسير «المنار»: أصول.

(٢) تفسير «المنار» (٨: ١٥ - ١٦).

(٣) سورة المائدة من آخر ما نزل من السور المدنية، وهذه السورة مكية، والصواب في معنىٰ: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ أي: قد بيَّن سبحانه لكم في هذه السورة ما حرَّم عليكم أكْلَه من الحيوانات.

(٤) يعني: في الآية ٣ منها. =

ثم أعاد ما ذكره سابقاً من أن أكثر الناس ضالُّون مُضِلُّون، تقريراً لهذا الحثِّ ومُسَاوقةً للبحث، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ غيرهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الزائفة، ويجرون في ذلك ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مُقْتَبسٍ من وحي أو مُستنبطٍ من حُجَّة؛ لأنَّ منطق الهوىٰ مختلفٌ جداً عن منطق العقل؛ إذ المقدِّمات في منطق العقل هي التي تُولِّد النتيجة، فتكون صحيحة. أما منطق الهوىٰ فالنتيجةُ هي التي تُولِّد المقدِّمات، بمعنىٰ: أنَّ صاحب الهوىٰ يلتمس له براهين تُساعده فيما يهوىٰ، ولو كانت خاطئة أو وهمية. فتوعَّدهم بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ المتجاوزين لحدودِ الحقِّ إلىٰ الباطل.

ثم ألمع إلىٰ القاعدة العامَّة في تشريع الله لتلك الأحكام، وهي جَلْبُ المصالح ودَرْء المفاسد، ولكنه جَعَل الكلام حضّاً علىٰ تجنُّب ما نهىٰ الله عنه وحَرَّمه، سواء كان حِسِّيّاً أو معنوياً، وسواء كان ضَرَرُه ظاهراً أو خفياً، فقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ﴾ وهو ما ظهر قُبْحُه وضَرَرُه، أو ما ظهر علىٰ الجوارح، ﴿وَبَاطِنَهُ﴾ وهو ما خفيَ قُبْحُه وضَرَرُه عليكم من المُحَرَّمات، أو ما لم يظهر علىٰ الجوارح بصُورة جليَّة من قبائح الأحوال النفسيَّة.

ثم هدَّد المخالفين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: بقدر ما كانوا يُصيبون فِطرَتَهم بالإفساد والتدسية.

ثم أردف الأمر بالأكل مما ذُكِرَ اسمُ الله عليه بالنهي عن ضدِّه، تقريراً له وتأكيداً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ

= والمراد بقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾: إلا أن تدعوكم الضرورة إلىٰ الأكل مما حُرِّم عليكم؛ بسبب شدة المجاعة، فلكم أن تأكلوا منه بمقدار الضرورة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾[1] أي: خروجٌ عن حدود ما حدَّه الله في الذبائح، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وهذا تصريح بما فُهِمَ من الآية السابقة من تحريم ما يذبحونه قرابين لآلهتهم، إذ هو من أظهر أعمال الشرك.

وقد تابع المعنىٰ بهذا التقرير، والزيادة في البيان، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ من الإنس والجن الذين يُوحي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زُخرُفَ القول غروراً ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ بالشبهات والخزعبلات، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في ذلك ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ مِثلُهم. فإنَّ التعبُّد بالذبائح لغير الله شرك، كدعاء غير الله، ولو كان بقصد التوسُّل والتقرُّب بذلك الغير إلىٰ الله، كما يفعل الوثنيون. ومن المعلوم أنَّ المؤمنين حقاً لا يفعلون ذلك، ولكنه معنىٰ فرضيّ ولونٌ من ألوان بلاغة القرآن في شدَّة البيان، يرمي إلىٰ شناعة هذا الأمر وفظاعته والتشديد فيه. فأين هذه الآية من هذه العصور التي فَشَا فيها الجهل بروح الدين، وأخذ الجُهَّال، يُقرِّبون القرابين للأنبياء والصالحين. فيجوز أن تكون الآية من غيب القرآن ترمي إلىٰ مَنْ سيكون كذلك من أهل العصور والأزمان التي يضمحلُّ فيها هَدْيُ القرآن. والله أعلم.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا

---

(١) الذي أراهُ أنَّ الله سبحانه حرَّم ذبح المشرك، لأنَّ ذبح الحيوان أمر كبير، أحلَّه للمؤمنين تكريماً لهم، وحرَّمه علىٰ المشركين، والله أعلم. واستثنىٰ منهم أهل الكتاب؛ لأن الشرك أنواع بعضه أشد من بعض. (المؤلف).

كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

ولما بيَّن سبحانه طريق الهداية وطريق الضلال ضَرَبَ مثلاً للمتمسِّكين بكلٍّ منهما، وبُعْد التفاوت بينهما، وضمَّن الكلام التنويه بشأن القرآن، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بالإيمان والعلم، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ بالقرآن ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ في حُسن السيرة وكمال الأعمال وشرف الفعال، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يتخبَّط في حطة الأخلاق ودناسة الأعمال، وقد انطبع عليها انطباعاً، فهو ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟

ثم بيَّن أن منشأ ذلك طبيعة الإنسان، وأنه ابن التربية، فإذا تربَّىٰ علىٰ الضلال يراه هدىٰ، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وذلك بانطباعهم عليه وتمكُّنهم فيه، فلا يرونه إلا حقاً، ثم ذكر مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما زُيِّنَ للكافرين ما كانوا يعملون، بحَسْب سُنَّة الطبيعة في خلق الإنسان، إذا انطبع علىٰ عملٍ يراه حسناً وإن كان قبيحاً، ويدافع عنه بأنواع طُرُقِ المدافعة، أي: كما جعلنا ذلك في سنن الطبيعة ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[1]،

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] الآيات. اعلم أنَّ جَعْلَ الله سبحانه وتكوينه الكائنات علىٰ نوعين: نوع يكون الجعل مقصوداً لذاته، ونوع يكون لازماً للأول عارضاً له، تقول: جعل الله العين مُبْصرةً، وجعلها مستعدَّة أن تتألم بضوء الشمس، وبالغبار الداخل فيها =

= مثلاً. فالجعل الثاني لازم للجَعْل الأول عارضٌ له لا بدَّ منه، ولكن الله سبحانه بحسب حكمته في خلقه جعل الأجفان والأهداب تحفظها من تلك المؤذيات، فإذا قصَّر الإنسان في إطباق الجفن عمَّا يؤذيها حدث له ذلك العرض، وناله من جرّائه الشرُّ والضررُ.

وعلىٰ وتيرة الجعل الثاني يأتي مضمون معنىٰ هذه الآيات وأمثالها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، [الإسراء: ٤٦]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥]، وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، إلىٰ أمثال هذه الآيات؛ إذ كل هذا ناتج من جَعْل الإنسان مختاراً في تصرُّفاته تابعاً لإرادته يتصرَّف في أمره كيف يشاء ضمن إمكانيَّاته، فيمكنه أن يسلك طريق الخير والهدىٰ، ويمكنه أن يَسْلك طريقَ الشر والضلال، وربما يزعم أنه الحق والرشاد، إذا فَسَدت طبيعته بمفاسد التربية. ولكنَّ الله سبحانه احتاط للإنسان كما احتاط للعين بالأجفان، فخلق الإنسان مطبوعاً بفطرته علىٰ معرفة الحقِّ والرشاد، كما طبع البذرة علىٰ الإنبات وإخراج الخيرات، ما لم تفسد طبيعتها بمفاسد خارجيَّة كالتَّسوُّس والتعفُّن مثلاً. وهكذا الإنسان إذا لم يتأثر بالتربية الفاسدة وسوء القدوة، فإنه حينئذ يحافظ علىٰ سلامة فطرته ونور بصيرته، ويندفع إلىٰ ما خلقه الله له من طلب الكمال، ومن اتباع الهُدىٰ وترك الضلال في الأقوال والأفعال. وإذا فسد بالتربية الفاسدة انحدر إلىٰ الباطل والضلال في عقائده وأعماله، فتَمكَّن منه الفساد، وفقد الاستعداد إلىٰ الهدىٰ والرشاد. وهذا هو مُجمَلُ ما تقدَّم من الآيات، وهو المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ثم إن الله سبحانه أضاف إلىٰ ما ذكرنا من الاحتياط الطبيعي للإنسان ما أرسله إليه من التعاليم والتوجيهات علىٰ لسان أنبيائه، وضمن شرائعه المنزلة، فكان هذان الأمران بمثابة ما للعين من أهداب وأجفان، فلم يبق علىٰ الله حُجَّة للإنسان. وهذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي: ولو شاء لخلق الإنسان كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ولكن لا يكون ذلك الإنسان حينئذٍ قادراً علىٰ استنباط مواهب الأرض والحصول علىٰ خيراتها، ويبطل معنىٰ جَعْلِهِ خليفةً فيها؛ لأنَّ ذلك لا يتمُّ إلا إذا كان هذا الخليفة يتصرَّف في شؤونه كيف يشاء ويفعل ما يريد، ضمن ما خلقه الله فيه =

وذلك بحسب سنَّة الطبيعة أيضاً، وهي الحرص علىٰ كبريائهم بين أقوامهم ومراكزهم فيهم، فيُنوِّعون الخداع لأتباعهم، كي يتَّفقوا معهم علىٰ معارضة الأنبياء والهداة، استبقاءً لمراكزهم الاجتماعيَّة وزعاماتهم القوميَّة، ﴿وَ﴾ لكنهم في ذلك المكر ﴿مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، وذلك لأنَّ الذي يَتمادىٰ في الضلال يزداد فيه ويشتدُّ عليه الوبال، لأنه يلتمس الشبه لإقناع أتباعه بضلاله، فيزيده ذلك بُعداً عن سواء السبيل.

ثم ذكر شيئاً من معارضتهم، فقال: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي: حتىٰ ينزل علينا الوحيُ كما ينزل عليهم. وهذا بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]. وقد ردَّ الله تعالىٰ عليهم بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي: لا يجعلها لكلِّ البشر، ولكن يجعلها فيمن يخلقه لها، كما قال تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١].

ويمكن فهم ذلك بأنَّ الله سبحانه يخلق الرسول في منتهىٰ الكمال البشريِّ، ومن هذه الناحية يتَّصل بالملك[1]، إذ لا يكون بحكم كماله بينه وبين الملك حدٌّ حاجز وأمر

= من الإمكانيات. هذا ما أراه، والله أعلم، وأن الله سبحانه هدىٰ سائر مخلوقاته بالطبيعة، قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٣]، إلا الإنسان فقد هَداه بالطبيعة وهداه بالشريعة، فإذا حافظ علىٰ هاتين الهدايتين وعمل بهما فاز، وإذا أفسدهما خاب وخسر خسراناً مبيناً في دنياه وأخراه. (المؤلف).

(١) بل من هذه الناحية، ومن ناحية أخرىٰ أيضًا، وهي صدورُ الأمر من الله تعالىٰ للمَلَك بالاتصال بأحد عباده ليكون رسولًا. فالكمال البشري وحده غير كافٍ في كون أحد البشر رسولًا، لأنّ الرسالة اصطفاء واختيار من الله تعالىٰ.

عازل. وليس هذا الكمال في غير الأنبياء من البشر؛ لأنَّ بينه وبين الملك بُعْداً عظيماً وحاجزاً منيعاً بحكم عَدَم الكمال، فالأنبياء بشرٌ ولكنهم ليسوا كسائر البشر؛ لما فيهم من المواهب التي يحتاجونها، وسائر البشر لا يحتاج ذلك. هذا ما أراه، والله أعلم.

وفي هذا الرد تأفينٌ لهؤلاء القائلين وتسخيف، قُفِّيَ بالوعيد المهين جزاءَ تجبُّرهم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلة وهَوَان جزاءَ تكبُّرهم وعُتُوِّهم، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي: بالرسل، ويصدُّون عما جاؤوا به ويستهزؤون.

ثم قفَّىٰ علىٰ السياق ببيان حال المُستَعِدِّ للهداية بمحافظته علىٰ سلامة فطرته، وحال الفاقد لذلك الاستعداد، بإفساده لطبيعته وتَدْسيته لنفسه، وجعَلَه كالتعليل لما قبله، فقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ[1] يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[2]، وذلك بمحافظته علىٰ سلامة فطرته التي فطرها الله علىٰ الإيمان بالله وحده، وطهارة نفسه من الخُلُقَيْن المُكْتَسَبَين من إفساد الطبيعة الصادَّيْن عن إجابةِ دعوةِ الحق، وهما: الكِبْر والحسد، وبتَحلِّيها بالهادِيَيْن إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، وهما: استقلالُ الفكر الصَّادُّ عن تقليد الآباء والأجداد، وقوَّةُ الإرادة الصارفةُ عن اتِّباع الرؤساء.

ثم بيَّن حال الفاقد لذلك الاستعداد بإفساده لفطرته، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[3] أي: إذ عُرضت عليه الدعوة

---

(١) هداية توفيق ومعونة، لأنه اتجهت إرادته الصادقة إلىٰ الإيمان.

(٢) أي: تطبيق الإسلام في سلوكه علىٰ مقدار قوة إيمانه.

(٣) أي: ومَن يُرِدِ الله أن يُيسِّرَ له سبل الضلال، لأنه كفر بإرادته الحرة بما يجب أن يؤمن به، يَجْعَل صدره شديد الضيق لا يطيق الخضوع والطاعة لله. فالإنسان هو الذي يختار بإرادته الحرَّة سبيل الإيمان، أو يختار سبيل الكفر، فإن اختار سبيل الإيمان انشرح صدره لتطبيقات الإسلام، =

إلىٰ الإسلام ضاقَ صَدْرُه، وانفعلت منها نفسُه كُرْهاً لها. وذلك لإفساده لفطرته وتَدْسيته لنفسه حتىٰ تمكَّنت منها رذيلتا الكِبْر والحسد اللتان تَصْرِفانِه عن التأمُّل في الحقِّ واستِبانته، وتمكَّن منها التقليد الذي سَلَب منه استقلال الفكر والنظر. وإنما نسب الهداية والإضلال إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه واضع هذا النظام الطبيعي في أخلاق البشر، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية).

وفي قوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دلالةٌ علىٰ نظرية ضغط الهواء، وإيذانٌ بأنَّ طبقاته تـقلُّ كثافتها كلَّما بَعُدت عن الأرض، فيجد المرتفع حَراجةً في صدره إذا وَصَلَ إلىٰ الطبقات العليا لقلَّة مادة الأوكسجين. وهذه الحقائق لم يهتدِ إليها العلم إلا بعد مئات السنين، وهذا من جملة الأدلة الكثيرة الدَّالَّة علىٰ أنَّ القرآن تنزيلٌ من ربِّ العالمين.

وقد شَبَّه بحالِ المرتفع إلىٰ السماء حالَ مَنْ أفسد فطرته بمفاسد التربية والنشأة علىٰ الضلال، إذ دُعي للإسلام.

ثم ختم البيان بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: علىٰ هذا النَّحْو من سُنن الله في خلق الإنسان وتأثير أعماله النفسيَّة والجسميَّة في صلاح النفس وفسادها، ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ وهو كلُّ ما يَسوءُ أو يُسْتَقذَر، أو هو اللَّعنة في الدُّنيا والعذاب في الآخرة، ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، لأنه يترتَّب علىٰ عدم الإيمان ترتُّباً طبيعياً لا مَناصَ منه. وذلك لأنَّ عدم الإيمان إنما يجري بمقتضىٰ إفساد المرء لطبيعته كما ذكرنا، فيَترتَّب عليه هذا السُّوء كما يترتَّب المرض علىٰ عَدَم مراعاة قواعد الصِّحة وسُنَنها الطبيعيَّة.

= وإن اختار سبيل الكفر انقبضت نفسه، وضاق صدره، وهذا من سنن الله وقوانينه في النفوس البشريَّة.

ثم خَتَم السياق بالتنويه بشأن ما جاء فيه، والحثِّ على العمل بمقتضاه، فقال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ لا عِوَجَ فيه ولا التواء، ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ فيه ﴿ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

و﴿لَهُمْ﴾ بتمسُّكهم به وسلوكهم فيه ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ في الدنيا والآخرة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ من صالح الأعمال، في سلوكهم هذا الصِّراط المستقيم. وناهيكَ بشأن مَنْ يتولَّاه الله ويرعاه هدىٰ وصلاحاً.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

ثم بيَّن ما يكون من أمر هؤلاء الضَّالّين والمضلِّين لهم عند الحشر والحساب، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ ونقول لهم: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾[1]،

---

(١) تلمع هذه الآية بوحدة الصنفين في التكليف والمصير والمسؤولية عن التشريع المنزَّل على =

والمراد: الأشرار من الفريقين. والاستكثار منهم: يكون بإغوائهم بالوسوسة، وجعلهم من حزبهم، من قوله: استكثر الأمير من الجند، أي: أخذ منهم كثيراً. والمعنىٰ: أخذتم منهم أتباعاً كثيرين، أو المعنىٰ: خالطتموهم بجامع المشابهة بالضلال، كما تؤذن بذلك سورة الجن، وآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ثم تابع البيان بقوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: الذين تَوَلَّوْهُم وأطاعوهم في وسوستهم وما ألقوه إليهم من وحي الغرور، أو الذين شاركوهم في الضلال: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتَّع كلٌّ منا بالآخر طول حياته، ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي: الذي حدَّدتَه لنا وهو يوم البعث والجزاء، ويجوز أن يكون تعبيراً بالقول عن الفعل[1]، وهو من أساليب القرآن. والمراد من هذا إظهار الحسْرة والندامة إثْرَ اعترافهم بالضلال.

أما حكم الله تعالىٰ فيهم فهو ما ذكره بقوله: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: لا يكون إلا ما شاء الله، يعني: هذا الحكم وهذا الخلود. وهذا الاستثناء يقترن بكثير من التأبيدات في القرآن، وليس هو لقطع ذلك التأبيد وتخصيصه، بل لتقريره بأنَّ الله قد شاءه فهو الواقع، ولإفادة أنَّ هذا الخلود المؤبَّد مبنيٌّ علىٰ النواميس التي شاءها الله بحسب الحكمة، وللإشارة إلىٰ أنَّ مشيئته تعالىٰ لا يغلبها أمر، ولكن أفعاله تعالىٰ تجري بحسب الحكمة البالغة، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فيما تتعلّق به مشيئته،

= الأنبياء، كما تُؤْذِن بذلك مضامين سورة الجن. وكذلك تُلْمع إلىٰ أنَّ أشرار الجن يميلون إلىٰ أشرار الإنس ويخالطونهم، وإن كانوا لا يشعرون بهم. والأخيار من الجن يميلون إلىٰ الأخيار من الإنس ويخالطونهم دون أن يعلموا بهم. وبذلك تُؤْذن مضامين سورة الجن أيضاً. والله أعلم. (المؤلف).

(١) وهذا بعيد، بل لا عبرة به، لتصريح الآية بالقول وعدم امتناعه في نفسه.

﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بما يستحقُّه كلٌّ من الفريقين، ومن ذلك جزاؤهم المنصوص عليه؛ إذ إنَّ أفعاله تعالىٰ لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل، فلا يفعل عَبَثاً ولا جَوْراً ولا باطلاً، بل هو مُنزَّه عن ذلك كما يُنزَّه عن سائر النقائص، وإنه حميدٌ مجيد.

ولما بيَّن سبحانه وتعالىٰ أن أشرار الجن والإنس يَتولَّىٰ بعضُهم بعضاً، بيَّن أن ذلك إنما يكون بكسبهم المفسد لطبيعتهم، لا بأصل خِلْقتِهم، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: نُولِّي أشرار الجنِّ أشرار الإنس، أو بعض أشرار الإنس علىٰ بعض بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والضلال ويتَّحدون فيه.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: نجعل بعضهم موالياً لبعض بحكم مساواتهم في السلوك والانطباعات، ويقتفي بعضهم أثر بعض في ذلك، لأنَّ سنة الله في طبيعة البشر قَضَتْ أن يكون لكلِّ عمل من الأعمال النفسيَّة والبدنيَّة التي تصدر منهم، تأثير في أنفسهم يصير بالتكرار عادةً فخُلُقاً، ثم مَلَكَةً راسخة لا يمكنهم أن يتخلَّوا عنها. وكذلك قَضَتْ سنة الله في طبيعة البشر بأنَّ الأفراد والجماعات يميل كلٌّ منهم إلىٰ مَنْ هو علىٰ شاكلته، ويتولَّىٰ بعضهم بعضاً في التعاون والتناصر فيما يشتركون فيه، علىٰ مَنْ يخالفهم فيه، إن الطيور علىٰ أشكالها تقع.

وبعد أن وبَّخ معشر الجن علىٰ إغواء الإنس، أَنَّبَ المَعْشَرَيْن علىٰ كفرهم وإهمالهم لليوم الآخر الذي أنذرهم به الرسل، فقال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ[1] يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ فلم يكن جوابهم إلا

---

(١) إنَّما الرسل من الإنس، ولكن يجوز أنْ يُنسَب للاثنين ما هو لواحدٍ منهما إذا اتَّحدا في الحكم، وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن. وقد جاء انفراد الإنس بالرسل في سورة الجن. (المؤلف).

أن ﴿قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾، فهناك يعترفون بكفرهم وظلمهم لأنفسهم، مُظْهِرينَ الحسْرةَ والنَّدم، معترفين باستحقاقهم العذاب، فبيَّن مصدر ذلك فيهم، فقال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعرضوا عن الآيات واتَّبعوا الأهواء والشهوات، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ بتلك الآيات والنُّذُر التي جاءهم بها الرسل، فاستحقوا العذاب.

والجنُّ عالمٌ غيبيٌّ لا يُعرَفُ عنه إلا ما وَرَدَ به النص.

وقوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، ظاهره: أنَّ كلاً من الفريقين قد أرسل منهم رسلاً إلىٰ قومهم، ولكن جمهرة العلماء يقولون: إنَّ الرسل كلَّهم من الإنس، كما حكىٰ ذلك سبحانه عن الجنِّ بقوله: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ - ٢]، ولكن من عُرف اللغة أن يُنسَبَ للاثنين ما هو للواحد منهما عند الكلام عنهما معاً.

ثم بيَّن وجه العدل والرحمة في إرسال الرسل، ثم بعد ذلك كلِّه سجَّل سبحانه علىٰ الناس بأن له الحقَّ والعُتْبىٰ في هذا التهذيب بعد التبصير، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكِرَ من إتيان الرسل يقصُّون علىٰ الأمم آيات الله إنما هو لغاية ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: عمَّا يجب عليهم أن يتَّقوه.

ولما بيَّن في هذا السياق أحوالَ أهل الثواب والعقاب، وأنَّ للمؤمنين دار السلام، ومثوىٰ الكافرين النار. خَتَمه ببيان التفاوت في الدرجات بين أفراد كلِّ صنف، نسبةً لعمله، فقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾، فيُجازي المحسنَ بإحسانه العظيم، والمسيء بسيِّئاته علىٰ قدر أعماله، والإحسانُ صحَّة من عند الله، والإساءة مرض يقترفه الإنسان بمخالفة سُنن الله نتيجةً تلقائية، والله أعلم، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ثم أردف السياق ببيان أنَّ طلبه سبحانه من الثقلين أن يتَّبعوا شرائعه ليس لحاجة له في ذلك، ولكن من رحمته بهم، يُوجِّههم إلىٰ سبيل سعادتهم في الدارين، ويصبر عن عُصَاتهم إلىٰ يوم الدين، وضمَّنه التهديد للمعتدين، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الوعد بالوعيد، فقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ﴾ أي: عن أعمالكم وعن كل شيء، ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ التي وَسِعَتْ كلَّ شيء.

ثم ذكر من أثر رحمته إبقاءَه علىٰ العُصَاة، وإمهالَه لهم مع قُدرته عليهم، وسَبَك ذلك علىٰ الإنذار، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قد أنجاهم، أذهب من معهم وأبقاهم، وهم نوح ومَنْ حُمِلَ معه في السفينة، فهو يُلمح إلىٰ تلك الحادثة وإلىٰ الإنذار بها.

وبعد أن أنذرهم بعذاب الدنيا، أنذرهم بعذاب الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حالهم ومآلهم أمر رسوله أن يخاطبهم بهذا الوعيد المسبوك علىٰ الدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، قيل: المكانة: مستعارة للمقدرة، والمعنىٰ: اعملوا منتهىٰ مقدرتكم واستطاعتكم في مقاومة الدعوة. والجملة للاستهانة بمكايدهم. وقيل: المكانة: مستعارة للأحوال الشخصية والعقائد الدينية والسلوك. والمعنىٰ: اعملوا علىٰ شاكلتكم التي أنتم عليها، ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ علىٰ شاكلتي التي هداني ربي إليها، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ والإضافة للمُلابَسَة، أي: العاقبة الحُسْنىٰ لهذه الدار بتأثير عمله.

ثم صرَّح لهم بما يُرشدهم إلىٰ تلك العاقبة ولمن تكون، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾، والشرك ظلم عظيم.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ مبحث الذبائح، علىٰ نهج القرآن في العَوْدة، وخصَّ الجاهلية بالبيان، وذكر نوعاً آخر من ضلالهم في التحريم والتحليل بأهوائهم من غير علم، وشنَّع علىٰ سخافة عقولهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ أي: مما خلق لهم، وفي هذا القيد زيادةٌ في النقد والتسخيف، وتلميحٌ لكفران النعمة، حيث جَعَلوا مما أنعم الله به عليهم ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾ أي: الزرع ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: المواشي؛ لله ﴿نَصِيبًا﴾، ولشركائهم منها نصيباً، ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ أنهم يتقرَّبون به إليه، وهم يشركون معه آلهة أخرىٰ، ﴿وَ﴾ يقولون: ﴿هَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾، فيجعلون نصيبَ الله تعالىٰ لِقِرَىٰ الضِّيفان والتَّصدُّق علىٰ المساكين، ونصيبَ آلهتهم لسَدَنتها وما ينفق علىٰ معاهدها، فإنْ نما نصيبُ آلهتهم وتَضاعف دون نصيب الله تركوا نصيبها لها، وقالوا: لو شاء الله نمَّىٰ نصيبه. وإنْ نما نصيبه وتضاعف دون نصيبها، قالوا: لا بدَّ لها من نفقة فيأخذون نصيبه ويعطونه لسَدَنتها.

وقد أجمل ذلك بقوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾ منه ﴿لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فلا يصرفون منه للضيفان والفقراء أبداً، ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ أي: يصرفون منه أحياناً للسدانة والقرابين ومعاهد

الأوثان. فشنَّع عليهم لتجاوزهم حدودَ الله بالتشريع من عند أنفسهم وشركهم بالله، فقال: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ في هذه الخرافات والسخافات.

وهذا التأنيب إنما هو لمجرَّد اتخاذ الشركاء وخصِّهم بنصيب، وأما التحريف في الأنصباء فإنما ذُكِرَ لبيان الواقع، أو للزيادة في التسخيف.

ثم ذكر لهم أمراً آخر مما كانوا عليه من أعمال الشرك والقبح والجهالة المفرطة، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ حيث زيَّنوا لهم أن يجعلوا أولادهم قرابين للآلهة. وكان الرجل ينذر في الجاهلية: لئن وُلِدَ له كذا غلاماً، لَيَنْحَرَنَّ أحدهم، وخبر عبد المطلب في ذلك معروف[1].

والمراد بالشركاء هنا: الكهَّان وسَدَنة الأصنام، فإنهم يطيعونهم إطاعة إذعان وخضوع في التحريم والتحليل وتقريب القرابين من الإنسان والحيوان للآلهة والأوثان، ويضلِّلونهم بأن ذلك من دين إبراهيم، حيث حاول ذَبْحَ إسماعيل عليهما السلام.

ثم علَّل ذلك التزيين وغيَّاه بقوله: ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي: لِيُهْلِكُوهُم وليَخْلِطُوا عليهم ما كانوا يدَّعونه من دين إسماعيل وملَّة إبراهيم عليهما السلام، بمثل هذه الوثنيَّة والأعمال الفظيعة. وقيل: إنَّ المراد أنهم يُلْبِسُون عليهم دينَهم الذي وَجَب أن يكونوا عليه من الدين الصحيح ويُشَوِّهونه في نظرهم.

ثم بيَّن تعالىٰ أنَّ معارضتهم هذه لم تكن عن عجز في قدرة الله، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ بأنْ يُغيِّر سُننه الطبيعيَّة في خلق الإنسان، وذلك بأن يخلق الناس

---

(١) ذكر القصة الطبري في «تاريخه» (٢: ٢٣٩).

مطبوعين علىٰ عبادةِ الله طَبْعاً لا يستطيعون غيرها كالملائكة، وحينئذ لا يصلح أن يعمر الأرض ويكون خليفة فيها، لتحديد علمه وقدرته بسلب اختياره. والله أعلم. ولكنه بمقتضىٰ حكمته خَلَقَهم مختارين مُستعدِّين للتأثُّر بكلِّ ما يَرِدُ علىٰ أنفسهم من الضلال، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ في تحريمهم وتحليلهم، فلا يُحزنك أمرهم، فإنَّ من سنَّة الله أن يغلب الحقُّ الباطلَ ولو بعد حين.

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

ثم ذكر ثلاثة أنواع أخرىٰ من أحكامهم المُخْتَرعة بشركهم وضلالهم.

فالأول منها: ما حكاه بقوله: ﴿**وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ**﴾، والحِجْرُ: بمعنىٰ المحجور، كالذِّبح بمعنىٰ المذبوح، والطِّحن بمعنىٰ المطحون. وذلك أنَّهم كانوا يقتطعون بعض أنعامهم وأقواتهم من الحبوب وغيرها، ويمنعون الأكل والتصرُّف فيها إلا فيما يخصُّونها له من الضيفان أو سَدَنة الأوثان، أو الرجال دون النساء، أو العكس، يفعلون ذلك تعبُّداً ﴿**بِزَعْمِهِمْ**﴾.

والنوع الثاني: ما ذكره بقوله: ﴿**وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا**﴾، وذلك بأن تُترك فلا تُركب، وهي البحيرة والسائبة والحامي، وقد تقدَّم بيانها في سورة المائدة[1].

---

(١) في الآية ١٠٣ منها.

والنوع الثالث: ما ذكره بقوله: ﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح، بل يُهلُّون بها لآلهتهم، ويذكرون اسم آلهتهم عليها عند الذبح.

وجعلوا هذه الأنواع الثلاثة ديناً نسبوه إلىٰ الله ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، فتوعَّدهم سبحانه بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

ثم ذكر ضرباً آخر من أحكامهم وتشريعاتهم السخيفة الضَّالة، فقال: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من الألبان والأجِنَّةِ ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ أي: حلالٌ لهم خاصَّة، وتأنيثُ ﴿خَالِصَةٌ﴾ باعتبار معنىٰ ﴿مَا﴾؛ لأنها ألبانٌ وأجنَّة، والتذكير في قوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي: علىٰ إناثنا باعتبار لفظ ﴿مَا﴾، وإنما ذَكَّرهُنَّ بلفظ الأزواج؛ للإيذان بأنه لا فرق بينهما عند الله، أي: ما في بطونها محرَّم علىٰ إناثنا، ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي: وإن ولدت ميتة ﴿فَهُمْ﴾ أي: الذكور والإناث ﴿فِيهِ﴾ أي: فيما في بطنها ﴿شُرَكَآءُ﴾ يأكلون منها جميعاً.

وقيل المراد بالأنعام: البحائر والسوائب، فكانوا يجعلون لبنها للذكور، ويُحرِّمونه علىٰ الإناث، وإذا ولدت ذكراً جعلوه خالصاً للذكور لا تأكل منه الإناث، وإذا كان ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث وهم يأكلون ما يخرج ميتاً في هذا النوع، يتَّخذون ذلك ديناً.

فتوعَّدهم سبحانه علىٰ ذلك بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ الكذبَ علىٰ الله في هذا التحليل والتحريم، ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ لا يحكم بمثل هذه الأحكام الباطلة الجاهلة، وإنما يجعل أحكامه في مَوْضعها من الحكمة، وثوابُه وعقابُه كذلك، ولا يخفىٰ عليه خافية من عمل المحسنين والمسيئين.

ثم سجَّل عليهم بهذا الحكم المنطوي علىٰ التَّوعُّد والتبكيت الفاضح لهم، فقال:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ (١) وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ﴾ في هذه الأعمال والأحكام ضلالاً بعيداً، ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وهذا العطف علىٰ طريقة القرآن في تعقيب الإيجاب بسَلْب ضدّه، مبالغةً في تقرير الحكم، أي: إنهم لم يكن عندهم في الأحكام والأعمال شيءٌ من هداية العقل أبداً، وأيُّ جهالة أجهَلُ من أن يقتل الرجل بنته مَخافةَ الفقر أو السباء، ويَغْذُو كلبَه أحسن الغذاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به علىٰ الإنسان في هذه المطعومات من الحرث والأنعام، وما في تكوينها من حكمة وإبداع، إيذاناً بأن تشريعه سبحانه مِثلُ صنيعه في ذلك ومبنيٌّ عليه، فأنّىٰ للبشر أن يُشرِّع، وإلماعاً بإنكاره عليهم تحريمَ ما لم يحرِّم وتشريعَ ما لم يشرع، وتسخيفاً لهم حيث يشركون مع هذا الإله المنعم العظيم إلهاً هزيلاً مَهيناً، فذكر

---

(١) هو خسرانٌ لعاطفة الأبوَّة، عاطفة الرحمة والشفقة، وخسرانٌ لما يحصل عليه الإنسان في حياته وبعد مماته من النسل والولد؛ من نُصْرة وعزّ وفخر ومعونة في الحياة، وأثر طيِّب بعد الممات، يتمثل في الأبناء والأحفاد. (المؤلف).

الحرث أولاً، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ﴾ كالكروم وأمثالها من المرفوعة علىٰ العرائش، ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ وهي التي تعتمد علىٰ سيقانها من سائر الأشجار الباسقة.

ثم ذكر تنوُّع الثمار في الجنس الواحد، فقال: ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي: منوَّعاً ثمرُه، ثم نبَّه إلىٰ تشابُهِ النوعين في شكل الشجر واختلافهما في الثمر، فقال: ﴿وَ﴾ أنشأ ﴿ٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا﴾ شَجَرُهما في النظر ﴿وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في الثمر، أو المراد: أنَّ أصناف كلِّ نوع منهما تَتشابه أشجاره وتتفاوت ثماره، كالزيتون الأسود والأخضر، والرمان الحلو والحامض مثلاً، إلىٰ غير ذلك، فقد جاء في آية (٩٩) السابقة: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾، ولا شك أنه أشار بكل لفظ إلىٰ نوع من هذه المعاني.

ثم عقب بالمُمْتَنِّ به، وقَرَنه بطلب الشكر الفعلي، فقال: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾، وفي الأمر بالأكل إيذانٌ بالإباحة، وإنكارٌ علىٰ تحريم ما حرَّم الجاهليون علىٰ أنفسهم.

ثم أردف الأمر بالأكل بالنهي عن الإسراف فيه، فقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ في كلِّ شيء؛ لأنه أمرٌ يضرُّ بالصحة ونُظم الاجتماع والاقتصاد، ويُخرجُ عن الاعتدال المطلوب في أحوال الإنسان، والذي بُنيت عليه الشرائع المنزَّلة. وفي الإسراف استهلاكٌ لنصيب الغير في المجتمع، وقوله: (إن الله لا يحبهم) كناية عن ابتعادهم بذلك عن الله.

ثم ذكر الأنعام، وأدمج فيه الإنكار علىٰ ما تَقَوَّلوه من التحريم فيها، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أنشأ لكم ﴿حَمُولَةً﴾ تَحمِلونَ عليها أثقالكم، وتُسخِّرونها في

أعمالكم كالإبل، ﴿وَفَرْشًا﴾ وهي صغار الأنعام المفروشة في الأرض كالغنم، تتَّخذونها ذبائح، ومن جلودها وأصوافها فرشاً.

ثم قال تعالىٰ مُمْتنّاً ومُنكِراً علىٰ ما حرَّم الجاهليون علىٰ أنفسهم منها: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من هذه الأنعام وغيرها، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بتحريم ما لم يُحرِّم الله، وغير ذلك من أنواع الإغواء، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ فاحذروا وَساوِسَه وتضليلاته.

ثم ردَّ عليهم ما يتقوَّلونه في تحريم وتحليل بعض شؤون هذه الأنعام وأنواعها، بطريقة جدليّة يسمِّيها أهل الجدل: طريقة السَّبْر والتقسيم، أو طريقة الحصر، وهي أن يَسْتقصيَ سائر الأوصاف فيُبطل صلاحَ عِلِّيَّةِ كلِّ واحد منها للتحريم إلزاماً للخصم، فقال تعالىٰ: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بالنصب علىٰ أنه بَدَلٌ من قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾؛ ﴿مِنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثىٰ، ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ كذلك، ﴿قُلْ﴾ في الردِّ عليهم: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ من الأجنَّة؟ يريد: أنْ ليس في هذه الأنواع إلا هذه الصفات؛ الذكورة والأنوثة، واشتمال الأرحام، يعني: التوالد، وكلُّ واحدة منها لا تصلح علَّة للتحريم، وأنتم تجعلون عِلَلَ التحريم دائرة عليها، كما جاء البيان عنها في تفسير آية المائدة[1]، والتحريم لا ينبني ويبنىٰ إلا علىٰ الضرر الذاتي[2]، فهل في الذكورة والأنوثة أو الأجنَّة شيء من ذلك.

ثم قرَّر الإلزام بطلب دليل عقلي، فقال: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

---

(١) يعني: الآية ١٠٣ منها.

(٢) الحكم إنما ينبني علىٰ علته، وليس الضرر علةً لكل المحرَّمات من المطعومات، وإنما هو حكمة للتحريم، فما ورد النصّ بتحريمه فهو حرام، سواءٌ عُلم ضَرَرُه أم لا، وسواء حصل الاحتراز عن ضرره أم لا.

أي: تكلَّموا عن التحريم والتحليل بطرق علمية لا هـمجية، يُبيِّن أنْ لا وَجْهَ يعقل لتحريمهم لها، ولا علَّة لذلك، وإنما هو جهلٌ فاضح وافتراء علىٰ الله بغير علم ولا عقل رشيد.

وقد بدأ في هذا التفصيل بنوع الفرش، لأنه الأنسب في مقام إنكار تحريم الأكل لبعضه دون بعض بغير مُخصِّصٍ، بعد أن قدَّم في الإجمال ذكرَ الحَمولة، لأنها أهمُّ في الخلق والإنشاء والمنَّة، ثم تكلَّم عن الحمولة، فقال: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

وبعد هذا التبكيت انتقل إلىٰ تبكيت آخرَ ساخر، علىٰ طريقة القرآن في مثله، وضمَّنه طلبَ الدليل العقلي، فقال: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ أي: أم شاهدتم ربكم فوصَّاكم بذلك؟! يهزأ بهم ويشنِّع عليهم.

وبعد أن أثبت عليهم الافتراء، عقلاً ونقلاً سجَّل عليهم بهذا التوعُّد، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ثم علَّل منشأ ذلك فيهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لأنفسهم بإفساد مواهبهم وطَبْعِها علىٰ الضلال والتقليد الأعمىٰ حتىٰ أصبحوا لا يرون الحقَّ ولا يبصرونه.

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

وبعد الإنكار علىٰ تحريم ما حرَّم الجاهليون، افتراءً علىٰ الله، بيَّن ما حرَّمه الله علىٰ عباده من الطعام، بعبارة تُؤْذن أنَّ مثل ذلك لا يكون إلا بالوحي، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد والدعوة إلىٰ الرشاد، فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ أي: علىٰ آكِلٍ يأكله ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ ذلك المأكول ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾.

ثم علَّل تحريمَ هذه الأشياء بقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ أي: إن هذه الثلاثة خبيثةٌ ضارَّة بالأبدان، ولذلك حُرِّمت.

ثم ذكر ما هو مُحرَّم لأمر معنويّ روحيّ، فقال: ﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾، وهو ما يُتَقَرَّبُ به إلىٰ غير الله، لـما في ذلك من الشِّرك العظيم الموجبِ للتحريم، لضرره بالأرواح والعقول، كالنذر للأنبياء والصِّدِّيقين والصَّالحين، فهو فسقٌ أُهِلَّ لغير الله.

ثم رخَّصَ تناول هذه المحرَّمات للمُضْطر، بالشرط الآتي، فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: فمن دفعته ضرورةُ المجاعة غيرَ قاصدٍ لذلك المحرَّم ومريدٍ له ولا متعدياً قدر الضرورة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾، فلا يُؤَاخذه بأكل ما يسدُّ رَمَقَه منها، ويدفع به الهلاك عن نفسه. وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ حال مؤكدة للاضطرار.

وقد اختلفوا في هذه الآية: أهي لـمجرَّد الرد علىٰ الجاهلين الذين حرَّموا علىٰ أنفسهم ما حرَّموا، فيكون حَصْرُها إضافياً بالنسبة إلىٰ ما حرَّموا، أم هي كلُّ المحرَّمات ولا حرام سواها؟

فمن قال بالأول احتج بما جاء عن رسول الله ﷺ من تحريم لحوم الحُمُر الأهلية[1]

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٥٥٢٧)، ومسلم (١٩٣٦)، عن أبي ثعلبة قال: حرَّم رسول الله ﷺ لحوم الحمر الأهلية.

وكلِّ ذي ناب من السباع[١] ومِـخْلب من الطير[٢]، وما تعافه الطباع السليمة من الحشرات ونحوها.

وممن قال بالثاني: ابنُ عمر[٣] وابنُ عباس[٤] وعائشةُ[٥] رضي الله عنها، وهم من أعلم الصحابة. وحَمَلوا ما جاء عن النبي ﷺ فيما عداها علىٰ الكراهة أو المصلحة الوقتية أو الدائمة.

ونقل السبكيُّ[٦] عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال ما معناه: إنَّ الكفار لـما

---

(١) متـفق عليه، رواه البخاري (٥٥٣٠)، ومسلم (١٩٣٢)، عن أبي ثعلبة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن أكلِ كُلِّ ذي ناب من السباع.

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤)، عن ابن عباس قال: نهىٰ رسول الله ﷺ عن كُـلِّ ذي ناب من السِّباع، وعن كُلِّ ذي مخلب من الطير.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠٠٧)، عن نميلة الفزاري، عن أبيه قال: كنتُ عند عبد الله ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنـفذ، فقرأ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾، فقال شيخ عنده: سمعتُ أبا هريرة يقول: سُئل عنه رسولُ الله فقال: «خبيث من خبائث». فقال ابن عمر: إن كان قاله رسولُ الله فهو كما قاله.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠٠٦) بلفظ: ليس من الدوابِّ شيء حرام إلا ما حرَّم الله في كتابه، قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْـتَةً﴾.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٠١١) عن القاسم قال: كانت عائشة إذا سُئِـلَت عن كُـلِّ ذي ناب عن السباع، وكُلِّ ذي مخلب من الطير، قالت: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْـتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾. ثم تـقول: إن البـرمة لتكون فيها الصفرة.

(٦) تاج الدين أبو نصر، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧-٧٧١هـ)، قاضي القضاة، فـقيه مؤرِّخ، له: «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، و«جمع الجوامع». «الأعلام» للزركلي (٤: ١٨٤). =

حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا علىٰ المضادَّة والمُحَادَّة، جاءت الآية مناقضةً لغرضهم، فكأنه قال: لا حلالَ إلا ما حرَّمتموه، ولا حرامَ إلا ما أحللتموه من الميتة وما يتبعها، ولم يقصد حِلَّ ما وراءه، إذ القَصْدُ إثباتُ التحريم لا إثباتُ الحِل.

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ ما حَرَّمه علىٰ بني إسرائيل خاصَّة، عقوبةً لهم، لا علىٰ أنه من أصول شرعه، فكان من الملحق بالمستثنىٰ في حقِّهم لا في حقِّنا، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: دونَ غيرهم من أتباع الرسل ﴿حَرَّمْنَا﴾ فوق ما ذكر من الأنواع الأربعة ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ كالإبل والسباع وبعض الطيور، وهو أعمُّ من ذوات المَخْلب، لأن المَخْلب خاصٌّ بما يصيد، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ واستثنىٰ من الشحوم ما علق بالظهر أو الأمعاء أو اختلط بعظم، فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ﴾ أي: الأمعاء، ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾، فهذه أنواع ثلاثة من الشحوم مُخرَجةٌ من التحريم.

ثم بيَّن تعالىٰ سبب هذا التحريم عليهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي: جزاءً وعقوبةً لهم علىٰ بغيهم وظلمهم لأنفسهم.

وقولُه: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ تأكيدٌ لكون هذا التحريم كان جزاءً لهم علىٰ بغيهم، لا تشريعاً ملائماً لأحوال الطبيعة، علىٰ أصول شرعه سبحانه كما يدَّعون، ولذلك قفَّىٰ عليه بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ ...﴾، ويجوز أن يكون هذا توعُّداً لمشركي مكة ختم به السياق، أي: فإن لم تُفِدْهُمْ هذه الحججُ والبيِّنات وكذَّبوك ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ

= ووالده أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي (٦٨٣- ٧٥٦هـ)، شيخ الإسلام في عصره، صاحب المصنفات، منها: «السيف المسلول»، و«الاعتبار ببقاء الجنة والنار». «الأعلام» للزركلي (٤: ٣٠٢).

وَسِعَةٍ﴾؛ يُمهل المكذِّبين لعلهم أن يعودوا إلىٰ رشدهم، فإن لم يؤمنوا أهلكهم بعذاب الاستئصال، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

ثم حكىٰ سبحانه عنهم نوعاً آخرَ من كفرهم وعقائدهم الباطلة، وفنَّده عليهم، فقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾[1] مثل البَحيرة والسائبة، ولم يُريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب هذه القبائح، وإنما يُريدون أنَّ ما فعلوه حَقٌّ ومَرْضيٌّ عند الله تعالىٰ، لأن عقيدتهم: ما شاء الله وقع، وما لم

---

(١) يجوز أن تحمل هذه الآية علىٰ قولهم بالجَبْر، وأنهم يعنون أنَّ الإنسان مجبور في أعماله نازل فيها عند إرادة الله بزعمهم ومشيئته، جهلاً منهم لمعنىٰ الإرادة والمشيئة، ويُؤْنس لهذا الحمل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، لأنه يؤذن بأن الله تعالىٰ خلقكم مختارين، فتصرَّفتم هذا التَّصرُّفَ المشين بنتيجة الاختيار. ولو شاء أنْ يَقْسركم علىٰ عمل الخير لفعل، ولكن الحكمة اقْتَضَت جَعْلَكُم مُخْتارين، فأفسدتُم فطرتكم، وأسأتُم السلوك والاعتقاد. وعلىٰ مثل هذه الشُّبهة يجري بعض الجهَّال اليوم من عصاة المسلمين؛ يعتذرون بها عن ارتكابهم الآثام وتضييعهم للأحكام، فيقولون: لو شاء الله لهدانا، ولكنه شاء أن نكون ضالِّين. تعالىٰ الله عن ذلك عُلواً كبيراً، وساءت عقيدة هؤلاء المجرمين، ولا يدرون أنَّ الله هداهم منذ بعث بهذا القرآن محمداً رسولاً للعالمين. (المؤلف).

يشأ يمتنع وقوعُه، وكلُّ ما وقع فهو بإرادة الله، وما كان بإرادة الله، فهو حقٌّ ومقبولٌ[١].

ولما كان قولهم هذا يتضمَّن أمرين: الأول: أنهم علىٰ حقّ. والثاني: تكذيبهم لما جاء به محمد ﷺ مما يخالف عقيدتهم، توعَّدهم أولاً علىٰ التكذيب، بما جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من المُكَذِّبين، وضَمَّنه الرد عليهم بأنَّ أولئك لو كانوا علىٰ حقٍّ لما اسْتَأصَلَهم الله بالعذاب، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُم، وقالوا مثلَ قولهم، ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: بعذاب الاستئصال، وتبيَّن لأنفسهم أنهم كانوا في هذا التكذيب وهذه العقيدة علىٰ الضلال.

ثم أمره أن يردَّ عليهم الأمر الثاني بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ﴾ في إثبات ما تدَّعون بأنَّ ما أنتم عليه إنما هو من الله ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، وهذا ردٌّ مُشْرَبٌ بتجهيلٍ وتأفينٍ وتنذُّرٍ. ووجه الرد: أنَّ العقائد والأحكام لا يجوز أن تكون إلا بعلم صحيح عن الله بواسطة الوحي والكتب المنزَّلة، فهل عندكم شيء من ذلك في عقيدتكم هذه، يُلزِمُهم بذلك ويُبَكِّتُهُم ويسخر منهم، ثم يُشْفِعُه بقوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي: في أعمالكم وعقيدتكم هذه ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وإنَّ الظن لا يغني من الحق شيئاً، ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ في ذلك وتكذبون علىٰ الله.

ثم أتبع البيان وأكمل الردَّ وقرَّر الدحضَ بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم، وهي أنه تعالىٰ قد طبع فِطَرَكُم علىٰ الهُدىٰ والرشاد، وبصورة اختيارية، بمقتضىٰ حكمته تعالىٰ، غير مجبورين في أعمالكم، ولكنَّ سُوءَ تصرفكم في فطركم برداءة التربية والتقليد الأعمىٰ، أخرجها عن الهدىٰ إلىٰ الضلال، فإشراككم وتحريمكم لما لم يُحرِّم،

---

(١) عقيدتهم جبريَّة، تسوِّغ الشرك وتحريمَ ما أحلَّ الله، وأنه لا مسؤولية عليهم فيما هم عليه من ربِّهم!!

إنما هو من نفسكم وباختياركم، وبمعارضتكم رُسُلَ ربكم وتعاليمه إليكم، ولم يكن ذلك قَسْراً للإرادة، ولا عجزاً في القدرة، ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ وذلك بأن يخلقكم مفطورين قَسْراً علىٰ الطاعة وقَبول الحق كالملائكة، ولكن لم يشأ ذلك لأنه ليس موافقاً لحكمة الله تعالىٰ فيكم حين جعلكم خلفاء الأرض، تلك الحكمة التي كان من شأنها أن خلق الإنسان مُطلَقَ التصرُّف رائدُه عقلُه، فكان بذلك مُستعدّاً لاتِّباع الحق والباطل، وعمل الخير والشر، ويُرجِّحُ بعض ما هو مُستعدٌّ له باختياره.

وبعبارة أخرىٰ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ عليكم حيث هداكم للخير والصلاح بالفطرة والوحي، ولكن جعلكم مختارين في أخذ تلك الهداية ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ بصورة قَسْريَّة، بحيث يجعلكم لا تقدرون علىٰ عمل غير الخير والصلاح، ولكن الحكمة اقتضت أن تكونوا مختارين في أخذ تلك الهداية، لا مقسورين عليها جامدين، لتكونوا ذوي علم واسع وقدرةٍ كاملةٍ لتعمروا الأرض بإيجادكم وأعمالكم.

ويتلخَّص ردُّه سبحانه لشبهة هؤلاء المشركين بحُجَّتين:

الأولىٰ: أنَّ الله سبحانه عاقب المشركين السابقين لسوء فعلهم، ولو كانت أعمالهم بمشيئة الله لَـمَا عاقبهم عليها، فالاعتذار بالمشيئة كذب وجهالة.

والثانية: أنَّ الله تعالىٰ لم يقل مثل هذا القول علىٰ لسان أحد من رسله، وطالب المشركين بدليل علميٍّ علىٰ زعمهم هذا، دَحْضاً له وإبطالاً.

ثم أمر رسولَه أن يطلب منهم الشُّهداء علىٰ ما تضمَّنه قولهم من دعواهم تحريم الله عليه مما ادَّعَوْهُ من المحرَّمات، تهكُّماً بهم وزيادةً في إفحامهم، فقال: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾، وللمبالغة في الإنكار عليهم أتىٰ بالتحذير المبنيِّ علىٰ الفَرْضِ والتقدير، فقال: ﴿فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي: فلا تسكت عن

ذلك، بل بيِّن الحقَّ، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ غيرَه من شركائهم.

فالكلامُ صورةٌ من صور الإبطال، أتىٰ به علىٰ هذا النوع من التعبير، وذلك علىٰ نهج القرآن في التفنُّن في البيان، والتنويع في الردِّ والإنكار.

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

ثم أمر رسوله أن يُبيِّن أصولَ المحرَّمات وجوامعَها في الأعمال والأقوال، وما يقابلها من أصول الفضائل والبر، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، ولتتبيَّن حُجَّة الله البالغة أيضاً في قواعد تشريعه المَرْضِيَّة عند العقول السليمة والفِطَر المستقيمة، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين يتَّبعون أهواءَهُم فيما يُحلِّلون ويحرِّمون: ﴿تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وقد ضمَّن ﴿حَرَّمَ﴾ معنىٰ: أوجب وقَضَىٰ، علىٰ نهج القرآن في التَّضمين، فلذلك قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ سواء كان باتِّخاذ الأنداد له تعالىٰ أو الشفعاء أو الوسطاء، أو كان باتِّخاذ الأرباب الذين يشرعون الأحكام، ويَتحكَّمون في الحلال والحرام، ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ والتعبير بالمصدر للمبالغة، ونسق هذا مع

المحرَّمات باعتبار ضدِّه، فهو عَطْفٌ بالمعنىٰ، أو باعتبار تضمينه ﴿حَرَّمَ﴾ معنىٰ: قضىٰ، ولذلك عطف علىٰ ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾ بقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ أي: من فقر، وكانوا يفعلون هذا الفعل يتَّقون به ـ في زعمهم ـ غائلةَ الفقر التي يجلبها عليهم الإنفاق علىٰ الأولاد، وعارَ الفاحشة والسَّبْيَ للبنات في القتال الدارج بينهم، وعارَ التزوُّج بزوج هو دونهم في الشرف والمكانة. وخصَّ بالذكر الأول، لأنه يستحقُّ الجواب في الجملة.

وينطبق ذلك علىٰ مَنْ يقتل الأجنَّة في بطون أمهاتها بالعلاج. والله أعلم.

فبيَّن تعالىٰ أنه هو الرزاق الوهَّاب، فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، ولستم لهم برازقين. وفي هذا تجهيلٌ لهم وتأفين، وإنما قالَ هنا: ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقال في سورة الإسراء: ﴿نَّرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ لمطابقةِ كلٍّ منهما لسياقه؛ إذ أرادَ هنا الفقرَ الواقعَ والأولادُ صغارٌ، حيث قال: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾، أما في سورة الإسراء فقد أراد الفقر المتوقَّع في المستقبل، حيث قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، فأومأ إلىٰ أنَّ هؤلاء الأولاد ربما يكونون حينئذ كاسبين لكم، فقدَّم في كلٍّ من السياقين ضمان رزق الكاسب بالذات، وغيره بالتَّبع، إيماءً إلىٰ أنَّ الله سبحانه قد جعل كَسْبَ العباد سبباً لحصول الرزق.

ثم تابع البيان فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، والفواحش: ما عَظُم قُبْحُه من الأفعال والخصال.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ أهل الجاهلية كانوا يُحرِّمون ما ظهر من الزنىٰ، ويقولون: إنه لؤم. ويستحلُّون ما خَفي، ويقولون: لا بأس به[1].

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٨: ١٩٣).

ثم تابع البيان، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلَها، وهذا القيد لاستفزاز الشعور والمبالغة في النهي، ثم استثنىٰ من ذلك قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو ما يُبيح القتل شرعاً، كالقصاص، ثم أكَّد تلك الوصايا بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ والإشارة إلىٰ الوصايا الخمس المتقدِّمة، واللام فيها للدلالة علىٰ بُعْد مَدَىٰ ما تدلُّ عليه الوصايا المشار إليها من الحِكَم والأحكام والمصالح الدنيويَّـة. ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾، أي: ما فيها من المصالح والحِكَم.

ثم ذكر الوصيَّة السادسة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ما يُفعَلُ به من تثميره وتنميته ورجحان مصلحته والإنفاق منه علىٰ تربيته وتعليمه. والنَّهيُ عن قُرب الشيء: أشدُّ أنواع النهي عنه، وأبلَغُ صورةٍ في النهي؛ لأنه يُخيِّل المنهيَّ عنه ويُصوِّره بالشيءِ المخيف، وقد حدَّد ذلك بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، و(الأَشُدّ): جمع شِدّة، بمعنىٰ القوة والكمال فيها، مثل: أنْعُم جمع نعمة. والمراد ببلوغ الأشد: بلوغ سن الرشد، وقال ﷺ: «لا يُتْمَ بعد بلوغ»[1]. والقرآن يُعبِّر بالنَّهي عن القُربان في النهي عمَّا من شأنه أن تميل إليه النفوس وتدفع إليه الأهواء، فيبالغ في التحذير عنه بهذه العبارة.

ثم ذكر الوصيَّة السابعة علىٰ طريقة العطف بالمعنىٰ، وكذلك ما بعدها، فأتىٰ بصيغة الأمر بالشيء، بَدَلَ النَّهي عن ضدِّه، كما فعل فيما تقدَّم في الإحسان بالوالدين، فقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، وأراد بالميزان: العدل والضبط في سائر أنواع الأعمال والمعاملات.

ولما كان إجراء ذلك بالدِّقَّـة لا تَـتَمكَّن منه النفوس علىٰ السَّواء، قَـرَنه بقوله:

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤: ١٤) عن حنظلة التميمي مرفوعاً: «لا يُتمَ بعد احتلام، ولا يُتمَ علىٰ جارية إذا هي حاضت». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤: ٤١١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، والله عليمٌ بذات الصُّدور، لا يخفىٰ عليه أمر مَنْ يُجهِدُ نفسَه في ذلك أو يقصر.

ويجوز أن تكون هذه الجملة بياناً لكون تكاليف الله سبحانه لعباده كلها في متناول قدرتهم، فليس لهم عذر في إهمالها أو التقصير فيها. وهذا هو الراجح، فأتىٰ بهذه الجملة معترضةً في أثناء هذه الوصايا للحَمْل علىٰ التمسُّك بها.

وبعد أن ذكر العدل في الأعمال، ذكر العدلَ في الأحكام والأقوال، في الوصية الثامنة، فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ﴾ أي: المقولُ عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي: ذا قرابة منكم.

ثم ذكر الوصية التاسعة، فقال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، وهذا يشمل ما عهده الله تعالىٰ إلىٰ الناس علىٰ ألسنة رسله، وبما آتاهم من العقل والوجدان والفطرة السليمة، أي: الهدايتين الفطريَّة والتشريعيَّة، ويشمل ما يعاهد الناس عليه بعضُهم بعضاً.

ثم ختم هذه الوصايا الأربعة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ أي: ما فيها من الصَّلاح لكم، فيحملكم ذلك علىٰ العمل بها، أو رجاء أن يذكِّر بعضكم بعضاً في هذه التعاليم والوصايا.

ثم أتبع هذه الوصايا العظيمة التي جاءَت في سائر الكتب السماويَّة، بهذه الوصيَّة العاشرة، وهي التَّمسُّك بهذه الشريعة التي منَّ الله بها علىٰ البشر بعد كماله واستعداده لها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي: قل: إنَّ هذا القرآن الذي أدعوكم إليه وأدعوكم به إلىٰ ما يُحييكم، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه إلىٰ مرضاة الله ونَيْل سعادة الدنيا والآخرة، وهو الدين القويم والشرع الحنيف، وهو الذي وصَّاكم الله به علىٰ لسان أنبيائه وفي كتبه السابقة أنْ إذا جاء فاتَّبِعُوه، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الأخرىٰ

التي تُخالفه، وهي سائر الأديان، سواء كانت وضعيَّـةً أو سماويَّـةً مُحرَّفةً أو منسوخةً، ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾(١). والآية تُرشد إلىٰ أنَّ أنواع الضلال وطرقه كثيرة لا

(١) خلق الله الإنسان للكمال والإدراك الواسع، والقدرة علىٰ الأعمال العظيمة والإيجاد، وعلىٰ الإرادة المطلقة، إذ لا يتمُّ ما قبلها إلا بها، فالإنسان مختار في تصرُّفاته، تابع فيها لإرادته ورغباته. ولما كانت هذه الحرية المطلقة في السلوك والأعمال تؤدِّي إلىٰ الخطأ والصواب، والحق والباطل، كما يشاء ويهوىٰ، جهَّزه سبحانه للحق والصواب بهدايتين: هداية الطبيعة ما لم يفسدها وهداية الشريعة. وقال تعالىٰ عن الأولىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال تعالىٰ عن الثانية: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]. وقد سار النوع الإنساني يحبو في مدراج الكمال يتدرَّج من درجة إلىٰ أخرىٰ، مُتنقِّلاً مع ذلك من شريعة إلىٰ أخرىٰ أوسع منها وأعلىٰ مقاصد ومفاهيم، كما ينتقل الصغير في المدرسة من صفّ إلىٰ أرقىٰ منه، وكان سبحانه يعده بإعطائه آخر شريعة تكون في منتهىٰ الكمال، يختم بها الشرائع، ويجعلها عالمية عامة في البشر، حتىٰ وصل إلىٰ أول درجة من الكمال في العلوم والمعارف، ثم جاء الإنجيل يبشِّر بها، ومعناه في السريانية: البشارة. فكانت منتظرة عند أهل الكتاب، حتىٰ جاء محمد عليه السلام، وأنزل عليه القرآن، فقال سبحانه فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، وقد حدَّد سبحانه في هذا الصراط حريَّة الإنسان وميوله كي لا ينحدر مع هواه فيهوي في مهاوي الحطَّة والرذائل، بحكم اختياره الطبيعي وحريته المطلقة في التصرُّف، وينحدر إلىٰ أسفل سافلين، فقيَّده سبحانه في شهواته ورغباته بقيود شريفة معتدلة تليق بالإنسان، وترفعه عن دَرَكة الحيوان كي يسعد في الحياتين، ويبعد عن الشقائين؛ شقاءِ الدنيا وشقاءِ الآخرة، فوضع له في هذا الصراط لافتات تُنذره بمواضع الخطر، وتُرشده إلىٰ مواطن السلامة وصحَّة النظر، وجعل له موازين تضبط ما يحلُّ له فعله من الرغائب، وما يحرمُ عليه من المثالب، ويُؤدي به في الحياتين إلىٰ المتاعب والمصائب، فأبعده عن ذلك وزَدَعَه عن الهبوط إلىٰ ما هنالك، ووجَّهه إلىٰ الصراط المستقيم الذي يَصلُ بالإنسان إلىٰ ساحة النجاة والمقام الكريم. (المؤلف).

حَصْر لها، أما الهداية فهي نوعٌ واحدٌ وسبيلٌ واحدة، وهي ما يهدي إليه هذا القرآن، ثم حث علىٰ التمسُّك بها وتجنُّب سائر السبل بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ما يحيدُ بكم عن هذه الطريق، فيشقيكم ويُرديكم في دنياكم وأُخراكم.

فَلْيَنظر أُولو الألباب من المسلمين وغيرهم إلىٰ هذه الأصول وشؤونها العظيمة الحيوية في الاجتماع والمدنية، ليعلموا أنَّ مثل هذه التَّعاليم لا تصدر إلا عن الله العليم الحكيم.

وقد أورَدَ بعضها بصيغة النهي، وبعضها بصيغة الأمر، فالتي مَنَاطُ الخير فيها تَـرْكُ المُحرَّمات، ذُكِرَتْ بأسلوب النهي. والتي مَنَاطُ الخير فيها فِعْلُ ما يقابل المحرَّم، ذُكِرَتْ بأسلوب الأمر، بمقتضىٰ البلاغة العالية من أساليب القرآن.

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم عطف علىٰ هذا السياق سياقاً آخر بـ«ثُمَّ»، التي هي لمجرَّد ذكر الخبر، بعد الخبر، لا للترتيب والتراخي، وهو لبيان أنَّ محمداً ﷺ نبيٌّ أنزل عليه كتاب كما أُنزل علىٰ موسىٰ، فما وجه الإنكار عليه، وكتابه أعظم من كتابه. وافتتح هذا السياق الجديد بالمقارنة بين التوراة والقرآن، إذ أنزله كما أنزلها، بياناً وإرشاداً، لئلا يكون للناس علىٰ الله حُجَّةٌ، فقال: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ثم إننا كنا قد آتينا موسىٰ الكتاب ﴿تَمَامًا﴾

للنعمة والكرامة ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ الاتِّباعَ والاهتداءَ به، ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من أحكام الشريعة، ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ للناس ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ١٥٤﴾ أي: ليُعِدَّهم للإيمان بالبعث والحساب والتهيُّؤ لذلك.

ولتضمُّن كلمة ﴿تَمَامًا﴾ معنىٰ التفضُّل عُدِّيَت بـ﴿عَلَى﴾، وإنما خصَّ «مَن أحسَنَ»؛ لأنه هو الذي يُحسِنُ التَّمسُّك بهذه التعاليم أيضاً ويهتدىٰ بها.

ويجوز أن يكون المعنىٰ: آتينا موسىٰ الكتاب تماماً لتعاليم الكتب السابقة، علىٰ مَنْ أحسن الاتِّباع لها والاهتداء بها.

ثم أردفَ الكلام عن التوراة، بالكلام عن القرآن ونوَّه به، وأمر باتِّباعه لأنه المنجىٰ، فقال: ﴿وَهَٰذَا﴾ أي: القرآن الذي يُتْلَىٰ عليكم هو ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ أي: فيه نماءٌ وزيادةٌ علىٰ ما جاء في التوراة، لأنه جامعٌ لكلِّ أسباب الهداية الملائمة للبشر إلىٰ انتهائه من الدنيا، ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ﴾ ما نهاكم عنه، ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٥٥﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر وجه الاعتذار فيه وشدَّة الحاجة إليه، فقال: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ١٥٦﴾ أي: أنزلناه لئلا تقولوا يوم الحساب معتذرين عن شرككم وإجرامكم: إنما أُنزل الكتاب الهادي علىٰ اليهود والنصارىٰ، ونحن لم نكن نعلم من مثل علمهم شيئاً، ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ إلىٰ الحق، ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ وهو هذا القرآن، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد إذ جاءته، ﴿وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾ أي: أعرض وصدَّ عنها، ﴿سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾.

والمراد بالطائفتين هنا: اليهود والنصارىٰ في أول أمرهم عندما كانوا مؤمنين حقاً، قبل أن يُحرِّفوا كتبهم ويزيغوا عن الحق، وإنما يُقرَنُ دائماً القرآن بالتوراة، لأنَّ كلاً منهما شريعة كاملة. أما الإنجيل فأكثره عظات، والزبور أكثره ثناء ومناجاة، فكانا تكميلاً للتوراة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

وبعد أن توعَّدهم بالعذاب علىٰ صُدوفهم، فصَّل بعضَ ذلك الوعيد العام، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، او استئصالهم بالعذاب، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي: أمرُه وتحقُّق وعده بنصر المؤمنين وخِذلانِ الكافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]. أو المراد: حسابُه للناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ المُقْتَرحة عليك منهم، ولم يؤمنوا، فيستأصلهم الله بعذاب من عنده. أو المراد: نفس العذاب، لأنه إنما يكون بآياتٍ كونيَّة. أو المراد: بعض آيات القيامة كطُلوع الشمس من مغربها، إذ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، وتضمَّن الكلام ثلاثاً: الأولىٰ: النفس المؤمنة، والثانية: هي التي آمنت حديثاً إيماناً صحيحاً أعقبه أعمال صالحة، لا النفس التي آمنت خوفاً من العذاب؛ لأنَّ هذا الإيمان لا يُجْدي نفعاً، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ

﴿فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، والمراد بهذا الإيمان الذي لا خير فيه: هو الإيمان الاضْطراري بعد مجيء العذاب أو مُقدِّماته.

ثم أكَّد الوعيد بقوله: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ ما تـتوقَّعون بنا، ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ ما نَتوقَّعُه بكم.

وقد كان مشركو قريش يعتقدون في بادئ الأمر أنَّ دعوته ستـظلُّ في نطاقها الضيِّق، فإذا ما لقي حَتْفَه عاجلاً أو آجلاً تلاشَتْ دعوتُه، وتفرَّق أصحابه، وعادوا إلىٰ دينهم. ولما نوَّه بشأن القرآن وأمر باتِّباعه، أومأ إلىٰ أنَّ الاختلاف فيه يُخرِجُ المختلفين من زمرة أهله، كما أنَّ اختلاف أهل الكتابين في كتابيهمـا أخرَجَهم عنهما، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾، والمراد مِن جَعْلِ الرسولِ بريئاً منهم: تضليلُهم وتحذير الأمة من مثل فعلهم.

ويجوز أن تتضمَّن الجملة: أنك غير مسؤول عنهم، لأنَّ الإنسان إنما يُسألُ عمَّا نيطَ به من عمل، وإنما كُلِّفتَ بالتبليغ وقد أدَّيته، فلا شيءَ عليك إن لم يؤمنوا مطلقاً، أو لم يؤمنوا علىٰ الوجه الصحيح.

والآية بعمومها تتناول الذين حادوا عن طريقة محمد وأصحابه ببدَع تُشوِّه العقيدة أو تُحرِّف العبادة، وهم أهل البدع والفِـرَق الإسلامية التي مزَّقت وحدة الإسلام[1]، وقالوا: إنَّ الآية من إخبارات القرآن الغيبيَّة عن المستقبل، وقد تَوَعَّد هؤلاء المتفرِّقين في الدين بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

---

(١) يعني: التي وقع اختلافها في أصول العقائد، فمالت عن الطريق السَّوي والعقيدة النقية الصحيحة، ولم تسلم من فساد في اعتقادها.

أما الاختلاف في فروع العقيدة وفي المسائل الفقهية، فهو أمرٌ مقصودٌ للشارع محمودٌ عنده، وهو واقعٌ قطعاً لابتنائه علىٰ أدلة ظنية.

ثم قفَّىٰ علىٰ ما تقدَّم من السياق الإرشادي، ببيان الجزاء العام في الآخرة علىٰ الحسنات والسيِّئات، مُلمعاً إلىٰ أنه سبحانه لا يظلمهم، فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مِنَّةً مِنه تعالىٰ وفَضْلاً، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ رحمةً منه وعدلاً، وذلك بحَسَب سُنَّة الله تعالىٰ في تأثير الأعمال السيئة في تدسية النفس وإفسادها، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ في ذلك، لأنهم هم الذين خرجوا عمَّا يحفظ لهم سعادتهم إلىٰ ما أوقعهم في ذلك الهلاك والشقاء، بتكييف نفوسهم بهذه الكيفيَّة السيئة المؤدِّية إليه.

قال الراغب: الحسنة والسيئة ضربان: ضَـرْبٌ باعتبار الشرع كما في هذه الآية، وضَرْبٌ باعتبار الطبع، وذلك ما يستخفُّه الطبع وما يستثقله، نحو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾[1] [الأعراف: ٩٥]، فهما في الأولىٰ شرعيتان، وفي الثانيتين طبيعيتان من الآيات الثلاث.

﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

ثم خَتَـمَ السُّورة بهذه الآياتِ الكريمة المناسبةِ لجملتها في أسلوبها ومعانيها،

---

(١) «المفردات» ص٤٤١-٤٤٢.

ألـمَعَ فيها إلىٰ أصول الدين وتقرير التوحيد، وكَوْن الجزاء علىٰ الأعمال، ختمها بها إجمالاً لـما سبق، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يصل سالكُه إلىٰ سعادة الدارَيْن؛ هَدَاني ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ يصلح ويقوم به أمر الناس في الحياتين، لأنه يُساير الطبيعة البشرية الفردية والاجتماعية مسايرةً صحيحةً فطريَّةً بمقتضىٰ ما خلقها الله عليه وأراده فيها من الكمال، فهو يشرع للدنيا كما يشرع للأخرىٰ، ويضع لها مناهج الخير والنفع العام والمصلحة الصحيحة المنطبقة علىٰ سُنَن الكون ونظام الاجتماع الصحيح، مراعياً في ذلك الأحوال الماديَّة والروحيَّة، سُداهُ الوحدة الأخويّة الإنسانيّة، ولُحْمَتُه السعادة الدنيويَّة والأخرويَّة الأبديَّة، حيث يسمُو بالنفس إلىٰ الذروة العُليا من الفضائل ومعاني الإنسانية، ويهدف أن يجعل البشر في منتهىٰ الرقيِّ والكمال، فالإنسان الذي تتمُّ فيه معاني هذا الدين علىٰ وجهها الصحيح هو الإنسان الفاضل الكامل الجليل بالمعنىٰ الصحيح لهذه الأوصاف، وإن أردتَ شاهداً علىٰ ذلك فراجع تاريخَ من شئت من الأشخاص المتمسِّكين بهذا الدين علىٰ وجهه الصحيح في صدر الإسلام.

يكاد الذي يُروَىٰ غريباً حديثُهم ... يُظَنُّ خيالاً أو أحاديثَ مُفْتري[1]

و(قِيَم): مصدر قام، بمعنىٰ: اعتدل. وأصله: قَوُمَ، علىٰ وزن: كَبُرَ وصَغُر، فقُلِبَت واوه ياء، وقد وُصف به للمبالغة.

ثم بيَّن هذا الدين بكونه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الذي تعترف به العرب واليهود والنصارىٰ، ودينه هو دين الإخلاص لله وحده الذي بَعَثَ به جميعَ رسلِهِ، وقرَّره في جميع كتبه، فكان إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن جميع ما سواه من أديان الشرك والباطل

---

(١) البيت لشكيب أرسلان، الشاعر اللبناني المتوفىٰ سنة ١٩٤٦.

والضلال. وقد أكَّده بالصيغة السلبيَّة، علىٰ نهج القرآن في الترادف والتقرير، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾، وفي هذه الصيغة أيضاً تعريضٌ بهم وتكذيبٌ لهم في دعواهم أنهم علىٰ ملَّة إبراهيم.

ثم بيَّن روحَ هذا الدِّينَ بصورة إجماليَّة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾، والنُّسك: العبادة. قال في «الكشاف»: أي: ما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح كله لله[1]. ولا شك أنَّ الذي يُوطِّن نفسه علىٰ أن تكون حياته لله ومماته لله؛ يتحرَّىٰ الخيرَ والصلاحَ في كلِّ عمل من أعماله، فهذا هو مقتضىٰ الدين الحنيف ومؤدَّاه.

ثم نزَّه الله تعالىٰ وأكَّد التوحيدَ والإخلاصَ له، فقال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي: فلا أُشرِكُ معه أحداً بكلِّ وجهٍ من وجوه الشرك فيما أعمله له، ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ فلا أخالف أمره، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ إليه، ومُسارِعٌ إلىٰ ما أمرني به.

ثم قرَّر التوحيد بصُورة إنكار للشِّرك مَسْبوكٍ علىٰ الدليل، فقال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا يُحمَلُ عنها منه شيء، فكيف أُغرِّرُ بها؟!

قال في «المنار»: وهذه الجملة معطوفة علىٰ الجملة الحالية قبلها، لأنها مُتمِّمة لتعليل الإنكار وتقرير التوحيد، وهي قاعدةٌ من أصول دين الله تعالىٰ الذي بعث به جميع رسله، كما قال تعالىٰ في سورة النجم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ - ٤١]. وهذه القاعدة من أعظم أركان الإصلاح

---

(١) «الكشاف» (٢: ٨٤).

البشري في أفرادهم وجماعاتهم، لأنها هادمةٌ لأساس الوثنيَّة، وهو طلبُ دفع الضرر وجَلْب النفع بواسطة بعض المخلوقات العظيمة الممتازة ببعض المزايا، سواء من البشر أو من غيرهم، فيجعلونهم واسطةً بينهم وبين ربِّهم ليعطيَهم ما يَطلبون، أو ليحملوا أوزارهم، أو يحملوا الباري تعالىٰ علىٰ رفعها عنهم حتىٰ لا يُعاقبهم عليها، وعلىٰ إعطائهم نعيم الآخرة[1].

فقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تقريرٌ للجملة السابقة، وإنما عبَّر عن النفس بالوازرة؛ للإشارة إلىٰ أنَّ كلَّ نفس لا تَسْلَم من الوزر في الغالب، وإن اختلف نوعه، وهي تحمل وِزْرَها وحدها، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ من أمر الأديان واختلافكم فيها، ويُجازيكم عليه بما تستحقون. والمراد: أنَّ الأمر سيؤول إلىٰ ما يزول معه الشكُّ، ويحصل معه اليقين، وذلك عند مُجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

ثم أجمل السياق بهذه الآية، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يَخلُفُ بعضكم بعضاً، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ في الجاه والمال وغيرهما؛ ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: لِيَختبركم فيما أعطاكم، أي: يعاملكم معاملةَ المُختبر، فيبني الجزاء علىٰ العمل؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لأنَّ سُننه قَضَتْ أن تكون النتائج آثاراً للأعمال من دون تَراخٍ، فمن عمل بما يُخالِفُ سُنَّته الكونيَّة وشريعته العليَّة نالته نتائج ذلك العمل في الدنيا والأخرىٰ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ للتوَّابين الأوَّابين الذي يُزيلون بتوبتهم ذلك الأثرَ من النفوس، فتصبح ناصعة نقيَّة، كما يُنقَّىٰ الثوب الأبيض من الدَّنَس.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٢١٧).

ومن بلاغة القرآن تأكيد الجملة الثانية باللام، دون الأولىٰ لأنها في العقاب.

وقيل: الخطاب في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ...﴾ للأمة المحمَّدية، وأنه جعلهم خَلَفاً لمن سبقهم من الأمم، وانتدبهم لإقامة دينه وشريعته ونَشْره في الآفاق، فمن أحسَنَ فلنفسه، ومَنْ أساء فعليها، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام علىٰ محمد وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فهذا هو الجزء الرابع[1] من تفسير القرآن العظيم المسمّىٰ «أوْلَى ما قيل في آيات التنزيل»، يبتدئ بسورة الأعراف المكيَّة، وهي مئتان وست آيات، تقصد إلىٰ ما تقصد إليه سائر السور المكية، من تقرير أصول الدعوة الإسلامية، وهي التوحيد والرسالة، وإثبات البعث والجزاء. ولم تَدَعْ هي والتي قبلها شبهة لمنكري ذلك حتىٰ أفحمتهم، وألزمتهم بالحقِّ اليقين، وبأقطع البراهين. وقد احتوت علىٰ الإنذار والاعتبار بقصص الأوَّلين وما جرىٰ عليهم، فأخذت المشركين بطريقة الترهيب والترغيب، بعد أن أخذتهم سورة الأنعام التي قبلها بطريقة النظر والاستدلال.

* * *

(١) حسب تقسيم المؤلف رحمه الله في الطبعة الأولىٰ لهذا الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾﴾ وقد مرَّ الكلام علىٰ الحروف التي تُبتَدأُ بها السور في أول سورة البقرة فارجع إليه. وأوْلىٰ ما قيل فيها: إنها لتنبيه الفكر إلىٰ ما يأتي بعدها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لتبلِّغه للناس، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ في القيام بتبليغه وما يتبع ذلك من صعوبات، ولا تَضِقْ صدراً بتكذيبهم له وإعراضهم عنه، فإنما أنزلناه إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكافرين ﴿وَ﴾ يكون ﴿ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ لأن تعاليمه فطرية، والمؤمن يحافظ علىٰ سلامة فطرته فيدرك حقيقتها وحقيَّتها بأدنىٰ التفات.

ثم خاطب العموم مُحذِّراً ومذكِّراً، فقال: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهو هذا الكتاب، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يدعونكم لاتِّباعهم، ويضعون لكم أحكاماً من تلقاء أنفسهم.

ثم ذيَّل هذا الخطابَ بما يُؤْذِنُ بالتبْكيت والتأسُّف فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وتتَّعظون بما توعظون به وتعتبرون. أو المراد: قلَّة مَنْ يتذكَّر من البشر، ينعىٰ عليهم بذلك.

ثم أردف هذا بالإنذار، فقال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ ذكر الفعل وأراد مُقَاربَته أو إرادته أو الحكم به، علىٰ نهج القرآن في مثله، (كما جاء في المادة الرابعة من المقدمة السادسة)، أي: أردنا إهلاكها أو حكمنا به عليه لإعراضها عمَّا جاءها من رسول وكتاب. ويجوز أن يُراد بالفعل نفس الإهلاك، أجمله ثم فصَّله بقوله: ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: ليلاً ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: وقت القيلولة. والمراد: أنهم آمنون غير مفكِّرين به ولا حاسبين له حساباً، ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ أي: فما كان لهم في الدعوىٰ إلا الاعتراف باستحقاقهم للعذاب، والمراد: ما ينبعث عن ذلك من التَّحسُّر والندامة. وعبَّر بالدعوىٰ عن الاعتراف، مبالغةً في تقريره. ويجوز أن يكون المراد بالدعوىٰ: الاستغاثة، وقرنوها بالاعتراف للمبالغة في الاستعطاف. ويجوز أن تبقىٰ علىٰ معناها وفيها بداعة في المعنىٰ، أي: بعد أن كانوا يَدَّعون أنهم علىٰ حقٍّ في دينهم، أدركوا حينئذ أنَّهم علىٰ ضلال.

ثم بيَّن عذابَهم الأخرويَّ إثر بيان عذابِهم الدنيويِّ، فقال: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نسأل المرسلين عمَّا بلَّغوا، ونسأل الناس عما أجابوا»[1].

أقول: وذلك لإلزامهم وإقامة الحجة عليهم، ولذلك أردفه بقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أعمالَهم ﴿بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم، وهذا أرهبُ وعيدٍ لمن كان له قلب

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٠٦).

أو ألقىٰ السمع وهو شهيد؛ إذ فيه إيماء إلىٰ أنَّ السؤال لم يكن للاستعلام، وإنما هو لإخبارهم عما حدث منهم، إقامةً للحجة، أي: لم يغب عنا ما عملوا من عمل وما اكتسبوا من إثم، فقد أحصيناه ونسوه.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ فلا تظلم نفس شيئاً، ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي: فمن رَجَحت موازين أعماله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالكفر وكثرة السيئات، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾ إذ حرموها السعادة التي كانت مستعدة لها لو لم يفسدوا فطرتها بالكفر والمعاصي، واستحقّوا العذابَ الأليم، ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ أي: في الكفر بها والإعراض عنها، وإن الكفر والشرك لظلمٌ عظيم.

وقد أفرد الضمير العائد إلىٰ ﴿مَن﴾ نظراً للفظها، وجمع اسم الإشارة إليها نظراً لمعناها[1]، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وعُرف اللغة المتّبع.

قال الأستاذ الإمام في الكلام علىٰ الميزان: ومن عجيب ما قاله البعض: أنه ميزانٌ بلسان وكفتين كأطباق السماوات والأرض، ولا يعلم ماهيَّته إلا الله!! فماذا بقي من ماهيَّته بعد بيان لسانه وكفَّتيه حتىٰ يُفوَّض الأمرُ إلىٰ الله من بعد ذلك البيان؟! ومثل هذا الكلام جرأةٌ علىٰ غيب الله بغير نصٍّ صريح متواتر عن المعصوم ﷺ، ولم يرد في الكتاب إلا كلمة الميزان. فعليك أيها المؤمن المطمئن أن توقن بأنَّ الله سبحانه يزن الأعمال، ويُميِّز لكلِّ عمل مقداره، ولا تسل: كيف يزن، ولا كيف يقدِّر، فهو أعلم بغيبه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

---

(١) يعني بالضمير العائد علىٰ «مَن»: الهاءَ في قوله: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾، ويعني باسم الإشارة إليها: قولَه: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾.

وإنَّ البشر اليوم قد اختـرع من الموازين ما هو أتقنُ وأضبطُ من ذات الكفتين واللسان، ذلك الميزان الخشن غير المتقن، فكيف بالحكيم الخبير أن يستعمل ذلك الميزان الذي اخترعه البشر قبل أن يبلغ به العلم ما بلغ.

علىٰ أنَّ الموزون هنا معانٍ ومعقولاتٌ، فما هو وجه احتياجها لكِفَّة بوسع الأرض والسماوات. وإنما ذلك قول ما لا يعرف الإيمان بالغيب.

وإذا كان العلم الحديث قد كشف موازين للحرِّ والبـرد واتِّجاه الرياح والأمطار إلىٰ غير ذلك، أفيعجز القادر علىٰ كلِّ شيء عن وضع موازين للأعمال النفسيَّة والبدنيَّة التي سمَّاها الدِّين: الحسنات والسيئات، بما تحدثه في الأنفس من الأخلاق والصفات الثابتة فيها.

أقول: وأظن أنَّ الوزن كناية عن علم الله الدقيق بمقتضىٰ الذرَّتين[1]. والله أعلم.

---

(١) هذا ظنٌّ بعيد، فقد ورد ذِكرُ الكفتين في وصف الميزان في السنة الصحيحة، أما ما نقله المؤلف آنفاً عن الأستاذ الإمام ـ يعني: الشيخ محمد عبده ـ من كون هذه الأحاديث أخبار آحاد، فلا يضر، فأصل الميزان ثابت في القرآن الكريم والسنة المتواترة، ثم الكلام في وصفه وكيفيته مما يُقبلُ فيه الحديث الصحيح ولو كان آحاداً، وقد انتهىٰ المؤلف رحمه الله إلىٰ الظن في آخر كلامه فقال: «وأظن أن الوزن كناية...»، فإذا كان كذلك فلا يُترك الحديث بحجة ظنية ثبوته.
هذا، وقد عرف الناس في عصرنا موازين شتَّىٰ لكلِّ الأشياء، وليس من الضروري أن يكون الميزان هو ذا الكفتين، فقد عرفنا موازين القَبَّان، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين تزن القمح والغلال ونحوها، وليس بكِفَّتين، وعرَفنا موازين المياه، وموازين الحرارة، وموازين الضغط الجوي، إلخ.
وميزان الله سبحانه الذي يزن به أعمال الناس يوم القيامة، هو واحد من هذه الموازين، أو هو غيرها كلُّها، ولكنه ميزان أو مقياس أو مقدار لا يشكُّ أحد في عدالته، وصواب تقويمه. وفيه يقيس الله ويزن الحسنات والسيئات، والطاعات والمعاصي، والصغائر والكبائر، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والسنة والبدعة، ويعرف مقاديرها وقِيَمها، والاختلاف بينها، وأحياناً يكون دقيقاً جدًّا، وقليلاً جدًّا، وكثيراً جدًّا. =

= ونقل الفخر الرازي حول مدلول الموازين قولين: «أنه جمع موزون، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله. وهذا قول الفرَّاء. قال: ونظيره يقال: عندي درهم بميزان درهمك.. إلخ. والثاني: أنه جمع ميزان، أي معيار الوزن وأداته. قال المتكلِّمون: إن نفس الحسنات والسيئات لا يصحُّ وزنها، خصوصًا وقد تقضيا، بل المراد: أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات، أو تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة، وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة، فيظهر بذلك الثقل والخفَّة. وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم، فيزداد سرورا، وظهور حال صاحب السيئات، فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق».

علىٰ أنه يقال اليوم: إن أقوال الإنسان وأعماله باقية، وهي يمكن أن تؤخذ وتصفَّىٰ وحدها، وتقدَّم للإنسان يراها، هي بنفسها، وليس شيئا نائبا عنها، وهذا يوافق ظاهر ما في القرآن الكريم، حين يبيِّن للإنسان أنه يجد أعمالا ذاتها، ويراها ويشهدها، لا أنه يجد ثمرتها أو جزاءها، أو ثواب الله عليها، أو عقاب الله عليها.

ومن هنا نجد قول الله تعالىٰ في سورة الزلزلة: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨]، فنقول: ﴿يَرَهُۥ﴾، أي: مثقال الذرَّة من الخير أو من الشرِّ الذي عمله، علىٰ الظاهر المظنون، دون تأويل.

وفي بعض الأحيان نجد المجرمين وأمثالهم، مقرِّين بالحقِّ الذي يظنُّ مَن ظنَّ أنه فَنِي وانتهىٰ من يوم عُمِل في الدنيا، ولكن القرآن يقول لنا: إنه باقٍ، وإن الإنسان يجده ويراه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكثير من هذه الآيات واضحة لا تحتاج إلىٰ تأويل، ولا إلىٰ إخراجها عن ظاهرها الذي جاء به القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

فتأويل المؤلف للميزان بعلم الله تكلُّف ممجوج. وينظر أيضاً ما سيأتي تعليقاً علىٰ كلامه في الميزان في سورة الزلزلة.

ثم ذكَّرنا بمنَّته علينا لنشكره باتِّباع أوامره فيما أنزل في هذا الكتاب، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض أوطاناً تستقرُّون فيها وتنتقلون إليها بمختلف أنواع الوسائل، وجعلنا لكم فيها ضروباً شتَّىٰ من المنافع التي تعيشون فيها عيشةً راضيةً، من خُضر وثمار ونبات وأنعام وطيور وأسماك وأشربة ومياه عَذْبة، وأنواع لا تُحصىٰ من العقاقير لمعالجة الأمراض، ولكنكم ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾، يؤنِّبنا بسُوء حالنا تجاه نِعَمِه الغزيرة علينا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

ثم بيَّن نعمته علينا في كيفيَّة خِلْقتنا وكرامته لنا، وأدمج فيه سببَ الظلم بالآيات، وبيان استعدادنا أن نتأثر بالأرواح الـمَلَكية والشيطانية، تحذيراً لنا عن الثانية، فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فيه نسبة ما يتعلق بالأصل إلىٰ الفرع، ومثل ذلك من مَجَازات القرآن. (كما جاء في الفرع الثالث من المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة في أنواع مَجَازات القرآن). والمعنىٰ: خَلقْنا البذرةَ والبنيةَ الأولىٰ لآدم ثم سوَّيناها بشراً سوياً. ويجوز أن تكون كلمة ﴿ثُمَّ﴾، لا للتراخي، بل لإفادة عَظَمة المعطوف بها وتميُّزه عن المعطوف عليه، أو لذكر الخبر بعد الخبر اهتماماً به.

ثم ذكر قصة آدم مع إبليس، وهي تمثِّل خلقةَ الإنسان وكرامتَه وفطرتَه، وما فيها من الميْل إلىٰ الشرِّ قريناً للميل الطبيعي إلىٰ الخير بحكم اختياره في تصرُّفاته، وخطر ذلك عليه إن لم ينظِّم أعماله بما آتاه الله من عقل وحكمة، ويستعين علىٰ ذلك بما أودعه الله في فطرته من مناعة ما لم يفسدها بصنعه، وبالتمسُّك بما أنزله الله إليه علىٰ لسان رسله من تعاليم وتشريع وأحكام، أشار إلىٰ ذلك كلِّه، فقال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ وهذا السجود سجودُ تكريم وتحية، أَنَبَهُ سبحانه وتعالىٰ علىٰ تركه، و﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟ أي: ما حملك ألا تسجد، فضَمَّن «منع» معنىٰ: «حمل»، وعدَّاها تعديتَها، وذلك من خصائص اللغة، ومن نهج القرآن، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة في أنواع مجازات القرآن).

﴿قَالَ﴾ إبليسُ متعلِّلاً ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ ولا ينبغي للأشرف أن يُكرِّم من دونَه.

ويجوز أن يكون هذا مجردَ خواطر إبليس ذكرها سبحانه بصورة محاورة[1]،

---

(١) هذا عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير مقتضٍ، فالحملُ علىٰ حقيقة المحاورة هنا لا مانع منه، وهو ما يدل عليه ظاهر اللفظ، فيتعين القول به. وينظر تعليقي على كلام المؤلف حول كلام الملائكة في مقدمة التفسير (١: ٥٣٨).

والله أعلم[١]. وعلىٰ كلٍّ فقصة إبليس هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، فنحن نؤمن به، ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة التي فيها آدم. وعَوْدُ الضمير إلىٰ ما يُفهَمُ من السياق، من أساليب القرآن، (كما جاء في الفقرة (د) من المادة العاشرة من المقدمة الثانية). وقد مرَّ الكلام عن هذه الجنة وعن إبليس في سورة البقرة، فارجع إليه. والظاهر أن هذه صورة مقتضية ومختزلة عن آدم والملائكة وإبليس إلىٰ حدِّ دخول آدم الجنة وخروجه منها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك. والله أعلم.

ثم علَّل الأمر بالهبوط بقوله: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها مكانُ الامتثال والطاعة، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾[٢] فقد أظهر حقيقتَكَ الاختبارُ والابتلاءُ، وهذه مجازاة له بضدِّ ما أراد.

فلما أحسَّ اللعين بأمره: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ﴾ سبحانه مريداً

---

(١) بل هو خطاب بين الله سبحانه وبين إبليس، وتكرار القصة في القرآن، يمنع ما ذكره المؤلف من أنها مجرَّد خواطر.

(٢) يجوز أن يكون هذا الأمر بالهبوط والخروج لإبليس إنما حكىٰ به نفس الأمر الذي تضمَّنه قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨]، أفرده هنا بالحكاية؛ لأن هذا الجزء من القصة يخصُّ إبليس وحدَه، وكذلك قوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]. فيكون هذا هو الخروج والهبوط الذي وقع بعد وسوسة إبليس لآدم وحواء، فأُخرِجوا منها جميعاً لغَوايتهما به. ويؤيِّد هذا الرأيَ سياقُ سورة البقرة في هذه القصة، فإنه لم يذكر فيه إلا قوله: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾. ويجوز أن لا يعود إلىٰ الجنة ضمير ﴿مِنْهَا﴾ في قوله لإبليس: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾، وضمير ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، بل يعود إلىٰ منزلته التي كان فيها واعتزَّ بها وتكبَّر، فيكون طرداً له منها وإبعاداً. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

ومنشئاً ـ كما يقول للشيء: كن، فيكون[١] ـ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾. قال ابن كثير: أجابه سبحانه إلىٰ ما سأل لِـمَا في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تُخالَفُ ولا تُمانَعُ ولا معقِّب لحكمه[٢]. وقد قالوا في قصة آدم وإبليس: إنَّ الكلام لبيان الواقع في طبيعة الشيطان وطبيعة الإنسان وتأثُّرها بها، كما سيأتي بيانه.

وقد مثَّل سبحانه قوَّة إحاطة استعداد الشرِّ بطبيعة الإنسان وصوَّرها في قوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، فأصُدُّهم عنه وأقطعُه عليهم؛ بأن أُزيِّن لهم سلوكَ طُرق أخرىٰ غير الطريق المستقيم الذي يصل سالكُه إلىٰ السعادة التي أعدَّها سبحانه لمن تتزكَّىٰ نفسُه بهداية الدين والحق وتكميل الفطرة. وأسند الإغواء إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه خالقُ الطبيعة المستعدَّة لذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الأولىٰ). وذلك لأنَّ التكوين علىٰ قسمين: ذاتي وعَرَضِي، فقد كوَّن سبحانه العين للإبصار تكويناً ذاتياً، وكان من خصائصها أن تتألم بضوء الشمس وبالغبار تكويناً عَرَضياً، فاحتاط لها بالأهداب والأجفان. وهكذا في سائر مخلوقات الله التي منها الإنسان والشيطان، حيث خلق الإنسان مختاراً في تصرُّفاته، وبهذه الطبيعة يميل إلىٰ الخير إذا حافظ علىٰ سلامة فطرته، ويميل إلىٰ الشرِّ إذا أفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، فَتُغْويه وساوس الشيطان. وإسنادُ الإغْواء إلىٰ الله باعتبار السُّنَّة العامة في طبيعة الاختيار في الجنِّ والإنس، لا الملك. والآيات تدلُّ علىٰ أنه كان مختاراً في عصيانه، بانياً إيَّاه علىٰ شبهةٍ احتجَّ بها، ومُؤدَّاها الاعتراض علىٰ الحكمة في أمر الله.

---

(١) وهذا أيضاً عدولٌ عن حَمْل «القول» علىٰ حقيقته ـ علىٰ ما يدلُّ عليه ظاهر اللفظ ـ إلىٰ معنىً مجازي، فيحتاج إلىٰ قرينة، وهي هنا غير ظاهرة. نعم، جوَّز جماعة من المفسرين مثلَ هذا المعنىٰ المجازي في قوله: «كن»، والقرينة هنا أنَّ الخلقَ تابع للإرادة والقدرة لا للقول، فجاز هذا الحملُ، بخلاف الذي هنا، والله أعلم.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣: ٣٩٣).

وقد صوَّر قوَّةَ تدخُّله في أمرهم بصُورة العدو يحيط بعدوه من جميع جهاته، وذلك بما حكاه عنه سبحانه وتعالىٰ بقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ ﴾ فلا أدَعُ جهةً من جهاتهم الأربع إلا وأهاجمهم منها، ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ أي: لنعمك عليهم فيما يهديهم إلىٰ تكميل فطرتهم من تعاليم رسلك، أي: لا يكون ذلك صفةً لازمةً لأكثرهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا تجد أكثرهم مُوحِّدين[1].

والآيةُ تمثِّل إحاطة استعداد الشرِّ بالإنسان من كلِّ نواحيه، وتُؤْذِنُ بوجوب شدَّة الاحتراس من ذلك بما أعطاه الله من العقل، ومن قوَّة الاستعداد للخير، كما جَهَّز العين بالأجفان.

أما حكم الله تعالىٰ فيه، فهو ما حكاه بقوله: ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ يقال: ذَأَمَ الشيءَ، أي: عَابَهُ واحتَقَره. ودَحَرَ العدُوَّ: طَرَدَهُ. فالمراد: اخْرُج منها مُحتقراً مطروداً. وهذا بمعنىٰ اللعن. وكان الأمر الأول بالهبوط مقروناً ببيان سببه، وهذا الأمر بالخروج مقرون ببيان صفته.

ثم حذّر البشر عن اتباعه ببيان مصير متبعيه، فقال: ﴿ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨ ﴾، وقد اسْتَشْكَل البعض خطاب الله تعالىٰ للشيطان في هذا التَّحاور، واستشكلوا أمر الله تعالىٰ إياه بإغواء البشر وإضلالهم المبين، كما في قوله في سورة الإسراء: ﴿ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

والجواب: أنَّ الخطاب للتكوين، كما صرَّح به ابن كثير[2]. فهو عبارة عن بيان

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٤٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣: ٣٩٣)، ولفظه: إنه «أمرٌ قَدَريٌّ كوني»، وكذا نصَّ في تفسير الآية=

الواقع في صفة طبيعة الإنسان وطبيعة الشيطان، وقد أشبعنا البحث عن ذلك في لاحقة المقدمة الثانية فارجع إليه. والتعبير بالقول عن الفعل هو من خصائص اللغة وأساليب القرآن، فقد قال تعالىٰ في سورة سبأ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ [سبأ: ١٩]، فقد عبَّر بالقول عن العمل السيئ الذي اقتضىٰ الخراب ونتج عن ذلك الابتعاد في الأسفار.

هذا ما كان من أمر إبليس. أما ما كان من أمر آدم، فهو ما حكاه سبحانه بقوله: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾، والنَّهيُ عن قُرب الشيء أبلغُ من النَّهي عنه. وقد تقدَّم الكلام علىٰ هذه الجنة في سورة البقرة فارجع إليه.

ثم ذكر صورة إغواء الشيطان لهما، فقال: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾[1]، أي: كان هذا غرضه من هذه الوسوسة، أو أن اللام للعاقبة، بمعنىٰ: أنَّ هذه كانت العاقبة والنتيجة. ويجوز أن يُراد بالسَّوآت: نواحي الشر منهما وتأثُّرهما بالإغواء ـ والله أعلم ـ، ولكن المعنىٰ العرفي أظهرُ في السياق[2]، وسيأتي معنىٰ السَّوآت قريباً.

ثمّ ذكر صورة الوسوسة بقوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: الذين لا يموتون أبداً.

= المذكورة من سورة الإسراء (٥: ٩٤) على ذلك فقال: «هذا أمر قَدَريّ».

(١) والظاهر من هذه العبارة أن الشيطان ملازم للإنسان لا ينفكُّ عنه. والله أعلم. (المؤلف).

(٢) بل هو المُتعيِّن، فلا يسوغ المعنىٰ المذكور مع قوله تعالىٰ بعد قليل: ﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي: حلف لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ والتدلية: الإنزال، أي: أوقعهما وأنزلهما وحطَّهما بغروره لهما، وصيغة المفاعَلَة في المقاسَمَة تدلُّ علىٰ أنهما عارضا، ثم أقنعهما بكثرة الحلف والإغواء، فإنَّ المقاسمة تدلُّ علىٰ ذلك بحكم المشاركة، أو تدلُّ علىٰ التكرار منه، وهذا يدل علىٰ ما للإنسان من الاستعداد للانحراف عن الصِّراط السويِّ والتأثُّر بالخداع والتضليل، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: عَرِيَا من النور الذي كان الله تعالىٰ ألبسهما، فبدت بشرتهما حتىٰ بدت فروجُهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة[1].

وقال في «المنار»: والأقرب عندي أنَّ معنىٰ ظهور سوآتهما لهما أنَّ شهوة التناسل دبَّت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة، فنبَّهتهما إلىٰ ما كان خفياً عنهما من أمرهما، فخَجلا من ظهورهما وشعرا بالحاجة إلىٰ سترها[2]. ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[3]، وقد عصىٰ آدم ربَّه بعد عصيان إبليس، وكان الفرق بينهما أن آدم عاد إلىٰ رُشْدِ الإنسانيّة،

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٢: ٣٥٥) من قول وهب بن منبه.

(٢) تفسير «المنار» (٨: ٣١١).

(٣) كرَّر القرآن قصةَ آدم وإبليس ليتقرر في الأذهان عداوة الشيطان للإنسان وابتلاؤه به في هذه الحياة، كي يحذر من وسوسته ويتقي شره، فاتباعها خسران مبين للدنيا والأخرىٰ. ومغزىٰ القصة: أن للإنسان جانبَ خير يصل بتنميته إلىٰ السعادة، وجانب شرٍّ يصل بتنميته إلىٰ الشقاء، فلْيغتنم الأول، ولْيحذر الثاني. وأن التمسُّك بالتعاليم الإلهية هي وحدها الكفيلة بذلك، والمنجية منه. (المؤلف).

وتيقَّظت نوازع التقوىٰ فيه، وتاب إلىٰ ربه فتاب عليه وهداه واجْتباه وجَعَله مَوْضعَ مغفرته ورحمته، ثم أوحىٰ إليه شريعته وهدايته. وأنَّ إبليس أصرَّ علىٰ عصيانه واحتجَّ علىٰ ربِّه، فلعنه وأخْزاه وجعله موضعَ عدله في عقابه، وقصَّ أمرَهما عبرةً للمعتبرين وموعظةً للمتقين، ورمزاً إلىٰ أنَّ هذا حالُ المعارضين لأوامر الله، والمعرضين عنها.

وقد تاب الله سبحانه علىٰ آدم ضمن بيان المآل، و﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والخطاب لآدم وحواء والشيطان. أي: اهبطوا من هذه الجنة، أو من هذا المكان، والشيطان عدوٌّ لكما، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي: إلىٰ زمن مُقَدَّر في علم الله، وهو يوم القيامة.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ الإنسان وحده، وفصَّل هذا الاستقرار وأطواره بقوله: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ للحساب، كما قال تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وما وَرَدَ في هذه القصة من التفسير بالمأثور فكثير منه مأخوذ من الإسرائيليات عن زنادقة اليهود الذين دخلوا في الإسلام للكيد والإفساد، وكان الرواة ينقلون عن الصحابي أو التابعي ما مصدره تلك الإسرائيليات، فيغتر به بعض الناس، ظانّين أنه لا بدَّ له من أصل مرفوع إلىٰ النبي ﷺ؛ لأن مثله لا يعرف بالرأي.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ

تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

ثم قال في «المنار»: وبعد أن قصَّ الله سبحانه علىٰ بني آدم نشأتهم الأولىٰ وما خُلقوا مُسْتَعدِّين له من السعادة ونعيم الجنَّة، وما يصدُّهم عن ذلك من وسوسة الشيطان وإغوائه، رتَّب عليها هذه النصائح الهادية لهم إلىٰ أقوم طريق، تربيةً لأنفسهم، وذلك علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالإرشاد، وابتدأها بالتذكير بالنعم المادية، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[1]، والريش والرياش: لباس الزينة، أو ما ظهر من اللباس أو الأثاث[2].

ولا يخفىٰ ما في التَّمنُّن علينا باللباس والريش من كمال المناسبة مع السياق، وعُرْي آدم وحواء ونَزْع الشيطان لباسهما بمعصيتهما. والمراد بإنزال ما ذكر: أنَّ الله تعالىٰ خلق لبني آدم مادته من القطن والصُّوف والحرير وغيرها، وخلق لهم من الغرائز والقوىٰ والمعرفة التي مكَّنتهم من صنع اللباس من تلك المواد. وكثيراً ما يأتي الإنزال في القرآن

---

(١) تُلْمِع الآية إلىٰ أن الستر من أهداف الحكمة الإلهية، وأن ترك الستر مخالف لذلك. وسريان هذه العادة من الأجانب الذين حُرِمُوا من النظر في آداب الله وإرشاداته ضلال بعيد، اتباع لوساوس الشيطان عنيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. (المؤلف).

(٢) تفسير «المنار» (٨: ٣١٨- ٣١٩).

بمعنىٰ الخلق والإيجاد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

ثم عقَّب عليه بما يُرغِّبُ بنعيم الآخرة عن نعيم الدنيا، فقال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: الإيمان والعمل الصالح ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[1] من الرياش، أي: إنَّ النعيم بلباس الآخرة ورياشها المنبعث عن التقوىٰ خيرٌ من ذلك الرياش الدنيوي بما لا يُقَدَّر.

واختار أبو مسلم ما يروىٰ عن زيد بن علي بن الحسين من أن المراد بلباس التقوىٰ: لباسُ الحرب الذي يُتَّقىٰ به العدو.

وبعد أن تمنَّن بهذه النِّعم دلَّل بها علىٰ قدرته وعظمته واختصاصه بأفعال الألوهيَّة، واستحقاق أن يُعبَدَ وحدَه، كما هو نهج القرآن في الجمع بين هذين الأمرين، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من نعم الله إنَّما هو ﴿مِنْ ءَايَٰتِ﴾ عظمة ﴿ٱللَّهِ﴾ يُحسِّس الناس بها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ فَضْلَ الله وقُدْرَته وَمِنَّتَهُ عليهم واستحقاقَه وحدَه أن يُعْبَد ويُرْجَىٰ ويُصْمَد إليه. ويجوز أن تكون الآية للتنويه بشأن ما جاء في السياق من إيقافنا علىٰ شأننا وطبيعتنا لنتَّقي ونَتَحذَّر.

---

(١) قوله تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ إلىٰ قوله ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يجوز أن يكون في الكلام اكتفاء. والمعنىٰ: أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم ورياشاً تتجمَّلون به وتتباهَون، وأنزلنا عليكم بهذه التعاليم المارَّة الذكر في السياق لباسَ التقوىٰ، تتقون به شرور الحياة الدنيا وشرور الحياة الأخرىٰ، واكتفىٰ عن ذلك بقوله: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ علىٰ نهج القرآن في مثله. والله أعلم. وبهذا يظهر وجه المناسبة جلياً في السياق. وأفادت القصة أن للإنسان جانبَ خير يتلقَّىٰ به أوامر ربه وينفذها ويصل إلىٰ سعادته في الدارين، وجانبَ شَرٍّ به يستجيب لوسوسة الشيطان وغوايته فيناله الشقاءُ في الدارين. فعلىٰ الإنسان أن يعرف كَيْدَ الشيطان ويحترس منه بهداية شريعة الرحمن. (المؤلف).

وبعد أن قصَّ ما وقع لآدم من وسوسة الشيطان، حذَّر أبناء آدم من الشيطان، كي لا ينزع عنهم لباس التقوىٰ، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ﴾، ومن سنن العربية: إعادة النداء في مقام التذكير والوعظ. وفي إعادة جملة: ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا﴾ استفزازٌ للشعور وتنبيهٌ بالحطَّة.

ثم بيَّن شدَّة تدخُّلِه بهم وخفاءَهُ عنهم، تأكيداً للتَّحذير، فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ أي: جنوده وحزبه من أشرار الإنس والجن، ﴿مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ﴾؛ لأنَّ تَدَخُّل هذه الشياطين في أنفس البشر وفعلَها بها كَتَدَخُّل الميكروبات في أجسادهم وفعلها بها سواء بسواء، لا فرق بينهما إلا أن الأولىٰ روحيَّة، والثانية ماديَّة، فَمَنْ توقَّىٰ منها سَلم، ومن لم يتوقَّ منها عبثت به عبثاً خبيثاً.

ويجوز أن يكون الكلام بياناً لخفاء طُرق الخبائث والتَّضليل التي يدخل بها المضلِّلون أتباع الشيطان علىٰ الناس.

ثم بيَّن أنهم لا يقدرون أن يؤثِّروا ويُغْوُوا إلا الذين أفسدوا طبائعهم بمفاسد التربية وسُوء القدوة، فلم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، أو لم يكونوا مؤمنين، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: مَضَتْ سُنَّتنا في الخلق أن يميل كلُّ شيء لما يناسبه ويشاكله. ومن ذلك أن يميل الشياطين ـ الذين هم شرار الجنِّ ـ لشرار الإنس، ويكونون أولياء للذين لا يؤمنون. كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. والجن كالإنس، منهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم البَرُّ ومنهم الفاجر، كما يُعْلَمُ ذلك مما بيَّنته سورة الجن، فالذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يكونون مستعدّين لقَبول وسوسة الشياطين من أشرارهم، كما أنَّ الذين يضعفون بِنِيَّتهم ويُهملونها، يكونون مُسْتَعدِّين لِقَبول جراثيم المرض والتأثُّر بها. والذين يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً

ويَتمسَّكون بتعاليمه، يتَبَصَّرون إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان فلا يتأثَّرون به، كما أنَّ الذي يتمسَّك بنصائح الطبيب وقواعد الصحة يَسْلَم من فتك الجراثيم.

ثم ذكر من آثار ولاية الشياطين لغير المؤمنين عقيدتهم الضالَّة في أعمالهم الضالَّة تقليداً لآبائهم الضَّالِّين واعتقاداً بأنَّ ذلك مَرْضيٌّ لربِّ العالمين، فردَّ عليهم، فقال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾. ومن تلك الفواحش المعنية هنا: طواف المشركين بالبيت عُراة، وشبهتهم الشيطانية في ذلك أنهم لا يطوفون ببيت ربهم في ثياب عَصَوه بها. فأمر الله نبيَّه أن يدحض دعواهم هذه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم أردف السَّلْبَ بإيجاب ضِدِّه، علىٰ نهج القرآن، فبيَّن شيئاً مما يأمر به تعالىٰ، وكله محاسن أعمال، ومكارم أخلاق، وصحة عقائد، ونزاهة أرواح، فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: العدل والاعتدال في الأمور كلِّها، وهو التوسُّط بين الإفراط والتفريط فيها. والوسط في اللباس الذي يناسب أن يُعبَدَ الله فيه: هو أن يكون حلالاً نظيفاً، ﴿وَ﴾ أمر أن ﴿أَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وهذا معطوف علىٰ معنىٰ ما قبله، علىٰ نهج القرآن في مثله، لأنَّ المعنىٰ: أقسطوا وأقيموا، أو نقول: صحَّ عطف «أقيموا» و«ادعوه» علىٰ «القسط»؛ لأنهما ـ مع «أنْ» المقدَّرة ـ مَصْدران.

وإقامة الشيء: إعطاؤه حقَّه وتوفيتُه شروطَه. والمراد به هنا توجُّه القلب وصحَّة القصد، أي: توجَّهوا إلىٰ الله تعالىٰ عند كل صلاة بحضور القلب وصَرْف الشواغل، مخلصين له الدين، لا تشركوا به غيره.

ثم أتىٰ بما يذكِّر بالبعث والحساب، حثّاً علىٰ العمل، وجعله في موضع التعليل لما قبله والحض علىٰ التمسُّك به؛ لما تضمَّنته الجملة من الإنذار، لأن المرجع إلىٰ الله أمر

محقَّق واقع، فقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ وهذه الجملة من أبلغ الكلام المُعْجِز، فإنها دعوىٰ متضمِّنة للدليل بتشبيه الإعادة بالبدء، وهو أهون عليه، وله المثل الأعلىٰ. ووجه الاستدلال: أنَّ الحشر للأجسام ليس بأعجب من النشأة الأولىٰ، إلا أنها لما كانت محسوسة لم تشعر بعجبها وعظمتها؛ لأنَّ التَّعجُّب والإنكار إنما يكون لشيءٍ لم يُشاهد مثله ولم يُعرف أسبابه ومؤثِّراته، وكيف تكون النَّشأة الأولىٰ أقل شأناً من الثانية، وهي إنما تتكون من نطفة ماء لا تزال تتطوَّر في الرَّحم حتىٰ تكون ولداً، ولا يزال الولد يتطوَّر حتىٰ يكون إنساناً كاملاً، وربما كان عظيماً بعلمه وتفكيره واستنْباطه واكتشافه، أو قائداً ماهراً في توجيه جيشه، أو ملكاً جباراً في قهره وسلطانه، وأصله نطفة مَهِينَة.

وبعد أن ذكر الحشر وأيَّده بالبدء، بيَّن أنهم يعودون إليه تعالىٰ فريقين: ﴿فَرِيقًا﴾ قد ﴿هَدَىٰ﴾ الله، ﴿وَفَرِيقًا﴾ قد ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أي: جزاؤها، وكلٌّ من الهداية والضلالة تتكوَّن بواسطة أسبابها الكسبيَّة؛ لأن الله تعالىٰ قد خلق الإنسانُ مُسْتعدّاً لهما بكسبه واختياره، كما يدلُّ عليه التعليل للضَّالِّين بقوله: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: فأطاعوهم في كلِّ ما يُـزيِّنون لهم من الفواحش والمنكرات، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن في السياق أنَّ المشركين إذا فعلوا فاحشةً قالوا: الله أمرنا به، وردّ عليهم وبيَّن أنهم اتَّـخذوا الشياطين أولياء في ذلك، وكان من فواحشهم أن يطُوفوا بالبيت عُراة؛ لأنَّهم يُحرِّمون الطواف بثيابهم، والطعام الذي أتوا به من أهلهم، فإن تهيأ لهم من قريش مَنْ يُعيرهم ثياباً طافوا بها وإلا طافوا عُراة، ولذلك ذكر الحكم الآتي وضمَّنه التعريض بهم، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وفي الآية حثٌّ علىٰ الاعتناء بالنظافة والتجمُّل، لاسيما في المساجد والمجتمعات.

ثم أمر بالاعتدال في أخذ الزينة وتجنُّب السَّرَف فيها، وذكر ذلك في حكم آخر

مكمِّل للأول، علىٰ نهج القرآن في مثله، وجَعَل نَظْم الكلام تتميماً للقسط والعدل والصَّلاح والاعتدال الذي يأمر به الله، فعطف علىٰ قولِه: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ﴾ قولَه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ ليكون المعنىٰ: تجمَّلوا في اللباس وكُلوا واشْرَبوا ولا تسرفوا، ولكن اعتدلوا فيها، فأوجب الاعتدال في اللبس والأكل والشرب وما إلىٰ ذلك؛ لأنه من قوانين الصحَّة والاقتصاد والاجتماع، فأمره بالتوسط بين التفريط الذي يدفع إليه البخل والتقشُّف، والإفراط الذي يحمل علىٰ الترف والتكبُّر، لكي لا يفتتن الإنسان بزخارف هذه الحياة، حتىٰ تملك عليه عقله، وتُؤَثِّر علىٰ روحه، فتحطَّها وتصرفها عن الكمال الباقي إلىٰ الخيال الفاني. فما أعظم هذه التعاليم لو عقلها المسلمون.

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ والويْل لمن لا يُحبُّه الله، فمبدأ الإسلام التوسُّط في كل الأمور.

وبعد أن نهىٰ عن الإسراف فيها، أنكر علىٰ من يتزهَّد عنها ويتقشف وهو واجد، فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ تعريض بعُرْيِ قريش في الطواف، وفي هذا الوصف تمنُّن عليهم، وهو مرعيٌّ أيضاً في قوله: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي: دون الخبائث. وفي وصف الطيِّب تلميحٌ إلىٰ مَسْلك العلة في التَّحليل والتَّحريم، وإيذانٌ بأنَّ الله تعالىٰ لا يُحرِّم علىٰ الناس إلا الخبائث. وتُلمع الآية إلىٰ الإنكار علىٰ التَّقشُّف والتبتُّل والروحيَّة البحتة.

ثم أردف الإنكار بهذا التقرير المتضمِّن للتكريم في الدنيا، وللوعد الكريم في الآخرة، فقال: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أصالةً ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والكفار تَبَعٌ لهم فيها، حال كونها ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في الآخرة، لا يُشاركهم فيها الكفار، أو المعنىٰ: إنها تكون للمؤمنين يوم القيامة منقَّحة عن كلِّ شائبة دنية أو منغِّصة.

ثم ختم الكلام بما يحثُّ علىٰ إدراك ما في تلك الأحكام من الحِكَم، والعمل

بمقتضاها، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: نفصِّلها لأهل العلم والمعرفة فيدركون فيها سنن الاجتماع وطبائع البشر وطرق الحضارة الصحيحة الشريفة.

وبعد أن أنكر تحريم زينة الله التي أخرج لعباده والطيِّبات من الرزق التي أخرجها لهم أيضاً، قفَّىٰ ببيان أصول المحرَّمات العامة، ملمحاً لوجه علة التحريم ومسلكها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا القيد لزيادة التشنيع، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ وهذا القيد لزيادة البيان في البطلان، ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ كقولكم: إنَّ الله أمركم بما تعملون وتتقوَّلون من كفر وفواحش، وكوصفه بما لا يليق من الصفات والأفعال؛ لكونكم لا تَقدُرونه حقَّ قَدْره، ولا تدركون عَظَمته وجلالَه، فتنكرون إنزال الشرائع، وتجعلونه سبحانه يخلق خلقه ويتركهم دون هداية وإرشاد.

والإثم: كل عمل لا يحل. والبغي: التجاوز والتسلط.

ثم ختم السياق بما يتضمن توعُّدُ هؤلاء المعارضين المكذبين، ويُبيِّنُ سبب إمهالهم، فقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ لم تؤمن برسولها ﴿أَجَلٌ﴾ معيَّن لاستئصالها، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ والساعةُ لغةً: أقلُّ مدة من الزمن. وفي قوله: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ تكميل للمعنىٰ المطلوب، أي: إنهم لا يستأخرون كما أنهم لا يستقدمون.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟

عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

وبعد أن أكمل السياق المشتمل على البيان المقرون بما يُرْهب المعارضين والمخالفين، ويُهيِّئ النفوس لسماع الإرشاد وسلوك سبيل الرشاد، عاد إلى النصائح الهادية، وَوَعظ الناس بهذه الموعظة العامة العظيمة الشأن، التي هي الأصل لما تقدَّم من البيان، وهي اتِّباع الرسل والاستجابة لهم، كي لا يقعوا في المهالك، فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَاتِي﴾ التي تُبصِّركم بالهدى وتُبعدكم عن الضلال ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ثم فرّع على ما تقدم من البيان والتبيان، وعلَّل هذا الإنذار بقوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن أوجب على عباده ما لم يُوجبه الله، أو حرَّم عليهم ما لم يُحرِّم الله، وهؤلاء هم المحرِّفون لشرائع الله، وهم نوع من المكذِّبين، ثم ذكر النوع الثاني، فقال: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ المنزَّلة ولم يؤمن بها، فلا جرم أن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: ينالهم نصيبهم من العذاب، بحسب ما بيَّنه الكتاب المنزل في حقِّ أمثالهم، ومن ذلك ما ذكره تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ أي: رُسل الموت ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ﴾ لهم تنديماً مُشْرباً بتهكُّم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ ادْعُوهم لِيُنْجوكم

أو يشفعوا لكم. ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: ضلّ أمرهم عنا واشتبه علينا وظنناه هدىٰ، وقد كان الأمر إفكاً وضلالاً. وهذا الجواب يُشعر بيأس وندم عميق، ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ لما تبيَّن لهم الحق ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أما حُكم الله تعالىٰ فيهم فقد ذكره بقوله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وكان أمرها كأمركم، فادخلوا معها ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾، ثم فصَّل ما يجري حينئذ بينهم من التخاصم علىٰ هذا التوريط والتورُّط، فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أي: لعنت اللاحقةُ السابقةَ علىٰ ما أضلَّتها باتِّباع الكفر، ووَرَّطَتْها في هذه الورطة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: إذا اجتمعوا وأدرك بعضهم بعضاً ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي: أهل كل عصر منهم لأهل العصر قبلهم، أو أُخرىٰ كُلِّ أمةٍ لأُولاها، أو السفلة والأتباع للقادة والرؤساء: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ عذاب ضلالهم وإضلالهم، ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: كلُّ صنف منكما يستحقُّ الضعف، ولكنَّكم جَهَلة لا تُدركون، أما القادة فلِما ذُكِرَ من الضلال والإضلال، وأما الأتباع فلكفرهم وتقليدهم الأعمىٰ، رغماً عن أنَّ الله سبحانه طبعهم علىٰ الهدىٰ والإيمان، فكان ذلك لهم حالة يسرىٰ يسَّرها الله عليهم في أصل خِلقتهم، ثم أرسل لهم الأنبياء بالتعاليم الملائمة لهذه الطبيعة والباعثة لهم علىٰ الكمال الذي خُلِقُوا لأجله، ولكنَّهم حرَّفوا طبيعتهم بالتربية السيئة، وقلَّدوا رؤساءهم تقليداً أعمىٰ، من دون بصيرة ورويَّة. فهم في هذا الأمر لا يتميَّزون عن الأتباع في استحقاقهم ضَعْف البلاء.

وهذا مفاد قوله: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: تمايز وقلَّة قصور، لأنكم اتَّبعتمونا من غير رويَّة وتفكير، كما ضَلَلْنا نحن من غير رويَّة وتفكير، ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أنَّ الكسب هو مدار العذاب

مهما كان سببه، وكلٌّ منهما قد اكتسب الإثم بصنعه وتقصيره رُغماً عن هدايته بالطبيعة والشريعة.

ثم ذكر نوعاً آخر من جزاء المكذِّبين، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لأرواحهم بعد الموت كما تُفتَّح للمؤمنين، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وتقريراً لهذا النفي علَّق الدخول بالمحال استبعاداً له وتمحيلاً، فقال: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ أي: ثَـقْبة الإبرة. والعرب تَضْرب المثل لما لا يكون بنحو قولهم: لا أفعله حتىٰ يشيب الغراب، وحتىٰ يبيضّ القار[1]، وحتىٰ يلج الجمل في سَمِّ الخياط. وهم يريدون بذلك أنهم لا يفعلونه أبداً. فالمراد هنا: أنَّ هؤلاء لا يدخلون الجنة بحال، ولا ينالون شيئاً مما ناله المؤمنون. ثم علَّق علىٰ ذلك بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وبعد أن ذكر حرمانهم من دخول الجنة، ذكر دخولهم جهنم وصورةَ عذابهم فيها، فقال: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي: أغطية من نار جهنم، وهذا تصويرٌ لإحاطة النار بهم، سجَّلٍ وذيَّـل عليه بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾، وقد عبَّـر عنهم بالمجرميـن تارة وبالظالـمين أخرىٰ، إشعاراً بأنهم ـ بتكذيبهم الآيات ـ اتَّصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) هو شيء أسود تُطلَىٰ به الإبل والسفن. «لسان العرب» (قير).

ثم ذكر حال المؤمنين علىٰ نهج القرآن في المقابلة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وقبل أن يُبيِّن مصيرَهُم وما استفادوه من السعادة بهذا الإيمان والعمل، عجَّل بما ينبئ أنَّ هذه الأعمال الصالحة التي أدت إلىٰ السعادة الآتية ليس فيها كُلْفة فوقَ الطاقة، فقال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾، فأومأ سبحانه إلىٰ أنَّ أحكام الأعمال الصَّالحة المؤدية للسعادة الأبديَّة مقرونة باليُسر، وموضوعة بحَسَبه، فلم يضع الله حكماً خارجاً عن طاقة البشر ووسعه. والمراد من هذا البيان الـمُعَجَّل: ترغيبُ العامل، وتبكيتُ المُعْرض والمتراخي، وتنديمه بأنه لم يكلَّف كبيراً في سبيل هذا المصير العظيم والثواب الجزيل الذي ذكره بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه أن نعيمهم مُخلَّص من كل نغص، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾، وهو ما يكون من عداوةٍ أو حسدٍ في الدنيا، فلم يبق في قلوبهم أدنىٰ لوْثة منه، إذ لا يكون في تلك الدار وأهلها ما هو من أسباب تنغيص النعيم فيها. وهذا وما بعده مقابلٌ لما جاء في السياق عن الكافرين من ندمهم وتلاومهم وتلاعنهم وشقائهم في الجحيم. ولا شك أنَّ للموازنة بين الصنفين تأثيراً عظيماً علىٰ النفوس تُحرِّك فيها عوامل الرغبة والرهبة، فالضدُّ يُظهِرُ حُسْنَه الضِّدّ. فما أعظم هذا اللون من الوعظ والإرشاد.

ثم ذكر من نعيمهم العظيم أبرز صفاته، فقال: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهم في غرفاتِ قصورِهم، فشكروا الله علىٰ هذه النعمة، ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي: للإيمان الصحيح والعمل الصَّالح الذي كان سبباً لهذا الجزاء العظيم والنعيم المقيم، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ إليه بأنفسنا ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إليه بالفطرة التي فَطَرنا عليها، وبالرُّسل الذين أرسلهم لإرشادنا إليه وتعليمنا لطرقه ووسائله، ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا مصداقُ ما وعدنا من الجزاء علىٰ التوحيد والعمل الصالح، ﴿وَنُودُوٓاْ﴾ من قِبَل الله عزَّ وجل: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وفي الآية دلالة واضحة علىٰ أن الجنَّة تنال بالعمل، وفي ذلك آيات وأحاديث كثيرة(١).

أما قوله ﷺ: «لن يُدخِلَ أحداً عَمَلُه الجنةَ إلا أن يتغمده الله بفضله»(٢)، فمحمول علىٰ أنَّ عمل الإنسان مهما كان عظيماً لا يُقابِل هذا الجزاء العظيم والنعيم المقيم لولا رحمة الله وفضله، وإنما مثله مثل مَنْ يعمل عملاً يستحق ديناراً فيُعطىٰ مئة ألف دينار فضلاً وكرماً(٣). والظاهر أنه ﷺ قال ذلك بياناً للمتنطِّعين الذين عَزَموا أن يُواصلوا الصيام والقيام ويهجروا النساء، مثل عثمان بن مظعون(٤) وأصحابه، فبيَّن لهم أنَّ الله

---

(١) منها ما رواه البخاري (٣٥٢٧)، ومسلم (٢٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يا بني عبد مناف اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير ابن العوام عمة رسول الله، يا فاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتما».

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، عن أبي هريرة.

(٣) كلام المؤلف رحمه الله يُشعِرُ بأنه يرىٰ أن الجنة تُنال بالعمل؛ بمعنىٰ: أن العبد يستحقُّ ثواباً من الله علىٰ عمله، إلا أن هذا الثوابَ المُستَحَقَّ دون الذي وعده الله به، فلهذا عَلَّقَ دخول الجنة في الحديث علىٰ الفضل لا علىٰ العمل.

وفي هذا مَيْلٌ إلىٰ مذهب المعتزلة بإيجاب الإثابة علىٰ الله تعالىٰ لعباده المؤمنين الطائعين. أما أهل السنة فمذهبهم أن الإثابة من أصلها محضُ فضل من الله، وأيُّ استحقاق للعبد وعملُه كلُّه ـ مهما بلغ ـ لا يجزي شكر نعمة من نعم الله تعالىٰ.

وما ورد من تعليق الثواب بالعمل فلأن الله تبارك وتعالىٰ جعل العمل سبباً لنيل الثواب، وبهذا يحصل التوفيق بين الأدلة.

(٤) من أجِلّة الصحابة، فتمثيلُه به لقوله فيما سبق: «للمتنطعين» مما لا يُوافقُ عليه.

سبحانه حدَّد حدوداً لما أراده منكم وتفضَّل عليكم في مقابلة ذلك بنعيم الجنَّة فضلاً منه وكرماً. وليس في الغُلوِّ زيادة لمستزيد.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾.

ثم بيَّن سبحانه ما يكون بين أصحاب النار وأصحاب الجنة من المحاورة التي تزيد أهلَ الجنة عرفاناً بقيمة إنعام الله عليهم، وتزيد أهلَ النار حَسْرة وشقاءً بما فرَّطوا في جَنْب الله، فقال: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾، وهذا النداء لا يقتضي قُرب المكان علىٰ ما هو معهود في الدنيا، فعالَمُ الآخرة تغلب فيه الروحانيَّة علىٰ ظلمة الكثافة الجسديَّة، والروح ينعدم لديها الزمان والمكان، فيمكن للإنسان يومئذ أن يسمع من بعيد المسافات، ويرىٰ من أقاصي الجهات. وما ظهر الآن من المخترعات في تقريب التخاطب بين الناس من المسافات البعيدة والتواصل بينهم كذلك علىٰ نواميس طبيعية، يجعلنا نُدرك في الجملة علىٰ ضوئها أمر هذا النداء وأمثاله. والله أعلم.

وإنما لم يقل: (ما وعدكم) لأنه أرادَ به الوعدَ المُطْلَق الموجَّه في الدنيا إلىٰ الناس كافَّة، هو الجنَّة للمؤمنين والنار للكافرين.

وسؤال أهل الجنة هذا سؤال زُهو وتَبَجُّح وافْتخار بحُسْن حالهم، وتَهكُّم وتذكير بما كان من جناية أهل النار علىٰ أنفسهم بتكذيب الرسل.

ثم تابع البيان بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ لأنفسهم بإفساد فطرتهم حتىٰ خرجوا بها عما يحفظ لهم سعادتهم إلىٰ ما أوقعهم في هذا البلاء المبين. والتأذين: رفع الصوت بالإعلام بالشيء. واللعنة: عبارة عن الطرد والإبعاد مع الخِزْي والإهانة.

ثم وصف هؤلاء الظالمين بما يلمح إلىٰ علَّة هذا الحكم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ وهو بكسر العين: مختصٌّ بما ليس بمَرْئيّ، وبفتحها: مختصٌّ بالمرئيات، أي: يطلبون الطريق الـمُعْوج الذي لا يوصل إلىٰ السعادة، أو يَبْغُون لسبيل الله عِوَجاً، بأن يصفوها بالزيغ والميل عن الحق، ويكون المراد: إلقاء الشكوك والشُّبهات في دلائل الدين الحق، أو يجعلونها مُعوجَّة بتشويه سبيل الله بشوائب كثيرة مما اخترعوه، كالشِّرك وتحريم ما لم يُحَرِّم وتحليل ما حَرَّم وغير ذلك، ويجوز أن يراد سائر هذه المعاني.

وأما قوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ فهو خاصٌّ بمنكري البعث من أولئك الظالمين، وهم شرُّ تلك الفرق. ويجوز أن يعمَّ الجميع؛ لأنَّ سائرهم لا يؤمنون بالآخرة علىٰ وجهها الصحيح.

ثم تابع الكلام عن أهل الجنة وأهل النار، وبيَّن موقفاً يكون قبيل الدخول، فقال: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين الفريقين ﴿حِجَابٌ﴾ أي: سور عازل، ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ منه، أي: علىٰ أعالي ذلك السور العازل ﴿رِجَالٌ﴾ واختار أبو مسلم أنهم ملائكة في صُورة رجال، يَرَوْن أهل الجنة وأهل النار جميعاً قبل الدخول فيهما، و﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾

فتعرَّضوا لهم، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تهنئةً لهم وتقريراً لأعينهم، ولو ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ بَعدُ ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ في دخولها، مُترقِّبون لصدور الأمر بذلك. ويحتمل أن يكون هذا حديثاً عن أصحاب الأعراف، أو عن أهل الجنة والذي يقول بالثاني يرىٰ أنَّ رجال الأعراف هم عُدول الأمم والشُّهداء علىٰ الناس.

ثم تابع الكلام عن أصحاب الأعراف، فقال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: أبصار رجال الأعراف ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا﴾ متعوِّذين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ لأنفسهم، حيث حرموها بتدسيتهم لها من السعادة الأبدية، وأوقعوها بهذا الشقاء المديد. وهذه الجملة للإشعار بما لهم من هول شديد وعذاب أليم.

وقال غير أبي مسلم من المفسِّرين: إنَّ أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، يَطْمعون في دخول الجنة ويهنئون أهلها ويستعيذون من النار ويخشونها. فهذه أقوالٌ ثلاثة في رجال الأعراف.

ثم تابع البيان عن أهل الأعراف، فقال: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من مُسْتحقِّي النار ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾، و﴿قَالُوا﴾ لهم مُؤنِّبين ومُندِّمين: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ من المال ﴿وَ﴾ لا أغنىٰ عنكم ﴿مَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ وتَعْتزُّون به في الدنيا علىٰ ضُعفاء المؤمنين من القوة والمَنعة والعصبيَّة.

ثم زادوا في تبكيتهم وقالوا لهم مشيرين إلىٰ أولئك المستضعفين، وهم مُنعَّمون في الجنَّة أو مُترقِّبون لصدور الأمر بهم إليها: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾، وهذا هو مُؤدَّىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١]. ومؤدَّىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]. والله أعلم.

ويجوز أن يراد بالقسم: شدَّة الإصْرار، أو أن تكون المقالة علىٰ حقيقتها وصريحها، قد كانوا يقولون للمؤمنين: إنكم مخدوعون ومحمد ساحر خدَّاع، فَقَوْلُ أصحاب الأعراف لهم هذا القول إنما هو علىٰ طريقة التَّهكُّم والتنديم والتعريض والتذكير بما كانوا يعتقدون ويقولون ويفعلون.

ثم يهنئون هؤلاء المستضعفين من المؤمنين بقولهم لهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ وقال بعض المفسِّرين: إنما هذا هو أمر وإذن لهم من قبل الله تعالىٰ بدخول الجنة، ﴿وَ﴾ بعد أن استقرَّ بكل من الفريقين القرار: ﴿نَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أي: قلبوا حقيقة الدين وجعلوه صُوراً ورُسوماً لا تُزكِّي نفساً ولا تُطهِّر قلباً ولا تُهذِّب خُلقاً ولا تُصلح فاسداً، وسلخوه عما وضعه الله سبحانه طبقاً لذلك.

ثم أَلْـمَعَ إلىٰ ما دفعهم إلىٰ هذا العمل، وهو الإفراط في جانب الدنيا، فقال: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، ثم وصل سبحانه حكايةَ قولهم بحكمه عزّ وجلّ، وقال: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي: نفعلُ بهم ما يفعل الناسي بالمَنسِيّ، وهو عدم الاعتداد بهم وتركهم في النار تركاً مؤبَّداً ﴿وَ﴾ ذلك من جرّاء ﴿مَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾. وكلمة ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وبعد البيان عن مصير هؤلاء المكذِّبين الرهيب، دعاهم إلىٰ الإيمان وقد تهيَّأت نفوسُهم بهذا الإيقاف والتَّبْصير وسَبَك الكلام علىٰ التوعُّد، وعلىٰ بيان وجْه آخر من المصير إن لم يؤمنوا، فقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بما يحتاج إليه البشر لتزكية نفوسهم وتكميل فِطَرِهم وسعادتهم في معاشهم ومعادهم، فجعلناه ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾، وبيَّنا لهم فيه مصيرهم إن لم يؤمنوا، أفلا يؤمنون ليُسلموا من الهوْل العظيم؟

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: ما يَؤُول إليه ويَتحقَّق به وعده ووعيده من وقوع أمر البعث والحساب والجزاء كما ذكر، فإنه ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوه في الدنيا كالمنسيّ فلم يهتدوا به، يقولون حينئذٍ مظهرين ندمهم لما انكشف لهم الأمر: ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فعارضناهم ولم نهتد بهديهم، ﴿فَهَل لَّنَا﴾ الآن ﴿مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فيتمنَّون الخلاصَ بكلِّ وسيلة يتصوَّرونها حسب عقليتهم وانطباعاتهم. وهذا التَّمنِّي مَظْهَرٌ من مظاهر الندم العظيم واليأس العميق.

وقد سجَّل عليهم سبحانه بما فيه تنديمٌ لهم وتحسير، ونعىٰ عليهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ علىٰ الله من الوسطاء الذين يزعمون أنهم يُقرِّبونهم إليه زُلفىٰ، ويشفعون لهم عند الله. فما أشدَّ هول هذا الموقف الرهيب! وما أعظم هذا الإرشاد والتأديب!

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا

﴿تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

ثم قفّىٰ علىٰ الآيات التي توعَّدهم فيها علىٰ الشِّرك بالآيات التي تدلُّ علىٰ استحقاقه سبحانه للألوهية وحده، وعلىٰ قدرته البالغة التي لا يعجزها شيء عن إنجاز وعده ووعيده، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليس المراد من هذه الأيام: أيام الأرض التي يُحدُّ ليلُ اليوم ونهارُه بأربع وعشرين ساعة. فإن هذه الأيام إنما وجدت بعد خلق الأرض ضمن النظام الشمسي الذي هو من جملة خلق السماوات والأرض، وإنما يراد بها ـ والله أعلم ـ أطوار ستة مرَّت بها السماوات والأرض في مدَّة تكاملها وتكوُّنها علىٰ هذه الصورة، كأن كانت دخاناً ثم ماء ثم صار بعضها غازاً وبعضها ناراً وبعضها يابسة، ثم استعدَّت الأرض بعد البرودة واليَبَس لوجود النبات والحيوان فيها مثلاً، وهكذا والله أعلم، فإن اليوم في اللغة هو الزمن الذي يمتاز عن غيره بعمل أو أثر يكون فيه. فأيام الله تعالىٰ التي أمر موسىٰ أن يذكِّر قومه بها هي أزمنة نعمه عليهم، أو أزمنة استئصال الأمم المعارضين، كقوم نوح مثلاً.

ويؤيد هذا الرأي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، فقد أكمل خلقها سبحانه في هذه المدة، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1] يدبِّر أمر هذه السموات والأرض

(١) مذهب السلف: الإيمان بصفات الله وأسمائه التي وصف بها نفسه وسمَّىٰ بها ذاته في كتابه وتنزيله، أو علىٰ لسان رسوله من غير زيادة عليها ولا نقصان منها، ولا تجاوز لها ولا تشبيه لها بصفات =

وأمر مَنْ فيهما ويسيطر عليهما، وهو مستعار من حالة الـمَلِكَ يُدبِّر أمر مملكته بعد تكوينها واستقرارها، ويسيطر عليها، علىٰ نهج القرآن في استعارة المعنىٰ الذي يسند إلىٰ الله تعالىٰ من حالة المخاطبين، تقريباً للأفهام، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة السادسة)، فإن الله سبحانه وتعالىٰ يُخاطب الناس في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم.

وجاء في «دلائل الإعجاز»(١): أنَّ بعض المفسِّرين توهَّموا في الألفاظ الموضوعة علىٰ الـمَجَاز أو التَّمثيل أنها علىٰ الحقيقة أو علىٰ ظواهرها، فأفسدوا المعنىٰ وأبطلوا الغرض، ولم يُوفَّقوا لِـمَا هو المقصود، وما به يراد(٢).

وقال أبو مسلم: العرش: مصدر من قولهم: عرش يَعرِشُ عَرْشاً، بمعنىٰ: بنىٰ، فإنَّ كلَّ بِناء يسمىٰ عَرْشاً، وبانيهِ يُسمَّىٰ عارشاً، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي: يبنون، وقال في صفة القرية: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. والمراد: إنَّ تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها. فعلىٰ قول أبي مسلم هذا يكون معنىٰ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾: ثم أشرف علىٰ بنيان السماوات والأرض، يدبِّر

= المخلوقين، ولا سمات الـمُحْدَثين، ولا تفسير لها ولا تأويل بما يخالف ظاهرها، بل أمرُّوها كما جاءت، وردُّوا علمها إلىٰ قائلها، وفوَّضوا معناها إلىٰ المتكلِّم بها، وهو الله سبحانه وتعالىٰ. ومن ذلك ما جاء عنه تعالىٰ من المجيء والنزول واليد والوجه والاستواء علىٰ العرش، فمذهب السلف رضوان الله عليهم: إثبات الصفات وإجراؤها علىٰ ظاهرها، ونفي الكيفية عنه؛ لأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفيَّة، فكذلك إثبات الصفات، إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١]. ومذهب الخلف: تأويلها بمعان تلائمها بحسب عرف اللغة وأساليب التخاطب. (المؤلف).

(١) للجرجاني.

(٢) «دلائل الإعجاز» ص٣٠٥.

أمره وأمر مَنْ فيه بعد إيجاده؛ وفيه استعارةٌ من حالة المخاطبين أيضاً. وهذه العبارة وأمثالُها يعبّر بها القرآن لتحقُّق الوجود والثبوت والعظمة لله تعالىٰ في الأذهان بصُورة تتناسب مع تَصُوُّرات الإنسان، فيعبِّر عن المعقول بصورة المحسوس.

ثم ذكر أثراً محسوساً من آثار تدبير ذلك البنيان، فقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[1] أي: جَعَل الليل يُغَطِّي النهار ويَسْتره و﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: سريعاً بسرعة دوران الأرض اليومي، ﴿وَ﴾ ذلك لأنه سبحانه جعل ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ في نظام عظيم محكم الضبط والإتقان ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ تعالىٰ وتدبيره، ثم أجمل الكلام ومخَّض النتيجة من تلك المقدمات بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فلا مثيل له في تنظيم خلقه وإحكام صنعه، وتدبير أمره وإتقان تشريعه، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تَكاثَر خَيْرُه وتَعَالىٰ شأنه. وقد أشار سبحانه بقوله: ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ إلىٰ أنَّ شريعته في الإتقان كنظامه في الأكوان.

وبعد أن بيَّن سبحانه قدرته العَلِيَّة واستحقاقه وحده للألوهيَّة، أمرهم بما يكون لازماً لذلك، وهو إفراده تعالىٰ بالعبادة والدعاء، فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي: في هذه الحال، وفي هذه الحال. والتضرُّع: الابتهال إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يكون إلا بصُورة الجَهْر. والخُفْيَة[2]: الإسرار، أي: ادعوه جهراً وسراً. ولا تعتدوا في الدعاء بتوسُّط

---

(١) يجوز أن يكون في الكلام اكتفاء؛ علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، والتقدير: ويغشي النهار الليل بطلب كلٍّ منهما الآخر حثيثاً. ويؤيِّد الاكتفاء آيتا التكوير والإيلاج في قوله: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]. وهذا الإحثاث من الحِكَم البالغة، إذ لو تراخىٰ أكثر من ذلك لاختلَّ أمر الحياة في الحيوان والنبات، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۞ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٨-٩]، وعلىٰ تقدير عدم الاكتفاء، رُوعي أنَّ الظلام هو يستر الضياء. (المؤلف).

(٢) لا يبعد أن يراد بالخفية: الدعاء لا باللسان، ولكن بتوجُّه القلب إلىٰ الله، وتعلُّقه به وحده، وقَصْر=

أحد والتوجُّه لغيره، ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: مُتَجَاوزي الحدود في كلِّ شيء.

ومن الاعتداء في الدعاء: المبالغة في رفع الصوت، والطلب غير المشروع، والطلب الذي لا يقترن بالوسائل الطبيعية، كطلب النصر علىٰ الأعداء دون استكمال الأسباب، وطلب الغنىٰ بلا سَعْيٍ للكسب، وطلب المغفرة مع الإصرار علىٰ الذنب؛ لأن سُنن الله سبحانه في الأسباب والمسبَّبات لا تبدَّل ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وشر الاعتداء في الدعاء: التوجُّه إلىٰ غير الله فيه، ولو ليشفع له عنده[1].

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعمل ضائرٍ ولا بحُكْمٍ جائرٍ مما ينافي صلاحَ الناس في أنفسهم وعقولهم وعقائدهم، ومن ذلك: نشر الشرك، فلا تفسدوا فيها ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الذي خلقها الله عليه طاهرة نقيَّة من كل فساد.

ثم أعاد الأمر بالدعاء الذي يشمل العبادة مَصْحُوباً بما يردع عن الإفساد في الأرض، وهو الخوف من عقابه والطمع برحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ فذلك هو الإحسان في الدعاء الذي يحبُّه الله، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾. وجاء في الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله سبحانه لا يستجيب لدعاء من قلب غافل لاهٍ»[2].

= ما لَهُ عليه راجياً أن يعطيه ما أراد، أو ينقذه من بؤْسٍ أصابه من نفسه أو من العباد، والله أعلم. ويجوز أن تكون الواو لمطلق الجمع لا للتنويع، والمراد: الجمع بين القلب واللسان في الصلوات والدعوات، وهذا هو الأولىٰ بالمراد، ومن الاعتداء: الدعاء من غير الله، ولو بطريق التقرب إلىٰ الله، والدعاء دون معاطاة الأسباب. (المؤلف).

(١) إلا علىٰ الوجه الوارد في السنة الصحيحة، كحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه عند الترمذي (٣٥٧٨) وغيره.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٧٩) وقال: حديث غريب، والحاكم (١: ٦٧٠) وقال: هذا حديث مستقيم=

وقال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[1].
والمراد من الإحسان: الإحسان في أعمالهم، إذ الإحسان مطلوبٌ في كلِّ شيء، يهدي إليه الدِّين وروحه وقواعده الكليَّة، وإجابة الدعاء مَرْجُوة متىٰ استكملت شرائطها وآدابها، فإن لم تكن بإعطاء الداعي ما طلبه، فربما كانت بما يعلم الله أنه خير له.

ثم عقَّب سبحانه السياق الذي تَضَمَّن الوعدَ والوعيدَ بدليل حكمته ومنَّته وقدرته علىٰ الحشر والحساب، وذكَّرنا سبحانه وتعالىٰ بشيءٍ من رحمته في إنشاء السَّحاب وإحياء الأرض بالنبات، ليعيشَ عليها الإنسان والحيوان، وما في تكوين ذلك من حكمة وقدرة وإبداع، إيذاناً باستحقاقه وحده أن يُدعىٰ ويُلتجأ إليه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ أي: مُبشِّرات ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ حيث تُثير الأعاصير من البحار، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حَمَلته وسَارَت به ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: مكان لا نبات فيه أو جديب، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ علىٰ اختلاف أنواعها.

ثم استطرد إلىٰ ما في إحياء الأرض بالنبات بعد موتها باليَبَس، من الدلالة علىٰ القدرة علىٰ البعث والمشابهة له، علىٰ نهج القرآن في ذلك، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وهذه دعوىٰ متضمِّنة للدليل، علىٰ طريقة تشبيه النظير بالنظير، فإنَّ إخراج الموتىٰ من الأرض كإخراج النبات منها، كلٌّ منهما يجري علىٰ سنن طبيعية مؤدية إليه، والذي يَقْدِرُ علىٰ هذا يقْدِر علىٰ ذلك لو أنكم تتفكَّرون وتتذكَّرون.

= الإسناد تفرد به صالح المري و هو أحد زهاد أهل البصرة و لم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، عن أبي هريرة.

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة وضي الله عنه، ورواه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

فاللهُ سبحانه يُجلِّي لنا زمنَ الحشر ويوضِّحه بتشبيهه بزمن الربيع، فكما أنَّ أيام الربيع تختصُّ بالإنعاش والإحياء للنبات، بحيث لا يكون له مثيل في أيام الصيف المحرقة ولا في أيام الشتاء القارسة، ولا نستغرب ونستنكر علىٰ الربيع ما يأتي به من عجائب في إنبات النبات إذا جاء، كذلك زمن الحشر يغاير هذه الأزمان بطبيعته وإنعاشه، فهو يُحيي الأجسام الإنسانية كما يُحيي الربيع النبات. فالذي يكون في ذلك لا يتعجَّب من طبيعته لإحياء الأموات، كما لا يتعجَّب الإنسان من إحياء الربيع للنبات وإنعاشه له. ولو فرض أنَّ الزمان كلَّه صيف مُحْرق أو شتاء قارس فقط، لم يخطر ببال أحد أنه يمكن أن يكون زمان من الأزمان ينعش النبات هذا الإنعاش، ويحييه هذه الحياة، فكذلك لا يخطر ببالنا، ولا نقدر الآن أن نتصوَّر زمان إحياء الأموات، لأنه يأتي مرةً واحدة بعد انقضاء زمن هذه الحياة ملائماً لتلك الحال، والله أعلم. لذلك يُجلِّي لنا القرآن العظيم أيام البعث والنشور بما نعرفه من أيام الربيع وإحياء النبات بعد يبْسه، كلَّما ذكر إحياء الأرض بالنبات بعد يبسها ويشبهه به.

ثم سَاوَقَ الموضوع بما يتَضَمَّن مَثَل المؤمن والكافر، والبَرِّ والفاجر، وما يَنجُم عنهما من الأعمال، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الكلام عنهما بضَرْب الأمثال لهما أحياناً، وقد ضمَّنه هنا معنىٰ كنائياً، وجَعَل المعنىٰ القريب تَتْميماً لإنزال الماء وإنبات الثمرات، والمعنىٰ البعيد تمثيلاً لمن تمسَّك بالشريعة واستفاد منها لمحافظته علىٰ سلامة طبيعته، ومَنْ أعرض عنها لإفساده لها، فقال: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: المكان الكريم التربة ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي: بتيسيره وسُننه في كونه، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ من البلاد والأماكن، كالأرض السَّبِخة[1]، ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباتُه ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: بعسر وصعوبة، فيكون قليلاً عديم النفع رديئاً.

---

(١) السَّبخَة: الأرض تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر. «لسان العرب» (سبخ).

ثم نبَّه إلىٰ مكانة ما سَبَق من العلم والهداية، وخصَّ بالتنبيه من لم يفسد فطرته، وهم المؤمنون، وعَنْونهم بالشكر تقريراً لإيمانهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ نِعْمةَ الله تعالىٰ، فَيتفكَّرون فيها ويعتبرون بها، ويحافظون عليها. وشكره تعالىٰ: إنما يكون بامتثال أوامره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم أردف هذا السياق المشتمل علىٰ الدعوة إلىٰ التوحيد وإنكار الشِّرك بمصير المؤمنين والمشركين، وذلك بقصص الأنبياء مع أُممهم التي لم تؤمن بهم، وما أصابها من عذاب الاستئصال، ذكره بعد أن مهَّد له في السياق السابق بقوله: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ...﴾ [الأعراف: ٣٥]، وجعلها كالتعليق عليه، وقصَّ خبر الأنبياء المشهورين في الأمة العربية؛ لأنها هي المُخاطَبةُ أولاً بهذه الشريعة والـمُتَدَبَّةُ لنشرها بين الأمم، فوضع ما أصاب المعارضين لأنبيائهم أمام أعين المكذِّبين بمحمد ﷺ تحذيراً وإنذاراً، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ﴾ وناداهم بهذا العنوان استمالةً لما أمرهم به بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأن أفعال الألوهية وصفاتها مقْتصرة عليه، وزيادة ﴿مِّنْ﴾ لتأكيد النفي وعمومه، ثم علَّل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾: ينذرهم عاقبةَ شركهم، وإعراضِهم عما جاءهم به نبيُّهم.

ثم حكىٰ ما أجابوه به بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ وهم أشراف القوم ورؤساؤهم الذين يملؤون العيون رُواءً بما يكون عادة من تأنُّقهم بالزيِّ الممتاز، قالوا له معارضين دعواه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ أي: في دعواك هذه. وصيغةُ الجواب تُشْعر بالعُنف والغِلْظة، أي: إنك ضالٌّ ضلالاً بيِّناً، بنهيك إيانا عن عبادة وَدٍّ وسُواعٍ ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْر؛ الذين هم وسيلتنا وشفعاؤنا عند الله تعالىٰ، يقبلنا ببركتهم ويُعطينا سؤالنا بوساطتهم لِـمَا كانوا عليه من الصلاح والتقوىٰ. ونحن لا نرىٰ أنفسنا أهلاً لدعائه والتَّوجُّه إليه رأساً.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ فأعادَ عليهم هذا العنوان: يا قوم، للإشعار بأنه لا يُريد لهم إلا الخير الذي يريده لنفسه، لأنهم قومه.

ثم أردف النفي والإنكار بهذا الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ إليكم ليهديَكم سبيل الرشاد، فأنا ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾، والجمع باعتبار تعدُّد المواضيع التي أهمها التوحيد والإيمان بالرسل وباليوم الآخر. أي: فأنا أبلِّغكم هذه الرسالات، ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أن تتَّبعوها. وإنما أتىٰ باللام مبالغة في إمحاض النُّصح المعزَّز بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي: إني علىٰ علم من الله أوحاه إليَّ لا تعلمون منه شيئاً، فإذا نَصَحْتُ لكم فإنما أنصح عن يقين.

ثم ردَّ عليهم إنكارهم علىٰ رسالته الذي تضمَّنه قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ لسانِ ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عاقبة كفركم ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ ما يُسْخط ربكم من الشّرك، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي: وليعدّكم لرحمة ربكم المرجوَّة لكلِّ من أجاب الدعوة.

وفي قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ بيان لشبهتهم علىٰ الرسالة، وهي أنَّ الرسول كيف

يكون بشراً مثلهم؟ فكأنهم كانوا يَرَوْن أنَّ الاشتراك في البشريَّة والصفات العامة يقتضي التساوي في جميع الخصائص والمزايا، ويمنع الانفراد بشيء منها. والمشاهدة أكبر برهان علىٰ بطلان هذه القضية، فالتفاوت في الغرائز والصفات الفاضلة، والاختلاف في القوىٰ العقليَّة والمعارف والأعمال الكسبيَّة جِدٌّ عظيم في البشر، وليس في أنواع الحيوان ما يشبه الإنسان في مثل هذا التفاوت، ولو فُرِضَ التَّساوي أيضاً في نوع الإنسان فهل يمنع ذلك أن يختصَّ اللهُ بعضَ عباده بما هو فوق المعهود من الغرائز والمكتسبات، كلا، بل هو علىٰ كلِّ شيء قدير، يزيد في الخلق ما يشاء، وقد قَضَت به مشيئته ونَفَذتْ به قدرته.

ثم ختم القصَّة بما كان من تكذيب قومه له، وما أصابهم من عذاب الاستئصال بالغرق، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: شديدي العَمَىٰ غير مُسْتَبْصرين، وذلك بإفسادهم لفطرتهم حتىٰ انطبعوا علىٰ الضلال وأصبحوا لا يُبْصِرون الحقَّ وإن كان جلياً، ولا تَتوجَّه بصائرهم إليه. وقدَّم ذِكرَ التَّنجية علىٰ ذكر الإغراق، تعجيلاً بالتأنيس قبل تَسرُّب الخوف إلىٰ المؤمنين، علىٰ نهج القرآن في مثل هذا النظر والبيان. وقد جاءت القصة مفصَّلة في سورة هود.

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

ثم عطف علىٰ قصة نوح وقومِه قصةَ هود وقومِه لنفس الغرض، وهو أن يعتبر المشركون بمصير هؤلاء الأمم المكذِّبين للرسل، فقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي: أحد أفراد عشيرتهم.

قال في «المنار»: إنَّ الله سبحانه يرسل الرسول من قومه ليفهموا عنه، حتىٰ إذا ما استعدَّ البشرُ للجامعة العامة أرسل الله خاتم الرسل إليهم كافَّة، وَفَرَض عليهم توحيدَ اللغة لتوحيد الدِّين الذي أريد به توحيدُ البشر وإدخالُهم في السِّلم كافَّة أجمعين[1].

ولما أرسل الله هوداً إلىٰ قومه دعاهم إلىٰ التوحيد و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ لأن أفعال الألوهية وصفاتها مقتصرة عليه، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ما يُسْخطه من الشِّرك والمعاصي، وعذاباً مثل عذاب قوم نوح. وقد جاء في سورة هود: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]. فيجوز أن يكون قال لهم هذا وذاك في وقت واحد، أو كان يقول لهم هذا مرَّة وذاك أخرىٰ، أو يكون من تنويع البيان في بلاغة القرآن تعبيراً بما يناسب السياق.

ثم حكىٰ سبحانه ما أجابوه به، فقال: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: خفَّة عقل، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ في دعوىٰ الرسالة عن الله.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ولا يختار

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٤٤١).

سبحانه لرسالته إلا أهلَ العقل الراجح والحِلْم الواسع، وقد جئتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ علىٰ ما أذكره لكم عن الله تعالىٰ.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وموعظة ﴿عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ من بأس الله أن يُحيط بكم إذا أصْرَرْتُم علىٰ المعارضة والشرك. وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم بمثل هذه الإجابة الصادرة عن الحكمة، والإغْضَاء عما يصفونهم به من السَّفاهة والضلال، أدبٌ عال وخُلقٌ عظيم، وتعليمٌ للعباد كيف يجب أن يُقابلوا السُّفهاء ويغضُّوا عن قالة السوء.

ثم ذكَّرهم بِنِعَم الله عليهم تحسيساً بواجب الشكر بامتثال أوامره وحَمْلاً علىٰ الإيمان، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾، وفي هذا تعريضٌ وتحذيرٌ لهم مما وقع لقوم نوح من العذاب وإيماء إليه.

ثم تابع الكلام علىٰ النِّعم، فقال: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: زيادةً في القوة والمعرفة، وسَعَة في الملك والحضارة والاستيلاء، ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: اذكروا نِعَمَ الله هذه واشكروها له باتِّباع أوامره لعلكم تفوزون بما أعدَّه للشاكرين.

هذا ما قاله لهم نبيُّهم وما وَعَظهم به، ولكنهم أعرضوا وتَعنَّتوا و﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ باتِّخاذ الشفعاء عند الله، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب علىٰ عدم الإيمان بما جئتنا به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ في إنذارك، يستخفون بوعيده لهم ويستهزؤون.

﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ بإصْراركم علىٰ العِنَاد والكفر. قال الزمخشري ما معناه: إنَّ الرجس هنا: العذاب علىٰ

الشِّرك[1]، وسُمّيَ بهذا الاسم لأنه جزاء ما استعير له الرِّجس، وهو الشرك. وقال غيره: الرجس: الاضطراب، ومثله: الرِّجْز.

ثم بكَّتهم بقوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ أي: ما نزَّل الله بها من حُجَّة ولا برهان يُصَدِّق زعمكم بأنها تُقَرِّبكم إلىٰ الله زُلفىٰ. وفي هذا زيادةُ بيان في التجهيل والبطلان، وإيماءٌ إلىٰ أنَّ الحق لا يثبت إلا بالبرهان.

ثم توعَّدهم بقوله: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي: العذاب الذي طلبتموه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ ولكنِّي مُوقنٌ وأنتم مُرتابون، وجادٌّ وأنتم هازلون.

ثم بيَّن سبحانه مصيرَ هود عليه السلام ومصيرَ قومه هؤلاء، فقال: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من المؤمنين ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ﴾ بها ﴿مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾، وذلك حيث استأصلهم بريح تُدمِّر كلَّ شيء بأمر ربها، فأصبحوا لا يُرىٰ منهم إلا مساكنهم، وكذلك يجزي الظالمين.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾.

ثم عطف علىٰ قصة هود قصةَ صالح كذلك، فقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ

---

(١) انظر «الكشاف» (٢: ١١٨)، و(٣: ٤٥٣).

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ لأنَّ أفعال الألوهية وصفاتِها مقتصرة عليه، وفوق ذلك ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: آية كونية عظيمة القدر ومعجزة ظاهرة الدلالة علىٰ صحَّة رسالتي منه تعالىٰ، وقد بيَّنها بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾، وأضافها إلىٰ اسمه تعالىٰ؛ تعظيماً لأمرها، لما امتازت به من خِلْقتها علىٰ غير السنَّة الطبيعيَّة، وَفْقاً لما طلبوا. وقد أمرهم الله تعالىٰ فيها بقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

ثم ذكَّرهم بنِعَم الله عليهم تحسيساً لهم بها لعلَّهم يرجعون عن غيِّهم، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ وفي هذا إيماءٌ إلىٰ عذابهم وتحذيرٌ لهؤلاء من مثله.

ثم تابع التذكير بالنعمة، فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مَكَّنكم في أرضكم، وهي الحِجْر بين الحجاز والشام، آمنين رافهين مطمئنين ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ ونِعَمَه عليكم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بتَبديل الشكر بالكفر. وعَثَىٰ بمعنىٰ: أفسد. فالآية تذكِّرهم بما أنعم الله عليهم من الحضارة والعمران والقوة والبأس والعلم والصناعة، ولاسيما في فنِّ الهندسة والبناء، وتدعوهم إلىٰ شكر الله علىٰ هذه النِّعم.

ويجوز أن يراد من نحت الجبال: تعبيد الطرق فيها ليتهيَّأ البناء والسكن عليها، أو المراد: نحت الصخر منها لبناء البيوت. وفيه ذِكْرُ المسبَّب وإرادةُ السبب، أو ذِكْرُ المحل وإرادة الحالّ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ

رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من عُتوِّ الكافرين منهم وعنادهم وجدالهم مع المؤمنين، فقال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ وهم الرؤساء والأشراف المتجبِّرون ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: من قومه، وهو يدل عما قبله أيضاً.

قال في «المنار»: مضت سُنَّةُ الله تعالىٰ بأن يسبق الفقراء المستضعفون من الناس إلىٰ إجابة دعوة الرسل واتِّباعهم، وإلىٰ كل دعوة إصلاح، لأنه لا يثقل عليهم أن يكونوا تَبَعاً لغيرهم، وأن يكفر بها الملأ أكابر القوم المتكبِّرون والأغنياء المُتْرَفون؛ لأنه يشقُّ عليهم أن يكونوا مرؤوسين، ويخضعوا للأوامر والنواهي التي تُوقف شهواتهم عند حدود الحقِّ والاعتدال[1]. لذلك قالوا للمؤمنين تهكّماً واستخفافاً: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾، وصيغة الجواب هذه من المؤمنين تُشعر بأنَّ إيمانهم صادق مُتكوِّن من علم اليقين.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تمرَّدوا عليه، ﴿وَقَالُوا﴾ تهكُّماً واستخفافاً: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: خامدين موتىٰ لا حراك بهم.

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بأمرٍ من الله ونجاةً له إثر ما شاهد ما جرىٰ عليهم، ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي صيغة الكلام تأسُّف وتحزُّن عليهم، لعَدَم إيمانهم الذي جرَّهم إلىٰ البلاء في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير «المنار» (٨: ٤٤٨).

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم عطف علىٰ قصةِ صالح قصةَ لوط، فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، والاستفهام للتوبيخ والتقريع، أي: أتفعلون الفِعْلة البالغة منتهىٰ القبح والفحش. ثم بالغ في التأنيب بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، و﴿مِنْ﴾ الأولىٰ مزيدة لتأكيد النفي وإفادة معنىٰ الاستغراق، و﴿مِّنَ﴾ الثانية للتبعيض والبيان. والجملة مَسُوقَةٌ لتأكيد النكير. والمعنىٰ: أنتم أوَّل من ابتدعها. ولذلك اشتقَّ لها العرب اسماً من لوط، وهي اللواطة؛ المبيَّنة بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وصورةُ التعبير تشير إلىٰ بهيميَّة هذه الفِعْلَة في الحطَّة، وأنها خارجةٌ عن مُقْتضىٰ الفطرة والتعقُّل، وما اشتملت عليها الغريزة من الحكمة في النساء، وهي بقاء النوع. لذلك أسند الإسراف إليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون في الفُحش والدناءة لحدود الطبيعة والفطرة والحكمة فيها إلىٰ تصرُّف سفيل.

ولما آلمهم وأخْزاهُم عَمَدوا إلىٰ السَّفاهة، دَأْبَ أمثالِهم عندما يُفْحَمون، واحْتَجُّوا بحُجَّة زادتهم خِزْياً وشَناعة، وذلك ما حكاه عنهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، وقد سَجَّل عليهم هذا الجوابُ الخزْيَ والعارَ في العقل والذوق والأخلاق. وعلىٰ هذه الوتيرة ما يقوله الفَسَقة إذا وَعَظهم أحد الصُّلحاء: ليبعد عنا هذا المتقشِّف، ولْيُرِحْنا من زهده وبرودته.

وضمير ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ يعود إلىٰ لوط والمؤمنين به، وكلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ كلمة استهزاء منهم أو تعريض بهم وبنجاستهم وسفالتهم.

ثم ذكر ما كان من أمره وأمر قومه، وقال: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها لم تؤمن، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ من الحجارة المُهلِكة، ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. وهذا الخطابُ عام في الأمر بالنظر والاعتبار لكلِّ من يسمع القصة.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ثم عطف على قصة لوط قصة شعيب، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ لاقتصار أفعال الألوهية وصفاتها عليه، و﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزةٌ واضحةٌ على صدق رسالتي إليكم، ولم تُذْكَرْ معجزتُه في القرآن، كما لم تُذْكَرْ أكثر معجزات الأنبياء. وقد قال نبينا ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا وقد أعطي ما مِثْلُهُ آمن عليه البشر»[1]. أو المراد بالبيِّنة هنا: ما آتاه الله من النبوَّة والحكمة والتَّشريع. إذ البيِّنة ما يتبيَّن به الحق فتشمل المعجزات الكونيَّة والبراهين العقليَّة، والتعاليم الدينية الإلهيَّة. وشُعيبٌ نبيٌّ من أنبياء العرب.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)، عن أبي هريرة.

ثم أردف الدعوة إلىٰ التوحيد ببيان بعض الأوامر والنواهي، وقال: ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إذا بعتم، ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ إذا اشتريتم. وإنما خصَّ هذا بالذكر من بين سائر شؤونهم الرذيلة؛ لأنه كان فاشياً فيهم ومعروفين به، كما كان الأمر السابق في شأن قوم لوط. والبخس أعمُّ من نقص المكيل والموزون. فإنه يشمل التلاعب في المُساومات والغش والحيل التي تنقص بها الحقوق. ويشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل.

ثم نهاهم عن سائر أنواع الفساد، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله صالحةً بكلِّ ما فيها، تفسدونها بإفساد الدين والأخلاق، وإفساد العمران بأكل أموال الناس بالباطل والبغي والعدوان.

ثم ختم الدعوة بما يحثُّ عليها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: امتثالُ ما أُمِرتم به وتَرْكُ ما نُهِيتُم عنه، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إنْ كنتم عازمينَ علىٰ الإيمان. وهذا الشرط لزيادةِ الحثّ علىٰ التمسُّك بما دعاهم إليه.

ثم تابع النهي، فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: بالشر كُلَّ مَن يريد أن يتبعني، ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون الشريعة أن تكون معوجة حسب مواصفاتكم وتقاليدكم، أو المعنىٰ: تريدون بتمويهكم وتضليلكم أن تُصوِّروا شريعتي مُعْوَجَّة، إذ تصفونها بالزيغ والميل عن الحقِّ وتشكِّكون الناس فيها.

وتوضيح المعنىٰ: أن من سُنَّة الله في خلق البشر وطباعه أن يكون الأبعدُ داراً أقرَبَ استجابةً للدعوة، والأقربُ داراً أبعَدَ استجابة. فلما رأىٰ قومُه أن الغير أخذ يقبل دعوته ويهتدي بها، وأخذت الناس تَفِدُ عليه، شَرَعوا يصدُّون الناس عنها، ويريدون بواسطة التضليل والتمويه أن يُصوِّروا هداها ضلالاً واستقامتَها عوجاً.

ويجوز أن يكون معنىٰ: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تُحرِّفونها ـ بعبثكم بها وتشويهكم لها ـ عما جاء بها الأنبياء، يُشير إلىٰ ما هم عليه من شريعتهم التي حرَّفوها.

ثم ذكّرهم بنِعَم الله عليهم حثّاً لهم علىٰ قَبول هذه الدعوة، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بالنَّسل والمال. ويجوز أن تكون الجملة تذكيراً بحادثة نوح عليه السلام.

ثم حذَّرهم عاقبة الفساد، فقال: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الشعوب المُجَاوِرَة لكم، كقومِ لوطٍ وقوم صالح وغيرهم، كيف أهلكهم الله بفسادهم.

ثم وَعَد مَنْ آمن به بالنصر، وتوعَّد مَنْ لم يؤمن به بالخذلان والقهر، فقال: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، فإن لم يعتبر كفارُكم بمعاقبة من قَبْلَهُم، فَسَيَرَوْن ما يحلُّ بهم. والأمر بالصبر تهديدٌ ووعيدٌ.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

ولما ألزمهم بحُجَّته وتَوَعَّدهم علىٰ مخالفته، عمدوا إلىٰ السفاهة وعارضوا البرهان بالعدوان، كما هو شأن السُّفهاء إذا دُعُوا إلىٰ الحقِّ وانقطعت حُجَّتهم. وقد حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وما ندين به من تقاليدنا الموروثة، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها، ناقمون عليها؟! ومُؤدَّىٰ هذا القول: إنكم لم

تعلموا أنَّ الدِّين الحقَّ يملك النفس، ويحكم علىٰ الوجدان والعقل، وَيُضَحِّي صاحبُه في سبيله النفسَ والنفيس، والأهلَ والوطن.

وبعبارة أخرىٰ: إنَّ الإيمان بالعقيدة عملٌ قلبيّ عقليّ، يكون بالإقناع والبرهان، ولا يكون بالقَسْر والإكراه.

ثم أردف الإنكار بالتفظيع، وضمَّنه أنَّ قلوبهم تَيقَّنت الإيمان بالله وحده، وأدركت بصيرتُهم ذلك إدراكاً جلياً، فكيف يعودون في ملتكم، فقال: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي: نجَّانا من الانتماء إليها بما هدانا إليه.

ثم أكَّد الرفض بما يزيدهم تيئيساً، فقال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، وهذا التعبير في النفي آكد تعبير؛ لأنه نفيُ الشأن، ويَتضمَّن نفي جميع الأعذار. والتقييد باستثناء المشيئة للمبالغة في تقريره؛ إذ من نهج القرآن أن يُعقِّبَ باستثناء المشيئة علىٰ التأييدات والقطعيات، لا لإفادة نقضها كما يُوهمه الظاهر، بل لإفادة أن ذلك القطع أو التأبيد مبنيٌّ علىٰ السنن الكونية التي شاءها الله بحسب الحكمَةِ البالغة، ولو كانت الحكمة في غيرها لشاء ما به الحكمة من غيرها. فمؤدَّىٰ هذا الاستثناء: الجزم بعدم العودة، إذ قد شاءه الله بمقتضىٰ علمه الواسع وحكمته البالغة في جِبِلَّةِ الإنسان ما لم يعبث بها بسُوء تصرُّفاته، أن يدرك الحقَّ حقاً والباطل باطلاً، وأن يتمسَّك فيما اعتقد ولا يحيد عنه أبداً. ففيه نهايةُ التيئيس لهم من العودة في ملَّتهم.

ثم استعانوا علىٰ معارضتهم وتوعُّدهم لهم بالله سبحانه، كما حكىٰ ذلك عنهم بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فهو يكفينا أمْرَ تهديدكم وتوعّدكم، ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: ربنا احكم بيننا وبينهم وافصل بالحقِّ الذي مَضَتْ به سُنَّتك في التنازع بين المرسلين والكافرين.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

ولما يئس الملأُ من عَوْدتهم في مِلَّتِهم، ورَأوْا صَلابتهم في دينهم، خافوا أن يكثرَ المهتدون به من قومهم، فحَذَّروهم من ذلك؛ مُبيِّنين لهم أنه ليس من مصلحتهم، وفيه ضرر عليهم، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي: لشرفكم ومَجْدكم بإيثار ملَّته علىٰ ملَّة آبائكم وأجدادكم، وباعترافكم أنهم كانوا كافرين ضالِّين، وخاسرون لثروتكم وربحكم بترك ما حَذِقْتموه من فنون الخداع في البيع والشراء.

ولما أصرُّوا علىٰ كفرهم وعنادهم ومقاومتهم لرسولهم الذي أُرسل إليهم، استأصلهم الله بعذابه، كما حكىٰ ذلك بقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ أي: الزلزلة، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ أي: مَوْتىٰ لا حِراك بهم، أو ميِّتين وهم باركون علىٰ رُكَبِهم، أو مُنكبُّون علىٰ وجوههم.

ثم عارض سبحانه قولَهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ﴾ أي: قد هلكوا وكأنهم لم يكونوا ولم يقيموا في هذه القرية ولم يعيشوا فيها. يقال: غني في المكان؛ إذا طال مُقامه مُسْتغنياً به عن غيره.

ثم قابل قولهم: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ لسعادة الدنيا والآخرة.

ثم ذكر ما كان من شعيب بعد أن شاهد ما جرىٰ عليهم، فقال: ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾

بأمرٍ من الله عندما جاءهم العذاب، ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ فلم تنتصحوا، ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزنُ الحزن الشديد ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ حَذَّرتُهم عاقبة غيِّهم فلم يسمعوا ولم يطيعوا؟.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾.

ثم أجمل ما تقدَّم من القصص، بالتعليق عليها بهذا البيان، وهو أنه سبحانه لا يأخُذ الـمُعَارضين بعذاب الاستئصال من أوَّل الأمر، ولكنه يستدرجهم لعلهم يثُوبون إلىٰ رُشْدهم، فيأخذهم أولاً بالشدائد والأمراض، ثم يزيل عنهم ذلك ويأتيهم بالخِصْب والرَّخاء، فينسبون حالهم الأول إلىٰ مجرَّد طبيعة الزمن، ثم يأخذهم بَغْتة بعذاب الاستئصال، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فلم يؤمنوا به، ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ وهي الشدَّة والمشقَّة كالحرب والجدب وشدة الفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهي ما يضرُّ الإنسان في بدنه ونفسه ومعيشته، ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ لنا ويرجعون عن غيِّهم، ﴿ثُمَّ﴾ بَلَوْناهم بضدِّ ذلك، و﴿بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾، والمراد بالسيئة والحسنة هنا: الطبيعيّتان، أي: ما يستخفُّه الطبع ويستحسنه، وما يستثقله ويستاء منه، وذلك كاليُسر بعد العسر، والغنىٰ بعد الفقر، والرخاء بعد الشدَّة، والأمن بعد الخوف، ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: تراجعوا ونموا، ﴿وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي: إنَّ هذه أمور طبيعية تعرض دائماً للبشر، وتلك عادة الزمان في أبنائه، فيصرفونها عن كونها آيةً للتخويف إلىٰ كونها شؤوناً طبيعية لا يَسلَمُ منها فَرْدٌ ولا أُمة، ولم يعلموا أنها توفيق أقدار لأقدار من الله سبحانه وتعالىٰ تخويفاً وتأديباً، وبينما هم كذلك يغشاهم عذاب الاستئصال، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩٥﴾ إذ جاءهم علىٰ حين غفلة.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

وبعد الكلام عن الضَّالِّين وما جرىٰ عليهم من تَعَاسة وشقاء، دعا إلىٰ الهدىٰ، وبيَّن ما يَنْبعث عنه من سَعَادة ورخاء، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، ناعياً علىٰ المكذِّبين خُسرانَهم وشقاءَهم بالعذاب، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أما بركات السماء فالأمور الروحانيَّة المؤدية إلىٰ الكمال الروحي، وأما بركات الأرض فالأمور المادية من الخيرات، أي: لجمعنا لهم بين السعادتَيْن الدنيوية والأخروية؛ لأن قواعد الدين وإرشاداته تؤدِّي إليهما معاً إذا رُوعيت علىٰ وجهها الصحيح، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ بما جاءهم من الحق، ولم يهتدوا بهَدْيه، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ من أعمال الشِّرك الخرافية المفسدة للعقول، ومن المعاصي الهادمة لنظام الاجتماع؛ إذ ينتج عن ذلك أضرار فظيعة بحسب سُنَن الكون ونواميس الفطرة التي فطر الله عليها الناس. فيكون أخْذُهم بالعقاب أثراً لازماً من آثار كَسْبِهم وتصرُّفاتهم السيِّئة في نفوسهم.

وقيل: المراد بالبركات: المادية فقط، فبركات السماء: المطر وشبهها، وبركات الأرض: النبات وشبهه، أي: علىٰ صفة لم يعهدوها.

وقيل: المراد: لوسَّعنا عليهم الخير ويسَّرناه لهم من كلِّ جانب؛ لأن أنظمة الشريعة منطبقة علىٰ أنظمة الطبيعة، والشر لا يأتي إلا من معاكستها.

وبعد إكمال هذا السياق المُنبِّه للعقول، والمُوقِظِ من السُّبات، والمبيِّن ما جرىٰ علىٰ المكذِّبين للأنبياء في الأمم الغابرة، أنذَرَ الحاضرين من كفار قريش وأمثالهم بمجيء

العذاب علىٰ حين غِرّةٍ وهم غافلون، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا﴾ أي: يُبيِّتُهُمْ تبييتاً ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ ليلاً.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ مستأنسين فرحين.

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: تدبيرَه الخفيَّ في تعذيبهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ لأنفسهم بإفسادهم لها وتغشية بصيرتها وحرمانها من السعادة التي كانت مُستعدّة لإحرازها لولا تصرُّفهم السيئ بأنفسهم، وتدسيتهم لها.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ثم أردف هذا الإنكار بلون آخر منه، وهو التهديد علىٰ غفلتهم وعدم اعتبارهم بمن قبلهم، الذين أهلكهم الله بذنوبهم، وورَّث هؤلاء أرضهم وديارهم، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾[1]، كما فعلنا

---

(١) بعد أن عرضت القصص ما جرىٰ علىٰ المكذِّبين لأنبيائهم من عذاب الاستئصال، أنَّب قريشاً بهذا الاستفهام، وتوعَّدهم بما ملخصه: أوَلم يكشف لهم مصيرَهم السيِّئ ما قَصَصناه عن مصير من سبقهم في مسلكهم هذا، وذكّرهم بأنهم كانوا خلفاً في الأرض لأولئك السلف، إيماء ومبالغةَ تحسيسٍ بالوعيد. ثم بيَّن أن منشأ عدم انتفاعهم بهذه المواعظ إنما هو فساد تربيتهم وانطباع قلوبهم عليها، فهم لا يُلقون السمع إلىٰ ما يخالف ميولهم وما وجدوا عليه آباءهم وما انطبعوا عليه. وتلك سنة الله في الإنسان إذا أفسد طبيعته بمثل هذه المفاسد. ولذلك قال: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، ولم يقل: فهم لا يفقهون؛ لأنَّ من أعرض قلبُه عن موضوع لا يلقي إليه سمعه، فضلاً عن فهمه؛ إذ لا يراه جديراً بالإصغاء، فضلاً عن الفقه والإدراك. (المؤلف).

بمن ورثوها منهم، كقومِ نوحٍ عليه السلام، وقد ضمَّن ﴿يَهْدِ﴾ معنىٰ «يبيِّن» فعدَّاه باللّام. علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، والمادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

والمعنىٰ: أوَلم يَردَع هؤلاء ما فعلناه بأسلافهم الذين أهلكناهم، وورّثناهم أرضهم، وأننا لو نشاء لفعلنا بهم لذنوبهم مِثلَهم، وورَّثنا أرضهم لقوم آخرين، ﴿وَ﴾ لكن بحسب سُنَنِنَا في طبيعة الإنسان وأخلاقه ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بما أحاط بها من الكفر والذنوب، فإنها تُعمي القلوب، وتحجب البصائر عن نور الحق، وتُصِمُّ الآذان عن سماعه، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ المواعظَ والإرشادَ سَماعَ وعيٍ وإدراك، ولا يرتدعون بها جَرَىٰ علىٰ أمثالهم من الأمم الغابرة.

وفي الكلام إسناد الفعل إلىٰ الله بمقْتضىٰ سُنَنه الكونيَّة مع التلميح إلىٰ السبب، علىٰ نهج القرآن في ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدمة الثانية في خصائص القرآن). وجملة ﴿وَنَطْبَعُ﴾ مستأنفة.

ثم أجمل ما تضمَّنه السياق من سُنن الله تعالىٰ في طبائع البشر وشؤون الفطرة، وخاطب بذلك النبيَّ ﷺ، ليزيده تحسيساً بالأمر، تسليةً له عن معارضة المشركين وعدم إيمانهم، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي بَعُد عهدُها، وطال الأمدُ علىٰ تاريخها، وجَهِلَ قومُك حقيقةَ حالِها، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ يريد ما ذكره في السياق. ثم أجمل ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: ما كان من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البيِّنات، بما كانوا قد كذَّبوه قبل ذلك؛ لانطباعهم علىٰ الكفر والضلال، كما انطبع عليه أسلافهم، حتىٰ أصبح لهم مَلَكةً وخُلقاً، يُعارضون كلَّ ما خالفه ولا يرونه حقاً. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾؛ إذ يملك الكفرُ قلوبَهم، ويحجبُ بصائرَهم عن نور الحق ووضح الهدىٰ.

ثم أجرىٰ الكلام علىٰ عموم البشر بصورة عامة، تسليةً للرسول إذ يعارضه الناس، ونَعَىٰ عليهم تفريطَهم بالعهد الذي أخذه عليهم بما تقدَّم من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ...﴾ [الأعراف: ٣٥] الآية، فنعىٰ عليهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾، وقال الراغب: عهد الله تارة يكون بما ركزه في عقول البشر[1]. وطَبَعَهم عليه من معرفة الله بتوحيده وتنزيهه ـ أقول: وهذه هي الهداية الطبيعية والغريزة الدينية ـ وهو معنىٰ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآتي في هذه السورة، وتارة يكون بما أمرنا به علىٰ لسان الرسل، وهذه هي الهداية الشرعية.

ثم قرَّر هذا النَّعي والبيان بقوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: خارجين عن دائرة استعداد طبائعهم للخير والرشاد، إلىٰ دائرة استعدادهم للشرِّ والفساد، وذلك بسُوء تَصرُّفهم في أنفسهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

وبعد ذكر قصص الأنبياء الذين استأصل الله أممهم إذ لم يؤمنوا إلا قليلاً منهم، عاد

---

(١) «المفردات» ص٥٩٢.

إلىٰ البحث، وذكر قصَّة موسىٰ وفصَّلها من سائر نواحيها؛ ليكون ذلك نموذجاً لما طوي في القصص قبلها واختصر فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ حيث كفروا بها كِبْراً وعناداً ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وهذا تشويقٌ لتوجيه النظر لما سيقصُّه تعالىٰ من عاقبة أمرهم بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، وضمَّن كلمة ﴿حَقِيقٌ﴾ معنىٰ: حريص، ولذلك عدّاه بـ«علىٰ» لتفيد الجملةُ توكيدَ الصدق في دعواه الرسالةَ، وقد زاد في التوثيق بقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ علىٰ صِدْق دَعْواي، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ يا فرعون ﴿مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ بأن تُطْلِقَهُم من أسْرك وتُعْتِقَهُم من رقِّك ليذهبوا معي إلىٰ دارٍ غيرِ دارك، ويعبدوا فيها ربَّهم وربَّك.

﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ عليه السلام: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ كما ادَّعيت ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ﴾ موسىٰ ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: بيِّنٌ أمرُه لا يشكُّ الناظر إليه أنَّه ثعبان، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ تتلألأ ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، وحينئذ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يُضلِّلون الدهماء[1] حفظاً لمراكزهم فيهم وحكومتهم وسلطانهم عليهم، ويستنجدونهم لمقاومة موسىٰ وما جاء به، قالوا لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ بدَعْواه هذه وسِحرِه هذا، ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾؟ يستشيرون الأمة، ويُنبِّهون فيها شعور النخوة والنقمة علىٰ موسىٰ والمعارضة له.

وهذا تبليغٌ واستشارة للأمة من جانب الملأ علىٰ لسان فرعون، إذ هؤلاء الملأ كانوا الواسطةَ بين الأمة وبين فرعون في أخذ الرأي من الأمة ونَقْلِهِ إلىٰ فرعون. ولذلك كان

---

(١) الدهماء: العدد الكثير. ودهماء الناس: جماعتهم وكثرتهم. «لسان العرب» (دهم).

الجواب بخطاب المفرد لفرعون حيث ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾، ويجوز أن يكون قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ حكايةً لمداولة الملأ فيما بينهم في القضية، ومناقشة بعضهم لبعض في صورة القرار الذي يجب أن يتَّخذوه في هذا الأمر.

ثم حكىٰ بعبارةٍ مُجمَلةٍ صُورةَ القرار الذي اتَّخذه الملأ بنتيجة المداولة، وصورة عَرْضِهِ علىٰ فرعون للتنفيذ بقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخِّر أمْرَهما حتىٰ تحضر السَّحرة، ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١﴾ أي: أرسِلْ إلىٰ البلدان مَنْ يجمع لك السَّحَرة حتىٰ ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾ أي: بفنون السِّحر، ماهرٍ فيها، فيكشفون للأمة ما جاء به موسىٰ فلا يفتتن به أحد.

فأرسَلَ وحَشَر كلَّ مَنْ له مهارة بفنون السحر، وقد كان قدماء المصريين قد تخصَّصوا بدراسة السحر والتمويه، وتفنَّنوا فيه ﴿وَ﴾ لما ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ﴾ مستفهمين ومطالبين: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ ومكافأةً ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾.

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ﴾ فوق ذلك ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ عندنا إذ ذاك.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ١٢٥ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

فلما اجتمعوا بموسىٰ عليه السلام في المحل المُعَدّ للمغالبة علىٰ مشهدٍ من الناس، ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ يُخيِّرونه في التقدُّم أو التأخُّر، إظهاراً لثقتهم بأنفسهم واعتدادهم بسحرهم. وغرضُهم من ذلك: إرهابُه بزعمهم، وإظهارُ عدم المبالاة به.

﴿قَالَ أَلْقُوا۟﴾ أنتم، وفيه إيذانٌ بعدم مبالاته بهم، ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ بأن خيَّلوا إليهم ما لا حقيقة له، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: بالغوا في إرهابهم بما صنعوا، ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ في بابه، كما بيَّن ذلك في غير هذه الآية.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ حيَّةٌ عظيمة، ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي: ما يأتون به من الإفك والتمويه، فأظهرت بطلانه وبيَّنت حقيقة أمره في نفسه. قال الراغب: الإفك: كلُّ مصروف عن وجهه، ومنه قيل للرياح العادلة عن الْمَهَابّ: مؤتفكة[1].

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر وثبت الحق، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي: ظهر بطلانُه للناظرين، وتبيَّن لهم أنه تمويه وحِيَل.

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ أي: غُلب إذ ذاك فرعونُ ومَلَؤُه، ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي: عادوا من ذلك المجتمع أذلةً خائبين، لِـمَا بدا للناس من صَغَارِهم.

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ ألقاهم اندهاشهم من عِظَم المعجزة، أي: لم يتمالكوا ممَّا رأوا ـ وهُم أعلم الناس في التمييز بين آيات الله تعالىٰ التي لا يقدر عليها غيرُه، وبين السِّحر الذي هو مِن صناعات البشر ـ فخرُّوا سُجَّداً مُذْعِنين مُسْلمين أنَّ عَمَلَ موسىٰ إنما هو معجزة عظيمة، وليس من السحر الذي يعملون، وإنما هو من صُنْع الله

(١) «المفردات» ص٧٩.

تعالىٰ. فملأت هذه المعجزة عقولَهم يقيناً، وقلوبَهم إيماناً، ولم يَبْقَ في أنفسهم أدنىٰ مكان لفرعون وعظمته الدنيوية الزائلة، ولا سيما قد ظهر لهم صَغَارُه أمام هذه الآية، وكان من نتيجة ذلك أنْ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾، وهذا الإبدال للتقرير والتحرير وإظهار اليقين.

فلما رأىٰ فرعون اتِّضاحَ تفوُّق موسىٰ، واتِّباع السَّحَرة له، سُقِطَ في يده، فتذرَّع لباطله وعناده بالاحتجاج عليهم بالسَّبق إلىٰ اتِّباع موسىٰ قبل أن يقرِّر أمر الاتِّباع بنفسه ويأذن لهؤلاء بذلك، واتَّهمهم بالمُمالأة لموسىٰ، والاتِّفاق معه علىٰ انخذالهم أمامه وإظهار تفوُّقه عليهم، مُدَّعياً أنَّ في الأمر تدبيراً وصنيعة.

وقد حكىٰ ذلك عنه سبحانه بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: قبل أن آذن أنا لكم بالإيمان به حسبما اتفقنا عليه؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ علىٰ اتِّفاق بينكم أظهرتُم به تفوُّقَ موسىٰ عليكم؛ ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ بسَلْبِ ملكهم وتمليك بني إسرائيل. واستفزَّ بهذه الجملة شعورَ القبط نحوه ضد السحرة وضد موسىٰ.

ثم أردف ذلك بالوعيد فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، فأجمل الوعيد بهذه الجملة للتهويل، ثم فصَّله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي من كلِّ شق يداً أو رجلاً بالتخالف، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ وأنتم علىٰ هذه الحالة المشوَّهة؛ لتكونوا عبرة لمن تُحدِّثه نفسه بالكيد لنا والترفُّع عن الخضوع لعظمتنا.

أما السحرة فلم ينخذلوا بهذا التهديد لتمكُّن الإيمان من نفوسهم، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ فلا نبالي بوعيدك شَغَفاً بلقاء الله والتمتُّع بحُسن الجزاء. وهكذا يكون الإيمان بالله واليوم الآخر قوةً عظيمة، وشجاعةً فائقة، وصبراً غريباً علىٰ الشدَّة والمشقة،

وكذلك يكون في المقاومة والحروب. ويجوز أن يعود ضمير ﴿إِنَّآ﴾ إليهم وإلىٰ فرعون، فيكون في الكلام تخويفٌ له بالله إذا مسَّهم بذلك السُّوء.

ثم قرَّعوه مُؤْلِمَ التقريع بقولهم: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ثم فزعوا إلىٰ الله وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ غيرَ مفتونين بتهديد فرعون. فجمعوا بكلامهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام لله.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

هذا ما كان من أمر السَّحَرة وفرعون. أما ما كان من أمر الملأ من البيت المالك والحاشية والأمراء والوزراء، فقد أغْرَوْا فرعونَ علىٰ التَّصلُّب والانتقام، كما حكىٰ الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أحراراً آمنين؛ ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لتكونَ عاقبتهم أن يُفْسدوا قومك عليك في أرض مصر بإدخالهم إيَّاهم في دينهم، وجَعْلِهم تحت سلطانهم، ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ مَنْبوذين. فلما أغْرَوْهُ بهذا الإغْراء المُهَيِّج ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي: سنعودُ إلىٰ ما كنّا تركناه من تقتيل ذكور مواليدهم وإبقاء إناثهم فقط؛ حتىٰ يضعفوا فلم يبق لهم قوة، أو ينقرضوا، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ فما أذلَّهم وأبعدَهم أن يُفسِدوا علينا أمْرَنا.

أما ما كان من أمر موسىٰ وقومه تجاه هذا الموقف، فقد وعظهم وحرَّضهم علىٰ الثبات والصبر علىٰ تجبُّر فرعون وطغيانه وظلمه، ووعدهم بحُسْن العاقبة، كما حكىٰ الله

سبحانه بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ لا لفرعون ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

ولكنهم ـ لضعف عقيدتهم وخَوَر عزيمتهم ـ أجابوا بما حكىٰ الله عنهم بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، ومفاد هذا التَّذمُّر: أنَّ مجيء موسىٰ لم يُفِدهم شيئاً، بل زاد عليهم الأذىٰ بزعمهم، فردَّ عليهم ردَّ الأنبياء و﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: ليختبركم بذلك. وهذا الجواب يتَضمَّن التسليةَ لهم والتعريضَ بهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه ما نال فرعونَ وقومَه من الجزاء، بنتيجةِ تجبُّرهم وكفرهم بآيات الله، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾، وكما تستعمل كلمة «آل» في القرابة القريبة، تستعمل أيضاً في الموالين والمتابعين. والمراد من أخذِهم بالسنين: ابتلاؤهم بجَدْبٍ وقحطٍ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾، أي: جعلنا هذا الجزاء مقدِّمة بين يَدَي عذاب الاستئصال، لعلهم يرجعون عن غيِّهم ويثُوبون إلىٰ رُشْدِهم، ولكنهم لم يفعلوا، وحملوا ذلك علىٰ غير محمله.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ من خِصْبٍ ورَخَاءٍ ولو أثناء ذلك القحط والبلاء، ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ باستحقاقنا وقَبولنا عند الله، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من الجدب والغلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءمون بهم، ويقولون: هذا من شؤمهم.

فردَّ الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وأراد بالطائر: الشؤمَ والسُّوءَ الذي أصابهم، وعبَّر عنه بالطائر للمشاكلة مع كلامهم، وهو نوع من البديع. والمراد: أنَّ شؤمهم ناتجٌ عن معاكسة نظام الله؛ لأنه سبحانه هو واضعُ نظام الكون في سُنن مُطَّردة تكون فيها المسبَّبات نتيجةً للأسباب، وأنزل الشرائع ملائمةً لتلك السنن، والله أعلم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون.

ثم ذكر ما كان من إصرارهم علىٰ الكفر والعناد، وإرسال أنواع أخرىٰ من العذاب والآيات الكونية عليهم، فقال: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: بمصدِّقين لرسالتك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ وهو الأمطار المُغْرقة للزرع وغيرها، ﴿وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ﴾ وهو القُرادُ[1] أو السُّوسُ الذي يُفسِدُ الحنطة، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ﴾ فملأت بيوتهم وأمتعتهم وثيابهم وفرشهم وكلَّ شيء لهم، حتىٰ ضَجُّوا من ذلك، ﴿وَ﴾ أرسلنا عليهم ﴿ٱلدَّمَ﴾ ظهر في مياههم وأفسدها.

فجعل الله سبحانه هذه المصائب والنكبات ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾، والتَّفصيل هو التبيين. والمعنىٰ: آيات واضحات الدلالة علىٰ غَضَب الله عليهم وانتقامه منهم، وعلىٰ صدق رسالة موسىٰ التي عاندوها ولم يقبلوها. ولكنهم لم يؤمنوا أيضاً ولم يعتبروا بهذه الآيات، ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ لأنهم ـ وإن كانوا قد فزعوا أثناء الآيات

(١) دويبة تكون في مآخير الحوافر والمناسم. «لسان العرب» (صفر). أو: دويبة تعض الإبل. (قرد).

إلىٰ موسىٰ يطلبون أن يدعو الله لهم ـ فإنهم لم يلبثوا أن عادوا إلىٰ كفرهم وعِنادهم لما كشف الله عنهم ذلك، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾ أي: هذا العذابُ التي تَرْتجز وتَضْطرب له القلوب، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ وهو أن تدعوه فيجيبك، ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ كما طلبت، ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ وهو موعد الغرق الذي قضىٰ الله أن يستأصلهم به، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ ولم يَفُوا بما وعدوا به موسىٰ.

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ عند بلوغ الأجل المضروب لهم، ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ ﴾ أي: البحر، وذلك ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾، وتحرير المعنىٰ: إنهم كانوا يُظْهِرونَ الإيمان عند كلِّ آية من آيات العذاب، ثم يُكذِّبون، حتىٰ إذا انقضىٰ الأجل المضروب لهم انتقمنا منهم، لأنَّهم كذَّبوا بالآيات كلِّها القوليةِ والفعليةِ، وكانوا غافلين عمَّا يؤدِّي إليه ذلك من عذاب الدنيا والآخرة، حسب سُننِ الله في هذا الكون وشرائعه.

والانتقام: من النقمة، وهي: السطوة والعقوبة، وقد يستعمله عُرْفُ التخاطب بمعنىٰ التَّشفِّي، وهو بهذا المعنىٰ مُحَال علىٰ الله سبحانه.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

وبعد أن ذكر مصير الأقباط، ذكر مصير بني إسرائيل. وقد جعل مبدأ الكلام حلقةَ وَصْلٍ للسياقين، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ في مصْر بالاستعباد وذبح الأبناء، أورثناهم ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ

﴿وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالخِصْب والخير تحقيقاً لوعدنا، واللام في «القوم» للعهد الذهني أو الذِّكْرِيّ، وهم الـمُسْتَضْعَفون من بني إسرائيل والباقون في أرض مصر، أي: أورثناهم جانبَي مصر الشرقي والغربي بما في ذلك الشام وفلسطين، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وهي وَعْدُه تعالىٰ إياهم بالنصر والتمكين في أرض مصر وأطرافها، في قوله تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ...﴾ [القصص: ٥]، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من الأبنية والقصور التي كانت تُسخَّر بنو إسرائيل في تعميرها ظلماً واستعباداً ﴿وَ﴾ كذلك دمَّرْنا ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ من الحدائق والجنان، كعرائش العنب ونحوها.

ويجوز أن يكون التدمير علىٰ حقيقته أو بمعنىٰ إخْلائها منهم وإيراثها بني إسرائيل. والله أعلم. فتكون الآية تقريراً لما قبلها وإردافاً، ويُؤْنِسُ للثانية آية الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] إلىٰ قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

ثم ذكر ما كان من أمر بني إسرائيل بعد ذلك الإنعام عليهم، فقال: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ في بلاد العرب، فلما رأوهم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ حنيناً منهم إلىٰ ما ألفوا في مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلهم. والنظرةُ تُوَلِّدُ الفكرة.

قال في «المنار» ما ملخصه: وعُلِمَ بهذا الطلب أنهم لم يكونوا قد فهموا التوحيد والتنزيه الذي جاء به موسىٰ، كما فهمه مَنْ آمن مِن سَحَرة المصريين؛ لأنَّ السَّحَرة كانوا من العلماء، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامَّة الجاهلين، الذين بلَّد الذلُّ أفهامَهم، وإنما اتَّبعوا موسىٰ لإنقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم، لا لِفَهْمِ حقيقةِ التوحيد بالآيات الدالة عليه. فالتوحيد الـمَحْضُ الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقي إليه عرفان البشر، وهو الكمال الإنسانيُّ المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليحصروا عبادتهم لي ولا يعبدون غيري. ولو عقل جميع بني إسرائيل كُنْهَ التوحيد لَـمَا وقع من تَبرُّمهم بالتكاليف وتمرُّدهم علىٰ موسىٰ عليه السلام ما قصَّه تعالىٰ علينا في هذا القرآن، مما هو من مواطن العجب، ومنه هذا الطلب[1]. لذلك ﴿قَالَ﴾ موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، وهذا الوصف يشمل كلَّ ما يصلح له؛ من عدم العلم والسَّفه معاً، فإنهم لم يدركوا مقام التوحيد وما يجب فيه من تخصيص الله سبحانه بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر، كالتماثيل.

وبعد أن ذكَّرهم بجهلهم هذا، بيَّن لهم فساد ما طلبوه، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: مَقْضيٌّ عليه بالدمار بما سيظهر من التوحيد الحق في هذه الديار، ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ أي: زائلٌ لا بقاء له. وهذا يتضمَّن البشارة منه عليه السلام بزوال الوثنيَّة من هاتيك الديار.

وقال البغوي[2]: إنَّ طلب بني إسرائيل هذا لم يكن عن شك منهم بوحدانيته

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٩٤- ٩٥).

(٢) هو محيي السنَّة شيخ الإسلام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٤٣٦-٥١٠هـ) الشيخ الإمام العلامة القدوة المفسر صاحب التصانيف منها: «شرح السنة»، و«معالم التنزيل»، و«الجمع بين الصحيحين»، «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٤٣٩- ٤٤٣)، و«الأعلام» (٢: ٢٥٩).

تعالىٰ، وإنما كان غَرَضُهم إلهاً يُعظِّمونه ويتقرَّبون بتعظيمه إلىٰ الله تعالىٰ، وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة، فقال لهم موسىٰ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[1] ما يجب من إفراد الربِّ تعالىٰ بالعبادة من غير واسطة، ولا سيما الأصنام والتماثيل لبعض المخلوقات، فإنها من أعظم أنواع الشرك.

أقول: ويجوز أن يكونوا فهموا من أولئك القوم في بلاد العرب أنهم إنما يعبدون هؤلاء الأصنام ليقرِّبوهم إلىٰ الله زُلفىٰ، فطلبوا هم مثل ذلك من موسىٰ.

ثم أتبع البيانَ بالإنكار عليهم، مستنداً علىٰ ما أَوْلَاهُم سبحانه من النِّعَم، فقال: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي: أطلب لكم إلهاً غير الله، ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ بما جدّد لكم من هداية الدين. والوصفُ بالتعظيم يثير التَّحمُّس لمحافظته.

ثم ذكَّرهم سبحانه وتعالىٰ بنعمة الإنْجاء من آل فرعون، حيث أنجاهم برسالة موسىٰ هذه، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾، فدفع الله عنكم هذه النقمة، وأعطاكم هذه النعمة.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

---

(١) «تفسير البغوي» (٢: ٢٢٧).

ثم شرع في بيان بَدْءِ الوحي بالشريعة لموسىٰ عليه السلام وإنزال التوراة، فقال: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قيل: أمره الله أن يصوم ويتقرَّب إلىٰ الله ثلاثين يوماً، ثم نزلت التوراة عليه في العشر التوالي.

وقال أبو مسلم: إنَّ موسىٰ عليه السلام بادر إلىٰ ميقات ربه قبل قومه عند إتمام الثلاثين، فلما أعلمه تعالىٰ خبر قومه رجع إليهم، ثم عادوا إلىٰ الميقات في عشرة أخرىٰ، كما يُفهَمُ من سورة طه.

وقد استخلف موسىٰ عليهم أخاه هارون، للحكم بينهم، والإصلاح فيهم. كما حكىٰ ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، والغَرَضُ من هذه الوصية: زيادةُ الاهتمام بإتقان الإدارة وإحكامها.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، وكيفية هذا الكلام[1] هي من الغيب الذي لا شبيه له ولا نظير في هذا العالم. وإدراكُ موسىٰ عليه السلام لكلام الله تعالىٰ لا يتوقَّف علىٰ معرفة كيفية ذلك وكُنْهه، فإن أكثر ما نُصدِّقُ به تصديقَ يقين لا نعرف حقيقتَه وكُنهه ولا كيفيَّةَ تكوينه وإيجاده. ويجوز أن يكون من نوع كلامه تعالىٰ للملائكة كجبريل عليه السلام[2]، مع العلم أنه قد جاء في الأثر: أنَّ الملأ الأعلىٰ لا يعلم عن كُنْه

---

(١) يُريد: كيفية التكليم، أما الكلام ـ الذي هو المعنىٰ القائم بذات الله ـ فهو صفة من صفاته تعالىٰ لا تُكيَّف، كما أن ذاته سبحانه وتعالىٰ لا تُكيَّف.

(٢) الملك الـمُقرَّب ـ والله أعلم ـ يحس بالأمر الأعلىٰ، فيلحظه وينطبع في هويته، أو يحدث له ما هو شبيه بذلك من الإدراك، والله أعلم بأسراره سبحانه. (المؤلف).

قلت: وهذا أيضاً من الغيب الذي لا ينبغي الخوض فيه إلا بدليل، فالواجبُ علينا أن نُثبت أن الله سبحانه وتعالىٰ متصفٌ بصفة الكلام، وكلامه لا يُشبه كلام خلقه، ثم الأسلم أن لا نخوض في تعيين كيفية تكليمه سبحانه لبعض خلقه، والله أعلم.

ذات الله شيئاً أكثر مما نعلمه نحن، بمعنىٰ: أنهم لا يدركون كُنْهَ ذاته تعالىٰ كما لا ندركه نحن، وإنما يدركونه لآثاره كما ندركه نحن، وجبريل عليه السلام يدرك الوحي عن الله سبحانه وينزل به علىٰ الأنبياء، كما أدرك موسىٰ كلام الله سبحانه، ولا يعرف الكيفية، لأن الوحي عرفان مع إيقان دون إدراك لحقيقة الشأن، وكثير من الحقائق لا يُدرَكُ كُنهُها رغماً عن تحقُّقها، فهذه عملية التذكر والإدراك نفسها ليس أحد يعرف كيف تتم هذه الحقيقة[1].

ومن المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام من أكمل البشر، مُزَوَّدون بالقدرة علىٰ استلهام المعلومات عن الله سبحانه بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، يجري فيهم ذلك العرفان والإيقان، ويدركونه ولا يعلمون كيفيَّته، كما لا يعلم كل إنسان كيفيَّة إدراكه للأشياء وتذكُّره لها. فموسىٰ عليه السلام يدرك كلام الله سبحانه دون أن يعلم كيفية ذلك، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورىٰ: ٥١]، فهذا الكلام لموسىٰ هو من النوع الثاني، فلو سُئل موسىٰ: كيف كَلَّمَك ربك؟ لا يقدر أن يُشَخِّصَ ذلك، مع إدراكه له يقيناً؛ لِمَا في الأنبياء من المواهب العظيمة في التلقِّي عن الله بحكم قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، والله أعلم.

فلما كلَّمه ربُّه هذا النوعَ من الكلام، اسْتَشْرفت نفسُه الزكيَّة للجمع بين فضيلة الكلام وفضيلة المعرفة من طريق الرؤية، علىٰ مثال هذا الكلام وطريقه، و﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ بأن تجعل لي من القوَّة علىٰ حَمْل تجلِّيك ما أقدر به علىٰ ذلك، ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ فنفىٰ إمكان ذلك بالنفي المستغرق، ثم استدرك سبحانه بما يدل علىٰ تعليل النفي، فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾، وصورة هذا التعليل

---

(١) لم أقف عليه.

تُخفِّفُ عن موسىٰ عليه السلام شدَّة وَطْأة الرد، وتُبيِّن سببه بطريق الخبرة، حيث أعلمه ما لم يكن يعلم، من أنه لا يقوىٰ شيء من هذا الكون علىٰ تحمُّل تجلِّيه سبحانه وتعالىٰ، كما بيَّن ذلك بقوله: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ بحيث انكبس وصار سهلاً، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ﴾ من هَوْل ما رأىٰ ﴿صَعِقًا﴾ مَغْشياً عليه.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته، ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أنْ أسألك الرؤية أو مثيلها، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[1] بأن لا أحد يراك[2].

﴿قَالَ﴾ سبحانه وتعالىٰ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ ولا تسأل أكثر من ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

---

(١) قيل: إنَّ موسىٰ إنما طلب الرؤية ليعلِّم قومَه الذين قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] بأنهم طلبوا محالاً. (المؤلف).

قلت: سياقُ الآيات لا يُساعد عليه، بل يردُّه.

(٢) مال المؤلفُ رحمه الله تعالىٰ هنا إلىٰ قول المعتزلة في نفي الرؤية، ولذا جعل «لن» للنفي المستغرق، وجعل التوبة توبةً من سؤال الرؤية. لكنْ ليس في الآية نفيُ الرؤية مطلقاً، بل تعليقُها علىٰ استقرار الجبل ـ وهو أمر ممكن في نفسه ـ يدل علىٰ إمكانها، كما أن سؤال موسىٰ عليه السلام ـ وهو رسولٌ عارفٌ بالله وما يليقُ به مما لا يليق ـ يدلُّ علىٰ إمكانها، وقد جاءت الأدلةُ الصريحةُ بإثباتها في الآخرة، فوجب القولُ به، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ثم ذكر تفصيل تلك الرسالة، فقال: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ ﴾ أي: أعطيناه ألواحاً وكتبنا له فيها ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: من كلِّ نوع من أنواع الهداية، فكانت ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: لكلِّ نوع من أصول التشريع، وهي أصول العقائد والآداب والأحكام، وهذه الألواح هي التوراة.

وقد أمره سبحانه وتعالىٰ أن يُجهد نفسه في تبليغها وأخْذ الأمة بها، فقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدّ وعزيمة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهذه الصيغة هنا ليست للتفضيل، بل للكمال، أي: بهذه المواعظ ذات الحُسْن التامّ، ومثل ذلك من خصائص اللغة.

ثم وعدهم بنصرهم علىٰ أعدائهم الأقباط، وجعل صيغة التعبير تُؤْذِنُ بالتهديد الشديد للأعداء، فقال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ وما يجري عليها بخُلُوِّها من أهلها، يريد بها أرض مصر. والكلام يتضمَّن وعدهم بالاستيلاء عليها، وتوليتهم إيَّاها؛ لأنَّ الإراءة تتحقَّق بذلك، ففيه وَعْدٌ لهم ووعيدٌ للكافرين.

ثم أكمل الوعد الكريم، وضمَّنه البيان عن استعداد البشر لتكذيب دعاة الحق والخير، ولا سيما الذين قد أفسدوا غرائزهم بانطباعهم علىٰ الضلال، وخصَّ بالذكر منهم الرؤساء المتكبِّرين، الذين يزعمون أنهم عظماء قومهم، فلا ينبغي لهم أن يتَّبعوا مَنْ دوهم سنّاً وقوةً وثروةً وعصبية، وسَبَك البيان علىٰ أنَّ من سُنَن الله تعالىٰ أن يقْذِفَ بالحقِّ علىٰ الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتكون العاقبة للمتَّقين، فقال: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾، وهذا القَيْدُ لزيادة التنديد والتفنيد، وليس باحترازي، وهو من أساليب القرآن.

وهذا الصَّرف بحسب سنن الله الكونية في طبيعة الإنسان إذا أفسدها، ومن ذلك:

التكبُّر عن سماع الحق، أي: إنَّ من شأن الكِبْرِ أن يصْرِفَ أهله عن النظر والاستدلال علىٰ الحقِّ والهدىٰ، فيكونون دائماً من المكذِّبين بالآيات الدالة عليهما، كما كان حال فرعون ومَلَئِه.

ثم شرح حال أولئك المنصرفين عن الحق، فقال: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لأنهم لا يُبْصرون ما فيها من الحق، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم لا يُبْصرون ما فيه من الرُّشد، بل يَرَوْنه ضلالاً فلا يسلكونه، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم قد انطبعوا عليه بمفاسد التربية والتقليد الأعمىٰ، والإنسان يرتاح لما ألف وينكر ما يخالف ذلك.

وملخَّص الكلام: أنَّ صفة هؤلاء الذين مرِّنوا علىٰ الضلال وانطبعوا عليه أن ينفروا من الهُدىٰ والرَّشاد، ويأنسوا بسبيل الغيِّ والضلال، ويرونه مستقيماً فيتَّبعونه، وقد علَّل ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ يعني: أنَّ الله تعالىٰ لم يخلقهم مطبوعين علىٰ شيءٍ مما ذكر، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم. ومن طبع نفسه علىٰ الضلال يغفل عن طريق الهدىٰ والرشاد، ولا يُعيرُها نَظَرَ تأمُّل واعتبار.

ثم بيَّن أنَّ أولئك المكذِّبين لا ينفعهم ما يعملون من الأعمال؛ لأنها أعمال فاسدة ليس لها ثمرة ولا نتيجة، وذلك لأنها غير منطبقة علىٰ السنن الكونية، بحكم إعراضهم عن شرائع الله سبحانه وتعاليمه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾؛ لأنَّ الأعمال الصَّالحة تنبعث عن العقيدة الصالحة؛ ولأن العمل إنما ينفع بحُسْن أثره في النفس، ونفوسُ هؤلاء قد أوْغَلَ فيها الفساد بسوءِ العقيدة، فيستحيل فيها الجيّد رديئاً. وذلك كلُّه بإفسادهم لغرائزهم بسُوء تصرُّفهم بها وتربيتهم لها.

ثم بيَّن سبحانه أنَّ جزاء الآخرة إنما هو أثر للأعمال في الدنيا، يترتَّب عليها ترتُّب

إيجاد العلة للمعلول[1]، فقال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ بكسب أيديهم نتيجة إفسادهم لنفوسهم؟

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ حكاية صفحة أخرىٰ من القصة علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فذكر ما كان من أمر بني إسرائيل بعد ذهاب موسىٰ عليه السلام إلىٰ أرض الميعاد، واستخلاف هارون عليهم ووصيَّته له بأنه يحكم سياستهم، ويتقن إدارتهم، فقال: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾، وهذا من التَّجوُّز في استعمال اللفظ لصُورة مدلوله، كالفرس لصورته المرسومة. وقوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ استعارة تخييليَّة رُشِّحَت بها الاستعارة الأصلية؛ ليتمكَّن في الذِّهن أنَّ الصورة كانت متقنةَ الصنع، فيرتاب الناظر إليها أنها عجل حقيقي من ذوات الخوار، لا صنعي، (كما جاء ذلك في المادة الثانية والعشرين من المقدمة السادسة في أنواع المجازات في القرآن). وهذا الترشيح شبيه بقوله

---

(١) نسبةُ إيجاد المعلول إلىٰ العلة غيرُ صحيحة، وهو مَيْلٌ من المؤلف رحمه الله إلىٰ قول المعتزلة بتولُّد المعلول من العلة، والحقُّ أن التأثير والإيجاد إنما هو لله تعالىٰ وحده، كما هو قولُ أهل السنة والجماعة. وترتُّب الجزاء علىٰ العمل إنما هو بترتيب من الله سبحانه، فلا يكون من باب العلة العقلية، بل هو سبب شرعي. وينظر الجواب المفصّل على دعوىٰ المؤلف هذه في مقدمة الكتاب.

تعالىٰ في سورة تَبَّتْ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]. وقيل: بل صنعه علىٰ وَضْع يدخل فيه الهواء فيُصوِّت كالصافرة، ثم قرَّعهم علىٰ سَخَافتهم وغباوتهم فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: ألم يَرَوْا أنه فاقد الكلام والشعور، فَضْلاً عن أن يكون له صفة الإله الحق من الهداية والإرشاد، فقوله: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ زيادة في الاستدلال، وتكميل له ببيان صفة الإله الحق.

ثم سجَّل عليهم بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ لأنفسهم بهذا الجهل المبين.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾[1] باتِّضاح جهلهم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ضلالاً بعيداً بعملهم هذا، ندموا و﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ هذه الزلَّة العُظْمىٰ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ لأنفسهم بالكفر والضلال.

ثم ذكر ما كان من أمر موسىٰ عليه السلام تجاه هذا الحادث من قومه، فقال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾، والأسف: شدَّة الحزن والغضب، ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾: أي: من بعد ذهابي إلىٰ مُناجاة الله تعالىٰ.

ثمَّ وبَّخهم بقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال عطاء: يريد: أعجلتم سخط ربكم[2]. ويجوز أن يكون المعنىٰ: سبقتم شريعة ربكم التي وَعَدَنا بها، واتَّخذتم لكم شريعةً باطلة، يؤنِّبهم بذلك ويَسْخَرُ بهم، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من يديه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ من ذَوائبه[3]؛ لشدَّة غضبه لله تعالىٰ، وأَسَفِهِ لما فعل قومه، وظنِّه بتقصير أخيه، إذ كان

---

(١) هذه الجملة يُعبَّر بها عن العلم بالخطأ والندم والذم. (المؤلف).

(٢) ذكره الرازي في «تفسيره» (١٥: ٣٧٣).

(٣) جمع ذُؤابة، وهي: منبت الناصية من الرأس. «لسان العرب» (ذأب).

الواجب عليه ـ في اجتهاد موسىٰ ونظره ـ أن يَرْدَعَهم ويكفَّهم عن عبادة العجل، كما فعل هو حيث سحقه بالمبرد وألقاه في اليم، أو أن يَتبَعَه إلىٰ جبل الطور إن لم يقدر علىٰ عمل شيء، كما حكىٰ الله عنه ذلك في سورة طه: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۞ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢-٩٣].

أما هارون فاعتذر، و﴿قَالَ﴾ لموسىٰ مستعطفاً: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ إذ لم آلُ جهداً في الإنكار عليهم والنصح لهم، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾ بتعنيفي، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ لأنفسهم بعبادة العجل.

ومن المعلوم أنَّ موسىٰ لم يكن يعتقد أنَّ أخاه منهم وعلىٰ شاكلتهم، ولكن هارون نَزَّلَه لفعله هذا معه منزلة مَنْ يعتقد به ذلك؛ مبالغةً في الاعتذار. فالكلام مُخَرَّج علىٰ مقتضىٰ الظاهر، لا علىٰ الحقيقة، وذلك مما تقتضيه البلاغة.

فلما اعتذر بهذا الاعتذار، لانَ له موسىٰ واستغفر له ولنفسه، و﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ ما أغلظت له، ﴿وَ﴾ اغفر ﴿لِأَخِي﴾ ما عساه قَصَّره فيه، ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾. والسياق يدلُّ علىٰ أنَّ هارون كان دون موسىٰ في قوَّة الإرادة وشدَّة العزيمة، وهو ما اتفق عليه علماؤنا وعلماء أهل الكتاب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

أما حكم الله تعالىٰ في هذه القضية، فقد ذكره بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ علىٰ الله.

ثم ذكر حكم التائبين منهم بصورةِ حكم عام، علىٰ نهج القرآن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك التوبة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ما كان من أمر موسىٰ بعد زوال غضبه، فقال: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾، لأنَّ خَوْفَ الله يجعله مُستعداً للنظر والتدقيق فيما يرضي الله ويغضبه، ليتمسَّك بالأول ويتنكّب عن الثاني. وقد استعار صفة السكوت للغضب للإشارة إلىٰ أنه هو الذي كان يُغْريه بالكلام. ويجوز أن يكون من إيجازات القرآن بطريق الحذف والاكتفاء. والتقدير: ولما سكت موسىٰ وذهب عنه الغضب.

والنُّسْخةُ من النَّسْخ؛ كالخُطْبة من الخِطاب.

ثم قصَّ سبحانه وتعالىٰ ناحيةً أخرىٰ من القصة، فقال: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾[١] أي: من قومه ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾. وقد اختلف المفسِّرون في هذا الميقات: أهو الميقات الذي تقدَّم الكلام عنه، فتكون الآية عَوْداً وتفصيلاً، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك؟ أم هو ميقات آخر؛ وقَّته الله لهم بعد حادثة العجل، للاعتذار وتأكيد التوبة منها؟ ولكلٍّ من الفريقين أدلة وتوجيهات.

ثم ذكر ما كان من أمرهم: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ﴾[٢]، وقد اختلفوا كذلك في سبب أخذ الرجفة إياهم: أكان طَلَبَهم رؤيةَ الله جهرة، كما تقدَّم في سورة البقرة، أم سبباً آخر؟ ولكلٍّ منهم أدلّة وتوجيهات.

---

(١) وفي قوله: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ﴾ حذف وإيصال من أساليب العرف. والتقدير: واختار موسىٰ من قومه. (المؤلف).

(٢) أي: لما أخذتهم الصاعقة والزلزلة، توجَّه موسىٰ إلىٰ الله بالتَّضرُّع، واستشفع بما سبق له سبحانه فيهم من الرحمة والإحسان عندما نجاهم من آل فرعون، و﴿قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَ﴾ أي: يا رب، فكما أنجيتنا من فرعون وعملِه فيما مضىٰ، فاغفر لنا جريمة هؤلاء الجهال ﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟! حاشاك وأنت أرحم الراحمين. ثم اعترف بأنهم مستحقُّون للجزاء بما ظهر من حال هؤلاء، فقال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾، فَتَنَه فِتْنةً؛ بمعنىٰ: خَبِرَهُ خِبْرة. أي: اختبره وعلم حاله عن تجربة وأمر واقع، يريد: أن الوقائع أظهرت ما طويت عليه سرائرهم، فأنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: تُظهِرُ بهذه الاختبارات ضلالَ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ إظهارَ ضلاله، ﴿وَتَهۡدِي﴾ أي: تُظهِرُ بهذه الاختبارات هدايةَ ﴿مَن تَشَآءُ﴾ إظهارَ هدايته. ثم أكمل الاسترحام والتضرُّع بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ إلخ، وفي موقف موسىٰ هذا شيء من طبيعة موقف رسول الله ﷺ في بدر ودعائه بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد في الأرض». ولكن موقف نبيِّنا ﷺ كان خوفاً من استئصال الكافرين الأقوياء بعَددهم وعُددِهم لأتباعه المؤمنين الضعفاء في ذلك، وموقفُ موسىٰ عليه السلام خَوْفٌ من عذاب الفتنة العام إذا وقع، فيشمله والمؤمنين؛ لأنه لا يصيب الذين ظلموا خاصَّة، كما جاء في الآية. والله أعلم. (المؤلف). وحديث: «اللهم إن تهلك..» رواه مسلم (١٧٦٣) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

وأراد موسىٰ عليه السلام بهذا الكلام ذِكرَ العفو السابق لاسْتجلاب العفو اللاحق والاستشفاع به إليه، يعني: إنهم كانوا قبل هذا مستحقِّين للإهلاك بعبادتهم العجل، ولم يكن من موانعه إلا عَدَمُ مشيئتك إيَّاه ورحمتُك بهم، فحيث عَفَوْتَ عنهم في تلك الجرائم، فأسترحمك أن تعفوَ عنهم في هذه الجريمة. وروحُ الكلام استعطافٌ ودعاءٌ من الله تعالىٰ أن يعفو عنهم في هذه الجريمة أيضاً، فقد استشفع بعفوه سبحانه عنهم فيما سبق لعفوه عنهم في هذه المرة أيضاً، والله أعلم، أو استشفع بتَنْجيته لهم من فرعون ومَلَئِهِ لعفوه عنهم الآن.

ثم أتبع الكلام بالاستعطاف أيضاً، فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾، فهذا الاستفهام مَرَدُّه الاسترحام بشأنه ورأفتِهِ العامة أن لا يفتنهم بالفتنة التي لا تُصيب الذين ظلموا منهم خاصَّة. أي: ربَّنا لا تُهلِكنا بما فعل هؤلاء.

ثم قرن التَّضرُّع وطلب العفو عنهم بالاعتراف بأنهم مُسْتَحقّون العقوبةَ إذا لم ينلهم عفوُ الله؛ إذ قد ظهر كفرُهم وضلالُهم بنتيجة امتحانهم واختبارهم، فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[1]، يقال: فتن الذهب؛ إذا عمل به ما ينكشف أنه مغشوش، ويقال: فَتَنَهُ فِتْنَةً؛ بمعنىٰ: خَبَرَه خِبْرة، أي: علم أمرَه عن واقع وتجربة.

---

(١) الفتنة: الاختبار، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] أي: اختبار يظهر فيها أثر صلاح نفوسكم أو فسادِها، فالصالح يقبل الحق ويُجريه علىٰ ماله وولده، وغير الصالح يتعصَّب لماله وولده ضدَّ الحق ويتعسَّف به. والمعنىٰ هنا: إنَّ في الحوادث والمصالح اختبارات لله سبحانه في بني الإنسان، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] أي: ليختبر أعمالكم في الحياة الدنيا ويجازيكم بها في الآخرة. وكلمة «فَتَنَ» في أصل اللغة معناها: اختبر. ولكن يقال: فتن المعدن، أي: وضعه في نار ليختبره. ففيها معنىٰ الشدَّة من جرَّاء الوضع في النار، وفيها معنىٰ الاختبار، وفيها معنىٰ التنقية، فتأتي في الكلام بأحد هذه المعاني أو بمعنيين منها أو بالمعاني الثلاثة. وكذلك لفظ: البلاء، وما تصرَّف منه؛ يأتي علىٰ هذه الوتيرة. (المؤلف).

ومعنىٰ الآية: إنَّ هذه الوقائع والعوارض ما هي إلا امتحاناتُك واختباراتُك التي تجعلها سبباً لظهور استعداد الناس، وما طُوِيَت عليه سرائرهم من ضلال وهداية، وما يستحقُّون من عقوبة ومثوبة، فأنت ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ أي: تُظْهِرُ بها ضلالَـهُم، وهم الذين أفسدوا غرائزهم وطبعوها علىٰ الضلال، حتىٰ لم يَبْقَ فيهم من نور القلب وجلاء البصيرة ما يَرَوْنَ به الحقَّ ويبصرون وَجْهَ الصواب. فإذا اختُبروا بمثل هذه الاختبارات ظهرت نتيجة ذلك فيهم، حيث يميلون إلىٰ جانب الضلال والعِنَاد، ويُعرِضون عن جانب الهدىٰ والسَّداد، ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي: تُظهِرُ بها هدايتهم، وهم الذين حافظوا علىٰ غريزتهم من الفساد، فكانوا يبصرون ببصائرهم السليمة، ويدركون الهدىٰ بعقولهم المستقيمة، فإذا اخْتُبِرُوا بمثل هذه الاختبارات، ظَهَرَ هُداهُم ومالوا إلىٰ جانب الخير والرشاد، والصلاح والسَّداد.

وإنما أسند الإضلال والهداية إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه خالق تلك الطبائع الغريزية في الإنسان، المستعدة للهدىٰ والغَواية، بتصرُّفاته في نفسه حسناً وإساءة، علىٰ نهج القرآن في أمثال ذلك، (كما جاء في المادة السابعة عشرة من المقدِّمة الثانية).

ثم أكمل الاسترحام والتضرُّع بقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ حياةً ﴿حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ كذلك؛ ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا إليك ورجعنا. فضمَّن الهداية معنىٰ الرجوع، علىٰ نهج القرآن في التضمين، (كما جاء في الفقرة (ب) من المادة التاسعة من المقدمة الثانية، وفي المادة الثانية عشرة من المقدمة السادسة).

وقد أجابه سبحانه وتعالىٰ بقاعدة عامة في شأن العقاب والثواب؛ ليكون حلقةَ وَصْل بين الكلام عن موسىٰ ومحمد عليهما السلام، وذلك ما جاء بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ وهم الذين يستحقُّونه بما كَسَبَت أيديهم؛ لأنَّ مشيئته تعالىٰ تجري

بمقتضىٰ الحق والعدالة، ثم قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: إنَّ عذابي خاصٌّ ورحمتي عامَّة في سائر المخلوقات، وسيختصُّ قسمٌ عظيم منها بالمتقين. وهذا ـ والله أعلم ـ معنىٰ قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[1] من أيِّ الأمم كانوا؛ السابقين أو اللاحقين الذين منهم أمة محمد ﷺ.

وقيل: إنما أعاد الموصول بالعطف مؤكداً بالضمير، للإشارة إلىٰ أنَّ الأول عام فيمن استمرَّ علىٰ التزام التقوىٰ وأداء الزكاة من قوم موسىٰ الذين دعا لهم بطلب الرحمة والمغفرة من الله تعالىٰ، والثاني: خاصٌّ بمن يدركون بعثة خاتم الرسل عليه السلام ويتبعونه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...﴾؛ بَدَلٌ منه، أو عطفُ بيانٍ عليه وحدَه دون الأول. وقيل: بل إنما فَصَل اسم الموصول هنا؛ لأنه بيانٌ مستأنف للموصولَيْن اللذَيْن قبله معاً مُتّحدٌ معهما في الماصدق، لأنها كلَّها تَصْدُقُ علىٰ أتباع ﷺ، وإن اختلفت في المفهوم. والأمِّيَّة: وصف خاصٌّ بمحمد ﷺ، وهي آية من آيات نبوته.

ثم قال في إتمام الوصف: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ أي: المتَّبعون له من بني إسرائيل اليهود منهم والنصارىٰ، يجدون وَصْفَه ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[2]

---

(١) إنَّ الشرائع السماوية كلَّها مشروع واحد بالنوع، تدرَّجت نحو رُقيِّ النوع الإنساني، فكان السابق يُعَرِّفُ عن مجيء اللاحق ويوصي باتِّباعه، ولا سيما الشريعة النهائية التي تمَّ بها هذا المشروع، وكان يكمِّل اللاحقُ منها السابقَ، ويندمج السابق باللاحق بمقتضىٰ قانون النسخ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]. فعلىٰ المؤمن بأحدها أن يؤمن بكلِّها بحكم وحدتها النوعية؛ ما سبق منها وما لحق، ولا ينكر واحدةً منها، لأن من أنكر واحدة منها فقد أنكرها كلَّها، لوحدتها النوعية، وأن يتَّبع ما كان في عصره منها، ومعمولاً بها فيه. هذا ما أراه، والله أعلم. (المؤلف).

(٢) يقول المؤرخون حتىٰ الغربيون: إنَّ التوراة التي بأيديهم كتبها عزرة الكاهن بعد ألف وخمس مئة =

الصحيحَيْن، لا اللَّذَيْن بأيديهم الآن، فإنهما معاً قد بشَّرا به، حتىٰ إنَّ معنىٰ الإنجيل: البشارة. وخصَّ بهذا الاسم لهذه الغاية؛ لأنه إنما جاء ليُبشِّر بقُرب مجيء هذه الشريعة وهذا النبيّ المنتظر ﷺ. وقد فَصّل ذلك في تفسير سورة الصف، فارجع إليه.

ثم ذكر خلاصة ما جاء به هذا النبي ﷺ، فقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾، وفي هذه الصفات تنويهٌ بشأن الشريعة الإسلامية، وتلميحٌ إلىٰ وجوه التشريع فيها.

والمعروف: ما تعرف العقول السليمة حُسْنَه وترتاح له. والمنكر: عكسُه[1]. والطيِّبات: ما تستطيبه الأذواق السليمة من المطعومات والمشروبات، والخبائث: ما تستقذره منها. ويشير نَظْم الآية إلىٰ أنَّ الدين الإسلامي لا يمنع من لذَّةٍ إلا إذا كان في إصابتها ضَرَرٌ علىٰ مصيبها أو علىٰ أبناء جنسه، ولا يحرِّم إلا ما فيه تَعَاسةٌ أو بلاءٌ حالاً أو مآلاً، فلْينظر المسلمون طبيعة شريعتهم التي أضاعوها، ولينظر أهل الكتاب إلىٰ ما جاءهم من الخير فأعرضوا عنه ومَقَتُوه.

ثم تابع البيان مُجْرِياً الكلام علىٰ بني إسرائيل، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُخفِّف عنهم ما كُلِّفوه بظلمهم، من التكاليف الشاقَّة. والإصْر: الشدة.

= عام، عند عودتهم من الأسر، وإنَّ الأناجيل التي بأيدي النصارىٰ إنما هي تاريخ لحياة عيسىٰ عليه السلام، كتبها بعض القِدِّيسين، فعندما يذكر القرآنُ التوراةَ والإنجيلَ يعني بها اللذَيْن أنزلهما الله. (المؤلف).

(١) في مسألة التحسين والتقبيح العقلي خلافٌ طويل، وأصح الأقوال فيها: أن العقل يُدرك حُسْنَ بعض الأشياء وقبح بعضها، ويخفىٰ عليه الحسنُ والقبحُ في بعضها، وفي الحالَيْن لا يترتب علىٰ هذا الإدراك حُكمٌ شرعي، ولا ثواب وعقاب. وهو قول الحنفية.

ثم نوَّه بأمر متَّبعي هذا النبيّ وفلاحهم، وبيَّن كيفية اتِّباعه بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ أي: بهذا الرسول ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظَّموه ووقَّروه، ﴿وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو: القرآن واستضاؤوا به ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

ثم قفَّى على هذه التمهيدات التي هيَّأت لاتِّباعه، وأردفها ببيان عموم بعثته ﷺ، ودعوة الناس كافَّة إلى الإيمان بالله وبكلماته المنزَّلة ورسوله الذي أنزلت عليه، وأمره بالدعوة إلى ذلك، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بدينٍ عالميٍّ أرسلني به ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وأفعال الألوهيَّة وصفاتها مُقْتصرة عليه، ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ التي أنزلها لهدايتكم، وهي مظهر علمه وحكمته ورحمته، فآمِنوا بالله وصدِّقوا برسولِهِ هذا، ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ فيما جاء به وأنزل عليه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ لِمَا فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله مستأنفاً، أو مُفرَّعاً على السياق، ويجوز أن يكون مما أمر الرسول بتبليغه.

ولما حصر الفلاح باتِّباع النبيِّ ﷺ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، عقَّبَ عليه بقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾[1] أيضاً ﴿أُمَّةٌ﴾ كانوا ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي جاءهم

(١) ويجوز أن يكون هذا على نهج القرآن إذا نَقَد أمة، وكان فيها قلة من الصُّلَحاء، يستثنيهم تحرِّياً=

به موسىٰ، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إذا حكموا بين الناس. فضمَّن ﴿يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ معنىٰ: يحكمون، وعدّاه تعديتَه. وهذا كالمستثنىٰ ممن سبق الكلام عنهم من قوم موسىٰ. والظاهر أنَّ هؤلاء كانوا في عصره وبعد عصره إلىٰ حَدٍّ ما.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾.

ثم انتقل إلىٰ سياق آخر من أخبار قوم موسىٰ في التِّيه، ونِعَمِهِ عليهم، ومقابلتِهم كلَّ ذلك بالتمرُّد والكفر، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي: اثنتي عشرة فرقةً تُسمَّىٰ أسباطاً، أي: أمماً وجماعات، يمتاز كلٌّ منها بنظام خاصّ في معيشته وبعض شؤونه. فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب. وقوله: ﴿أُمَمًا﴾ بيان للمعنىٰ الاصطلاحي للأسباط.

ثم ذكر مِنَّتَه عليهم، فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ وهم هؤلاء الأسباط: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت ﴿مِنْهُ

= للحق الدقيق، ويجوز أن يكون تتميماً للكلام عن المُتَّبعين منهم للرسول الذين جاء الكلام عنهم في السياق، فيكون تقريراً لما سبق. (المؤلف).

﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم، أي: علم أناسُ كلِّ سِبطٍ ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: عَيْنَهم الخاصَّة بهم، تنظيماً لأمرهم في التِّيه، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ ليَقِيَهم من لفح الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طعاماً لهم. وقد مرَّ تفسيرهما في سورة البقرة[1].

ثم امتنَّ عليهم مُحسِّساً بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾، وإنما وضع هذا الوصف للمَنِّ والسلوىٰ موضعَ الضمير لتعظيم شأن المنَّة بهما، وفي ذلك تحسيسٌ بالنعمة وإلزامٌ لما كان يجب عليهم من الشكر باتِّباع أوامر الله والسَّيْر بمقتضىٰ الشريعة التي كانت سبباً لذلك، ولكنهم قابلوها بالكفر والتمرُّد حسب عادتهم، وقد أنبأ عن هذا بقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم وعنادهم؛ لأنَّ الله غنيٌّ عن عباده، ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟﴾ بذلك ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ حيث خَرَجوا عمَّا يحفظ لهم سعادتهم في الدارين، إلىٰ ما يُرْديهم فيهما. والسعادة ليست بجمع المال، ولكن بالأخلاق والأحوال وحُسْن الفعال، وفي الآخرة سعادة وعيش رغيد.

ثم ذكر لهم شنيعةً أخرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: ادعوا بأن تُحَطَّ عنكم خطاياكم، أو قولوا: لقد حَطَطْنا رحالنا في القرية التي وعدتنا، فنشكرك يا ربنا، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: مُخْبتين متواضعين، شكراً لله علىٰ ما أنعم اللهُ عليكم في ذلك، فإن فعلتم ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ﴾، وفوق ذلك ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ في عملهم جزاءً وافراً، فَقَطْعُ الجملة بحذف الواو، والاستئنافُ يدلُّ علىٰ عَظَمة الزيادة.

ثم ذكر ما كان من أمرهم تجاه هذه الأوامر، وقال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ

---

(١) في الآية ٥٧.

﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: خالفوا تلك الأوامر ولم يفعلوها. وقد مرَّ تفسير هذه الآيات في سورة البقرة[1].

ثم بيَّن جزاءَهم بقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: عذاباً تَضْطرب له القلوب وترتجز، وذلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي: الحقَّ والعَدْلَ بكفرهم وعنادهم، وهو ظلمٌ عظيم، ويُتْبِعُون النِّعَمَ بالكفر والعصيان.

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ثم ذكر لهم جريمة أخرىٰ، وهي الاعتداء علىٰ السبت، وصاغها بصيغة التأنيب التقريعي، فقال: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: قريبةً منه، ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يَتجاوزون حُكمَ الله بالصيد المحرَّم عليهم فيه. وقد ابتلاهم الله وأظهر خبثهم، ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ أي: سَمَكُهم، وإضافةُ الحيتان إليهم إما لأنها في قريتهم، أو لما كان من ابتلائهم بها واحتيالهم علىٰ صيدها، إذ كانت تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرةً علىٰ وَجْه الماء؛ لشُعورها بالأمان ذلك اليوم، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ لشعورها بالخطر.

ثم ختم الآية بما فيه تبريرٌ لهذا التضييق عليهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي: نختبرهم بمثل هذا التشريع ليظهر فسقهم.

---

(١) في الآيات: ٥٨-٦٠.

وكانت الحيتان في هذه القرية قد اعتادت أن لا يتعرَّض لصيْدها أحدٌ يوم السبت، فأمنت وصارت تظهر فيه، وتخفىٰ بقية الأيام، فاحتالوا لحبسها يوم السبت وصَيْدها في غيره، فظهر فِسْقُهم؛ لأنَّ الحبس والصيد سواء. والحيوان يعتاد بطبيعته، ويُدرَّب علىٰ تحديد الـمُدَدِ الزمانية لعارضٍ يعرض له فيها ويتكرَّر عليه، أو عمل يُدَرَّبُ فيه. ويجوز أن يراد بالبلوىٰ: الابتلاء.

ثم تابع الكلام علىٰ بقية متعلقات هذه الجريمة في النهي عنها، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي: قياماً بالواجب، وهو النَّهيُ عن المنكر لعلهم يرتدعون. وفي الآية من الإيجاز البليغ ما لا يوجد نظيرُه في غير القرآن. فهي تدلُّ علىٰ أنَّ أهل القرية كانوا ثلاث فرق: فرقة العادين علىٰ السبت، وفرقة الواعظين لهم، وفرقة اللائمين للواعظين علىٰ وعظهم لهم.

ثم ذكر ما نال العادين والواعظين من الجزاء الدنيوي بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: فلما نسي العادون ما ذكَّرهم به الواعظون، بأن أعرضوا عنه كالمنسي، ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد البُؤْس ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: بسبب فسقهم المستمر الذي منه الاعتداءُ في السبت، أي: بسبب خروجهم عن نظام الدين، بالإعراض عن أوامر الله تعالىٰ ونواهيه والتلاعب فيه.

والآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصَّالحين الذين نَـهَوْهُم عن عمل السُّوء وارتكاب المنكر، وسكتت عن حكم الفرقة التي أنكرت علىٰ الواعظين، فقيل: إنها لم تَنْجُ، لأنها لم تَنْهَ عن المنكر، بل أنكرت علىٰ الذين نهوا. وقيل: بل نجت لأنها كانت يائسةً من فائدة النهي، جازمةً بأنَّ القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم

الوعظ. فالاستفهام لا للإنكار، ولكن للاستبعاد. وقد رجَّح الزمخشري هذا الرأي[١]، ورُوِيَ أيضاً عن ابن عباس وتلميذه عكرمة. ويجوز أن يكون الوعظ عاماً لا خاصاً بقضية السبت.

ثم أعاد الكلام ليُفَصِّلَ ذلك العذاب البئيس، زيادةً في التهويل، وقال: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾. وقيل: بل إنَّ هذا عذابٌ ثانٍ غيرُ العذاب البئيس الذي نالهم. وقد اختلفوا في كَوْن هذا المسخ للأبدان أو للأرواح، والأظهر الثاني[٢]، بمعنىٰ: أنهم أفسدوا طبائعهم وحرَّفوا فطرهم تحريفاً أخرجوها به عن طبائع البشر، حتىٰ انحطَّت إلىٰ طبائع القردة، فرُدُّوا إلىٰ أسفل سافلين. وهذا المسخ كثيرٌ في البشر؛ لقوله تعالىٰ في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤ – ٥] والعُتُوُّ: التكبُّر والطغيان. والله أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن سبحانه وتعالىٰ ما كانت ترتكبه بنو إسرائيل من المُعَارَضات

---

(١) انظر «الكشاف» (٢: ١٧٠).

(٢) بل الأظهر مسخُ الأبدان، كما تقدم بيانه تعليقاً على مقدمة المؤلف لتفسيره (١: ٦٤٧).

والخروج علىٰ الأوامر والنواهي، ذكر ما نالهم من الجزاء الدنيوي بمقتضىٰ سُنَّة الله في عقاب الأمم العاصية، حيث يُسلِّط عليهم أمماً أخرىٰ، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، كما جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ...﴾ [الإسراء: ٤]، والتأذُّن: الإعلام المكرَّر، والمراد به هنا: تكرار الإعلام بهذه السُّنَّة الطبيعية في تأديب الأمم العاصية، وأنها لا تتخلَّف، وقد أيَّد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خَرَجَ عن أوامره ونواهيه، بمعنىٰ أنَّ سُنَّة الله تعالىٰ مَضَت أن تكون النتائج أثراً للأعمال من دون تأخير، فَمَنْ أساء العمل وعاكس السنن الكونية أصابته النتائج السيئة علىٰ إثر ذلك، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ لمن تاب عَقِبَ الذنب توبةً أصلحت نفسه فأصلح عمله.

ثم بيَّن تعالىٰ كيف كان بَدْءُ إذلال اليهود بإزالة وحدتهم وتمزيق جامعتهم وتشتيتهم في الأمم، فقال: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دونَ الصَّلاح، أو هم منحطُّون عن الصَّلاح بالكفر والفسق، ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾، وهذا يُؤْذن بأن البلايا والاختبارات إنما هي للتهذيب والتمحيص، فالمستعدُّ للخير يرعوي بها عن غَيِّه، والمستعدُّ للشرِّ يزداد ضلالاً علىٰ ضلاله، ويظهر منه ذلك للناس.

والظاهر أنَّ هذا هو حال الصَّدر الأول منهم، أما من بعدهم فقد ذكرهم كذلك بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ـ بسكون اللام ـ ويغلب استعماله في الشرِّ، كما هو مراد هنا، حيث قال عنهم: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي: التوراة، فكان من شأنهم فيها ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: هذا الحطام الحقير من متاع الدنيا. والمراد: الاتِّجار بالدين والمُحاباة بالحكم والفتوىٰ تجاه ما يأخذونه من ذلك الحطام، فيبيعون دينهم بدنياهم، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولا نُؤاخَذُ بما أذنبنا، فإننا شعبُ الله الخاصُّ وسلائلُ أنبيائه، ﴿وَإِن

﴿يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: مستمرون علىٰ الرشوة في الدين، يريد: أنهم مُصِرُّون علىٰ الذنب عائدون إلىٰ مثله غير تائبين، وإنما وعد الله بالمغفرة التائبين.

وقد أنَّبهم وَرَدَّ عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾، فكيف يبيعونه بعَرَضِ هذا الأدنىٰ؟ وما بالهم يجزمون بأن الله سيغفر لهم مع إصرارهم علىٰ ذنوبهم، فهم يقولون ويعملون علىٰ خلاف ما في الكتاب؟ ﴿و﴾ قد ﴿دَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وعلموا تعاليمَه ومقرَّراتِه.

ثم أضاف التَّجهيل والتَّحسيس إلىٰ التأنيب، ودعا إلىٰ الهدىٰ بعد نقد الضلال، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وصفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾، فكيف تستبدلون الأدنىٰ المؤدِّي إلىٰ العقاب بالنعيم المخلَّد من الثواب؟

ثم أردف البيان عن هؤلاء بالبيان عن مصير المتَّقين منهم، علىٰ نهج القرآن في إرداف نقد الأمة الضالة باستثناء القلَّة الصالحة منهم تحرِّياً للحق، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾، وأقام المُظْهَرَ مقامَ المُضْمَرِ للإيماء إلىٰ العلَّة. و﴿يُمَسِّكُونَ﴾ لغةٌ في: يتمسكون.

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

ثم عاد إلىٰ السياق ـ وزيادةً في التأنيب علىٰ تلاعبهم بالدين ـ ذكر العهد الذي أخذه عليهم في العمل بالتوراة بكل جهد، وضَمَّنه بيانَ الهدايتَيْن اللتين هَدىٰ بهما الإنسان: الهداية الشرعية والهداية الطبيعية، وأنه لم يَبْقَ للإنسان حجَّةٌ علىٰ الله بعدهما، فقال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ وكان معجزةً رهيبةً وآيةً من آياتهم التسع،

وقد مرَّ البيان عن هذا في سورة البقرة[١]، وللتقرير بأنه أمر حقيقي، ذكر رهبتهم منه، فقال: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ فهذا ترشيحٌ وتحقيق لما قبله.

وبعد أن أرهبهم بِنَتْقِ الجبل علىٰ هذه الصُّورة، أمرهم بأخذ العهد علىٰ أكمل الصُّور، للإيذان بأنَّ هذه المعجزة كانت لهذه الغاية، فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من أحكام التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: اعملوا بما فيه بكل جهدكم، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ علىٰ الدوام، ولا تنسوا منه شيئاً، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: ليُعِدَّكم ذلك للتقوىٰ. ولكنهم اشتروا بعهد الله وأيْمانهم ثمناً قليلاً، وعبثوا بأحكام التوراة تجاه شيءٍ من حطام الدنيا التافه الحقير.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ تـمكينٌ وتحقيقٌ لنتق الجبل بالفعل. وهي آيةٌ كونيةٌ من آيات الله التي يُخوِّف بها عباده، وإن كانت بأسباب طبيعية معروفة أو غير معروفة[٢]. ويجوز أن تكون هذه الآية بحركة زلزال بركانيّ قوي رفع الجبل عالياً وعاد إلىٰ مكانه ومَقَرِّه، وإن حدث به شيء من الخلل. وفي الآية تعريضٌ بأنهم لم يأخذوا العهد في أول أمرهم إلا بالترهيب، فكيف بهم الآن؟!

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وبعد كلِّ ما تقدَّم من بيان إرسال الرسل وإنزال الكتب لهداية البشر إلىٰ صلاح الدارين وإبعادهم عن الشِّرك بالله، الذي هو ـ مع ضلاله الفظيع في نفسه ـ أساسُ كلِّ

---

(١) في الآية ٦٣.

(٢) وقد تكون بلا سبب طبيعي، فالعقلُ لا يمنع ذلك؛ لأنه أمر ممكنٌ في نفسه، والأسباب الطبيعية إنما هي أحكام عادية، أي: جرت بها العادة، فلا تُقيِّد بها أفعالُ الله تعالىٰ.

ضلال في النظم الاجتماعية، وفي النفوس الروحانيَّة، وبعد كل ذلك ذكر ما أودع أيضاً في الفطرة من الهداية إلىٰ الحقِّ والرَّشاد، والاستعداد إلىٰ الإيمان الصحيح والتوحيد والتنزيه المغروس في نفوس العباد، وهو المسمَّىٰ بالغريزة الدينية؛ ذكره ليكون تتميماً لحجَّة الله علىٰ الناس، ودفعاً لما يرد في خاطر الجاهل من أنَّ هؤلاء الضَّالِّين لو لم يطبعهم الله علىٰ الضلال لما ضلوا. وقد ذكر ذلك بطريقة التَّمثيل[1] ـ والله أعلم ـ فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وكوَّنَها في أرحام الأمهات علىٰ العقيدة الصحيحة بالخالق تعالىٰ، وهي التوحيد والتنزيه، فلا يمكن لأحد أن يتجرَّد منها بتاتاً مهما حاول بلسانه ودافع ببرهانه؛ لأنَّ هذا الشعور الروحانيَّ تحمله الروح من عالم الأرواح، وبسنن الفطرة وطبيعتها، رغم أنف صاحبها، ويظهر ذلك فيه جلياً عند الشدائد التي تَسُدُّ عليه المنافذ، فلا يتوجَّه حينئذ إلا إلىٰ الله مهما كانت عقيدته.

والقرآن العظيم يضرب المثل في ذلك للمشركين إذا ركبوا البحر وتَهيَّجَ عليهم الموجُ، لا يلجؤون إلا إلىٰ الله، فإذا انكشف عادوا إلىٰ الشِّرك العارض الذي تطبَّعت عليه نفوسهم، فإذا هم مشركون.

فهذا الميثاقُ الفطريُّ المطبوعُ عليه الإنسان في التوحيد والتنزيه ما لم يفسده بصنعه؛ هو المعنيُّ ـ والله أعلم ـ بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[2].

---

(١) بل بطريقة الإخبار عن أمر وقع علىٰ الحقيقة، والقولُ بالتمثيل عدولٌ عن ظاهر اللفظ من غير سبب مُوجِب لذلك.

(٢) هذه الآية علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨] وقوله تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وأمثال ذلك من الآيات ـ والله أعلم ـ فهي تشير إلىٰ انطباع الإنسان علىٰ الهدىٰ بخلقته ما لم يفسد طبيعته بمفاسد التربية وسوء القدوة، والله أعلم. وعليه، فيكون الإنسان مهدياً بهدايتين: هداية طبيعية، وهداية تشريعية. وسائر المخلوقات مهدية بالهداية الطبيعية فقط؛ لذلك كانت الحجة البالغة لله عز وجل علىٰ الإنسان. (المؤلف).

وهذا القول قولُ إرادةٍ وتكوين، لا قولُ وحيٍ وتلقين[١]، (كما جاء في لاحقة المقدِّمة الثانية عند الكلام علىٰ مكالمة الملائكة ومكالمة إبليس)[٢]، فهو شبيه بقوله تعالىٰ:

---

(١) وهذا تفريعٌ علىٰ القول بالتمثيل الذي اختاره المؤلف، وتقدَّم التعليق عليه، أما علىٰ القول بأن الأمر علىٰ الحقيقة، فالقولُ هنا قولُ وحي وتلقين، وهو الراجح.

(٢) هناك فرق كبير بين إنكار عالم الذر وأخذ الميثاق علىٰ آدم وذريته، وبين إنكار كون ذلك تفسيراً لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وأن الميثاق الثابت في السنة هو الميثاق الذي تشير إليه الآية. فأهل السنة من حيث الجملة يؤمنون بالميثاق وعالم الذر، كما قال الطحاوي في عقيدته: «والميثاق الذي أخذه الله تعالىٰ من آدم وذريته حق». اهـ.

ولكنهم اختلفوا في كونه تفسيرا للآية، وجمهورهم يفسر الآية بذلك؛ للأحاديث والآثار المروية فيه، وبعضهم ينكر ذلك ويفرق بين الميثاق المشار إليه في الآية، وبين الميثاق الثابت في الأحاديث والآثار، ويضعف ما جاء منها مصرحا بالإشهاد عليهم في عالم الذر، ويفسر الإشهاد في الآية بالفطرة علىٰ التوحيد، ويقصر دلالة الأحاديث علىٰ إثبات القدر السابق واستخراج صور بني آدم وتميز أهل السعادة من أهل الشقاوة، وهذا ما قرره ابن القيم في «أحكام أهل الذمة» (٢: ١٠٠٤) حيث قصر دلالة الأحاديث الصحيحة علىٰ ذلك، ثم قال: وأما الآثار التي فيها أنه استنطقهم وأشهدهم وخاطبهم فهي بين موقوفة ومرفوعة لا يصح إسنادها... وبالجملة: فالآثار في إخراج الذرية من ظهر آدم وحصولهم في القبضتين كثيرة لا سبيل إلىٰ ردها وإنكارها، ويكفي وصولها إلىٰ التابعين فكيف بالصحابة! ومثلها لا يقال بالرأي والتخمين، ولكن الذي دل عليه الصحيح من هذه الآثار إثبات القدر، وأن الله علم ما سيكون قبل أن يكون، وعلم الشقي والسعيد من ذرية آدم، وسواء كان ما استخرجه فرآه آدم هو أمثالهم أو أعيانهم، فأما نطقهم فليس في شيء من الأحاديث التي تقوم بها الحجة ولا يدل عليه القرآن. اهـ.

وهذا هو ما رجَّحه جماعة من أهل العلم كابن تيمية وابن كثير وغيرهم، ومن هؤلاء الأستاذ رشيد رضا الذي نقل المفسِّر الشيخ رشيد الخطيب فحوىٰ كلامه دون أن يصرح باسمه، حيث قال في تفسير المنار (٩: ٣٢٥): «والمعنىٰ: واذكر أيها الرسول في إثر ذكر ميثاق الوحي علىٰ =

= بني إسرائيل خاصة، ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل علىٰ البشر عامة، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطناً بعد بطن، فخلقهم علىٰ فطرة الإسلام، وأودع في أنفسهم غريزة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا بد له من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث، وأن فوق كل العوالم الممكنة القائمة علىٰ سنة الأسباب والمسبَّبات، والعلل والمعلومات، سلطاناً أعلىٰ علىٰ جميع الكائنات، وهو الأول والآخر، هو المستحق للعبادة وحده.. وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي: أشهد كل واحد من هذه الذرية المتسلسلة علىٰ نفسه بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلاً قول إرادة وتكوين، لا قول وحي وتلقين، ألست بربكم فقالوا كذلك بلغة الاستعداد ولسان الحال، لا بلسان المقال: بلىٰ أنت ربنا والمستحق وحده لعبادتنا. فهو من قبيل قوله تعالىٰ بعد ذكر خلق السماء: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهذا النوع من التعبير والبيان يسمىٰ في عرف علماء البلاغة بالتمثيل، وهو أعلىٰ أساليب البلاغة وشواهده في القرآن وكلام البلغاء كثيرة». اهـ.

وعلق علىٰ ذلك صاحب كتاب «منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة» فقال: وبهذا يميل الشيخ رشيد إلىٰ أحد القولين في تفسير هذا الميثاق، وهو الرأي القائل بأنّ استخراج الذريَّة هو خلقه تعالىٰ لها جيلاً بعد جيل علىٰ ترتيبهم في الوجود، علىٰ نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، ودلهم بخلقه علىٰ أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل.. وهذا الرأي قد قال به من قبله بعض السلف، ومن القائلين به: ابن تيمية وابن القيم.

وأما الرأي الثاني، وهو المؤيد بالأحاديث المرفوعة والموقوفة فهو: أن الله أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم علىٰ أنفسهم بلسان المقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكِّرة بذلك الميثاق. اهـ.

ثم قال: الرأي الثاني هو الصواب، وهو الذي يدل عليه ظاهر القرآن، وتؤيده الأحاديث الصحيحة، المرفوعة والموقوفة، ومنها وأصرحها حديث ابن عباس وقد صح مرفوعاً، فوجب المصير إليه وطرح ما سواه، ومما يؤيد المرفوع الآثار الموقوفة، وعدم بيان الميثاق في بعض الأحاديث ليس مستلزماً لعدمه. اهـ.

ورجح ذلك أيضاً العلامة الشنقيطي في «أضواء البيان» (٢: ٤٣) وقال: هذا الوجه يدل له الكتاب والسنة... اهـ. ثم بيَّن ذلك. =

= وهذا هو الراجح إن شاء الله، وأن الإشهاد في الآية حقيقي، سواء أكان ذلك خاصا بالأرواح أو كان لها في أجسادها.

قال ابن القيم في كتاب «الروح» ص١٦٣: قال ابن الأنباري: مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق: أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد، والنخلة حتىٰ سمعت وانقادت حين دعيت.

وقال الجرجانىٰ: ليس بين قول النبي ﷺ: «إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته» وبين الآية اختلاف بحمد الله؛ لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته، لأن ذرية آدم لذريته بعضهم من بعض، وقوله تعالىٰ: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أي عن الميثاق المأخوذ عليهم، فإذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق.. قال: وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ علىٰ الأرواح دون الأجساد، لأن الأرواح هي التي تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب، والأجساد أموات لا تعقل ولا تفهم، قال: وكان إسحاق بن راهويه يذهب إلىٰ هذا المعنىٰ، وذكر أنه قول أبي هريرة، قال إسحاق: وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم وأشهدهم. اهـ.

وكلام الإمام ابن راهويه نقله أيضاً الحافظ ابن عبد البر في «التمهيد» (١٨: ٨٩)، ثم قال بعد بحث المسألة: ومعنىٰ الآية والحديث أنه أخرج ذرية آدم من ظهره كيف شاء ذلك، وألهمهم أنه ربهم، فقالوا: بلىٰ، لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. ثم تابعهم بحجة العقل عند التمييز، وبالرسل بعد ذلك؛ استظهارا بما في عقولهم من المنازعة إلىٰ خالق مدبر حكيم يدبرهم بما لا يتهيأ لهم ولا يمكنهم جحده، وهذا إجماع أهل السنة والحمد لله. اهـ.

ثم قال بعد ذلك: لزم التنبيه علىٰ أن إنكار عالم الذر بالكلية، وأنه لم يُستخرج بنو آدم من ظهره ولا أخذ عليهم ميثاق، أن هذا القول غلط، وأن الأحاديث والآثار ترده، وأن اتفاق أهل السنة علىٰ خلافه، ولذلك نسبه الحافظ ابن عبد البر لأهل البدع. فقال في «التمهيد» (١٨: ٩٥): وأما أهل البدع فمنكرون لكل ما قاله العلماء في تأويل قول الله عز و جل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ...﴾ [الأعراف: ١٧٢] قالوا: ما أخذ الله من آدم ولا من ذريته ميثاقا قط قبل خلقه إياهم، وما خلقهم قط إلا في بطون أمهاتهم، وما استخرج قط من ظهر آدم من ذرية تخاطب. اهـ.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]. والله أعلم.

وهذه هي حُجَّة الله البالغة على عباده التي طالما ذكرها القرآن بقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، أي: عليكم. فلم يبق ـ بعد هذه الفطرة الصحيحة وبعد إرسال الرسل بالتوحيد والبيان لتأييدها ـ أيُّ عُذْرٌ للبشر في الشِّرك والجهالة. ولذلك ردَّ عليه سبحانه وتعالىٰ العذر بقوله: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي: فعلنا هذا ـ منعاً لاعتذاركم أو احتجاجكم يوم القيامة بأنكم غافلون عن مثل هذا، أو فعلنا هذا ـ وهو الهداية الطبيعيَّة وإرسال الرسل بالشريعة ـ حَذَرَ أن تقولوا ذلك، ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فلم نعرف غير الاقتداء بهم، ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ الذين اخترعوا الشرك ورأيناهم عليه، ولم نحسن غيره، ولم نعرف سواه؟ فأخذناه عنهم ثقةً بهم.

والمراد في وجهة الرد: أنَّ الله تعالىٰ لم يقبل عذر التقليد منهم، ولا الغفلة من بعد ما أقام الحُجَّة عليهم، حُجَّة الفطرة والعقل، وحُجَّة إرسال الرسل وإنزال الكتب في ذلك الأمر.

ثم ختم البيان بما يدلُّ علىٰ تحقيقه والتنويه بشأنه، ويزيد في وجوب الانتباه إليه، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ليعلموا جليَّة الأمر، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ عن جهلهم وتقليدهم الأعمىٰ.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾.

ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المكذِّبين بآيات الله المنزَّلة مع ما يؤيِّدها من الغريزة الدينية بقصة عالِمٍ أو صِنفٍ لم يعمل بعلمه، فتولاه الشيطان حتىٰ أضلَّه، وشرح بهذا المثل كيفية وقوعهم في هذا الضلال رغم تكوينهم علىٰ الهداية، فقال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾[1] أي: عَلِمَها وحفظ أحكامها، ولكنه عمل بخلافها. والعلم الذي لا يُعمَلُ به ولا يكون مَلَكةً لصاحبه، لا يكون له أثر في الأعمال ولا في النفوس ولا يلبث أن يزول، فمَثَلُه ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وهكذا زالت التعاليم منه وانسلخ منها، ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ إذ لم يبقَ لديه من نور العلم والبصيرة ما يحول دون قبول وسوسته، فغوي بها.

وتحرير المثل: أنَّ هؤلاء المكذِّبين بآيات الله المنزَّلة علىٰ رسوله ﷺ، مع إيضاحها بالحُجَج والدلائل، كالعالِمِ الذي حُرِمَ ثمرةَ الانتفاع من علمه في عمله، حيث لم يعمل به؛ لأنَّ كلاً منهما لم ينظر في الآيات نظر تأمُّل واعتبار، ولم يأخذها بعَزْم وقوة.

ثم عَقَّبَ علىٰ ذلك ببيان أنَّ انسلاخَه من الآيات وخروجَه عليها لم يكن قَسْراً للإرادة الرَّبانية، ولا عن عجز في القدرة الإلهيَّة، ولكنها تابعة للسنن الكونية في خلق الإنسان، علىٰ نهج القرآن في مثله، فقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بأن يخلق له الهداية

---

(١) بعد أن شرح في السياق حال بني إسرائيل، وبيَّن تلاعبهم بكتابهم ابتغاءَ المزيد من حطام الدنيا، لحرصهم الشديد عليها وإخلادهم إليها. ثم ألمع إلىٰ أنَّ ذلك فيهم ليس من أصل خلقتهم، ولكن من إفسادهم لطبيعتهم، وتقليدِ لاحقيهم لسابقيهم تقليداً أعمىٰ دون نظر وبصيرة بما وهبهم الله؛ بعد ذلك كلِّه، أمر نبيه أن يبيِّن لهم حالهم هذا، ومصيرهم فيه بهذا البيان والتمثيل المنطبق عليهم. (المؤلف).

خَلْقاً، ويحمله عليها طبعاً، فإنَّ ذلك لا يُعْجِزُه سبحانه، ولكنه مخالفٌ لسنَّته الحكيمة في خَلْق الإنسان، حيث خَلَقه مُخْتاراً يتصرَّف في شؤونه بعقله المكْتَسَب؛ ليكون ذا قدرة واسعة علىٰ العلم والتفكير والإرادة والعمل والإيجاد. تلك المواهب المعنية بالأثر القائل: «إن الله خلق آدم علىٰ صورته»[1]، أي: في الاختيار وسَعَة العلم والإيجاد. هذا هو مفاد الجملة والمراد منها، والله أعلم. ولذلك أسند الإخلاد إلىٰ هذا المنسلخ، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[2].

قال في «المنار»: أي: ولكنه اختار لنفسه التَّسفُّل المنافيَ لتلك الرفعة، بأن أخلد ومال إلىٰ الأرض وزينتِها، وجعل كلَّ حَظِّهِ من حياته التمتُّع بما فيها من اللذائذ الجسدية، فلم يرفع إلىٰ العالم العلوي رأساً، ولم يوجِّه إلىٰ الحياة الروحية الخالدة عَزْماً، واتَّبع هواه في ذلك.

وقد مضت سنة الله في خلق نوع الإنسان بأن يكون مختاراً في عمله المستعدِّ له في أصل فطرته؛ ليكون الجزاء عليه بحَسَبِه، وأن يبتليه ويمتحنه بما خلق في هذه الأرض

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد في «مسنده» (٨٢٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ورواه مسلم (٢٦١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إذا قاتل أحدُكم أخاه فليجتنب الوجه؛ فإن الله خلق آدم علىٰ صورته».

(٢) قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالغ في طلب حظوظ الدنيا، وتطرَّف في ذلك، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ولم يتَّبع تعاليم الدين المعتدلة في طلب تلك الحظوظ، ولم يقف عند الحدود ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ أي: فكان تعبُه متواصلاً، وهمُّه متزايداً في سائر حالاته، ومشقاتُه متتابعةً ومتوالية حتىٰ في مَسرَّاته.

يصوِّر لنا بهذا التمثيل حالة هذا المنسلخ من تعاليم الله، والمبالغ في اتباع هواه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وَوَجْه تلاوة هذا النبأ؛ لنحذر خطَّته، ونعارض الهوىٰ، ونتَّبع ما جاءنا من الحق من عند الله. (المؤلف).

من الزينة والملذَّات، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وأن يُوَلِّي كل إنسان ما تولَّىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وقد مضت سُنَّة الله تعالىٰ بأنَّ اتِّباع الإنسان لهواه دون ما تَقْضي به تعاليم الله مما فيه المصلحة والفائدة له، من حيث هو جسد وروح، يُضِلُّه عن سبيل الله الموصلة إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة، وينحدر به في سبيل الشيطان المُرْدية المهلكة، قال تعالىٰ لخليفته داود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦][1].

ثم ضرب المثل لهذا المُنهَمِك في أمر الدنيا ولذائذها، المُعرِض عن الآخرة ونعيمها، ولم يعتدل في أمرهما معاً، بقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ بالتهديد والضرب، ﴿يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ وادعاً أميناً ﴿يَلْهَث﴾ أيضاً. والمراد ـ والله أعلم ـ: أنه كان من إخلاده إلىٰ الأرض واتِّباعه لهواه وإجهاد نفسه في ذلك، في أسوء حال، خلافاً لما كان ينبغي من نعمة العيش وراحة البال، فهو في همٍّ دائم مما شأنه أن يهتمَّ به وما شأنه أن لا يهتمَّ به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات، وكذلك هو في تعب مستمر في الشدّة والرخاء، وهمٍّ ناصب في النعيم والشقاء، حرصاً علىٰ نَيْل هذه الحياة الدنيا. وهذا هو وَجْهُ الشبه بينه وبين الكلب اللاهث علىٰ كلِّ حال، وهكذا يكون شأن كلِّ من ينسلخ عن تعاليم الله في هذه الحياة.

ثم ختم البيان بما يزيد في التحذير والإرشاد، فقال: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

---

(١) تفسير «المنار» (٩: ٣٤١).

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، فاقْتَصَر همُّهم على الحياة الدنيا، وأخلدوا إليها باتِّباع الأهواء والشهوات، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ شرائع الله وتعاليمه إنما جاءت لتُرشد الناس إلى طريق السعادتين في الدنيا والأخرى، وأحلَّت لهم الطيِّبات، ولكن بصورة معتدلة، دون انهماك في الشهوات.

ثم أكَّد عليه أن يُبيِّن للناس هذا البيان، وأن يوقفَهم على هذا الحق الحقيقي، وقال: ﴿فَٱقْصُصِ﴾ لهم هذا ﴿ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾، وهذه الجملة تدلُّ على تعظيم شأن ضَرْب الأمثال في تأثير الكلام، وكونِهِ أقوى من سَوْق الدلائل والحجج المجردة.

وهذا المثل يدلُّ ويكشف لنا أنَّ الراحة في الدنيا، والسعادة في الأُخرى، إنما تكون باتِّباع شرائع الله وتعاليمه القيمة، ولذلك أنزلها الله، ثم زاد الكلام تأنيباً للمتلو عليهم بقوله: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وقَبُحَت حالتهم ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ بما اختاروه لها من الإعراض عن التمسُّك بآيات الله وحرمانها من الاهتداء بهدي الله المؤدِّي للسعادتين الدنيوية والأخروية.

ثم أجمل البحث بصورة قاعدة عامَّة تتضمن سببَ عنادهم وتصلبهم في ضلالهم، فقال: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وهو الذي آثر أسباب الهدى باستعمال عقله وحواسه، بمقتضى الفطرة وإرشاد الدين لسلوك سبيل الهدى، ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ الفائز بالسعادتين، ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ وهو الذي آثر أسباب الضلال بإفساده لطبيعته، وترك استعمال عقله في آيات الله تعالى، ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ لسعادة الدنيا والآخرة، أعاذنا الله.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

ثم فصَّل سَببَ الخسران، وذكر كثرة هؤلاء الخاسرين، بأسلوب من أساليب القرآن المسبوكة علىٰ التقريع والتوبيخ والتحقير، فقال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: أبرزنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

ثم ذكر صفاتِهم التي ساقتهم لذلك، فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ أفسدوها فأصبحوا ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحقَّ، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ كذلك ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ الموجودات وما فيها من الدلالة علىٰ ألوهية الخالق وحده، وأنه لا ثاني له ولا شريك ولا شبيه ولا مثال، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ كذلك ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الهُدىٰ والرَّشاد، ثم شنَّع عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ إذ ليست حياة الإنسان إذا غاضَ منها الإيمان واخْتَلَّت فيها العقيدة إلا كالحياة البهيمية، حيث يصبح الشخص فيها حيواناً بحتاً، شأنه شأن سائر الحيوان، لا همَّ له إلا أن يأكل ويشرب ويتلذَّذ بالشهوات البهيمية تبعاً لهواه. وأساس هذه الأعمال: إفساد الإنسان لطبيعته بالتربية السيئة والتقليد الأعمىٰ. وإنما يتميَّز الإنسان عن الحيوان بالحياة المعنوية الروحية. والعقيدةُ والإيمانُ هما أساسُ هذه الحياة وقوامها.

وبعد أن شبَّههم بالأنعام، أضْرَبَ في بيان الحقيقة إلىٰ ما هو أشنع فقال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، وذلك لأن الأنعام تحافظ علىٰ هدايتها الطبيعية، وهؤلاء بإفسادهم لطبيعتهم يفقدون كلَّ استعداد للهداية والرشاد. فالأنعام تستعمل مواهبها فيما خُلِقَت له وقُصِرَتْ عليه، وهؤلاء لا يستعملون مواهبهم فيما خُلِقَت له واتَّسعت إليه من مدارك الخير والرشاد. لذلك أنَّبهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ عما أعطاهم الله من الاستعداد لما فيه صلاحُهم وسعادتُهم في الحياتين، فهم أضلُّ من جميع أنواع الحيوان التي لا تجني علىٰ نفسها ما يجنيه الكافر علىٰ نفسه.

وتحرير ذلك: أنَّ الحيوانَ لديه شعور طبيعي لا يخطئ فيه ولا يضلّ؛ لأنه لا

يفسده، بخلاف الإنسان، فإنه إذا أفسد عقله بمفاسد التربية، لا يكاد يصيب من الأمور الروحية شيئاً، وإنما يرىٰ الضلال هدىٰ، والهدىٰ ضلالاً، وهذا هو معنىٰ ما جاء في آخر سورة الأحزاب من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وحَمَل بمعنىٰ: خان[١].

وبعد هذا التَّنديد، دَعَا الـمُستَعدِّين إلىٰ التوحيد، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد علىٰ الضلال ببيان طريقة الهُدىٰ، وَصْفاً للدواء بعد تشخيص الداء، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾، يقال: دَعَاه بكذا؛ أي: سمَّاه به. وإذا دعوت رجلاً بـ«كريم» مثلاً، فإنك تتذكَّر أثر كرمه وتقدُّره عليه. فالمراد تذكُّر أسمائه تعالىٰ وتذكُّر آثارها فينا وفيما خلق لنا، وإشعارُ القلب بذلك؛ لنشكره ولا نكفره. أي: لله سبحانه أحسن الصفات وأكملها، وأنها مصادر لفيض كلِّ خير في الحياتين، فخُصُّوه بالعبادة وادْعُوه بها أو صِفُوه، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: لا يشكرون آثارها فيهم، وإنما يقابلونها بالكفر والعصيان. وقال الراغب: الإلحاد في أسمائه علىٰ وجهين: أحدهما: أن يُوصَف بما لا يصحُّ وصفه به. والثاني: أن تُتأوَّلَ أوصافه علىٰ ما لا يليق به[٢] من تحريف أو تشبيه أو تعطيل، أو ما ينافي الكمال. ثم هدَّد الملحدين بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

وبعد أن بيَّن حال مَنْ ضَلُّوا، بَيَّن حال من هُدوا، وقابل الكَثْرة بالقلَّة، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالاستثناء تحقيقاً للحق الدقيق، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ إذا حكموا في عقائدهم وأعمالهم. وهذه الجملةُ مقابلةٌ لقوله:

---

(١) هذا ما رجحه المؤلف وذهب إليه في تفسير سورة الأحزاب، وتقدم الجواب علىٰ هذا الترجيح (١: ٤٤٧-٤٤٨).

(٢) «المفردات» ص٧٣٧.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾، وكلتاهما تفصيلٌ لإجمال قوله تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىٌ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقد جاء هذا التفصيل علىٰ طريقة اللفِّ والنَّشر المفرَّق، ليكون مطلع الكلام ومقطعه في المهتدين.

ثم ذكر حال المكذِّبين من أمة الدعوة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: سنأخذهم درجةً بعد درجة. والمراد: أنهم يسترسلون في غيِّهم وضلالهم من حيث لا يدرون شيئاً من عاقبة أمرهم. ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ والإملاء: الإمْداد في الزمن والإمهال والتأخير، والكيد كالمكر، وهو التدبير الخفي الذي ينخدع الـمَكِيدُ بمظهره حتىٰ ينتهي إلىٰ ما يسوؤه.

والمعنىٰ: أُمْهِلُ هؤلاء المكذِّبين في العمر وأمدُّ لهم في أسباب المعيشة، فهم يستوفون ذلك بمقتضىٰ سُنني في نظام الاجتماع البشريّ، وعاقبة أمرهم الخسران.

وليس المراد أنَّ الله سبحانه يوقعهم في المعاصي لينتقم منهم، فالله سبحانه مُنزَّه عن كلِّ ما يُوهم المكر والجور، كلا، بل إنَّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]. وإنما هو بيانٌ لحالهم المنبعث عن سوء تصرُّفهم بأنفسهم وبعقولهم، بحسب سنن الله في خلق الإنسان، ولونٌ من ألوان تعابير القرآن في فنون البيان الذي يراد به المبالغة في التنبيه والإيقاظ، (كما جاء ذلك في المادة الثامنة عشرة من المقدمة الثانية)، فيكون المراد: انخداع هذا الكافر بأنه مقبول عند الله مرضيٌّ لديه، بدليل ما يُغْدق عليه من نِعَم وإحسان، ولا يدري أنَّ الله سبحانه لا يقطع نِعَمَه من المسيئين، بحكم عظمته وفضله وإحسانه العميم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

ثم قفَّىٰ علىٰ وعيد المكذِّبين وإيقافهم علىٰ أمرهم، بالإنكار علىٰ مصدر شُبَههم في تكذيبهم ـ المارِّ الذِّكر في السياق ـ لدعوته ﷺ، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، وفي التعبير ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ تمكينٌ للإنكار؛ لأنهم يعلمون ماضِيَهُ حقَّ المعرفة، بحكم الصُّحبة والـمُخَالَطة، فهو يُشَنِّع عليهم خطأهم العظيم في هذه الشبهة الدالَّة علىٰ عنادهم وتعنُّتهم المشين، ويُنبِّههم لعلهم يَثُوبون لرشدهم، ثم أردف الإنكار بالتقرير، فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

ثم دعاهم إلىٰ الدليل الواضح في أنَّ ما جاء به الرسول من توحيد الله الذي أنكروه عليه أمر ظاهر، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الملك العظيم فيها وعجائبها وبدائعها، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ فيهما ﴿مِن شَىْءٍ﴾، فيُدركوا أنَّ أفعالَ الألوهيَّة وصفاتِها ظاهرةٌ فيه مقتصرةٌ عليه تعالىٰ، كيف لا وهو خالق هذا الكون بما فيه من عَظَمة وإبداع؟!

ثم عطف التهديد علىٰ التنبيه، فقال: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وقدومهم علىٰ الله، وكفىٰ بالله حسيباً.

ثم ختم الكلام بهذا التَّجهيل والإنكار، فقال: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ إنْ لم يؤمنوا بهذا القرآن الواضح البيان والناصع البرهان.

ولكن ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ وهو الذي آثر أسباب الضلال وتشبَّع بها ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ لأنَّ سُنَّة الله في نظام طبيعة الإنسان: أنَّ من تَشَبَّع بعَمَه الضلال لا يمكنه أن يعودَ إلىٰ بصيرة الهدىٰ، والله سبحانه لا يُعجِّل عليهم بالعقوبة ويُمْهِلُهم إلىٰ يوم الحساب، وهذا معنىٰ الاستدراج، والعَمَه: أشد العمىٰ وأقبحه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

ولما كان الكلام مُتضمِّناً للإرشاد والوعيد للضَّالِّين، وتحذيرهم من يوم الدين، قرَّرهُ بالكلام عن تحقيق أمر الساعة الذي ينكرونه، وَجَعَله مَساوقاً للسياق في الردِّ علىٰ المنكرين، وعلىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد بالوعيد، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بمعنىٰ: أيَّ وقت ترسو سفينةُ هذا العالم؟ أي: يقف ويفسد نظامه وتقوم قيامته. وقد راعىٰ القرآن في التعبير بالمرسىٰ دقَّة هذا المعنىٰ في أمر القيامة، علىٰ نهجه في بلاغة التصوير، ولو كان ذلك غير ملحوظ في صورة سؤالهم وصيغة عبارتهم، ولا في متناول عقولهم، كما هو شأنه في الحكاية عن الغير، (كما جاء ذلك في أول المادة الثامنة من المقدمة الثانية).

وقد أمر نبيَّه أن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وليس ذلك مما علَّمنيه، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ﴾ المحدَّد لها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالىٰ، بمعنىٰ: لا يكشف حجاب الخفاء عنها إلا الله، ولا يكون ذلك إلا في الوقت المعيَّن لها.

ثم بيَّن عظمة أمرها وشدة شأنها، فقال: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ثَقُلَ وقعُها وعَظُمَ أمرُها فيهما جميعاً؛ إذ تَتَصادم الأجرام السماوية ومعها الأرض تصادماً مريعاً لخلل يصيبها من الوهي الناتج عن اضمحلالها بتقادم العهد عليها، كما هو شأنُ كلِّ بناء قديم، والله أعلم.

ثم بيَّن أنَّ هذا الحادث إنما يكون فجأة من دون سابقة إنذار، فقال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: علىٰ حين غفلة، كما جاء في الحديث: «ولتقومنَّ الساعة، وقد نشر الرجلان

ثوبَها بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة، وقد دفع أحدكم أكلته إلىٰ فيه فلا يَطْعَمُها»[1]. والمعنىٰ: أنها تَبْغَتُ الناس وهم منهمكون في أمور معايشهم المعتادة.

ثم أعاد الكلام علىٰ السؤال عنها، وقَرَنه بما يُؤْذن أنه ﷺ يعلم استئثار الله سبحانه وتعالىٰ بعلمها، فهو لا يسأل عنها، فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛ من الحفاوة، بمعنىٰ: الاهتمام بالأمر، أي: يسألونك هذا السؤال، كأنك مبالغ في سؤال ربِّك عنها. وفي صورة التعبير تقريعٌ لهم، وقد أمره أن يكرِّر الجواب للمبالغة في التأكيد والتيئيس، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ اختصاصَ عِلمِها به تعالىٰ، ولا حكمةَ ذلك.

ثم أمره أن يُبيِّن لهم حدودَ الرسالة، ويُفهِّمَهم أنَّ الرسول لا يعلم إلا ما علمه الله؛ لأنه بشر مثلهم، فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِنْ نَفْعٍ أَقْدَرَنِي علىٰ جَلْبه، وضَرٍّ أقْدَرَني علىٰ منعه، وسخَّر لي أسبابها. ولا أعلم الغيب، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾، وهذه الآية من أعظم أصول الدين وعقائده، تُبيِّنُ حدودَ الرسالة التي أجملها بقوله: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾، وهذا كالتعليل لما تقدَّم من نفي امتيازه علىٰ البشر، وبيان أنَّ مَنْصب الرسالة مُقْتصر علىٰ هذا القدر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٦)، عن أبي هريرة.

﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

ولما كان من منهج القرآن تذكيرُ المشركين بما طبعهم عليه خِلْقة، من غريزة التوحيد، كما جاءت الإشارة إليه في الآية المتقدمة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾، وكان من نهجه تذكيرُ المشركين إلىٰ مظهر ذلك فيهم عندما تصيبهم شدَّة، فيلجؤون إلىٰ الله وحده قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]؛ عَقَّبَ هذا السياق ببيان ظهور هذا التوحيد الفطري عند شدَّة الحَمْل والولادة من المشركين، ولجوئهم إلىٰ الله وحدَه في كشفها عنهم، ولم يلبثوا أن يعودوا إلىٰ شركهم بعد أن كشفها عنهم. وقدَّم لذلك مقدِّمة تتضمَّن اختصاصه بالألوهية، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وهذه العبارة يُعبِّرُ بها القرآن عن تنويع الإنسان إلىٰ ذكر وأنثىٰ بمقتضىٰ الحكمة، وضمَّن «خَلَقَ» معنىٰ: كثَّر، وعطف عليها ﴿جَعَلَ﴾ عَطْفَ السبب علىٰ المسبَّب. أي: جعل من النوع ذكراً وأنثىٰ؛ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليسكن الذكر إلىٰ الأنثىٰ بالنكاح الصحيح، ويتمَّ التناسل، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ أي: من غير مشقَّة ولا استثقال، وذلك من حكمة الله تعالىٰ، ثم يثقل بالتدرُّج فلا يؤذي، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ عند قُرْبِ الوضع، وكان في هذه الحال شدَّة وآمال، لجأ الزوج

والزوجة عند ذلك إلىٰ الله وحده، بدافع غريزة التوحيد، و﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ أي: لئن سَهَّلت الولادة ورزقتنا ولداً صالحاً كاملَ الخلقة، ظاهرَ ملامح النجابة؛ ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾، وهذا أمر طبيعي لكلِّ والد ووالدة، يُعلِّقان أملاً كبيراً علىٰ المولود، كما قرَّر ذلك علماء النفس.

ولكن لا يلبث هذا اللجوء إلىٰ الله وحده أن يزول من المشركين بزوال الشدّة وانفراج الكربة، ويعودان إلىٰ شركهما، ويحمدان ويشكران مع الله معبودَيْهما علىٰ زوال الشدة وإسداء النعمة، كما قال تعالىٰ:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[1]، وأتىٰ بواو الجمع لإرادة جنس المشركين؛ لأنَّ الخطاب في الآية كان عاماً، والتثنية بالنسبة لجنْسَي الذكر والأنثىٰ، والجنسُ يصدق ببعض أنواعه وببعض أفراده، لذلك نَسَب المقالة

---

(١) يشعر الإنسان ـ بطبيعته المجرَّدة في حال الشدَّة الشديدة، وفي حال الرغبة الأكيدة، بالحاجة إلىٰ الله سبحانه، والاستعانة به وحده، شعورَه بالحاجة إلىٰ الطعام والشراب عند الجوع والعطش، وسواء في ذلك المؤمن والمشرك، فإذا زالت الشدة أو انقضت الحاجة، عاد علىٰ المشركين إشراكهم؛ لأنه أمر عارض علىٰ طبيعتهم ومرض متلبِّس لها لا تتجرَّد منه إلا في مثل هاتين الحالتين، لما يطرأ عليها من الهز العنيف. لذلك يعتري الوالدَيْن المشركَيْن ما يعتريهما من الالتجاء إلىٰ الله وحده والدعاء منه سبحانه عند تكامل الحمْل؛ أن يُسَهِّل الوضْع، وأن يجعل ولدهما ذا شأن وكمال وعزٍّ وإقبال، حتىٰ إذا ما جاء الولد وحقَّقا بعض تلك الرغبة، عادا إلىٰ شركهما كأنهما لم يلجآ إلىٰ الله وحده في هذا الطلب الذي حَصَلا عليه، فتعالىٰ الله عما يشركون.

فـهذه الآية علىٰ حـدِّ قوله تعالىٰ في سورة الأنعام: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣]، وقوله في سورة يونس: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله في سورة العنكبوت: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، والقرآن مثاني؛ لأنه للوعظ والإرشاد. (المؤلف).

إلىٰ الجنس، وإنْ كان فيه الموحِّدون والمشركون، علىٰ نهج القرآن في مثله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، مع أنَّ قائل هذا القول المشركون منه، وكقوله تعالىٰ: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وذلك كما جاء في النوع الأول والثاني من المادة الأولىٰ من المقدمة السادسة، وهو نسبة ما للبعض إلىٰ الكلِّ.

ثم بيَّن سبحانه سَخَافة عقولهم بهذا الشرك وعبادتهم بعض أبناء جنسهم؛ لأنهم يجدون فيهم بعض الخصائص الممتازة، وقد تردَّد الكلام في هذه الآيات تارة عنهم، وتارة عن الأصنام التي يتمثّلونهم بها، وقد بدأهم بذلك فقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ بالله سبحانه ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾، فكيف يكون هذا المخلوق العاجز إلهاً؟! وهذا الوصف باعتبار من يَتمثَّلونهم بهذه الأصنام من الصَّالحين والعبقريين.

ثم زاد في البيان والتَّشنيع عليهم بما هو أحطُّ من ذلك باعتبار صنميّتهم، حيث أجرىٰ الكلام علىٰ الأصنام التي يتمثَّلون بها أولئك الأشخاص، فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾، فهم أحطُّ من البهائم؛ لأنَّ البهائم تتبعكم إذا دعوتموها، وهؤلاء ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾، فكيف تعبدون مَنْ هم أحطُّ من البهائم؟! يُنبِّههم بذلك علىٰ فَظَاعة خطئهم، وقُبْح صنيعهم وشَنَاعة اعتقادهم.

ثم عاد فأجرىٰ الكلام عليهم باعتبار الأشخاص الذين يتمثَّلونهم بالأصنام، وزادهم تقريعاً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ولدتهم الأُمهات، فكيف يكونون آلهةً وشركاء لله؟

ثم ذكر صفاتِهم وأحوالَهم باعتبار كونهم أصناماً وكونهم أشخاصاً أمواتاً، وقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في زَعْمِكم أنهم يقدرون علىٰ ما لا تقدرون عليه.

ثم زادهم تجهيلاً وتسخيفاً بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ أي: إنَّ لكم ـ أيها العابدون ـ هذه المواهب، وليس لمعبوديكم هؤلاء منها شيء، فأنتم أكمل منهم في ذلك، فكيف تقبلون الإله يكون دونكم بكثير؟!

ثم أكمل النقد بالتعجيز والتحدِّي والاستهانة، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: إن كان لشركائكم شيءٌ من التأثير، فلتمسّني بسُوء، فهذا وقتُ ظهوره.

ثم علَّل عدم الاكتراث بقوله: ﴿ إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ﴾ عليَّ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الناطقَ بوحدانيَّته في ربوبيَّته، والمؤيِّدَ لها بجَليِّ وقَويِّ براهينه، والموجِّهَ لسعادة الدارين بسديد تعاليمه، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ الذين صَلُحت نفوسهم بالعقائد الصحيحة، فينصرهم علىٰ المشركين الفاسدي العقائد. وفي هذا مقابلةٌ لما سبق من مَهَانة شركائهم وعجزهم، قرَّرها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾، فأين مَنْ يتولاني ممَّن يَتولَّونكم؟

وبعد أن نفىٰ قُدرتهم علىٰ النَّصر، مكَّنه بما فيه تسخيفٌ وتهجينٌ وتنذُّرٌ عليهم، فيما يناسب السياق، فقال: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟﴾ أي: وإن تدعوهم ليهدُوكم إلىٰ الحق، أو إلىٰ ما تنتصرون به لا يسمعوا.

ثم أجرىٰ الكلام باعتبار الصنمية، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أي: فهم فاقدون لحاسَّة البصر، كفقدهم لحاسَّة السمع، فكيف يكونون آلهةً مَنْ هم بهذه المثابة من الحطة والخمول؟!

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

وبعد أن ندَّد بالمشركين وشِركِهم وجهالاتِهم؛ أمر رسوله ﷺ أن يُعْرِضَ عنهم ولا يتألَّم منهم، وأن يمضي في أداء رسالته، وقَرَنَ ذلك بالتلميح إلىٰ مزايا شريعته، علىٰ نهج القرآن في تعقيب النقد والتنديد بالإرشاد، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ وهو الميسور من الأموال والأخلاق، فقد أمره بالتساهل وتَرْكِ الاستقصاء والتشدُّد في القَضَاء والاقْتضاء والخطاب والجواب، ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ وهو ما حَسُنَ فعلُه في العقل الصحيح السليم، أو في الشرع الكريم، فلا ينكره العقل المذكور ولا الشرع المبرور، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فلا تُمارِهم ولا تَضِقْ بهم ذَرْعاً وصدراً. وهذا هو الدستور الخُلقي الذي يجب أن يتحلَّىٰ به كلُّ من تصدَّىٰ للإصلاح.

والهدف من هذه الجملة: الأمر بأن يمضي لشأنه في نشر الدعوة علىٰ هذه الصورة، ولا يهتمَّ بمعارضة المعارضين. وأَجْمَلَ الشريعةَ بهذا الإجمال البديع المُلمِع إلىٰ جمالها وكمالها، وأمره أن يتمسَّك بها لما فيها من المثل العليا.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي[1] في «أحكام القرآن»: قال علماؤنا: هذه الآية من ثلاث كلمات، قد تضمَّنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات، حتىٰ لم يَبْقَ فيها حسنةٌ إلا وَعَتها، ولا فضيلةٌ إلا شرحتها، ولا أكرومةٌ إلا افتتحتها، وأخذتِ الكلماتُ الثلاثُ أقسامَ الإسلام الثلاثة؛ فقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تولىٰ بالبيان جانب اللين ونفي الحرج في الأخذ والإعطاء والتكليف، وقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ تناول جميع المأمورات والمنهيات،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي (٤٦٨-٥٤٣هـ) العلامة الحافظ القاضي صاحب التصانيف منها: «العواصم من القواصم»، و«عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، و«الناسخ والمنسوخ». «سير أعلام النبلاء» (٢٠: ١٩٧-٢٠٤)، و«الأعلام» (٦: ٢٣٠).

وألمع إلىٰ أنهما ما عُرِفَ حكمُه واتَّفقت القلوبُ علىٰ علمه، فلا تنكره، فلا يقول الشرع: افعل، والعقل يقول: لا تفعل، ولا يقول الشرع: لا تفعل، والعقل يقول: افعل. وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تناول جانب الصفح بالصبر الذي يتأتَّىٰ للعبد به كُلُّ مراد في نفسه. ولو شرحنا ذلك علىٰ التفصيل لكان أسفاراً[1].

وملخَّص المعنىٰ: اقبل منهم ما يخفُّ عليهم من الأموال، وما لا يكلفهم من الأعمال، واسْلُك معهم في البيان والإرشاد طريقَ ما يعرفون، واصْفَح عن جاهلهم الصفْحَ الجميل. ومؤدَّىٰ ذلك: أننا لم نكلِّفهم إلا بما هو مَيْسور لهم، ولم نأمرهم إلا بما فَضْلُه معروفٌ لديهم، فأعرِضْ عن الجاهلين وأدِّ الرسالة للعالمين. وسَبَك ذلك علىٰ مزايا هذه الشريعة الغرّاء.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

وبعد بيان هذه النبذة من أصول العقائد والآداب والتَّشريع، التي جعلها امتداداً للسياق، علَّمَنا سبحانه كيف نعالج وَسْوَسة الشيطان إذا عرضت لنا في عقائدنا ونوايانا وأعمالنا، وهَيَّئنا من قول الحق، وجعل الآية حلقةَ وَصْلٍ تعليقاً علىٰ ما قبلها وتمهيداً لما بعدها، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾، وهذه الآية باعتبار ما قبلها تثبيت، وباعتبار صيغتها تشريع، أي: إذا عرض لك نَخْسٌ من الشيطان في العقائد والتشريع والتوجيه بالاعتراض عليها فاستعذ بالله.

---

(١) «أحكام القرآن» (٢: ٣٦٣).

وهذا إرشادٌ للأمة يُخاطَبُ به النبي ﷺ، علىٰ نهج القرآن في مثل ذلك، وهناك وجه آخر للربط، وهو أنه سبحانه ـ بعد أن علَّمه كيف يتوقَّىٰ شرَّ السفهاء الجاهلين ـ علَّمه كيف يتوقَّىٰ شر الشياطين. والنَّزْغُ: النَّخْس، كأنه ينخسه ليحثَّه علىٰ المعارضة أو علىٰ المعاصي.

ومعنىٰ «استَعِذ»: استَعصِمْ بالله والجأ وتوجَّه إليه ليُعيذَكَ من شرِّ هذا النَّـزْغ. وذلك لأنَّ الإنسان يشعر بتنازع دواعي الخير والشر، والحق والباطل في نفسه. وإنَّ لداعية الحق والخير مَلَكاً يوفِّيها، ولداعية الباطل والشر شيطاناً يقوِّيها. وإنَّ النبيَّ ﷺ بيَّن هذا بقوله: «إنَّ للشيطان لـمّةً بابن آدم، وللمَلَكِ لَـمَّة، فأما لَـمَّة الشيطان فإيعاز بالشرِّ وتكذيبٌ بالحق، وأما لَـمَّة الملك فإيعازٌ بالخير وتصديقٌ بالحقّ، فَمَنْ وَجَد ذلك فَلْيَعلم أنَّه من الله، فَلْيَحْمَد اللهَ علىٰ ذلك، ومن وَجَدَ الأُخرىٰ فَلْيتعوَّذ من الشيطان»[1].

ثم ذكر سبحانه في سياق الإرشاد وَجْهَ سلامة المتقين ودأبهم إذا عرضت لهم وساوس الشيطان، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾، وذلك بأن يهمَّ بالذنب فيذكر الله فيتركه، إذ لا شيء أقوىٰ علىٰ طَرْدِ وساوس الشيطان من ذِكرِ الله ومراقبته في السرِّ والعلن؛ لأنَّ ذلك يُقوِّي في النفس حُبَّ الحق وداعي الخير، ويُضْعِفُ فيها الـمَيْلَ إلىٰ الشرور والآثام. فقويُّ الروح بالإيمان والتقوىٰ غير قابل لتأثير الشيطان في نفسه، وإذا أذنب بادَرَ إلىٰ الندم والتجأ إلىٰ التوبة والاستغفار، فيكون مَثَلُ نفسِه كمَثَلِ بيتٍ تَتَعاهده ربَّتُه بالكَنْس والـمَسْح وسائر وسائل التنظيف، كلّما ألمَّ به دنس أو أصابه غبار.

---

(١) رواه الترمذي في «سننه» (٢٩٨٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وفيه: «فإيعاد» بالموضعين قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

ثم ذكر حالة غير المتقين، فقال: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ أي: إن أتباع الشيطان تمدُّهم الشياطينُ بالإغْواء والتَّزيين للمعاصي، فيندفعون إليها أكبر اندفاع.

ثم بيَّن نوعاً من الإغواء متضمِّناً ما يعتقده المشركون بالقرآن من أنه من كلام محمد ﷺ، وضمَّن النَّظْم تجهيلاً لهم وتشنيعاً عليهم، وتحقيقاً بأنه من عند الله، فقال: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: وإذا لم تأتهم بآية قرآنية لواقعة من الوقائع يريدونها قالوا: لولا عملت آيةً بها وألَّفتَها، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ ولستُ بمُجْتبٍ شيئاً من القرآن من نفسي كما تظنون، بل ﴿هَٰذَا﴾ الذي جئتُ به إليكم إنما هو ﴿بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هدايةٌ يُتبصَّرُ بها الحق والصواب، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ فاتَّبِعُوه ولا تضلُّوا عن سبيله.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

ولما وصف القرآن العظيم بهذه الصفات العليَّة، أمر بالاستماع له والإنصات والتدبُّر، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ بتدبُّره وفهمه المؤدِّي إلىٰ التمسُّك بأسباب الرحمة والرضوان، لأنَّ كمال الإيمان واليقين لا يكون إلا بذلك.

ثم ذكر آداب القراءة والسماع، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الأمر الخاص بالأمر العامِّ الذي يشمله وغيرَه، فقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: اذْكُره متضرِّعاً خائفاً وبصوتٍ وسطٍ دون الجهر وفوق التخافت، إذا قرأت أو سمعتَ من آيات القرآن ما يَقْتضي ذلك.

قال ابن جرير: إنَّ الأمر بالذكر هنا مُوَجَّه إلىٰ مستمع القرآن، أُمِرَ بأن يتدبَّر في نفسه ما يسمع[١].

وأقول: يجوز أن يشمل بعموم لفظه مستمعَ القرآن وغيرَه، علىٰ نهج القرآن في تعقيب الحكم الخاصِّ بالحكم العامِّ الذي يشمله وغيرَه، (كما جاء في المادة السابعة من المقدمة الثانية)، ولذلك أردفه بقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: في الصباح والمساء، وإنما خصَّهما بالذكر لأنهما طرفا النهار والليل، فأراد أن يستوعبهما، وذلك من خصائص اللغة، أو لأنهما وقت الفراغ من عمل المعاش، فخصَّهما لعمل المعاد وتذكُّر الله سبحانه بأسمائه وصفاته وآياته ونِعَمِهِ وآلائه، وخشيته والحذر من عذابه.

ثم أردف الأمر بالنهي عن ضدِّه، علىٰ نهج القرآن، مُؤْذِناً بأنَّ الغفلة لا تجوز مطلقاً، فقال: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ أي: عن ذكر الله تعالىٰ في سائر الأوقات. فمن غفل عن ذِكرِه تعالىٰ مَرِضَ قلبُه وضَعُفَ إيمانُه واستحوذ عليه الشيطان فأنساه نفسَه.

ثم عزّز سبحانه هذا الأمر والنهي بما يعدُّ خير أسوة للناس، وهو التشبُّه بالملائكة والمشاركة لهم في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: يُنزِّهونه عن كلِّ ما لا يليق به وبعظمته وكبريائه وجلاله من اتِّخاذ النِّدِّ والشريك والظهير والمساعد، ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ ويتضرَّعون.

وقد شَرَعَ الله تعالىٰ لنا السجود عند تلاوة هذه الآية أو سماعها، إرغاماً للمشركين، واقتداءً بالملائكة المقرَّبين، ومثلها آيات أخرىٰ بمعناها في الجملة تأتي في القرآن. وهذه هي الأُولىٰ في ترتيب المصحف. (من «المنار» بتصرف)[٢].

---

(١) «تفسير الطبري» (١٣: ٣٥٣).

(٢) تفسير «المنار» (٩: ٤٦٥).

فهرس محتويات المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة
تفسير سورة النساء	٥-١٦٩
تفسير سورة المائدة	١٧١-٢٨٢
تفسير سورة الأنعام	٢٨٣-٤٠٢
تفسير سورة الأعراف	٤٠٣-٥١٧

❊ ❊ ❊